

دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول

المجلد الثالث

مؤلف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والمطالع الحديث
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

مؤسسة شباب الجامعة
د. ش. الدكتور مصطفى مشرفة
٢٨٣٩٤٧٢ - ١ - الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

قامت الدولة العربية الاسلامية بقيام دولة الرسول في المدينة ، واتسعت بالفتوحات الاسلامية في الشرق والغرب في عهود خلفائه الراشدين الذين اسقشوا بآرائه ، واتتدوا بقيادته القائمة على الشورى والمساواة، ثم ازدهرت هذه الدولة في عصر الخلفاء الأمويين الذين استندوا في الحكم على مبدأ الوراثة، واعتمدوا على العنصر العربي دون الأعجمي في القيادة والادارة ، باعتبار أن العرب وحدهم يشكلون جوهر الدولة ومادة الاسلام ، ولهذا السبب عرف هذا العصر بعصر الدولة العربية ، لأنه العصر الذي انتصر فيه العنصر العربي ، وانتشر في آفاق البلاد المفتوحة، وانتشرت فيه اللغة العربية، وتعربت الدواوين، وسكت العملة العربية الاسلامية ، وأصبح للعرب المكان الأول ، إلى أن سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وقامت الدولة العباسية ، وعندئذ فقط بدأ عصر جديد في تاريخ العرب ، اعتمد فيه العباسيون - مع كونهم عربا - على العناصر الأعجمية (١) في تصريف شؤون دولتهم ، وقدموهم على العرب في المناصب القيادية ، ولهذا السبب عرف العصر الأموي بعصر الدولة العربية ، والعصر العباسي بعصر الدولة الاسلامية ، وقالوا : دولة بني أمية دولة عربية ، ودولة بني العباس إسلامية ، أو كما قيل إن « دولة بني العباس

(١) ساد العنصر الفارسي ابان العصر العباسي الأول والثالث ، والتركي في العصر العباسي الثاني والرابع ، كما ساد العنصر البربري في غرب العالم الاسلامي منذ قيام الدولة العباسية .

أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان أموية عربية (١) ، وفي ذلك يقول السيوطي : « في دولة بنى العباس افترقت كلمة الاسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك في الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، فصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالصف ويملكهم بالقهر » (٢) .

— ولقد دامت الدولة العباسية أكثر من خمسة قرون الى أن سقطت بغداد في أيدي المغول في سنة ١٢٠٨ م ، وفرد للخلافة العباسية أن تستمر في القاهرة بعد ذلك في ظل دولة سلاطين المماليك حتى الفتح العثماني لمصر والشام في سنة ١٥١٧ م .

وقد شهد العصر العباسي تفككا خطيرا في وحدة الدولة الاسلامية أدى إلى قيام حركات انفصالية (٣) ، وإلى ظهور خلافت ثلاث في شرق العالم الاسلامي وغربه (٤) ، كما شهد صراعا سياسيا بين القوى السنية والقوى الشيعية في شرق العالم الاسلامي وغربه ، وكان لذلك أعظم الأثر في حالة التفتت

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٠٦ . برنارد لوبس ، العرب في التاريخ ، تحرير تيه أمين فارس ، محمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ص ١١٤ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ص ٢٤١ .

(٣) أمثال الدولة الأموية في الاندلس ، ودولة الاغالبة في المغرب الأدنى والرسامة في المغرب الاوسط والادارة وبنى مدرار في المغرب الأقصى ، ثم دولة الفاطميين في أنقراض دولتي الاغالبة والرسامة ، والدولة الطونونية ثم الاخشيدية ثم الفاطمية فلا يومية في مصر ، والدولة الحمدانية في الشام ودولة بنى عقيل في الموصل والدولة الطاهرية ثم الصفارية في فارس والسامانية ثم الغزنوية في الهند وقسم من فارس وبلاد ما وراء النهر .

(٤) الى جانب الخلافة العباسية السنية في بغداد . قامت في الاندلس خلافة أموية من سنة ٨٣١٦ الى ٤٢٢ هـ وفي المغرب ومصر والشام خلافة فاطمية شيعية .

السياسي التي أصابت الدولة العباسية ، رُأى إلى ظهور موجات غزوية تركية انطلقت من أواسط آسيا، وتمثل في قوة الأتراك السلاجقة ، ثم في قوة المغول المدمرة (التي قضت على الخلافة العباسية في بغداد) وغريبة مسيحية تمثلت في الحركة الصليبية التي اجتاحت الشرق الأدنى الاسلامي ، كما داهمت الجناح الغربي للعالم الاسلامي في قلب الاندلس بل وعلى التراب المغربي .

والدولة العباسية تنسب إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، هم الرسول، وكان العباس من أشرف سادات بني هاشم ، وتجمع المصادر على أنه وقف بجانب الرسول في بيعة العقبة الثانية ، وكان يوافي النبي (صلعم) بأخبار مكة ويحضر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزواته ، وهاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة، وحضر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فتحها ، وتوسط لأبي سفيان عند النبي ، وكان العباس يناصر علي بن أبي طالب ويرشعه للخلافة .

وتوفي العباس في خلافة عثمان في ١٤ رجب سنة ٥٣٢هـ، وأعقب من الأبناء: الفضل أكبر أبنائه ، وعبد الله ، وعبيد الله، وعبد الرحمن ، وقثم ، ومعبد ، وأم حبيبة، وكثير، وتمام، وصفية واسمية، والحارث ، ومعظم ذرية العباس انتشرت من نسل ابنه عبد الله. أما عبد الله بن عباس، فشخصية إسلامية بارزة، وصحابي جليل ، ولد قبل الهجرة بستين ، وكان الرسول يحبوه ويدعو الله أن يعلمه التأويل ، فكان ابن عباس أعلم الناس بآيات القرآن وتفسيره وأكثر المسلمين تفقها في الدين (١) . وكان موضع احترام الخلفاء الراشدين وإجلالهم ، وقد

(١) أخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٩٧١ هـ
ص ٢٠ . وقيل في هله : عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة .

ترك البصرة التي ولاه الامام على عليها وذلك بعد أن قتل عبد الرحمن بن ملجم عليها ، وأقام بالطائف معتزلاً الفتنة الى ان توفي في سنة ٢٨ هـ . ومن أشهر أولاد عبد الله بن عباس ابنه علي ، أقطعه بنو أمية قرية بالشام يقال لها الحبيمة وتقع في طريق المدينة بالقرب من الشوبك بإقليم البلقاء . وفي هذه القرية عاش علي بن عبد الله العباسي حتي توفي في سنة ١١٧ هـ . وأنجب علي ٢٢ ولدا ذكراً و١١ بنتاً ، ومن أبنائه انتشر البيت العباسي . ومن أبرز أبنائه وأشهرهم محمد الذي كان أول من تطلع من بنى العباس الى الظفر بالخلافة وسعي اليها ، ومن أجلها بدأ التنظيم العقائدي السري الذي انتهى بفوز العباسيين بالخلافة على يد أبنائه ابراهيم الامام ، وأبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور .

ويتفق المؤرخين المحدثون على أن الدولة العباسية التي عمرت مايزيد على خمسة قرون ، مرت بمراحل زمنية أربعة تنقسم كل مرحلة منها بمظاهير مميزة ، وفيمايلي عرض لهذه العصور الأربعة للدولة العباسية :

العصر العباسي الاول : (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م) .

ويعرف هذا العصر بعصر النفوذ الفارسي الأول باعتبار أن هناك عصرأ ثانيا لهذا النفوذ هو العصر العباسي الثالث ، ونعني به العصر البويهي ، ويعرف هذا العصر الأول أيضا بعصر الخلفاء العباسيين العظام ، إذ نشهد فيه سيطرة العنصر الفارسي الذي قامت عليه الدولة العباسية ، وغلبته على جميع مناحي الحياة ، أدبية ومادية ، فقد كان من الطبيعي أن يعتمد العباسيون على الفرس وعلى أهل خراسان بوجه خاص في تصريف شؤون دولتهم اعترافاً منهم بفضلهم عليهم ، فكان أبو جعفر المنصور يقول : « يا أهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا

وأهل دعوتنا » (١) ، وعندما حضرته الوفاة ، أوصى ولده المهدي بهم ، فقال :
« وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم
ودماءهم في دولتك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز
عن مسيئتهم ، وتكافئهم عما كان منهم ، وتخاف من مات منهم في أهله وولده » (٢)
ولذلك أسلم الخلفاء العباسيون في هذا العصر أزمة أمـورهم إلى الفرس ،
وأفسحوا لهم المجال في تولي المناصب الكبرى بعد أن كانت هذه المناصب
تقتصر في العصر الأموي على العرب ، وفي ذلك المعنى يقول السيوطي : « وهو
أول من استعمل مواله على الأعمال وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده حتى
زالت رئاسة العرب وقيادتها » (٣) . وهكذا تولي الموالى الوزارة ، أولهم أبو
أيوب المورياتي ، ثم يعقوب بن داود ، والفيض بن أبي صالح ، وغيرهم ، إلى أن
استبد البرامكة بالوزارة زمن هارون الرشيد . وكان البرامكة في الأصل سدة
لمعبد نوبهار ببلخ من معابد النار ، وقد وصل البرامكة إلى أوج نفوذهم في
عهد الرشيد (٤) الذي يدين ليحيى بن خالد البرمكي بخلافته ، فما أن تولي الرشيد
الخليفة حتى عرف ليحيى فضله وخدمته ، فقلده وزارته ، ومنحه سلطنة تكاد
تكون مطلقة ، وأطلق له يده في تصريف شؤون دولته ، إذ كان يدين له

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، القاهرة ١٣٤٦ هـ . ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥١ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ص ١٦ - الأربلي ، خلاصة الذهب السوك . بغداد
١٩٦٤ ، ص ١٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٥٨ .

يا الفضل في ظفرك بالخلافة (١)، ويقول له: «يا أبت: أنت أجلسنى هذا الجاس
بيركة رأيتك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجت من هنى إليك،
فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من
رأيت، واسقط من رأيت» فأتى غير ناظر معك في شيء» (٢).

كذلك ظهر التأثير الفارسى في الحركات الدينية التي شملت معظم فترات
العصر العباسى الأول، والتي اتجهت اتجاهها قوميا شعويا يستهدف الطمن في
السيادة العربية وفي الجنس العربى، وإحياء المجد الفارسى القديم. وقد عمد
الشعويون إلى الزندقة لمحاربة الإسلام، كما عمدوا إلى تمجيد العنصر الفارسى
والخط من شأن العرب، والتعصب للعجمية أدبيا وسياسيا واجتماعيا.

ومن الحركات الدينية التي ظهرت في العصر العباسى الأول: حركة
الراوندية (٣) التي ظهرت في خلافة المنصور، وحركة المقتنية نسبة إلى زعيمها
المقتنع الخراسانى الذى أعلن الثورة على المهدي في ١٥٩ هـ (٤)، وقد اتخذ المقتنع
لنفسه قناعا من الذهب، وادعى الألوهية، وقال بالتناسخ والحلول، وأسقط
الزكاة والصوم والحج، وأباح المحرمات. ثم الحركة البابكية، أتباع

(١) كان موسى الهادى يرشح ابنه جعفر للخلافة من بعده بدلا من أخيه هارون. وعندما
أبدى رغبته تلك إلى هارون، وأوشك هذا على التنازل عن ولاية العهد، نصحه يحيى بالرفض
ومثته، وكان ذلك سببا في تعامل الهادى على يحيى البرمكى، فأمر بحبسه، وعزم على قتله،
ولكن الهادى لم يلبث أن توفي بعد ليلة واحدة من سجنه ليحيى. ويرجع سبب ميل يحيى
البرمكى لهارون إلى أنه تولى تأديبه وتربيته في سفره، وأنه لقنه الآداب الفارسية القديمة
فنشأ هارون متأثرا بها.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، ١٩٦٦، ج ٨، ص ٢٣٣ - الجهمشيارى،
الوزراء والكتات، القاهرة ١٩٢٨، ص ١٧٧ - ابن الأثير، ج ٦، ص ٤٤.

(٣) نسبة إلى بلدة راوند الواقعة بالقرب من أصفهان، ولا يعتقد الراوندية بتناسخ الأرواح
وم الذين أخوا المنصور ومع ذلك فقد حاصروا قصره وأرادوا قتله سنة ١١١ هـ. أما
لقتله أبى مسام الخراسانى.

(٤) راجع في ذلك التوبختى، فرق الشيعة، استنبول ١٩٣١، ص ٤٣.

بابك الحرمي، وكانت استمراراً لحركتي الراوندية والمقنعية، ثم حركة الزنادقة التي تشبه المانوية وإن كانت قد انقلبت إلى نزعة تحررية تهاجم التقاليد، وتدعو إلى الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات. وهكذا جنح الشعوييون الفرس إلى هذه الحركات الدينية لمحاربة الإسلام والعرب، ثم بدأوا يصنفون الكتب في مناقب العجم وذم العرب وإظهار مثالبهم، ووضعوا الأحاديث في فضل الفرس وأسندوها إلى الصحابة والتابعين، واستعانوا بشعراء وكتاب أبرزوا فضائل العجم أمثال بشار بن برد والشاعر الذي كان يفخر بأصله الفارسي ويحط من قدر العرب، وإن كان يعتز في نفس الوقت بالعرب ويمضّر وقيس (١)، وفي كثير من أشعاره نراه يحمل على العرب ويهجوهم هجاء فاحشاً، ويزدرهم في قسوة، وكانت له أشعار تحت على الفساد، وتدعو إلى الانحلال الأخلاق، مما يرجح أنه كان زنديقاً في بداية أمره (٢). وهناك شعراء آخرون أشاعوا المجون والانحلال في المجتمع العربي الإسلامي، وصوروا اللذة وشهوات النفس والشذوذ الجنسي، ومنهم أبو نواس الذي ابتكر لونا جديداً في الشعر العربي هو الفزل بالمذكر.

العصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م).

وهو المعروف، أيضاً بالعصر التركي الأول، لأنه العصر الذي زاد فيه نفوذ الأتراك، وقد بدأ العصر التركي بتغلغل في جسم الدولة العباسية منذ أيام الخليفة المأمون الذي استكثر من الأتراك في جيشه، ثم بالغ المعتصم في ذلك واستخدمهم في قيادة الجيوش وفي الإدارة. ويعتبر المعتصم بحق أول من

(١) مصطلح الشكوة، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، بيروت ١٩٧١ ص ٤٩١.

(٢) بتمه الملاحظ في البيان والتبيين بأنه كان يدين بالرجمة ويكفر جميع الأمة (ج ١، بيروت ١٩٦٨ ص ٢١) وأنه قام بذنر إبليس في أن النار خير من الأرض.

أدخل الأتراك في ميدان السياسة إذ كانت معائراً في ذلك بأمة التركية ، وفي عهده زاد نفوذ الأتراك بحيث اضطر الخليفة إلى تأسيس مدينة لهم - هي مدينة سامرا - في سنة ٨٢١ هـ . ثم استفحل أمر هؤلاء الأتراك حتى أصبح في أيديهم عزل وتولية الخلفاء ، فقد جرحوا محمد المنتصر بن المتوكل على قتل أبيه ، فهاجم عليه بغلمان من الأتراك كان قد واطأهم على قتله ، فقتلوه في سنة ٨٢٤ هـ (١) ، فلما تولى المنتصر الخلافة وأحس باستبداد الترك ، سبهم ولقبهم بقتلة الخلفاء ، فدسوا له السم فمات (٢) ، ويكفي للتعبير عن سطوة الأتراك من ذكر مارواه ابن طباطبا في كتابه الفخرى في الآداب السلطانية ، إذ يذكر أنه لما ولي الخليفة المعتز الخلافة وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك » (٣) وقد حدث ما توقعه ، إذ طالبه الأتراك ببعض المال ، فلما اعتذر لهم بخلو خزائنه اتفقوا على خلعه وقتله ، فلما ذهبوا إلى بابه أرسلوا إليه ليحضر إليهم ، فلما اعتذر لمرضه هجموا عليه وجروا برجله ، وضربوه بالديابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف وهم يلطمون وجهه ويقولون : اخلع نفسك . ثم خلعوه ، وبايعوا محمد بن الواثق ، ثم اقتادوا المعتز بعد خمس ليال من خلعه فأدخلوه الحمام ، ومنعوا عنه الماء حتى مات (٤) .

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ١١٥ - الاربلي ، ص ٢٢٦ .

(٢) السيوطي ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن طباطبا ، كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة .

١٢١٢ هـ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن الاثير ج ٧ ، ص ١٩٥ - ابن طباطبا ، ص ٢٢١ - السيوطي ، ص ٢٣٤ .

العصر العباسي الثالث (٢٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م)

يعرف أيضا بالعصر البويهي بسبب غلبة نفوذ البويهيين الديلمية، أو عصر النموذ الفارسي الثاني . وكان بنو بويه من متشيعي الفرس ، وفي عهدهم ضعف سلطان الخلافة العباسية ، فاستبدوا بالحكم ، وأصبح لهم الحل والربط ، ولم يعد للخليفة العباسي من السلطان سوى الاسم ، ويرى المؤرخون أن معز الدولة أحمد بن بويه أقدم على خلع الخليفة العباسي المستكفي بالله وسمل عينيه (١) وقد بلغ من سيطرة البويهيين على الخلافة أنهم فكروا في إزالة الخلافة العباسية السنية وإقامة خلافة علوية في بغداد ، وقد ازداد سلطان بني بويه في أيام الخليفة الطائع لله العباسي ، وأصبح عضد الدولة البويهي يحكم البلاد ويذكر اسمه في الخطبة بدلا من الخليفة ، وبالجملة أصبح خلفاء بني العباس ألعوبة في أيدي البويهيين بولونهم الخلافة ويعزلونهم منها متى شاءوا ، بل وصل الضعف بالخلافة العباسية إلى درجة أن اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله كان يذكر على منابر بغداد بدلا من الخليفة القائم وذلك في سنة ٤٥٠ هـ .

العصر العباسي الرابع (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م)

ويعرف أيضا بالعصر التركي الثاني أو العصر السلجوقي . والسلاجقة

(١) لما تولى أمر معز الدولة هجر على الخليفة ، ثم دخل عليه في جمادى الآخرة سنة ٢٣٤ هـ فوقف - والناس وقوف على مراتبهم - فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة ، فد يديه منها ظانا أنها يرقبان في تقبيلها ، فجذبا من السرير حتى طرسا إلى الأرض ، وجرا بهما معه ، وهجم الديلم على دار الخلافة ونهبوها ، وساقوا المستكفي بالله ماشيا إلى معز الدولة في بيته ، حيث خلعه معز الدولة وأمر بسمل هيقه وحبله (راجع ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٥١ ، السيوطي ص ٣٦٨) .

فرع من قبائل الفز التركية، وكانوا يسكنون في بلاد ما وراء النهر ثم دخلوا في الإسلام، وتمكن طغرل بك حفيد سلجوق من أن يصل بجيوشه إلى خراسان، ثم يصل إلى بغداد ملياً نداء الخليفة القائم العباسي عندما استنجد به ضد ابن الحارث البساسيري الذي دعا في بغداد باسم المستنصر بالله الفاطمي. وفي هذا العصر السلجوقي استطاع الخلفاء العباسيون استعادة بعض سلطانهم السليب، ولكن لم يمضِ عهد طويل حتى انتقلت السلطات كلها إلى أيدي السلاجقة، وأصبحوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة، ولم يعد للخليفة من سلطان سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على السكة. وما يروى عن ضعف الخليفة ما ذكره السيوطي من أن ملكشاه السلجوقي أصر على طرد الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ) من بغداد في سنة ٤٨٥ هـ لتدخله في شئون الحكم، فأرسل إليه يقول: «لا بد أن تترك لي بغداد وتذهب إلى أي بلد شئت، فانزعج الخليفة، وقال: أمهلني ولو شهراً، قال: ولا ساعة واحدة. فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام، فاتفق مرض السلطان وموته، وبعد ذلك كرامة للخليفة» (١). على أن خلفاء بني العباس أخذوا يعملون منذ عهد المسترشد على استرداد نفوذهم متهزئين بضعف السلاجقة، وقد تمكن المقتنى سنة ٥٣٠ هـ من تجديده رسوم الخلافة، وبأشر الأمور بنفسه، وغزا أكر من مرة. ولما تولى الخليفة الناصر في سنة ٥٧٥ هـ أخذ يبحث الخوارزميين على طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة في العراق، وتمكن علاء الدين تكش خوارزمشاه من قتل طغرل بك في سنة ٥٩٠ هـ، وأرسل رأسه إلى الخليفة العباسي في بغداد. ولحسن تبين للخليفة الناصر العباسي بعد أن استعان بدولة

الخوارزميين للقضاء على السلاجقة أنه أخطأ خطأ فاحشا ، فقد انكشفت له حقيقة الخوارزميين ، وتأكدت له مطامعهم في العراق ، وثبت له أنهم لا يقلون عن السلاجقة استبدادا وتحكما ، وكان بداية العداء بين الخليفة والسلطان تكشف الخوارزمي أن تكشف طلب في أواخر أيامه أن تقرأ الخطبة باسمه على منابر بغداد نفسها ، ولما تولى علاء الدين محمد بن تكش أتابكية خوارزم ، عزم على القضاء على الخلافة العباسية ، وإقامة خلافة شيعية في بغداد ، ثم أصدر أمراً بعزل الخليفة وإسقاط اسمه من السكة والخطبة ، وأقام على الخلافة رجلا حلويا من مدينة ترمذ .

ويروى المؤرخون أن الخليفة ، عندما ضاق به الحال بعد أن قطع خوارزم شاه اسمه من الخطبة ، راسل جنكيزخان يحرضه على مهاجمة الدولة الخوارزمية . وعلى الرغم من سقوط القسم الأعظم من دولة الخوارزميين في أيدي المغول في سنة ٦١٨ هـ ، فقد استمر النزاع قائما بين خلفاء بغداد والخوارزميين ، ولم ينته هذا النزاع الا بسقوط الدولة الخوارزمية نهائيا في أيدي المغول ، وذلك على أثر مصرع السلطان جلال الدين منكبرتي في شوال سنة ٦٠٨ هـ (١١٣١ م) ثم سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

* * *

وبعد في الصفحات التالية مجموعة من المحاضرات التي أقيمت في سنة ١٩٧٢ على طـلاب قسم التاريخ بجامعة يروت العربية ، حاولت أن أعالج من خلالها تاريخ الدولة العباسية في عصرها الأول ، لا على أساس سرد لسير الخلفاء أو ذكر لحروبهم ووقائعهم فحسب ، وإنما رأيت أن أعرض أولا لدراسة التاريخ

السياسى لهذا العصر بوجه عام مع التركيز على السياسة الخارجية للدولة العباسية فى الشرق والغرب ، ثم دراسة نظم العباسيين ورسومهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالآثار الحضارية التى ترتبت على عملية المزج فى الأمة العربية الاسلامية بالعناصر الأعجمية التى كان لها أعظم الأثر فى إمداد الحضارة الاسلامية بدماء فنية جديدة ، ومادة حيوية ، تواصلت ثم تفاعلت مع الأصول الأولى ، وأعانت على تطوير النظم الحضارية فى العالم الاسلامى فى مراكزه المتعددة .

ولعلنى وفقت فى الصفحات التالية فى أن أرسم صورة متكاملة لتاريخ العصر العباسى الأول سواء ما يتعلق بجانبه السياسى أو ما يتصل بهوائيه الحضارية والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية فى ١٢ ربيع الثانى ١٩٩٨ هـ

وإلى صاحب شرطته وحرسه مرة ثانية وعرفت بالكيسانية^(١) ، وإلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية مرة ثالثة وعرفت بالهاشمية . ولما توفي محمد بن الحنفية الذي كان يزهد في الخلافة لنفسه ، وبايع عبد الملك بن مروان على أن يرأسه من القضاء على حركة ابن الزبير ، والذي تبرأ من الآراء الخطيرة التي نادى بها كيسان وما تضمنته من أباطيل ذات لون شعويي^(٢) ، ولما توفي ابن الحنفية اضطربت أفكار الشيعة وتعددت فرقهم : فرقة استمرت على ولائها لابن الحنفية وقالت بغيته ورجعته ، وفرقة نادى بإمامة ابنه أبي هاشم عبد الله ، بالإضافة إلى فرقة الامامية التي سبق أن تحدثنا عنها . وفي هذه الآونة أقام على ابن عبد الله بن عباس وابنه محمد بالحريمة التي كان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها إياها ، ونزل عنده بها أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية عندما انضمت له الزوايا السيئة التي يضمها سليمان بن عبد الملك نحوه ، وحدث أن توفي على زين العابدين بن الحسين في المدينة في أول سنة ٩١ هـ . وقد ترك من الأبناء ولدين في مطلع شباههما محمد الباقر وزيد ، ولم يمض على ذلك خمس سنوات حتى توفي أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في سنة ٩٩ هـ . من سم سقيه عند عودته من الشام ، وضع عليه سليمان بن عبد الملك من سقاء

(١) الشهر - ثاني ، المال والنحل ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٩٦ .

(٢) ذهب الكيسانية إلى القول بأن لكل ظاهر باطن ، ولكل شخص روح ، ولكل تناديل ، وقد ساعد قولهم بالباطنية على تسرب كثير من العقائد غير الإسلامية إلى آرائهم ، فقد نادوا بتناسخ الأرواح وبالرحمة أي رحمة الإمام عند موته ، ولهذا زعموا بعد وفاة محمد بن الحنفية بأنه ذهب إلى مقره في السماء وأنه سيعود .

(راجع : المجتمع العربي ومناهضة الشعوية ، ص ٢٦) .

له تخلصاً منه بعد ان لمس فيه العلم الواسع والذكاء المتقدم والنشاط الوافر . فلما أحس أبو هاشم بذنو أجله عاد إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بالحقيقة ، « فعرفه حاله ، وأعلمه ان الخلافة صائرة الى ولده ، وأعلمه كيف يصنع ، ثم مات عنده » (١) . وكان أبو هاشم قد أبلغ شيعته من أهل خراسان والعراق عند تردهم اليه أن الأمر صائر الى ولد محمد بن علي ، وأمرهم بقصده بعده . والظاهر أن أبا هاشم عندما أحس بالسم يسرى في جسده ، وأدرك ذنو أجله ، قد أمد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بأسماء دعاة الشيعة في الكوفة التي كانت المركز الرئيسى للدعوة الشيعية في العراق وخراسان ، أو أنه سلمه كتباً يبعثها إلى هؤلاء الدعاة تؤكداً لوصيته ، وكان معظم هؤلاء الدعاة الشيعة من أصول فارسية (٢) ، وعلى أساس هذه الوصية ، ورث محمد بن علي العباسى حق الكيسانية في الامامة ، فلما كاد أبو هاشم يموت حتى قصده الشيعة وابعوه ، ثم عادوا إلى مراكزهم ، وبدأوا في نشر الدعوة لمحمد بن علي العباسى عن طريق الدعاة . (٣)

ويرد بعض المؤرخين المحدثين على هذه الرواية التي تفسر كيفية تنازل أبى هاشم عن حقه في الخلافة إلى محمد بن علي العباسى ، ويستندون في ردهم على أن الدعوة العباسية شقت طريقها بعد ذلك باسم الدعوه لآل البيت أو للرضا من آل محمد (أى الذى يرتضونه من آل النبى) تمويهاً على الشيعة بوجه خاص مما يسقط رواية الوصية ، فلو ان الامامة انتقلت حقاً من أبى هاشم الى

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤ .

(٢) ابراهيم أحمد المدوى ، المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، القاهرة ١٩٦١

محمد بن علي لكان قد صرح بذلك، ولكن الدعوة وجهت لآل العباس في ذلك الحين. ويستندون كذلك في ردهم على أن العباسيين بعد أن استأثروا بالخلافة العباسية، عمدوا إلى تدعيم موقفهم أمام دعاوى الشيعة، فاستندوا إلى أن حق الوراثة في التشريع الإسلامي يتيح لهم وراثة النبي، لأن التشريع يقدم العم في الميراث على ابن البنت، وإن العباسيين باعتبارهم من نسل العباس - وكان ما يزال حياً بعد وفاة النبي حتى خلافة عثمان - أولى بالخلافة من نسل فاطمة بنت رسول الله (١).

ومن المرجح أن العباسيين انضموا إلى الشيعة الكيسانية، وتسموا بالهاشمية (٢) ستاراً لمطامعهم، وتمويهاً على الفرق الشيعية الأخرى بأنهم يدعون لآل البيت أو للرضا من آل محمد.

(١) أورد ابن الأثير في كتاب وجهه أبو جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية رداً على كتابه، وقد جاء في جلة ما جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم». أما بعد، فقد باغنى كلامك وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفأة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالأمومة والآباء، ولا كالصبي والأولياء، لأن الله جعل العم أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كانت اختار الله لهت على قدر قرابتهم، كانت آمنة أقربهم رحماً، وأعظمهم حقاً. وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى يقول في كتابه: (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) ولستكنكم بنو بنته، وأنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث، ولا تراث الولاية ولا يجوز لها الإمامة، كيف تورث بها؟ ولقد طلبها أبوك بكل وجه، فأخرج فاطمة نهراً، ودرعها سراً، ودفعها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أباً الأم والخال والحالة لا يورثون»

راجع ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٨ وما يليها.

(٢) أما نسبة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وشيعته المرونيين بالكيسانية أو نسبة إلى هاشم بن عبد مناف

كان محمد بن علي العباسي شخصية مستثيرة فميزت بالذكاء الحاد، والنشاط، والإتقان، ورجاحة العقل، وحسن البصيرة، وقد أهله هذه الصفات ليقدر أبعاد الموقف تقديرًا واقعيًا، فأدرك بثاقب نظره أن الدعوة يجب أن تتخذ منطلقاً بعيداً عن مركز الخلافة الأموية، وأن تتوفر لها العناصر المؤيدة لآل البيت والمناهضة للدولة الأموية، كما أدرك أهميته التزام السرية التامة لأهدافها البعيدة مع اتخاذ هدف قريب تستر وراءه وهو «الرضا من آل محمد»، ويقصد به أي شخص من آل البيت الذبوى يتفق عليه في الوقت المناسب، درءاً وتقيية لما قد يصيب الدعوة من أخطار إذا ما اكتشفت السلطات الأموية سرها، وفي نفس الوقت كسبا لأنصار جدد من شيعة فارس الذين كانوا يميلون - سواء عن إيمان عقائدي راسخ أو بدافع من الشعور النقوي - للعلويين (١)، وزيادة في تعمية الأمر على الأمويين والعلويين، وتجنباً لآثره الشبهات في نواياه الحقيقية. واختار محمد - بتوجيه من أبيه علي - الكوفة وخراسان مراكز لدعوته. أما الكوفة فلأنها قاعدة الشيعة ومهد التشيع لآل البيت منذ أن اتخذها الإمام علي مكرراً له، وأما خراسان، فلبعدها عن دمشق دار الخلافة الأموية من جهة، ولأنه أدرك أن الخراسانيين أسهل قياداً لتأييد الدعوة العباسية من العراقيين، وبلادهم أكثر أقاليم الإسلام استعداداً لنصرة الدعوة وتأييدها بسبب عداوة أهلها للفرس للأمويين العرب

(١) لأن الحسين بن علي كان قد تزوج من شهربانو بنت كسري يزدجرد الثالث آخر أسيرة الدولة الساسانية البائدة، ولهذا السبب أبدوا أئمة الشيعة لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي، وإن كانوا قد وجدوا في هذا التأييد سبيلاً إلى التسلل ضد العرب وانتزاع السلطان منهم (المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص ٢٥).

من جهة ثانيه (١) ونضيف إلى ما سبق أنه أراد أن يصرف نظر الأمويين وأنصارهم عن المركز الرئيسي لنشاطه التنظيمي وهو الحميمة حيث قام هو في حياة أبيه ثم بعد وفاته في سنة ١١٨ هـ على تنظيم الدعوة ، ولضمان السرية التامة للدعوة في خراسان والكوفة رأى أن يكون الطريق الذي يسلكه الدعاة في ترددهم ما بين خراسان والحميمة من الطرق الرئيسية التي يكثر استخدامها حتى لا ينكشف سر الدعوة ، ولهذا اختار طريق الكوفة - خراسان التجارى ، وأوحى إلى الدعاة والنقباء بالتمسك في زى التجار ، ولم يسمح لأحد منهم أن يتصل بالحميمة إلا عن طريق داعي الدعاة بالكوفة (٢) . وتتضح أهمية خراسان بالنسبة للدعوة العباسية في قول محمد بن علي العباسي لدعاته عندما أراد أن يوجههم إلى الأمصار : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كنى عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة (٣) ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان (٤) وطاعة بني مروان ، وعداوة راسخة وجعل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولعلكن

(١) كان العباسيون يحاولون حساب رد الفعل الشيعي أو العربي عامة بعد انكشاف سر دعوتهم فيها بعد ، ويمدون لذلك المدة . ولهذا ركزوا همهم على أن يكون معظم أنصار ددوتهم من الفرس والخراسانيين بوجه خاص ، وطالبوا دعاتهم فيها بعد بقتل كنى من يتكلم باللسان العربي في خراسان .

(٢) محمد حلى محمد ، الخلافة والدولة في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٠ وما يليها .

() في نص المقدسي البشاري : « حرورية صادقة وأعراب كأهل الجرح ومسلمون في أخلاق النصارى » المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٣ .

(٤) في نص المقدسي : فلا يعرفون غير معاوية وجماعة بني أمية .

عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل (١) ، وهم جنود لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (٢) ، وأصوات هائلة ، ولغات فضمة تخرج من أجواف منكرة (٣) . وبعد ، فاني أتفاد إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » (٤) .

والظاهر أن علي العباسي كان الرأس المدبر للدعوة في الفترة من ٨٩٩ هـ إلى ٩١٨ هـ التي توفي فيها (٥) ، ولا شك أن محمدا بن علي ، يوم وزع دعواته على العراق وخراسان ، لم يظهر لهم أهدافه الحقيقية في الاستئثار بالأمر لنفسه ولبنيه دون العلويين ، وإنما أظهر أمامهم سعيه لقلب نظام الحكم الأموي وإعادة الحق إلى أصحابه الشرعيين حتى يجتذب إليه الأنصار والمؤيدين (٦) بدليل أن أبا سلمة الخلال الذي تلقب بقلب وزير آل محمد ، حاول - بعد أن كشف دور السرية في الحركة قبيل إعلان الخلافة العباسية - أن يقيم خلافة علوية ، ورشح لذلك ثلاثة من أئمة الشيعة هم جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين ، ولكنه فشل في ذلك (٧) .

-
- (١) في نص المقدسي : لم تتوزعها النمل ، ولم يقدح فيها فساد .
 - (٢) يقصد بذلك أنهم رجال يمتد عاينهم .
 - (٣) بمعنى بذلك أنهم أكثر الشعوب الإسلامية سخطا وتدمرا على الأمويين وأكثرهم جرأة على مناهضتهم .
 - (٤) ابن الفقيه الحمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٢١٥ .
 - (٥) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٩١ .
 - (٦) طهارة ، الدولة العربية ، ترجمة الدكتور العش ص ٤٠٨ .
 - (٧) الجبشيارى ، ص ٨١ ، ما يليها - ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٩ ج ٢ ص ٣٣١ .

وبذم ابن الأثير أن محمد بن علي أخذ يوجه منذ سنة ١٠٠ هـ الدعوة في الآفاق ، فوجه ميسرة العبدى إلى العراق ، كما وجه محمد بن خنيس ، وأبا عكرمة السراج (وهو أبو محمد الصادق) ، وحيان العطار ، خال ابراهيم ابن سلمة ، إلى خراسان ، « وأمرهم بالدعاء اليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا . ثم انصرفوا يكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي ، فدفعوها إلى ميسرة ، فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً نقباء (١) » .

وبمقتضى هذا التنظيم المرى توزع عدد من الدعاة في العراق وعدد آخر في خراسان ، فكان للعراق ثلاثة دعاة على التوالي هم : ميسرة العبدى (١٠٢-١٠٥ هـ) ، ثم بكير بن ماهان (١٠٥-١٢٧ هـ) ، ثم أبو سلمة الخلال (١٢٧-١٣٢ هـ) ، كانوا يتنكرون في ثياب التجار أو الحرفيين أو المؤدبين ثم يندسون بين الناس دون أن يعرفهم أحد . أما دعاة خراسان فكانوا سبعة ، أولهم أبو عكرمة السراج . وبلى طبقة الدعاة في المرتبة طائفة النقباء الذين يأتهمون بأمرهم ويجهلون لإمام الوقت ، وكان لكل داعية ١٢ نقيباً ، ولكل نقيب سبعون حاملاً يدبرون الوحدات المتفرعة ، ويشرفون على الخلايا النورية المنبثة في مختلف الأقاليم . وكان الدعاة والنقباء يتميزون باخلاصهم الشديد للدعوة ، وتفانيهم في نشرها ، كما كانوا يتصفون ببعده النظر والقدرة على فهم نفسيات الناس وتمييز عناصرهم ، تمهيداً لاجتذابهم إلى دعوتهم ، وبالبراعة في التخفي والتنكر ، مع حظ كبير من الثقافة والعلوم الدينية واللغوية .

ويعتبر بكير بن ماهان داعي دعاة العباسيين في العراق من الشخصيات البارزة في تاريخ الدعوة العباسية ، إذ يعود اليه الفضل الأعظم في تنظيم الدعوة السرية في العراق زهاء ٢٢ سنة . وكان موسراً ، فلم يضمن بأمواله في النفقة عليها (١) . وخلقه أبو سلمة الحلال ، واسمه حفص بن سليمان الفارسي ، وكان سمحاً ، كريماً ، فصيحاً ، عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير (٢) ، ويرجع إلى أبي سلمة الفضل في قيادة الدعوة العباسية في العراق في السنوات الخمس الأخيرة التي سبقت قيام الدولة العباسية .

أما خراسان ، فقد تعرضت الدعوة فيها زمن ولاية أسد بن عبدالله القسري لحن شديدة ، فعلى الرغم من السرية المحككة وشى رجل من كندة إليه بجمع من دعاة العباسيين في سنة ١٠٧ هـ ، فاستقدمهم وفيهم أبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس ومامة أصحابه ، ونجما عمار العبادي ، فقطع أسد أيدي من ظفر به منهم وصلبهم ، وأقبل عمار العبادي إلى بكير بن ماهان فأبلغه الخبر ، فكتب إلى محمد بن علي بذلك (٣) وقدم إلى خراسان في سنة ٩ هـ أيضاً في ولاية أسد داعية بعث به محمد بن علي العباسي يقال له زياد أبو محمد ، أكام بمرو ، ودما لبني العباس ، فأخبر به أسد ، فتخوف من جانبه ، فاستقدمه إليه وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة (٤) وفي سنة ١١٧ هـ ظفر أسد في بداية ولايته الثانية على خراسان بجماعة من دعاة بني العباس ، فقتل بعضهم ومثل

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٥ - الشيخ الحفري ، محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ١٩٠٩ ص ١٦
 (٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .
 (٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٣٦ .
 (٤) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

بعضهم وسجن البعض ، وكان فيمن وقع يده « سليمان بن كثير ، ومالك
ابن الهيثم ، وموسي بن كعب ، ولاهز بن قريظ ، وخالد بن ابراهيم ،
وطلحة بن زريق . فأتى بهم ، فقال لهم : يا فسقة... ألم يقل الله تعالى :
(عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) فقال له سليمان : نحن والله
كما قال الشاعر

لو بغير الماء حللي شرق . . . كنت كالغصان بالماء اجتصاري

صيدت والله المقارب يديك ! إنا ناس من قومك ، وإن المضربة رفعوا
إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم ، فطلبوا بثأرهم . فبعث بهم
إلى الحبس (١) . وفي العام التالي رجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى
خراسان داعيا لبني العباس ، فنزل مرو ، وتسمى بخدش ، ودعا إلى آل
البيت ، فسارع إليه الناس وأطاعوه ، ثم غير ما دعاهم إليه ، وأظهر دين الحرمية ،
ودعا إليه ، ورخص لبعضهم في نساء بعض ، وقال لهم انه لا صوم ولا صلاة
ولا حج مؤولا الصوم بمعنى الصوم عن ذكر الامام ، والصلاة أي بالدعاء له ،
والحج بمعنى القصد اليه . فبلغ خبره أسد بن عبد الله فظفر به ، فأغلظ القول
لأسد ، فقطع اسنانه ، وسمل عينيه ، ثم أمر بقتله ، فقتل ثم صلب بآمل (٢) .
ومنذ ذلك الحين انقطع محمد بن علي العباسي عن مكاتبة دعائه بخراسان .
إلا أن الدعوة في خراسان لم تعزز تقديما ملحوظا إلا منذ وفاة

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٧ .

أسد بن عبد الله في سنة ١٢٠ هـ .

وكانت مهمة الدعاة والنقباء في خراسان تقوم على ترديد بعض الشعارات التي ينادي بها العباسيون، كتحقيق مبدأ المساواة الذي كانت تستر وراءه نزعات متباينة ، والذي أيده جماعة كبيرة من الشعوبيين العجم لأنه يحقق لهم مكاسب تهدف إلى إحياء المجد الفارسي القديم وإدخاله دولة الجبايرة (أى الدولة العريضة) كما أيده آخرون من العرب (١) على أساس تسوية الحال بين العرب باستناداً إلى مبدأ الفقهاء في الإصلاح، ومحاربة الظلم والعسف . كذلك طالب الدعاة بالدعوة إلى الإصلاح ، ويقصد به الدعوة إلى الكتاب والسنة . وقد أدت هذه الشعارات إلى ازدياد عدد المؤيدين للدعوة في خراسان للرضا من آل محمد ، وانتشارها في بلاد فارس وخراسان وخوارزم وبلاد ما وراء النهر .

ثم توفي محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) بعد أن أوصى بالامامة من بعده لابنه ابراهيم . وفي عهد ابراهيم يبدأ دور

(١) هل الرغم من أن الثورة العباسية اتخذت لها واحيات متعددة ورهت لنفسها عبارات مختلفة حاولت فيها على حد قول الدكتور فاروق عمر كسب كل المتذمرين ضد الحكم الاموي، الا أنها اعتمدت بوجه خاص في رأى الدكتور فاروق على القائل العربية بخراسان التي كانت تكون القوة القمالة في الجيش الخراساني الذي تقي على نصر بن سيار .

(فاروق عمر ، طيبة الدعوة العباسية ، ص ٢٧٧ وما يليها)

ومم أن الدكتور قدورة ترى أن المنعصر العربي في خراسان كان ضئيلاً (زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، بيروت ١٩٧٢ ص ٦٨) الا أنه تؤكد أن الدعوة العباسية كانت في صميمها عربية ومؤسساها عربي في طريق النسب في العرب ، وهدفاً نقل الخلافة من فرع عربي إلى فرع عربي آخر . (نفس المرجع ص ٧٦)

جديد من تاريخ الدعوة العباسية هو دور العمل والنفصال الحربي ، الذي تألفت فيه شخصيتان بارزتان كان لهما أعظم الأثر في نجاح الدعوة هما : حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال الذي تولى رئاسة الدعوة بعد وفاة بكير بن ماهان ، وشخصية أبي مسلم الخراساني الشاب المغامر الذي يرجع إليه الفضل في قيادة الثورة العباسية الى النصر في الثورة من ١٢٩ هـ الى ١٣٢ هـ .

(٢)

عوامل نجاح الدعوة العباسية

تهيأت لدعاة العباسيين فرص النجاح في بث دعوتهم ونشرها في الآفاق قبل أن تصطدم حرياً بقوة الأمويين ، بسبب التنظيم العقائدى المحكم للدعوة على النحو الذى شرحناه ، وبسبب عوامل أخرى مختلفة أدت إلى تصدع دعائم الدولة الأموية فى الداخل والخارج ، مما سهل على العناصر الثورية مهمة قلب نظام الحكم الأموى . ومن عوامل التصدع فى كيان الدولة الأموية ما يلى :

أولاً - انتشار الاسلام بين الفرس :

كان لانتشار الاسلام فى بلاد الفرس بالسرعة الهائلة التى تم بها ، واشتراك الفرس المسلمين فى الحركات الثورية التى قامت فى العصر الأموى كالتبعية والمختارية وحركة التوابين ، كما كان لتجالفهم مع الشيعة خاصة ، فى أعقاب **مكر بلاء**، كان لكل ذلك أعظم الأثر فى نجاح الثورة العباسية وانتصارها فى النهاية . ومن المعروف أن الاسلام انتشر انتشاراً هائلاً فى فارس فى عصر عبد الملك ، بدليل السياسة الاقتصادية التى أخذ الحجاج الثقفى يطبقها فى فارس وخراسان ، فقد اقترن انتشار الاسلام هناك بتناقص واضح فى الموارد المالية للدولة الأموية ، الأمر الذى دفع الحجاج إلى فرض الجزية على من أسلم من الموالى ، وترك ضريبة الخراج على مثل ما كانت عليه ، كما اضطرت

الدولة الأموية الى إعادة المهاجرين من مساسى فارس الى قراهم (١)، ومقاومة تيار الهجرة الى الحواضر بقصد العكس من وراء الاشتغال بالحرف والصناعات التي يأنف العرب الاشتغال بها . وأدى ذلك الى استياء المسلمين للفرس ، والقراء العرب ، فقامت حركات ثورية كالثورة المنسوبة الى عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث ، وكانت ثورة فارسية لأن معظم من شارك فيها كانوا فرسا أو ممن حرص من العرب على تطبيق مبادئ الاسلام ، والمطالبة بتطبيق مبدأ المساواة على الفرس المسلمين ومساواتهم بالعرب .

وانتهت مرحلة مقاومة الأمويين للحركة الاسلامية في فارس بوفاة الحجاج ، وتبعتهما مرحلة التراجع عن هذه السياسة زمن سليمان بن عبد الملك رغبة في استرضاء طبقات المسلمين ، واستمرت هذه السياسة سارية المفعول في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان من أهدافها التوفيق بين التيار الاسلامي وبين المصالح الأموية (٢) ، بل إن الحركة الاسلامية لم تلبث أن اتخذت صورة جديدة قوامها التحالف مع الدعوة الهاشمية ، وعادت الهجرة الفارسية من الريف إلى المدن تحقق للمهاجرين أرباحا ضخمة ، وأدى اشتداد حركة الهجرة وتدافعها إلى المدن في النصف الثاني من العصر الأموي الى تكوين طبقات كبيرة من العاطلين الساخطين في مدن خراسان وفارس ، وكانوا وقوداً حشا للثورة العباسية .

(١) « كتب عمال الحجاج اليه : « ان الخراج قد اسكسرت اهل الدمنة قد دأسلوا ولحقوا بالامصار . فكتب اليهم وغيثها ان من كان له اصل على قرية فليخرج اليها . فخرج الناس فسكروا ، فجللوا بكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ، وجملوا لا يدرون أين ينهون » الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٨ ص ٢٥

(٢) حسن محمود ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٨

ثانياً — موجات الاستياء العامة ضد الحكم الأموي :

هناك أسباب عديدة لمساويء الحكم الأموي ، منها خروج معاوية على القاعدة التي سنها الخلفاء الراشدون ، واستحداث نظام الوراثة في الحكم ، ومنها ميل الأمويين إلى الملوكية ومظاهر الابهة واللهو ، ومبالغة بعضهم في ذلك إلى حد الانصراف إلى اللهو والخلاعة ، والانحراف عن القيم الاخلاقية والمثل الدينية وقد أثار ذلك مشاعر الجماهير الاسلامية وأطاح بهيبة الخلفاء ، وجراً المعارضين للدولة على السعي لتقريبها ، فيزيد بن معاوية كان « موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء » ، وكان معروفاً بقبح سيرته ومجاهرته بالمعاصي واشتهاره بالقبائح (١) ، وفي أيامه استشهد الحسين بن علي ، وضربت الكعبة بالحجارة واستبيحت المدينة. ويزيد بن عبد الملك كان خليع بنى أمية (٢) وكذلك عرف الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخليع بنى مروان (٣) . وكان الوليد صاحب شراب وهو وسماح غناه ، وفيه يقول المسعودي : « هو أول من حمل المغنين من البلدان إليه » ، وجالس الماهين ، وأظهر الشرب والملاهي والعزف .. وكان متهمًا ماجناً خليعاً (٤) ، وبذكر ابن الأثير أنه كان يوقع بالعود ، ويضرب بالطبل والدف ، وكان الغناء أحب إليه من كل لذة

(١) ابن طياتبا ، ١٣ .

(٢) نفسه ص ١١٧ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢١٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢١٣ . وذكر السيوطي أنه كان فاسقاً شربياً للخمر متهمًا بحرامات الله ، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة ، فقتله الناس لفسقه وخرجه عليه ، فقتل في جادي الاخرة سنة ١٢٦ (السيوطي ، ص ٢٢٢) .

وأشهى الى نفسه من الماء الى ذى الغلة (١) وذكروا أنه كان يسمى التصرف عند سكره ، فقد قرأ يوما : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) ، فدعا بالمصحف ، فنصبه هدفا للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فما أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقى الوليد

ومن أسباب استياء المسلمين من الحكم الأموى انحراف الولاة عن تهرى العدل مع الموالى ، واستبدادهم بهم ، وحيادهم عن مبادئ الاسلام الحنيف فى التكافل الاجتماعى والعدالة والمساواة بين العرب والفرس ، فقد عز على أمة الفرس المغلوبة أن يقرهم العرب ، ويخمدوا أنفاس قوميتهم بسياسة الانصهار والتعريب التى جرى عليها المروانيون منذ خلافة عبد الملك ، ولم يدس الفرس ، رغم اعتناق معظمهم الاسلام ، ماضيهم الحافل بالأجداد ، واعتبروا سيطرة العرب عليهم نوطا من السيادة العنصرية التى يجب التخلص منها . وعندئذ بدأت طلائع الشعوب تنسلل فى كيان الدولة العربية تحت ستار التعاليم الاسلامية ، بدعوى المطالبة بالمساواة ، مستندين الى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وقد اتخذ الفرس المبدأى الاسلامى سلاحا شهروه على الأمويين اقلب حكومتهم انتصارا للحق على الاستبداد والعنف ، وانضمت الاحزاب المعارضة للحكومة الأموية الى جانب الثوار كالحوارج والمرجئة والشيعة ، ووجد

الفرس في التشيع سيفا مسلطا على العرب ، فأرغموا في أحضانه لا لأن التشيع يوافق عقلية الفرس ويلائمها من حيث التشابه في نظام الحكم الالهى المتوارث ، ولا لأن هناك ثمة قرابة بينهم وبين الشيعة نتيجة لمصاهرة الامام الحسين بن على لهم ، وانما بدافع التحرر من السيطرة العربية .

وطامل ثالث نضيفه الى ما سبق تعليلا لازدياد الشعور بالنقمة على الأمويين هو أن الأمويين أقاموا دولتهم على الخديعة والفساد والقهر والسفك ، وأنهم اضطهدوا العلويين بعد أن اغتصبوا منهم حقهم الشرعى في الخلافة ، وتبعوهم بالقتل ، فقتلوا مسلم بن عقيل عندما توجه الى الكوفة مهدا لخروج الحسين ، وقتلوا الحسين بن على وأصحابه وذويه في كربلاء التي كانت حاملا رئيسيا في توحيد صفوف الشيعة واستثارة مشاعرهم للانتقام من قتلة الحسين ، فظهر منهم الثوابون والمختارون والامامية ، وأصبح التشيع منذ ذلك الحين عقيدة راسخة في النفوس ، وازداد سخط المسلمين على الأمويين ونقمته عليهم باستشهاد زيد بن على زين العابدين بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك ، وصلبه عريانا مدة خمسين شهرا ، وحرق جسده الطاهر في أيام الوليد بن يزيد ، وباستشهاد ولده يحيى بن زيد في الجوزجان من بلاد خراسان ، وفصل رأسه وصلب جسده في أيام الوليد بن يزيد نفسه .

وطامل رابع استثمار مشاعر المفلولين من البربر في غرب العالم الاسلامى على الحكم الاموى ، ونفى به تشبه ولاية الامويين في المغرب بالحجاج ، أمثال يزيد بن مسلم كاتب الحجاج (١) وكان ظلوما غشوما ، ومثل عبيدة بن

(١) كان كاتبا للحجاج وصاحب شرطته ، ومثد أن تولى افرقية سنة ١٠٢ هـ حتى شرع في تطبيق سياسة الحجاج مع أهل العراق على البربر ، وفي ذلك يذكر الطبرى أنه عزم =

عبد الرحمن السلمي (١) ، ومثل عبيد الله بن الحبحاب (٢) وقد بالغ هؤلاء الولاة في الاستعداد بالبربر ، والاستغفار بهم ، والتشدد عليهم في الجزيات ، بل لأنهم لم يتورعوا عن الهجوم على نساءهم ، وسبيهن ، وقتل قطعان أغنامهم ، مما دفع هؤلاء البربر الى الانتفاض والثورة (٣) . وكان الخلفاء الأمويون يصحبون طرائف المغرب ونسائه ، ويبعثون الى عمال المغرب بطلبهن ، فكان العمال يحرصون على اتحاق الخلفاء بالنساء المسييات ، وهو أمر أنكره البربر عليهم (٤) ، وهكذا كانت نفوس أهل المغرب تغلي لهذه المظالم ، فطالبوا الخلفاء بانصافهم ، فلما أعرضوا عن إجابة مطالبهم ، انتفض البربر على العرب ، واضطرم المغرب على اثر ذلك نارا (٥) .

ثالثا : المنازعات الداخلية :

ترجع أسباب المنازعات الداخلية في الدولة الأموية الى صفت تفتتوا خطيرا في الجبهة الداخلية ، وهيأت المجال للدعوة العباسية ان تنتشر ، دون ان يعادرك

== على أن يسير في البربر « بسيرة الحجاج في أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فانه ردهم الى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم ومكاف » (الطبري ، ج ٥ ص ١٠٣ - ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٢) .

(١) كان شديدا في معاملة البربر ، فأسرف في غزو قبائلهم وسبى نساءهم ، وبالف في التصف معهم . (راجع المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٩٧) .

(٢) أساء عماله السيرة مع البربر واعتبروهم فيثا للمسلمين وهيدا لهم ، وتمدوا على الصداقات (ص ٥٣) .

(٣) ابن هذاري ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن هذاري ، ص ٥٣ .

(٥) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٦ .

الأمويون أمرها ، إلى نظام توليه العهد لأكثر من واحد ، والصراع بين
العصبيات العربية .

أما ما يتعلق بالسبب الأول ، فن المعروف أن الروائيين اتبعوا سياسة
النكت بولاية العهد ابتداء من مروان بن الحكم حتى نهاية عصر الدولة الأموية ،
فلقد بايع مروان ولين لعهدهما خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد
ابن العاص (١) ، ولكنه نكت بهذه البيعة عندما عزم على تولية العهد من بعده
لابنه عبد الملك ، فاستقدم حسان بن مجدل وأرغبه وأرهبه حتى بايع ولديه عبد
الملك ثم عبد العزيز ، وتم تحويل ولاية العهد إليها ، وترتب على ذلك أن غضب
خالد بن يزيد لخلعه من ولاية العهد ، وحدث أمه في ذلك ، وكان مروان قد
تزوجها ، فعمدت إلى قتله (٢) . فلما تولى عبد الملك الخلافة أراد أن يخلع أخاه
عبد العزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبد الملك ، فنهاه عن ذلك
قيصة بن ذؤيب ، متولى الخاتم والسكة ، ولكن وفاة عبد العزيز في جمادى
الأولى سنة ٨٥ هـ (٣) وضعت حدا لما كان قد عزم عليه ، وكتب عبد الملك
بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان . ولما ظفر الوليد بالخلافة أراد أن يخلع أخاه
سليمان من ولاية العهد ويبايع لولده عبد العزيز ، فأبى سليمان ، فكعب الوليد
إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك ، فلم يجبه سوى الحجاج بن يوسف وقتيبة بن
مسلم وخواص من الناس ، فكتب الوليد إلى سليمان بأمره بالقدوم عليه
فأبطأ ، فعزم الوليد على السير إليه لخلعه ، وأعد العدة للخروج ، فمات قبل أن

(١) البغوي ، تاريخ يعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١٨

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٦٦٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١٢

يسير إليه في سنة ٩٦، وتولى سليمان الخلافة، فصب جام انتقامه على أهل الحجاج وصنائعهم، كما أمر بقتل قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان وقتل أهله .

ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، بايع بولاية العهد لأخيه هشام وبعده لابنه الوليد بن يزيد، لصغر سن الوليد، فلما عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، كان إذا رآه يقول : « الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك (١) » (يقصد مسلمة بن عبد الملك) .

وقد كان من نتائج هذه السياسة إغفار القلوب، وتفتت الروابط الأسرية بين أفراد البيت الأموي، وإثارة الفتن والقلاقل والمنازعات بعد وفاة كل خليفة، وقد عجل ذلك بتصديع الكيان الأموي .

وأما السبب الثاني، وأعنى به الصراع بين العصبية العربية، فكان أخطر وأكثر وبالا من السبب الأول، فلقد مهدت السياسة الحزبية للدولة الأموية وظهور الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج وزيرية السبيل لانبعاث العصبية القبلية القديمة، على الرغم من أن الاسلام أضعف من هذه العصبية، وحد من المنازعات القديمة بين اليمنية والقيسية . وبينما نجمع معاوية بسياسة المعتدلة في تحييد هذه العصبية، وارتفع فوق مستواها، أخفق الروانيون في هذه السياسة، بل هم الذين أذكوا نيرانها وزادوا وقودها، فلقد تعصب مروان بن الحكم لليمنية ضد المضرية، واعتمد على اليمنية بزعامة حسان بن مالك في صراعه مع الضحالك بن قيس الفهري، فاجتمعت له حشود من كلب وغسان والسكاسك والسكون، بينما اعتمد الضحالك على جموع هائلة من

القيسية والمضرية والتزارية ، واشتبك الفريقان في مرج راهط في ذى القعدة سنة ٦٤ هـ في قتال عنيف انتهى بهزيمة العدنانية . وكان لهذه الواقعة آثار خطيرة في انبعاث العداء التقليدى القديم بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، وإشعال نار الفتن في سائر أنحاء العالم الاسلامى ، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة العربية : في الشام والعراق وفارس والمغرب والأندلس ، وأدى الصراع بين هذه العصبيات وتطاحنهما إلى تداعى الصف العربى . وما زاد في احتدام نارهما ، إخفاق الخلفاء المروانيين في النصف الثانى من العصر الأموى في حفظ التوازن بين العصبيتين ، ذلك لأن الخلفاء أصبحوا يؤيدون عصبية منها على أخرى ، فيثيرون بذلك النزاع بين العصبية الأخرى والعصبية التى اعتمدوا عليها : فالوليد بن عبد الملك اعتمد على المضرية ، بينما انهاز أخوه سليمان إلى اليمنية ، وحاول عمر بن عبد العزيز أن يمسك العصا من الوسط ولكن هذه السياسة الحكيمة قضى عليها بعد وفاته ، فقد اعتمد يزيد بن عبد الملك على المضرية ، في حين اعتمد هشام بأدى ذى بده على اليمنية (١) ، ثم تحول من ذلك فانحاز إلى المضرية ، منذ سنة ١١١ هـ عندما استعمل على خراسان الجنييد

(١) عندما تولى الخلافة تعصب لليمنية . ويورد ابن الاثير رواية تعبر عن ذلك ، فقد ذكر أن عمر بن يزيد بن حمير الاسيدي دخل على هشام ولديه خالد بن عبد الله القسرى ، وكان قد ولاء على العراق ، فسمعه يذم صكر طاعة أهل اليمن ، فعلق عمر بن يزيد على ذلك بقوله : « والله ما رأيت هكذا خطأ وخطلا ، والله ما فتحت فتنة في الاسلام الا بأهل اليمن ، هم تناولوا هتانا ، وهم ضاموا عبد الملك ، وان سيوفنا لتتغار من دماء أهل المهاب » فسمعه رجلا من آل مروان فقال له « يا أبا بنى تميم ورت بك زنادى ، وقد سمعت مقاتلك وأمير المؤمنين قد ولي خالد العراق وليست لك بدار » (ابن الاثير ، ص ١٢٤) .

ابن عبد الرحمن، الذي لم يتخذ من العمال الا من كان مضريا (١) فأغضب ذلك اليمنية. وفي عهد الوليد الثاني تحيز الخليفة المضرية ، فوثب عليه اليمنية وقتلوه (٢). ولما تولى يزيد بن الوليد الخلافة أيد اليمنية ، واعتمد عليهم لأنهم ساعدوه في التوصل الى الخلافة، وأخذ اليمنية يثأرون من المضرية ، فثار هؤلاء في حصص وفلسطين والأردن ، واضطرب أمر بني أمية ، وهاجت الفتنة ، ولكن الخليفة تمكن في نهاية الأمر من التغلب على الثوار . ولما تولى مروان بن محمد الخلافة سنة ١٢٧ ، تعصب للمضرية على اليمنية ، فثار اليمنية بحمص ، فدخلها مروان عنوة في ١٢٨ ، وقتل جماعة من الثوار ، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة ، ودمر جانباً من سورها (٣). كذلك ثار أهل فلسطين فترة، ولكنهم لم يلبثوا أن أذعنوا له بالطاعة .

وقد أتاحت هذه الاضطرابات الفرصة لظهور الدعوة العباسية ، وتثبيت أركانها ، إذ شغل مروان بن محمد عنها باخماد الفتنة ، ولم يفتن الى حقيقة الأوضاع في خراسان على الرغم من التقارير التي كانت تصل اليه من نصر بن سيار عن سوء الأحوال بها . كذلك انعكس صدى هذه الأحداث في غرب العالم الاسلامي وشرقه . ففي الأندلس انحاز واليها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الى اليمنية بحكم كونه كليياً ، ونازع زعيم القيسية هناك وهو الصميل ابن حاتم بن ذى الجوشن ، مما أدى الى قيام حرب طاحنة بين العصبيتين اليمنية

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨١ .

(٣) نفسه . ص ٢٢٩ .

والمضربة جنوبى قرطبة ، وانتهى الأمر بهزيمة اليمينية (١) . واستمر الصراع قائما فى الأندلس بين العصيين حتى قيام دولة عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس .

وفى المشرق قامت المنازعات القبلية فى خراسان بين القبائل اليمينية والمضربة التى كانت قد استقرت فى خراسان منذ أمد بعيد ونقلت معها نزاعاتها القبلية (٢) . ومن المعروف أن هذه العناصر العربية التى استقرت بخراسان منذ فترة الامصار انما قدمت من البصرة والكوفة حيث يسود التنافس القبلى والفتن وتقلب الاهواء . بدأ النزاع بين القبائل العربية فى خراسان منذ أن قام الحارث ابن سريج بثورته ضد الحكم الاموى هناك ، وساندته فيها بعض القبائل العربية ، وتبع ذلك اشتعال نار الفتن ، وأصبحت خراسان على هذا النحو مسرحا للصراع بين اليمينية والمضربة ، ونجح دعاة العباسيين فى استثمار هذا الصراع لصالح دعوتهم (٣) ، كما نجح أبو مسلم الخراسانى فى تفريق كلمة العرب فى خراسان ودفعهم إلى القتال ، ودخل مرو والفريقان يقتتلان ، فأمرهما بالكف وهو يتلو من كتاب الله : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) وصفت مرو لأبى مسلم (٤) .

(١) راجع : أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، ص ٥٨ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٢ ، وأنظر التفاصيل فى كتابى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٦٠ - ١٦٧ .

(٢) برنارد لويس ، ص ١١٠ . وفى الوقائع بين مضر واليمن فى خراسان راجع ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٧ ، ٢٠٢ وما يلىها .

(٣) راجع : ابراهيم العدوى ، المجتمع العربى ومناهضة الشيوعية ، ص ٤٧ - ٦٧ ، حسن محمود ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٤٠ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٧٩ وما يلىها .

رابعاً - تقويض أسطورة العرب :

في أواخر عصر الدولة الأموية منى العرب بهزائم بشعة في الخارج شرقاً وغرباً أسقطت هيبة العرب أمام الشعوب الأعجمية ، وقوضت أسطورة القوة التي جهده الفاتحون في زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموي الأول في ترسيخها .

ففي عهد هشام بن عبد الملك تمكن خاقان الترك من التغلغل إلى شرق إيران منذ عام ١٠٨ هـ وحتى ١١٩ هـ عندما نجح العرب بعد جهود مضنية في التغلب عليه ، وسقط خاقان صريعا ، وتفرق الترك من بعده (١) .

كذلك تلى العرب في عهد هشام هزيمة نكراء على أيدي البيزنطيين زمن الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٢) ، في موقعه أقرن (أفيون قره حصار حاليا) Akroalon الواقعة بالقرب من عمورية ، وذلك في سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وفي هذه الموقعة قتل القائد عبد الله أبو الحسين الانطاكي المعروف بالبطل في جماعة من المسلمين (٣) ، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن جلا العرب عن القسم الغربي من آسيا الصغرى وتراجعوا إلى الشرق ، واقترب اسم الموقعة بأسطورة البطل التركي المعروف باسم السيد البطل الغازي الذي لا يزال قبره قائماً في قرية تقع جنوبي اسكي شهر الحالية (٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠٥

(٢) Ch. Diehl & G. Marcais , Histoire du Moyen Age t. III (٢)
Le monde oriental Paris 1936, p.2٠٢ .

أسد رستم ، الروم والعرب ج ١ ص ٢١٣

(٣) الطبري ، ج ٨ ص ٢٧٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٤) السيد الباز العريفي ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ .

كذلك كان للهزيمة الساحقة التي تلقاها المسلمون في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) على أيدي الفرنجة ، ومصرع القائد العربي عبد الرحمن الغافقي وجموع هائلة من أجناده أعظم الأثر في تقويض أسطورة العرب ، وتصعد كيان الدولة الأموية . وقد وضعت هذه الكارثة حدا لتوسع المسلمين في غالة وأطاحت ببيوتهم حتى في داخل شبه جزيرة أيبيريا ، فتجذرات العناصر القوطية الأيبيرية على مناوئة سلطان المسلمين ، واستقطاع ممالك كانت المنطلق الأول لحركة الاسترداد الإسباني للاندلس .

(٢) راجع : شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٠٢ - حسين مؤنس ، هجر الاندلس ، ص ٢٧٥ - عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٤٦ .

(٣)

اقتصار الثورة العباسية وآثاره في التاريخ الاسلامى العام

ذكرنا فيما سبق أن الدعوة العباسية تحولت بعد عام ١٢٨ هـ من دور السرى الى دور الجهر ، أو من دور النشاط السرى الى دور العمل والكفاح المسلح ، وذكرنا من أسباب هذا التحول انضمام شاب فارسى مقامس الى الدعوة، اسمه أبو مسلم الخراسانى ، دفعه الطموح الى الاتصال بكبير الدعاة، ولم يلبث أن اختاره الإمام ابراهيم داعيا للدعاة فى خراسان ، وارتضاه الخراسانيون زعيما للثورة يحقق أحلامهم ، ويرضى آمالهم فى إسقاط دولة الجبابرة (الدولة العريسية) وإحياء دولة العجم ممثلة فى الدولة العباسية المستقبلية .

وأبو مسلم عبد الرحمن الخراسانى كان مولى فارسى الأصل، اشتراه بكبير بن ماهان ، ولقنه أصول التشيع ، ثم اتصل أبو مسلم بمحمد بن على العباسى فى سنة ١٢٥ هـ، ثم بابنه ابراهيم من بعده ، فلبس فيه صفات العزم والذكاء الخارق، ووجد فيه ضالته الممشودة . وكانت الدعوة بخراسان فى حاجة الى مثل أبى مسلم فى تلك الفترة بالذات التى اشتد فيها الصراع فى خراسان بين العصبية العربية وما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف (١) ، فوجهه الى خراسان سنة ١٢٨ هـ، وكان عمره يومئذ ١٩ سنة ، وأوصاه بقوله : « أنظر هذا الحى من اليمن فآلزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم (٢) ، فاتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما بنصر فانهم العدو القريب الدار (٣) ، واقفل من

(١) الشيخ محمد الحضرى . محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، الدولة العباسية ، ص ٢١

(٢) لأن اليمنية وتشد كانوا أهداء للدولة الأموية .

(٣) كان المضرة زمن مروان بن محمد الدمامة التى تستند عليها الدولة الأموية

شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ - يعنى سليمان ابن كثير - ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى ، (١) . ثم ارسل اليه الامام ابراهيم راية النصر ، وبذلك انتقلت الدعوة العباسية الى مرحلة العمل الايجابي .

وفي هذه الأثناء حاول نصر بن سيار والى خراسان أن يوحد بين صفوف العرب ضد الفرس ، ويقضي على منازعاتهم ، كما حاول استئالة اليمينية رغم كونه مضرباً ، ولكنه أخفق في محاولته ، فرفض اليمينية مصالحته ، واشترط زعيمهم جديع بن شبيب المعروف بالكرماني أن يترك منصبه ، فقامت الحرب بينه وبين الكرماني ، وانتهت بانعصار الأخير واستيلائه على مرو (٢) .

ثم نزل أبو مسلم على سليمان بن كثير الخزاعي في رمضان سنة ١٢٩ بقرية سفيدنج من قرى مرو ، وهناك بث دعاته في الناس ، فأظهر أمره ، فتوافد عليه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٢) من قوله يحذر العرب من عواقب الفرقة والانقسام أمام عدو ضار يترجم بهم السوء : أبلغ ربيعة في مرو وأخوتها . . . أن يغضبوا قبل أن يغضب الغضب ما بالكم تلحقون الحرب بينكم . . . كأن أهل الحجى من فعاكم غيب وترحون عدوا قد أظلمكم . . . ممن تأشب لائين ولا حسب ليسوا الى عرب منا نعرفهم . . . ولا صميم الموالي ان هم نسبوا فن يمكن سائل عن أصل دينهم . . . فان دينهم أن تقتل العرب (الدينوري ، الاخبار الطوال ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم حامر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٦١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٦٨) .

في ليلة واحدة سكان سبعين قرية. وفي ٢٥ من رمضان من نفس السنة عقد اللواء الذي بعث به الامام اليه على رمح وعقد الراية وهو يقول : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) ، ثم ليس السواد (١) هو وخليان بن كثير ومواليه وشيعته ممن أجاب الدعوة من أهل سفينج ، وهناك تقاطرت عليه جموع كثيفة من هرمز ومرو ، فشرع أبو مسلم في ترميم حصن سفينج وأقام فيه بمن معه (٢) .

ثم وقع الاشتباك بين قوات نصر بن سيار بقيادة مولاة زيد وبين قوات أبي مسلم في قرية آلين من قرى مرو ، وانتهى القتال بانتصار أبي مسلم ، ووقع زيد في أسره ، ولكن أبو مسلم لم يلبث أن أطلقه من الأسر حتى يروى لنصر ابن سيار ما شاهده من ضخامة قوى أبي مسلم . وتكاثر أنصار أبي مسلم حتى ضاقت بهم سفينج ، فاضطر الى الرحيل الى الماخوان من قرى مرو أيضا ، فحاصنها وخندق حولها ، وأقام معه في الخندق سبعة آلاف مقاتل .

وكان نصر بن سيار قد شغل بمقاتلة اليمنية وعاربة الكرماني حتى قتله ،

(١) أصبح السواد شعارا للمباسبين ، ولعلمهم اتحنوه تعبيرا عن حزنهم على الشهداء من أهل البيت ، وذكروا في ذلك أن بخير بن ماهان قال : « قد تنامت على آل رسول الله مصائب لا يتذكر معها ٠٠٠ لأشيائهم لباس السواد حتى يدركوا بتأثرهم » . ولكن بعض المؤرخين يرون أنه قد سبق لبعض الخوارج أن حاوروا اللواء الأسود في حروبهم ضد (أهل الضلالة) من الأمويين ، وقد يكون للسواد في هذه الحالة علاقة بأهل الضلال فبرز للحق والعدل (الدرر ، المعرأة - الساسي الأول ، ص ٣٦) ، بدليل أن الرسول كانت له راية من صوف أسود مربعة كان يحاربها في حروبه ضد الشركيين ، وكانت لعلي بن أبي طالب راية سوداء ، وكان محمد بن علي العباسي يقول : « مايسكم بالسواد فليكن لباسكم » (راجع : أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٥) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

فاستغل أبو مسلم هذه الفرصة (١) ، وبثت قواته للاستيلاء على البلاد ، ونجح في ضم على بن الكرماني واليمينية المؤتورين إليه ، وأحس نصر بن سيار بخطار أبي مسلم على كيان الدولة الأموية ، فكتب الى مروان بن محمد يحذره ويصف له خطورة الوضع في خراسان ، ويبلغه أن أبا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم ابن محمد العباسي ، وجاء فيما كتبه اليه الأبيات الشعرية التالية :

أرى بين الرماد وميض جمر	ويوشك أن يصيرن له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحووا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى من رحالك ثم قولي	على الاسلام والعرب السلام (٢)

ولكن هذه الصرخات لم تجد نفعا ، فقد اكتفى مروان بأن كتب اليه يقول : « ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم التؤول قبلك » (٣) . وحدث أن وقع في يد مروان بن محمد كتاب فضح سر صاحب الدعوة ، كان قد بث به الامام ابراهيم الى أبي مسلم يأمره فيه الا يدع بخراسان متكلم بالعربية الا قتله ، فلما قرأ مروان الكتاب ، كتب الى عامله بالبلقاء يأمره بالتوجه الى الحميمة ، والقبض على ابراهيم الامام ، وشد وثاقه ، وإرساله اليه ، ففعل ذلك ، فسجنه مروان في سجن حران حيث مات مسموما (٤) .

وكان ابراهيم الامام - عندما تم القبض عليه في الحميمة - نعى نفسه

(١) أمي فرصة ضعف الفريقين المريين ، فريق نصر وفريق الكرماني .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٥٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٦

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٦٦

(٤) ابن طباطبا ، ص ١٢١

الى أهل بيته ، وأمرهم بالسير الى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله ، وأوصى الى أبي العباس ، وجعله الخليفة بعده . فمضى أبو العباس ومن معه من بيت الامام الى الكوفة حيث أنزلهم أبو سلمة الخلال داعي دعاء العباسيين في دار لأحد أتباعه ، وكنتم أمرهم نحووا من أربعين ليلة ، وحاول ان يحول الأمير الى آل علي بن أبي طالب عندما بلغه نبأ وفاة ابراهيم الامام ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، واضطر الى مبايعة أبي العباس عبد الله بالخلافة . ولم يستطع محمد بن خالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة أن يصمد أمام العباسيين ، فسلم لهم الكوفة ، وعلى أثر ذلك ظهر أبو العباس ، ودخل الجامع وبويع له بالخلافة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ (١) وخطب على المنبر خطبة افتتحها بمدح آل النبي ، والظعن في السبئية الضلال الذين نادوا بأحقية الرئاسة والخلافة لغير العباسيين (يقصد لآل علي) ، ثم سب الأمويين بنى حرب وبنى مروان الذين اجزوا الخلافة ، واستأثروا بها وظلموا أهلها الى أن ردت الى أصحابها . ثم خاطب أهل الكوفة قائلاً : « يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يشككم عنه تعامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، واناكم الله بدولتنا . فانهم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدناكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فانا السفاح الميسح والثائر المبيد » (٢) . ثم خرج العباس بعد الخطبة الى معسكر أبي سلمة حيث أقام شهراً ، ثم ارتحل من هناك فنزل المدينة الهاشمية بقصر الامارة .

أما أبو مسلم فكان خطره قد استفحل بعد أن فرق بين قبائل العرب ، فزحف في ربيع الثاني من سنة ١٣٠ هـ (ديسمبر ٧٤٧ م) على مرو ، وتمكن

(١) ابن الاثير . ج ٥ ص ٤١١ .

(٢) طالع الخطبة في ابن الاثير ، ج ٥ ص ٤١١ . ٤١٠ - السيوطي ، ص ٢٤٠ .

من دخولها بمساعدة على بن الكرماني ، وقتل من العرب فيها نحو ٢٠٠ شخص ، وأما نصر بن سيار فقد فر مستخفياً نحو العراق ماراً بنيسابور ، فعمقه جيوش أبي مسلم ، ولكنه توفي ببلدة ساوة من نواحي الري في نفس السنة .

ثم تمكن أبو مسلم من افتتاح أيورد وبلخ وترمد ، وعندئذ تخلص من علي وعثمان ولدي الكرماني ، فقتلها وقتل معظم أصحابها (١) .

وهكذا تغلب أبو مسلم الخراساني على خراسان كلها ، فبعث العيال على البلاد ، ثم وجه قحطبة بن شبيب إلى طوس ليفتحها ، فتم له ذلك ، وبلغ عدد القتلى هناك من أنصار نصر بن سيار بضعة عشر ألفاً . ثم أمره أبو مسلم بالزحف إلى نيسابور حيث نزل نصر ، فلما بلغ نصر آذاك ، فر فيمن معه إلى قومس ، فدخل قحطبة نيسابور . وما زال يتكبع نصراً من مدينة إلى مدينة حتى توفي نصر بنوحي الري ، واستولى قحطبة على الري ، وتم للعباسيين على هذا النحو فتح خراسان وبلاد الجبل . ثم تابع قحطبة وولده الحسن زحفهما ، فاستولى الحسن على همدان ، وافتتح أبوه نهساوند وشهرزور (٢) والموصل ، وتوغل في العراق ، ولكنه توفي قبل أن يشترك مع القائد يريد ابن عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، فخلفه على القيادة ابنه الحسن الذي تمكن من إيقاع الهزيمة بجيش ابن هبيرة . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة بادر إليها محمد بن خالد القسري مسوداً على النعمو الذي أشرنا إليه .

وتركزت المقاومة الأموية في موضعين : الأول في الموصل حيث

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

احتشدت جموع هائلة من الأمويين يبلغ عددها ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة مروان بن محمد نفسه . فسير أبو العباس لمقاتلته همه بن علي . وتم الاشتباك على الراب الأعلى أحد روافد دجلة من جهة الشرق ، وانتهى بهزيمة مروان (١) في ١١ جمادى الآخرة سنة ٢٢ . وفراره (٢) ، بينما غرق معظم الجيش في نهر الراب بعد أن قطع الجسر . والثاني في واسط حيث تحصن القائد يزيد بن عمر بن هبيرة فسير أبو العباس السفاح إليه أخاه أبا جعفر ، فاحتدم القتال هناك ما يقرب من عام إلى أن بلغ ابن هبيرة نبأ مصرع مروان ، فسمى لطلب الصلح بالامان ، فأجابه عليه أبو جعفر ، ولكنه لم يلب بوعده ، فأمر بقتله وقتل من كان معه من القادة . ومصرع ابن هبيرة طويبت الصنعة الأخيرة من تاريخ الدولة الأموية وبدأ عهد جديد في تاريخ العرب والإسلام .

° ° °

(١) نفس المصدر ، ص ٤١٧ وما يليها .

(٢) فر مروان بن محمد إلى حسان ، ثم إلى قنسرين ، ومن دمشق كل ذلك والعباسيون يطاردونه بلا هوادة أبها حل ، وكانت دمشق قد أهدت «من المسلمومة» والسكن العباسيون اقتحموا المدينة ورفعوا العلم العباسي على مصرع أمية . أما مروان فزال يفر من بلد إلى بلد عبر الأردن وفلسطين إلى أن نزل بالفسطاط بمصر ، ومنها إلى بوصير . حيث تعقبه العباسيون ونزله طاهر بن اسماعيل الحارثي في ٢٧ ذي الحجة ١٣٢م وبهت يرأسه إلى صالح بن علي ثم احتوى على عسكريه ، ودخل إلى الكنيسة التي فيها مناته ونسائه وقعد على فراشه وأكل من طعامه وبلغ أبا العباس ذلك فاستهجن حافله حاصر وكتب إليه يلومه (راجع المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٧ - السكندري ، كتاب الولاة والفضاة ، طبعة رفن جيت ، ١٩١٢ ص ٩٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٦ وما يليها - الإربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ - السيوطي ، ص ٢٣٨) .

وقد صعب قيام الدولة العباسية تغيير جذري واضع المعالم في جميع مناحي الحياة الإسلامية ، فن ناحية نظام الحكم شهد العصر العباسي تطورا عميقا في نظم الحكم فأصبحت الساطة عند العباسيين مقدسة معتمدة من الله تعالى لأن الخلافة تستند على نظرية الإمامة التي كانت المحور الرئيسي للدعوة العباسية مع قائل واضح بنظرية الحق الإلهي في الحكم الشائعة عند الفرس (١) ، ولعل هذا يفسر ميل الخلفاء إلى الاستبداد والاحتجاب عن الناس من جهة ، كما يفسر بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة واستمرارها في مصر حتى بعد زوالها من بغداد (٢) ثم من جهة الإدارة سيطر الفرس سيطرة تامة على الجيش والإدارة المركزية ، والمناصب الإدارية التي تنحدر من أصول فارسية كنظام الوزارة والحقابة .

(١) خطب المنصور قائلا : أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وسديده وحارسه على ماله . . . » (العبد فريد ، القاهرة ١٩٤٤ ، ج ٤ ص ٩٩)

(٢) يذكر ابن طباطبا في ذلك أنه على الرغم من استبداد الفرس ثم الأتراك ثم البويهيين ثم السلاجقة بالدولة العباسية في مراحل تاريخها ، « فهذه الدول جميعها طرب على دولة بني العباس ولم تتو نفس أحد على إزالة ملكهم ومحو آثارهم ، وكانت لهم في نفوس الناس منزلة لاتدانيها منزلة أحد آخر من العالم حتى إن السلطان هولاء كانوا لا يفتح منه أحد وأراد قتل الخليفة أي أحد عداه المتهم ألقوا إلى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع المطر والنبات ، فاستهشروا قداك » (ابن طباطبا ، ص ١٢٥) .

ومن الناحية السياسية نلاحظ أن الدولة العباسية انصرفت بوجهها نحو المشرق ، وبينما مكنت صلاتها بأقاليم أواسط آسيا كبلاد الترك والهند والصين ، فاحتكت بها تجاريا ، قل اهتمامها بالمغرب الاسلامي ، مما أضعف النفوذ العباسي في الغرب ، واكتفى العباسيون بإقامة دولة الأغلبة التي اعتبروها بمثابة حاجز يحمي بلاد المشرق الاسلامي من أخطار تعرب المبادئ الخارجية المتطرفة والتشيع .

ومن الناحية الحربية نتج عن تحول الدولة العباسية الى الشرق واتخاذ بغداد مقرا للخلافة العباسية ، أن قل اهتمامها بشؤون البحرية فترة طويلة من الزمان ، كما قل اهتمامها بموانئ البحر المتوسط المشرق في الوقت الذي ازداد اهتمامها بالبحرية التجارية في المحيط الهندي ، مما أدى إلى تألق البصرة وسمرقند وغيرها على الخليج العربي كرافد تجارية هامة .

ومن الناحية الثقافية ظهرت آثار سياسة الانفتاح نحو الشرق في الحركة العلمية ، فكان العصر العباسي عصر إحياء للثقافات الإقليمية وبالذات للثقافات الفارسية القديمة ، وهو العصر الذي بلغت الحياة العلمية أوجها ، ولشملت حركة الترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية .

ومن الناحية الاقتصادية شهد العصر العباسي تطورا اقتصاديا هاما ، فقد هملت الثورة العباسية على تحرير طبقة العمال والفلاحين من السيطرة الاموية ، وإعفاثهم من الجزية ، والسماح لهم بامتلاك الاراضي ، فقلت الهجرات الى المدن ، وأحدث احتكاك العباسيين بالشرق الأقصى رواجا اقتصاديا لا نظير له بسبب تفتح الأسواق التجارية مع الصين وتركستان والهند وتدفق المتاجر والساح

الى العراق ، وازدهرت التجارة البحرية مع الصين عبر سواحل الملايو والهند الصينية ، كما امتدت التجارة العباسية الى بلاد البلغار وحوض نهر الفولجا . وترتب على ذلك أيضا ازدهار الصناعات كالخزف والمنسوجات والتحف المعدنية ، واشتهرت بغداد بالعتاق وهو نوع من المنسوجات اختصت به البتائية ببغداد ، واشتهرت الموصل بالموصل الذي عرفته أوروبا باسم الموصلين . وبازدهار الصناعات تطورت الفنون الزخرفية والفنون المعمارية بعد أن غنتها الفنون الإيرانية والهندية والبيزنطية والصينية بكثير من تأثيراتها الفنية . وباختصار كان قيام الدولة العباسية نقلة هامة ونقطة تحول في تاريخ الاسلام والعصارة الاسلامية .

الفصل الثاني

التعريف بخلفاء العصر العباسي الأول وأهم أعمالهم

١ - أبو العباس عبد الله بن محمد المهدي بابي العباس السفاح

١٢٢ - ١٢٦ هـ (٧٥٠ - ٧٥٤ م)

هو أول خلفاء الدولة العباسية ، تولى الخلافة في ٢ ربيع الآخر سنة ١٢٢ هـ وخطب في صبيحة اليوم التالي لخلافته بجامع الكوفة خطبة مدح فيها آل عمه ، وندد بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ، ثم ختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح والثائر المبسر » ، ولهذا السبب لقب بالسفاح . واختلف المؤرخون في تفسير كلمة السفاح ورجح العدد الأعظم منهم أن لقب السفاح يعني السفاك أو المحب للقتل ، وأن هذه الصفة أضحت به لكثرة جهرائمه والمذابح التي حدثت في عهده ضد الأمويين وأقرب الأقربين إليه كأن سلسة الخلال وزهر آل محمد . ويميل عدد من الباحثين الى تفسير كلمة السفاح بمعنى الكريم الذي يسلح الدنانير ، وأن هذا المعنى يتفق وما عرف عن أبي العباس من الكرم والمطاء وأنه سمى نفسه بالسفاك المبيح أى الذى يهدق الاموال على الميوذين ، والثائر المبسر الذى لا يتردد فى سحق الأعداء والمتأمرين ، ويعتقد هؤلاء الباحثون أن السفاح ، بمعنى القتال ، لم يتلقب به أبو العباس فى المصادر التاريخية الأولى الموثوق بها كالطبرى واليعقوبى والدينورى والجهشيارى ، وأن اسم السفاح لم يرد فى كتابات المؤرخين الا منذ القرن الرابع الهجرى ،

ويضيف هؤلاء أن ابن قتيبة صاحب كتاب الامامة والسياسة يطلق اسم السفاح على عبد الله بن هلى بن عبد الله بن عباس عم أبي العباس الذى اشتهر بشدة البطش وسفك الدماء، وهو الذى قتل مروان فى مصر ومثل بأهل الشام، وينفى هؤلاء الباحثون صفة القسوة وسفك الدماء من أبي العباس الذى انصف بالعلم وكرم الاخلاق وكراهيته لسفك الدماء، ويبرأونه من أعمال المذابح التى جرت فى بداية قيام الدولة، وينسبونها الى أعمام أبي العباس، كعبد الله بن هلى الذى يسميه اليقوتى بالسفاح (١)، وداود، وسليمان، وإسماعيل، وصالح (٢). ولكن مهما دافع عن أبي العباس وبرىء من هذه التهم، فإنه هو المسؤول عن المذابح البشعة التى اقتربت بقيام الدولة العباسية، أما القول بأن اسم السفاح لم يرد فى مدونات القرن الثالث فردود بدليل أن مؤلفا مجهول الاسم (من القرن الثالث الهجرى) لعله ابن النطاح مولى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى (٣) يسمي أبا العباس بالسفاح (٤)، ولا نستبعد لذلك أنه لقب بالسفاح لكثرة ما سفك هو من دماء أو ما سفك فى عهده من دماء الامويين، وبكفى للدلالة على ذلك أنه نخر ساجداً لله عندما وصله رأس مروان بن محمد

(١) راجع: عبد العزيز الحورى، العصر العباسى الأول، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) عبد الحميد البادى، صور وبحوث من التاريخ الاسلامى، ج ٢، ص ٧٠، الاسكندرية ١٩٤٨ - أحمد مختار البادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٤١ - ٤٤. ويميل الزميل الجليل الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد الى تبرئته من أعمال القتل وسفك الدماء وأتى فى ذلك بشواهد عديدة (راجع عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، ج ١، القاهرة ١٩٧٢ ص ٥٠).

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ١٨.

(٤) نفس المصنف، ص ٤١٠ و ٤١٢.

ثم رفع رأسه ، وقال : والحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرتى بك ، ولم يبق
ثأرى قبلك وقبل رحطك أعداء الدين ، ، وتردده لقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم . . . ولا دماؤهم للفيظ ترويني (١)

ومن أمثلة سفكه للدماء ما فعله سليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان فى
مجلسه بطلشنا إلى أمان حصل عليه من الخليفة ، فسمع السفاح مولى له ينقده :

لا يفرئك ما ترى من رجال . . . إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى . . . لا ترى فوق ظهرك أموي (٢)

فأمر السفاح فى الحال بقتل ضيقه سليمان ، وهذه المياسة القادرة بدأ
العباسيون مذابحهم ، فمذبوا بالامويين فى أبى فطرس ، وحلوا حذو خليفتهم
السفاح ، واعتقد أنه لو لم يكن أبو العباس هو الذى نن هذه السياسة الانتقامية
وباركها ما تجرأ بنو العباس أمثال عبد الله بن على (٣) وسليمان بن على (٤) وغيره
على البطش ببقايا الأمويين وتتبع أولادهم وأطفالهم فى كل مكان تصل إليه

(١) للمعتمدى ، ج ٣ ص ٢٥٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢٩ - ابن طباطبا ، ص ١٣٤ .

(٣) أمر عبد الله بضرب تسعين رجلا من بنى أمية بالعمدة حتى قتلوا وبسط عليهم
الانطاع ، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بطمهم حتى ماتوا جميعا ، وهو الذى أمر بنش
قبور بنى أمية بمدفق ، وهو الذى تتبع بنى أمية وقتلهم بنهر أبى فطرس . وقد نسب ابن طباطبا
هذا العمل الاجرامى الى السفاح . ص ١٣٤

(٤) قتل سليمان بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب اللوشية ، فأمر بهم فمحلوا
(أي جروا من أرجلهم) حتى ماتوا وألقوا على الطريق ، فآكلتهم الكلاب .

عساكر العباسيين . وقد وصف المؤرخون أبا العباس السفاح بأنه كان سريماً الى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله في المشرق والمغرب، وكان مع ذلك بهوداً بالمال، (١) .

ويمكننا على هذا الأساس أن نفسر وصف السفاح لنفسه بالسفاح بأنه كان يشوعد من ينوى الخروج عليه بسفك دمه ، وأما المنيع فمنهاها الرجل الجواد كثير المطايا ، ولعله كان يقصد أنه يقدر ما هو سفاح فهو كريم يبذل المال لمن استحققه . والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التي التزمها أبو العباس وقواصها الشدة والجدب، والشدة واللين، والترهيب والترغيب ، كانت ضرورية في أول قيام الدولة العباسية، فقيام الدولة يقتزن دائماً بمثل ذلك ، ومن المعروف أن معاوية ابن أبي سفيان اتبع نفس السياسة ، كما اتبعها أيضاً عبد الرحمن الداخل عندما أسس دولة بني أمية في الأندلس ، واتبعها حفيده عبد الرحمن الناصر عندما تولى إمارة الأندلس والبلاد ممزقة الأوصال ، وهي على العموم سياسة مجدية لأنها تمكن لنفوذ الدولة الجديدة .

وأول ما قام به أبو العباس أنه عزم على اتخاذ أهر لحلافته يكون قريبا من شيمته وأنصاره بدلا من دمشق حاضرة دولة بني أمية البائدة ، ومن المعروف أنه نزل بأدى ذي بده في موضع قريب من الكوفة يسمى هاشمية الكوفة، ولكنه انتقل منها بعد عامين إلى مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات إلى الشمال من الكوفة، فأقام بهوارها مدينة عرفت بهاشمية الأنبار (٢) اتخذها دارا للخلافة . وظلت

(١) السيوطي ، ص ٢٤١ .

(٢) طي بن الحسين الهاشمي الخطيب النجفي ، تاريخ الأنبار ، بيروت ، ١٩٧٢ ص ٥١ وسبب انتقال السفاح من الكوفة الى الأنبار أنه لم يكن مطمئنا الى أهل الكوفة لولائهم له .

الأخبار مقرا للدولة العباسية مدة سبع سنوات إلى أن قام المنصور ببناء مدينة بغداد في سنة ١٤٥ هـ .

ورأى أبو العباس ضرورة القضاء على بقايا الأيوبيين حتى نستقر دعاتهم دولته ويصفو له الأمر ، فقام بمذابح بشمة منها مذبحه تهرأب فطرس هندما أعلن أمانه لكل أسير أموى يسلم نفسه للسلطات العباسية ، وطلب من هؤلاء الأمراء القارين بأن يسلموا أنفسهم ، فلما اجتمعوا لهذا الغرض انقض عليهم العباسيون بإيعاز من عبد الله بن على العباسي وقتلوه ، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان ، والنعم بن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك . ولم يكف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بني أمية بل عهد إلى التمثيل بحش الحلفاء الروابيين وإحراقها ، ويأتى المسعودى فى ذلك برواية لعمر بن هانى جاء فيها : « خرجت مع عبد الله بن على لنهب قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فأنهينا إلى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه ، فطرب به عبد الله ابن على ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (١) ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق فلم نجد منه إلى صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بنيرهما من بنى أمية . وكانت قبورهم بقتسرين . ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فوجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك ، فوجدنا الاشؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فوجدنا فيه إلا عظما واحدا ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول

(١) ذكر اليعقوبى أنه وجد فى منارة على سريرته طلى بماء يبله ، فأخرجه ، فاضرب وجهه بالسود ، وضربه مائة ومقرين سوطا ثم حرقه (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٧) .

في لحده ، ثم أتبعنا قبورهم في جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم ، (١) .

ونلاحظ أن السفاح لم يرع موثيقه التي كانت يمنحها لأعدائه أو حتى لأخصائه ، فكان كثير التكت بها ، مثل ذلك أنه لما حاصر القاندا الأموي ابن هبيرة في واسط ، وطال الحصار إلى سنة كاملة ، أعطاه السفاح أمانا وقعه أبو جعفر المنصور ، وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه من أمان ، ولكن السفاح ألح على أبي جعفر بأمره بقتل ابن هبيرة . وعلى الرغم من مراجعة أبي جعفر المنصور له في ذلك فإن السفاح كتب إلى أخيه يقول : « وانه انتقلته أولاً رسلنا إليه من يهرجه من حجرتك ثم يتولى قتله (٢) » ، وعندئذ قتل المنصور . ويذكر ابن الأثير أيضاً أن أبا جعفر أمن خالد بن سلة الخزومي من قادة الأمويين — وكان مع ابن هبيرة — ولكن السفاح أمر بقتله ولم يجر أمان أبي جعفر (٣) . كذلك أمر السفاح بقتل وزيره أبي سلة الخلال الذي كان من أهم الشخصيات التي ساعدت في تأسيس الدولة العباسية (٤) ، قتله عن طريق أبي مسلم الخراساني ، وبذلك رسم أبو العباس السفاح الخطوة التي اتبناها من

(١) السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٠٧ ومايليها (طبعة بيروت ، دار الاندلس)

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٤) عن أبي سلة راجع : الجيهناري ، ص ٨٥ ، ٨٦ — ابن طباطبائي ص ١٣٦ ومايليها — ابن قتيبة الامامة والعباسة ، ج ٢ ص ٣٣٦ — أبو حنيفة الديلموري ، ص ٣٧٠ — السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٧١ — الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ٦٠ .

خلانته من خلفاء بني العباس في الغدير «الأنصار»، وعدم احترام اليهود والمواثيق، الامر الذي دعا المؤرخين الى القول بأن «الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر»، وكان قسم التحصيل والخزاعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة» (١).

وفي عهد السفاح قامت الثورات العربية في مواضع كثيرة من بلاد الشام والجزيرة، وقام الثوار بالتبويض، أي رفع الألوية البيضاء شعار الدولة الاموية، ففي سنة ١٣٢ هـ بيض حبيب بن مرة المري في البثنية وحموران، ثم بيض أبو الورد مجزة بن انكوث بن زفر بن الحارث الكلبي في قنسرين، وقدم أهل دمشق عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية المعروف بالسقياني، لاستيانتهم من سياسة القتل التي جرى عليها العباسيون. وكان ابن الورد متوليا لمسكر السقياني (٢). ونجح عبد الله بن علي العباسي في إيقاع الهزيمة بقوات أبي الورد في مرج الأخرم وقتلهم جميعا. أما السقياني فقد فر الى تدمر، ثم لحق بأرض الحجاز، وظل هناك حتى خلافة المنصور ثم قتل. وفي نفس سنة ١٣٢ هـ (٣) بيض أهل الجزيرة، وخلصوا أبا العباس السفاح، وزحفوا الى حران، كذلك بيض أهل قرقيسيا والرقّة ودارا وماردين والرها وسميساط، ولكن أبا جعفر المنصور تمكن من القضاء على هذه الثورة. كذلك قامت ثوراته أخرى في خراسان وحمّان ومصر، كلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم للدماء.

(١) ابن طباطبا، ص ١٣٢،

(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٥٢،

(٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٣٦ — ٤٣٤.

وعلى الرغم مما اتصف به أبو العباس السفاح من قسوة فإنه كان كريما كثير
البدل، وكان شاعرا يميل الى الادب وسماع الغناء، وكان يظهر لندمائه ويجهلهم
ويجهل لهم العطاء، وكانت تهجبه مفاخراته العرب من نزار والبن (١). وله
سجنائه يقول الصولي: « وكان السفاح استخى الناس، ما وعد عدة فأخوفا غن
وقتها، ولا قام من مجاسه حتى يقتضيها » (٢).

٢ - أبو جعفر المنصور: ١٣٦ - ١٥٨ هـ (٧٥٤ - ٧٧٥ م)

كان السفاح قد عقد في سنة ١٣٦ لاختيه أبي جعفر عبيد الله بن محمد بالخلافة
من بعده، وجعله ولي عهد المسلمين، على أن يليه في ولاية العهد عيسى بن موسى
ابن محمد العباسي. فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة، فأخذ عيسى بن
موسى البيعة لأبي جعفر وكتب إليه بطلبه بوفاء السفاح والبيعة له.

وهكذا ولي المنصور الخلافة والأخطار ما تزال محيطة بالدولة، فهناك
العلويون من آل الحسن وجماعة من أقاربه وأنصاره يكيدون له. وكان أبو
جعفر على حد قول السيوطي « فحل بنى العباس هيبة، وشجاعة، وحرما،
ورأيا، وجبروتا، جماعا للبال، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، شديد
المشاركة في العلم والآداب، فقيه النفس، قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه،
وهو الذي ضرب أبا حنيفة - رحمه الله - على القضاة ثم سجنه، فمات
بعد أيام » (٣). ويصفه ابن طباطبا بقوله: « كان المنصور من عظماء الملوك

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٧١

(٢) السيوطي، ص ٢٤٠

(٣) نفسه ص ٢٤٢

وحكامهم وعقلاهم وعلماهم وذوى الآراء المأبئة منهم، والتدبيرات السديدة،
والتقوا شديداً الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون
من هيبث أو مزاح، . ويضيف الى هذه الصفات صفة المكر والتيقظ، وينسب
اليه أصل الدولة ونضبط المملكة وترتيب القواعد وإقامة الناموس (١). ولهذا
كلمة يفتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية (٢). ولا شك أن
الفترة التي قضاها المنصور في الخلافة العباسية تعتبر من أهم عصور الخلافة إن
لم تكن أهمها على الإطلاق، فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاماً حكماً استبدادياً
اضطجع خلاله العنف والقسوة، وأشاع أنه يحكم بتزويض من الله، كما يتجلى في
قوله: «إنما أنا سلطان الله في أرضه» (٣)، وعلى هذا الأساس عمل العباسيون
على الاحتفاظ بالخلافة في دولة تهورراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين،
وكان من أثر ذلك أن أصبحت الخلافة العباسية ذات طابع استبدادى ودينى،
وركر الخليفة فيها جميع سلطات الدولة في يده فلم يكن للوزير من
الأمر شيء.

وفي سبيل تثبيت دعائم الدولة العباسية الفتيمة لم يتردد أبو جعفر المنصور
في القدر بكثير من أنصاره وبمضي أقربائه (٤)، وأصبح القدر سمة تمثل الطابع
الذى التزمته الدولة العباسية طوال تاريخها الطويل وقد استعمل أبو جعفر
همده بقتل عمه عبد الله بن علي الذي يرجع اليه الفضل الأول في إيقاع المريعة

(١) ابن طباطبا، ص ١٤١، ١٤٢

(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٥٥

(٣) العهد الفريد، تحقيق الأستاذ أحمد أمين، القاهرة ١٩٤٤ ج ٤ ص ٩٩

(٤) عبد العزيز الدوي، العصر العباسي الأول، ص ٧٠

بحرمان بن محمد في موقعة الزاب ، وهو الذي تتبع الامويين بالقتل والتشريد ، وقضى على الفتن الكبرى التي قامت في الشام ضد الحكم العباسي . ويرجع سبب قتله لعنه الى أن عبد الله بن علي ما كاد يسمع بوفاة أخيه السفاح حتى خرج غلي المنصور ، فجمع جنده ، وطلب منهم أن يبايعوه ، وادعى أن أبا العباس جعل له الجهد عندما سيره لقاتلة مروان بن محمد ، وأنى بشهود شهدوا له بذلك ، وبإيمه أكثر أهل الشام (١) رغم كراهيتهم له نكايه لأبي جعفر . ثم سجد أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتال أخيه عبد الله ، فسار أبو مسلم وهو كاره ، واشتبكت قواته مع قوات عبد الله في قتال طويل الأمد دام خمسة شهور وانتهى بهزيمة عبد الله بن علي في ٧ جمادى سنة ١٢٧ هـ ، ففر عبد الله الى أخيه سليمان وإلى البصرة ، فأخفاه عنده ، ثم مله الى أبي جعفر في سنة ١٢٩ هـ بعد أن حصل على الأمان له ، فسجنه المنصور ثم قتله بعد تسع سنين (٢) في سنة ١٤٧ هـ .

كذلك أقدم أبو جعفر المنصور في سنة ١٣٧ هـ على قتل أبي مسلم الخراساني قائد الثورة على الامويين في خراسان ، ويمزون قتل المنصور له إلى الأسباب الآتية :

١ — تمادى أبي مسلم في زهوه (٢) وإسرافه في قتل النفوس البريئة

(١) الطبري ، ج ٢ ص ٣٦٥ — للمسعودي ، ج ٣ ص ٢٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٢) للمسعودي ، ج ٣ ص ٣٠٥ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٨٢ .

(٣) خاصة بعد انتصاره على عبد الله بن علي عندما أراد المنصور أن يختبر مدى طاعته له ، فأرسل اليه رسولا ليحصى عليه الثنم ، فغضب وتناول أبا جعفر بالسانه ، وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه (المسعودي ج ٣ ص ٢٩٠ — الطبري ، ج ٢ ص ٣٦٦) .

٢ — تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق العودة عندما يلته نجا وفاة أبي العباس السفاح .

٣ — بعد وفاة السفاح أرسل أبو مسلم إلى المنصور رسالة يعز به فيها دون أن يفتنه بالخلافة .

٤ — كان المنصور قد أمر الحسن بن قحطبة ، وإلى الجزيرة ، أن يلحق بأبي مسلم عند توجهه لمقاتلة عبيد الله بن علي في الشام ، فكتب ابن قحطبة إلى المأمون يأمره بالصور يقول : « لاني قد رأيت بأبي مسلم أنه يأتيه كتاب من المؤمنين فيقرأه ثم يلقى الكتاب من يده إلى مالك بن الحيثم فيقرأه ، ويضحك استبزاز » (١) .

٥ — تهرأه على قتل سليمان بن كثير الخواص أحد شيوخ الدعوة العباسية دون استشارة الخليفة .

٦ — تحديه لأمر المنصور عندما صرفه عن ولاية خراسان وولاه الشام ومصر وقوله : « هو يوليئ الشام ومصر ، وخراسان لي » (١) ، واستمراره في السير إلى خراسان .

٧ — تقديمه لاسمه على اسم الخليفة في رسائله ، واتساعه إلى سليمان ابن عبيد الله بن عباس (٢) .

والواقع أن أبا مسلم تمادى في الإعتداد بنفسه لاستشعاره بأنه صاحب الله عز وجل الأعظم في قيام الدولة العباسية ، وتجاوز حدود سلطانه إلى حد أخاف المنصور منه على خلافته .

وفي عهد المنصور ظهرت عدة فحل دينية أشهرها حركة الراوندية التي ظهرت في قرية راوند بالقرب من أصفهان عقب مقتل أبي مسلم الخراساني

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٩ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٣) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٧٥ .

وهي حركة مستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التي روجها الفرس بدافع
الشعور بالقومية الفارسية . ويمتد أصحاب هذه الحركة بتناسخ الأرواح
ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك (١) ، وأن ربهم الذي يطعمهم
ويعطيهم هو المنصور (٢) . وقد اعتبر المنصور هذه النحلة خروجاً على الدين ،
فحارب أصحابها ، فانقلبوا عليه وكادوا يفتكون به ، ولكنه ظفر بهم وقتلهم .
ثم تشككت الراوندية في حركات متفرعة مختلفة منها الحرمية ، وهي فرقة تدعى
أيضاً بالمسلبية (٣) ، قطعت بعدم موت أبي مسلم ، ومنها المقنمية نسبة إلى رجل
من مرو من أنصار أبي مسلم ادعى الألوهية واتخذ قنساغا يخفى قبح وجهه ،
وأباح المقتنع ترك الصوم والحج والزكاة ، كما أباح النساء لاتباعه ، ولم يتم القضاء
على هذه الحركة إلا في زمن المهدي .

وفي عهد المنصور أخذ العلويون ينارمون العباسيين وينابذونهم العداء لأنهم
خدعهم ، واستأثروا بالخلافة دونهم ، وكان يقود العلويين في المدينة
بنو الحسن ، وعلى رأسهم أخوان هما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن
علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية لزمه ونسكه ، وكان يلقب بالمهدي ،
والثاني إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتييل بالخرى . فاهتم المنصور اهتماماً

(١) رئيس حرس الخليفة في الحاشية .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٠٢ — ابن طباطبأ ، ص ١٤٣ .

(٣) من رؤسائها سباز الذي خرج في نيسابور يطالب بدم أبي مسلم الخراساني ، ولكن
المنصور سير إليه جيشاً بقيادة جهور بن مراد العجلي هزمه وقتله وقتل أتباعه وذلك سنة
١٣٧ (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١) .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، ص ١٩١ —

ابن طباطبأ ، ص ١٤٨ .

خاصة بالقضاء على الحسينيين ، فسير جيشاً ضخماً بقيادة عيسى بن موسى ولى هم. هـ ، وحميد بن قحطبة ، اشتبك مع انصار النفس الزكية في موضع قريب من المدينة ، فدارت الدائرة على الحسينيين ، وقتل ابن قحطبة محمد النفس الزكية ، واحتز رأسه ، وحمله إلى المنصور في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ (١) ، أما أخوه إبراهيم فقد أعلن الثورة في البصرة ، واستولى عليها ، فأرسل المنصور اليه جيشاً بقيادة عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم ، واشتبك إبراهيم بن عبد الله بن الحسن مع الجيش العباسي في الموضع المعروف باسم باخرى القريب من الكوفة ، فانهزم وقتل هناك في نفس العام (٢) ، وحزوا رأسه فأثروا به عيسى بن موسى وذلك في ٢٥ من ذي القعدة .

ويقرن اسم المنصور بمدينة بغداد التي شيدها في سنة ١٤٥ هـ ، ويرجع منبب بنائه لها على حد قول ابن الأثير إلى أنه لما ثارت الراوندية في الهاشمية الواقعة بنواحي الكوفة ذكره سكانها لذلك ولجؤوا أهل الكوفة أيضاً فانه كان لا يأمن أهلها على نفسه ، وكانوا قد أنسدوا جنده (٣) . فخرج بنفسه هرباد له ، وضعاً يسكنه هو وجنده ، فالتحق إلى جرجرايا ، ثم أصعد إلى الموصل ، وسار نحو الجبل في طلب منزل يبنى له ، حتى انتهى إلى موضع بغداد ، الذي يجمع بين الماء والزرع ، في موقع يمكن أن تصل إليه السفن من الشام والرقعة والمهرة من الصين والهند والبصرة وواسط والموصل وأرمينية ، بين أنهار

(١) المصردى ، ج ٢ ص ٢٧٦ - المصردى ، ج ٣ ص ٢٩٦ - أبو الفرج الاصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ٢٠٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٠ - ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .

(٢) المصردى ، ج ٣ ص ٢٩٦ - مقاتل الطالبين ، ص ٢٥٢ - ابن الأثير ،

ج ٥ ص ٥٧٠ - ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ - ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

لا يصل إليه عدوه الا على قنطرة . فاعجبه المكان ، وعزم على اختياره لإنشاء
بغداد ، وأمر باختيار قوم من ذرى النمل والعلم والمعرفة بالهندسة ليتولوا
تخطيط المدينة . فابتدأ المنصور بإنشائها في سنة ٤٤٥ هـ ، وكتب الى عماله بالشام
والجبل والكوفة وراسط والبصرة يأمرهم بإنفاذ الصنائع والفعايلة ، فكان من
أحضر من كبار العقلاء الحاجب بن أرطاه وأبو حنيفة ، وتم البناء في سنة ١٤٦
وبجملها المنصور مدورة ^(١) ، وفتح في سورها أربعة أبواب ^(٢) . ومن أسماها
بغداد أو بغداد ، والزوراء لانحراف قبلتها الى اليسار ، وقيل لا زوراء
نهر دجلة عند مروره بها ، كما سمي الجانب الشرقي منها الروحاء لانبساط مجرى
النهر عنده . وفي وسط المدينة أقام قصره ، والجامع ، ودار حرسه ، ومنازل أولاده
ومنازل من يقوم بخدمتهم ، وقصور الأمراء ورجال الدولة ^(٣) ، ودور الأهالي
تتخللها الأسواق . وقد حرص على تحصينها لتحياكي في العظمة والفخامة والمناعة
القسطنطينية العظمى . ومن أشهر قصور بغداد قصر الضيافة المعروف بالخضراء
وكان ينزل فيه السفراء والوافدون على بغداد من مختلف الأقاليم حتى يحدد لهم
المنصور وقت مقابلته لهم ، وكان بأعلى هذا القصر تمشال على صورة فارس في
يده رمح يدور مع الريح ^(٤) ، ووصفت قبة القصر بأنها كانت تاج البلد وعلم
بغداد . كذلك بنى قصر الخلد على شاطئ دجلة الغرب خارج بغداد ، بينما كان

(١) الأربلي ، ص ٧٤ .

(٢) هي باب خراسان في الشمال الغربي ، وباب البصرة في الجنوب الغربي ، وباب الكوفة
في الجنوب الغربي ، وباب الشام في الشمال الغربي . وعلى كل باب منها مجالس ومسابح
يصعد اليها على الخيل (البهوتي ، ج ٢ ص ٣٧٣) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٤ .

(٤) الأربلي ، ص ٧٦ .

قصر الذهب في قلب المدينة . وأقام المنصور خارج بغداد على الضفة الشرقية من نهر دجلة، في قبالة المدينة، ربضاً سمي برصافة بغداد، اتخذته مكناً لجنده، وسوره وخندق حول السور . وسرطان ما عمرت الرصافة ، وأصبحت تضاهي بغداد في العظمة . وفي سنة ١٥٧ هـ أمر المنصور ببناء محلة الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد ، ويرجع السبب في بناء الكرخ الى ارتفاع الدخان المتصاعد من الاسواق وتسببه في اسوداد بغداد، الأمر الذي أزعج المنصور وضايقه، فأمر بنقل هذه الاسواق التي كانت تشغل قسماً كبيراً من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . وقيل في سبب نقل الاسواق الى الكرخ أن رسول ملك الروم جاء الى بغداد ، فأمر الربيع فطاف به في المدينة ، فسأله المنصور : كيف رأيته ؟ قال : رأيت بناء حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوق ، فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم الى ناحية الكرخ ، وقيل إنما أخرجهم لان الغرباء يطرقونها ويهتدون فيها ، وربما كان فيهم الجاسوس (١) .

وفي عهد المنصور غزا البيزنطيون بعض أراضي الشام في سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م) في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس ، واستولوا على ملطية (٢) ، وهدموا سورها، ولكن المنصور تمكن من استردادها في العام التالي ، وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة . وفي هذه استقل عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بالاندلس عن الخلافة العباسية، فأراد المنصور أن يقضى على سلطان عبد الرحمن الأيوبي فيبعثه العلاء بن منيخ اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن، ولكن الأمير تمكن من إيقاع الخديمة بالعباسيين في قرمونة (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ١ ص ٥٧٤ .

(٢) هس المنصور ، ص ٤٨٨ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وأندلسهم في الأندلس ، بيروت

وتوفي المنصور في سنة ١٥٨ هـ بالقرب من مكة وهو في طريقه للحج .

(٣) المهدي بن المنصور : (١٥٨ هـ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م)

هو محمد بن عبد الله المنصور ، بويغ له بمكة يوم توفي أبوه ، وحكم المهدي قرابة ١١ سنة قضتها الدولة في سلام ، وساعد على ذلك ميله إلى السلم واستقرار أمور الدولة في حياة أبيه . وقد عكف المهدي على الفنون ، وخاصة العمارة ، فأقام سور الرصافة ، وبني مسجدها ، ووسع المسجد النبوي بالمدينة ، وجمعه بالقيسية والعمد ، وكسا الكعبة سنة ١٦٠ هـ بالدباج والحز والقباطر ، وبنى جدرانها بالمسك والعنبر (١) ، وبنى على جوانب الطريق المؤدى إلى الحج منازل ومحطات لراحة الحجاج (٢) . وأمر كذلك بالزيادة في المسجد الجامع بالموصل في سنة ١٦٣ هـ (٣) . وكان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين حبا للموسيقى والغناء ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوى المواهب الفنية أمثال حكم الرادى وسياط وإبراهيم الموصلى ، ويشير ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان ابنه أبو اسحق إبراهيم من كبار المغنين والموسيقيين في بلاط الرشيد والأمين ، وعد إبراهيم زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية الفارسية ، بخلاف اسحق الموصلى الذى تزعم المدرسة التقليدية العربية (٤) .

وكان المهدي شديدا على أهل الضلال والزندقة ، لاتأخذه في أهلاكهم لومة لائم (٥) . ففى عهده ظهرت حركة المقتضية بزعامة المقشع الخراسانى سنة ١٥٩ هـ

(١) الطبرى ، ج ٢ ص ٣٩٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٢ - السيوطى ، ص ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٦ .

(٤) راجع فارمر ، ناويغ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة

١٩٥٦ ص ١٤٢ .

(٥) ابن طططا ، ص ١٦١ .

قادهما رجل من أهل مرو - موطن النحل الفارسية - أعور ، قصير القامة ، دميم الخلق ، اتخذ لوجه قناعاً من ذهب لاختفاء قبح وجهه ، وادعى الألوهية ، وكان يقول أن الله خلق آدم ، فتهوّل في صورته نوح ، وهكذا هلم جراً إلى ابن مسلم الحراني ، ثم تحول إلى هاشم ، وسمى نفسه هاشمياً ، وكان يقول بالتناسخ ، فتابعه في الضلال خلق كثير ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من النواحي ، وكانوا يقولون في الحرب : « يا هاشم أعفأ » . وتجمع حوله حشد كبير من التابعين وتحصنوا في قلعة بسنام وسجدة من رساتيق كش ، وأطاعه الترك في بخارى والصند (١) . ولكن هذه الحركة لم يطل أمدها ، فقد انتهت بهلاك المقتنع ، ذلك أن المهدي سير إليه جيشاً بقيادة معاذ بن مسلم ، وسعيد الحرشي ، أوقع بأصحاب المقتنع فجزمهم ، فلما أيقن المقتنع بالهلاك ، جمع نساء وأهله وسقاهم السم ، وأمر أن يحرق هو بالنار حتى لا يمتثل بهشته (٢) .

كذلك ظهرت في أيام المهدي حركة الزنادقة ، وكان أصحاب هذه الحركة ينادون بالإباحية المطلقة والفوضى والتحلل من جميع القيم والروابط الاجتماعية ، وقد تتبع المهدي الزنادقة في كل مكان ، ونكّل بهم ، وعين لمطاردتهم رئيساً يعرف بصاحب الزنادقة ، قتل منهم أعداداً هائلة ، وبلغه أن صالح بن أبي عبيد الله كاتبه زنديق ، فأحضره ، فلما تأكد لديه ذلك قتله (٣) . والمهدي أول من أمر بتصفية كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملاحدين (٤) .

وفي عهد المهدي ساءت العلاقات بين البيزنطيين والعباسيين ، فلم تنقطع

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٣) الطبري ، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٤) السيوطي ، ص ٢٥٣ .

الحرب البرية والبحرية بينهما ، ففد سنة ١٥٩ هـ توالى حملات المهدي على البزنطيين (١) ، وقد رد البزنطيون على تلك الغارات ، فأغاروا على مرعش وأحرقوها ، فجعل المهدي ابنه هارون فى حلب لمهاجمة البزنطيين ، وحمل هارون على مقباتلهم ، فوصل جيشه إلى سواحل الإسفور ، وأرغم الامبراطورة إيرين الرصية على ابنا قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين مبلغا قدره سبعون ألف دينار سنويا ، وعقدت الهدنة بين المهدي وإيرين لمدة ثلاث سنوات (٢) .

٤ - المهدي بن المهدي : ١٦٩ - ١٧٠ هـ (٧٨٥ - ٧٨٦ م)

هو أبو محمد موسى المهادى بن المهدي ، بويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المهدي ، وفى عهده القصير ضعفت الخلافة العباسية ، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين والمتصلين به من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن فى شئون الدولة ، بما قلل هيبتها ، فكانت أمه الخيزران حاكمة مستبدة بالأمور السكبار ، وكانت الموابك تغدو إلى بابها ، وقيل أنها سعت إلى قتله لما وعك ، فسمته ، وقيل غموا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ - السيوطي ، ص ١٦٠ وما يليها .

يمثلون سبب حقدما عليه بأنه حاول إقصاء أخيه هارون الرشيد عن الخلافة والبيعة لابنه جعفر ، فغالت الخيزران على هارون ، وكانت تحبه ، ففعلت بالمهدي ما فعلت . وقيل أنه كان شديد الغيرة على الخيزران ، فسكره منها خروجها فى الموابك وانتهبها ، صاحبة رجل يقال له عند الله بن مالك ، ففاضبها وأقسم ليضربن عنقه (راجع : المسعودي ، ج ٣ ص ٣٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ - ابن طباطبغا ، ص ١٢٣) .

وفى عهد الهادى بدأت ظاهرة استقلال الأطراف فى الدولة العباسية ، وقامت الفتن والمنازعات فى الداخل . فقد ثار العلويون الحسينيون فى الحجاز فى سنة ١٦٩ هـ بزعامه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فأرسل الهادى لاختاد حركتهم جيشا إلى مكة بقيادة محمد بن سليمان وتم الاشتباك فى وادى بطريق مكة يسمى فخ ، فقتل الحسين ومن معه من أهل بيته ، وفر أحد أقاربه وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فأتى مصر ، ومن هناك خرج إلى المغرب الأقصى واستقر بولاية ، فاستجاب له من بها من البربر ، وتمكن بفضل هؤلاء الاتباع من تأسيس دولة الادارسة .

وكان الهادى هنيئا فى عمارية الزنادقة فى سنة ١٦٩ هـ التى تولى فيها الخلافة ، فقتل منهم جماعة (١) فيهم على بن يقطين ، ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عباس (٢) .

٥ - هارون الرشيد : ١٧٠ - ١٩٣ هـ (٨٧٦ - ٨٠٩ م)

هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدى ، من أعظم خلفاء بنى العباس وأكثرم ذكرا فى التاريخ العباسى ، لما اتصف به من كرم وجود ، ولما وصلت اليه الدولة الاسلامية فى عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج ، فقد أصبحت بغداد فى أيامه كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة ، حتى أصبح اسمه مقرونا بألف ليلة وليلة . وفى عصره ارتقى فن الغناء والموسيقى بفضل جهود هنتيه ابراهيم الموصلى وعواده زلز ، وظهر فى أيامه شعراء عظام أمثال أبو العتاهية

(١) الإربل ، ص ١٠٦ - البيهقى ، ص ٢٦٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة، ومؤرخين أمثال الأصمعي والواندي وفي عهده أيضا ظهر التأثير الفارسي في الحياة الاجتماعية، فاحتفل الناس بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز الذي أصبح يحتفل منذ قيام الدولة العباسية بما كان له من عظمة وروعة، ولم يقتصر الاحتفال بهذا العيد على الفرس حسب تقاليدهم القديمة، بل عد عيدا شعبيا عاما، كما احتفل به الخلفاء احتفالا رسميا^(١)، وأصبحت الأزياء تتبع النمط الفارسي كما انتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية. ومن أنواع الأطعمة الفارسية التي شاعت في هذا العصر السكباج^(٢) والأسفيدباج^(٣)، ومن أمثلة الحلوى الفارسية الفالودج^(٤) والخشكنانج^(٥)،

ويشيد عصر الرشيد بقيام عدة ثورات: منها ثورات العرب في الشام ومصر والموصل، وفتنة الخوارج في الجزيرة^(٦)، وخروج العلويين في طبرستان وأفريقية (تونس) وفي عصره نكب البرامكة سنة ١٨٧ هـ بعد أن

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، النوروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢ ص ٤٨.

(٢) الأبنسي، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة ١٢٩٢ ج ١ ص ٢١١.

(٣) البغدادي، الطيخ، تحقيق الدكتور داود الجلي، الموصل، ١٩٣٤ ص ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٨.

(٦) ثار الصمصم الخارجي في الموصل سنة ١٧١ هـ، وثار الفضل الخارجي في صيحين سنة ١٧٦ هـ، والوحيد طريف الشاري في الجزيرة الفراتية سنة ١٧٨ هـ وحزة بن عبدة الأورقي في سجستان سنة ١٧٩ هـ، كما خرج كثيرون غيرهم، وقد اضطّر الرشيد إلى هدم سور الموصل بسبب كثرة ثورات الخوارج بها (راجع ذلك في: فاروق عمر فوزي، الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حزة بن عبدة الله الخارجي، المجلة التاريخية، العدد ٣، بغداد ١٩٧٤ ص ٢٦٠ وما يليها).

سيطروا على الدولة اقتصاديا وإداريا، وكانوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة في الحكم، وفي الشؤون المالية، وفي الإدارة وفي العلوم والفنون، ومستحدثات عن نكبتهم بالتفصيل عند تعرضنا لعلاقة العباسيين بالفرس .

أما عن عن علاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية فكانت علاقة حرب بحدوث علاقتها بالدولة الكارولنجية التي ارتبطت عائلتها شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) مع الرشيد بعلاقات المودة والصداقة، وتبادل الجانبان الهدايا والسفارات. ومن المعروف أن الرشيد قاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه، ففي سنة ٨١٨ خرج على رأس جيش كثيف إلى آسيا الصغرى واجتاز منطقة الثغور، والتحق بالمواقع البيزنطية في آسيا الصغرى، وافتتح حصن الصفصاف، كما غزا قائد عبد الملك بن صالح بلاد البيزنطيين في نفس السنة، فبلغ أنقرة (١) فاضطرت الامبراطورة ايرين إلى شراء سلام مهين لبيزنطة من العباسيين، ثم قامت في بزنطة بحركة انقلابية ضد ايرين في ٨٨٧ م (٨٠٢ م) أطاحت بحكمها، وخلفها الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) الذي نقض الهدنة، وامتنع عن دفع الجزية، وبرزى ابن الأثير هذا الخبر بقوله : « وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني فخلعتها الروم وملكوا نقفور، ونزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان، وكان قبل أن يملك يلى ديولن الخراج، ومات ريني بعد خمسة أشهر من خلعهما. فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد :

« من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبل أن تملك مقام الخرج، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقيا بعمل أضعافها إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمتن، فإذا

قرأت كتابي هذا فاردت ما حصل لك من أموالها ، واقتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك ، (١) . فلما قرأ الرشيد الكتاب استغفره لنفسه حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تمنعه والسلام (٢) » . وعلى أثر ذلك زحف بجيوشه مخترقاً آسيا الصغرى حتى نزل على هرقله ، ففتحها وغنم غنائم كثيرة ، وانتصر على البيزنطيين في عدة مواقع ، وأرغم الإمبراطور نقفور على إبرام معاهدة صالح تعهد له فيها بدفع الجزية من جديد . ولكن البيزنطيين لغضوا هذه المعاهدة مرة ثانية ، وهاجموا الدولة العباسية والرشيد في طريق عرودته ، وهزموا المسلمين في جنوب آسيا الصغرى منتهزين أنفسهم الخليفة ببعض الفتن الداخلية ، ولكن الرشيد خرج في سنة ١٩٠ هـ وفتح هرقله والصف صاف وملقوبة وغيرها ، وأسر من البيزنطيين ستة عشر ألفاً (٣) ، وفرض جزية عليهم قدرها خمسون ألف دينار .

وتوفي الرشيد وهو غاز بخراسان ، فدفن بطوس في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، وكان قد بايع بولايه العهد لأولاده الثلاثة : الأمين سنة ١٧٥ هـ ، ثم المأمون سنة ١٨٢ هـ ، ثم المؤتمن سنة ١٨٦ هـ ، وقسم دولته بينهم ، فمهد بالقسم الشرقي إلى المأمون ، وبالجزيرة والعواصم إلى المؤتمن ، أما الأمين فقتل بالشام والعراق إلى آخر المغرب (٤) .

(١) ابن الأثير ٤ ص ١٨٥

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ص ١٨٥

(٣) السيوطي ، ص ٢٦٨

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٣

٦ - محمد أبو عبدالله الأمين : ١٩٣ - ١٩٨ هـ (٨٠٨ - ٨١٣ م)

هو ولد الرشيد من زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور . ولى الأمر بعد الرشيد صبيحة القيلة التي توفى فيها ، وكان المأمون حينئذ بمرور ، وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها المؤرخون إليه (١) واقباله على القمو وانقطاعه إلى معاشرته النجان عن تدبير الدولة ، وتوجيهه إلى جميع البلدان في طلب المهملين ، واستخفافه بأخويه وبقواده ، وإسرافه في الاتفاق على ملذاته ومقته ، على الرغم من ذلك كله ، فقد كان شجاعاً فصيحا أدبيا كريما (٢) ، أما ما رصده المؤرخون فإنما يهبر عن النزعة الشعبية التي اعتبرت النزاع بين الأمين والمأمون صراحا بين القومية العربية والقومية الفارسية ، وكان من الطبيعي أن تجد العناصر الفارسية المأمون في ضراعه ضد الأمين ، لأن المأمون ، بحكم كون أمه فارسية ، يمثل النزعة القومية ، وكان وزره الفضل بن سهل فارسيا ، وكان أبوه - أي أبو الفضل - محوسبا إلى أن أسلم في زمن الرشيد ، واتصل بالرشيد عن طريق جعفر البرمكي ، فعينه الرشيد مع

(١) ذكروا أنه كان سيئ التدبير ، كثير التبذير ، ضميم الرأي ، أرمن لا يصلح للامارة ، ويدللون على ذلك بأنه أمر أول ما يبيع بالخلافة ثاني يوم ببناء ميدان بجوار قصر المنصور للمعب بالسكر ، وأنه عزل أخاه المؤمن سنة ١٩٤ هـ ، مما كانت الرشيد ولاء ، ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب سعي الأمين على عزل المأمون ، فأسقط اسم الأمين من الطراز ، وقطع البريد عنه .

(٢) ابن طباطبا ، س ١٩٣ . ومن الأمثلة الدالة على كرم عنصره ، أن الفضل بن الربيع اقترح عليه لما تأزم الموقف بعد هزيمة قوات الأمين أن يأخذ ولدى المأمون رهينة حتى يتفاد له مطالبه فإذا أبى تنفيذها قتلها ، فرد عليه الأمين : « أنت امرأى مجنون ، أدموك إلى ولاية أمة العرب والمجم ولطمحك خراج الجبال إلى خراسان وأرفع منزلك على نظرائك من أبناء القواد والملوك ، ولدعوني إلى قتل ولدى وسفك دماء أهبل بيتي » (ابن الأثير ص ٢٥٤) .

ابنه في إدارة القسم الشرقي من دولته ، فالفضل بن سهل هو الذي أشعل نار الفتنة بين الآخرين سبها لأقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس ، وهو الذي سعى إلى فصل خراسان عن الدولة العباسية . لهذا لا نستبعد أن يكون ما وصم به الأمين من صفات ذميمة من نسج خصومه وصنائعهم السعويديين . وكل ما في الأمر أن الأمين لم يوفق في اختيار رجاله ، ولم يفتن إلى حقيقة المؤامرات التي كان يحبكها أعداؤه ضده .

ويرجع سبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلى أن الفضل بن الربيع وزير الأمين فطن إلى أن المأمون إذا آلت إليه الخلافة وهو حي لن يبق عليه ، فسمى الفضل إلى إغراء الأمين وحشه على خلع المأمون من ولاية العهد ، والبيعة بولاية العهد لابنه موسى بن الأمين ، فبادر الأمين بالدعاء لابنه بالإمرة بعد الدعاء للمأمون ولدوتن ، ثم جامع المؤتمن ، ووجه إلى المأمون يطلب إليه أن يقدم ابنه موسى على نفسه ويحضره عنده ، فاستشار المأمون وزيره الفضل بن سهل وخاصته ، فأغروه بالامتناع ، فامتنع ، وكتب يستدر (١) ، وفي نفس الوقت عمد الفضل إلى استمالة العباس بن موسى رئيس وفد الأمين إليه ، ملوحا له بإمرة بعض مواضع من مصر ، فأجاب إلى بيعة المأمون ، وأصبح العباس عينا للمأمون يكتب إلى الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد (٢) . ثم عمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين الآخرين ، فحرض المأمون على الاستقلال بخراسان عندما أرسل الأمين إلى هاله في خراسان يطلب منهم النزول عن بعض كورها ، فامتنع المأمون عن إجابة الأمين إلى طلبه ، وأمر بسد الطرق والمنافذ المؤدية إلى خراسان بتقات

(١) ابن طباطبا ، ص ١٩١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٠ .

رجالاً حتى ينعزوا أحداً من العبور، فحظر أهل خراسان أن يستألفوا برغبة أو رهبة، وضبط الطرق بثقات أصحابه فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه، وأتى بهواز، أو كان تاجر أمروفاً، وفتحت الكتب^(١)، بل عهد المأمون إلى مكاتبة ملك كابل وملوك الترك وعاقان التبت الذين خرجوا على طاعة الأمين وبعث إليهم ببعض الهدايا.

فلما علم الأمين بذلك بايع لولده موسى بولاية العهد، وسماه الناطق بالحق، وأمر بالعداء له على المنابر، وقطع ذكر المأمون والمؤمن في ربيع الأول سنة ٨١٩٥هـ، وأرسل إلى الكعبة بمض الحجابة فأتوه بكتان العهد الذين وضعها الرشيد في الكعبة بديعة الأمين والمأمون، فأحضرهما عنده، فزقها الفضل بن الربيع. وكان لنكث الأمين أمه أبيه أثر عميق في إغضب أهل خراسان وغيرهم. ثم تطورت الفتنة، وأصبحت نزاعاً بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين، وقد ساند الأمين في موقفه ضد الفرس وزيره الفضل بن الربيع، وعلى بن عيسى بن ماهان، وعبد الرحمن بن جبلة أعظم قواده. أما المأمون فقد وقف إلى جانبه الفضل بن سهل، ومن قواده هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين. وبدأ الأمين يجهز قواته لمواجهة الفتنة. ثم أمر على بن عيسى بن ماهان بقيادتها لحرب المأمون بعد أن جهزه بخمسين ألف فارس، وكتب إلى أبي دلف القاسم بن إدريس المجلي، وهلال بن عبد الله الحضرمي بالانضمام إليه، وخرج على بن عيسى في شعبان سنة ٨١٩٥هـ، وركب الأمين يشيعة ومعه القواد والجنود.

وفي نفس الوقت كان طاهر بن الحسين يسير بالري والامداد تأييده من خراسان، وكان يتأهب للقتال، فلما بلغ على بن عيسى ذلك - وكان مغروراً

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٩٣١ - ابن طباطبאה، ص ١٩٥.

بقوته، خلق بقوله : « إنما طاهر شوكة من أخصائي ، وما مثل طاهر يتسول
الجهوش ، » وقال لأصحابه : « ما بينكم وبين أن ينصف انقصاص الشجر من
الريح والريح الماصف إلا أن يلفه هبورنا عقبة همدان ، فإن السبخال لا تقوى
على النشاط ، والبنال لا صبر لها على لقاء الأسد ، وإن أقام تمرض لحد السيوف
وأسنه الرماح ، وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك في أعضادهم ، (١) .

وحدث الاشتباك بالقرب من الرى ، واستطاع طاهر بن الحسين بسهولة
الغلب على قوات الامين ، ولقى على بن عيسى مصرعه ، وبويع للمأمون بالخلافة
فى جميع خراسان . ويالغون فى استتار الامين بالخبر ، فيذكرون أن نعى على
ابن عيسى جاءه وهو مصيد سمكا ، فغضب إذ قطع عليه الناعى لذة الصيد ، وقال :
« ويلك دغى ، فإن كوثر ا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما صدت شيئا بعد ، (٢) »

وتبع ذلك فترة مشحونة بالارتباك والفوضى ، فقد تمحل الامين فى الرد
على الحريرة التى أصيب بها جيشه دون إعداد مسبق أو وفقا لخطة موضوعة ، كما
أنه لم يحسن اختيار القادة ، فقد وجه عبد الرحمن بن جبلة الابيارى فى عشرين
ألف رجل نحو همدان . واستعمله عليها وعلى كل ما يفتح من بلاد خراسان ،
فلما وصل ابن جبلة الى همدان شرع فى تحصين سورها ، ولكن طاهر بن الحسين
لم يمهله لذلك ، فأتاه الى همدان ، فخرج اليه ابن جبلة على غير تعبئة ، واشتبك
الفرقان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة جيش المأمون ، ودخل ابن جبلة همدان ،
فأقام بها أياما أحاد خلالها جمع صفوفه ، ثم خرج لقتال طاهر ، فانهزم أصحابه

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٥ - ابن طباطبا ، ص ١٩٥ - السيوطى ، ص ٢٧٧ ،
وكوثر المشار اليه هو خادم خاص خصى كان يحبه الأمين .

ووضع فيهم عسكر طاهر السيوف، وامتنع ابن جبلة في المدينة، فحاصره طاهر، فأرسل اليه ابن جبلة يطلب الامان لنفسه ولمن معه، فأمنه، وسلم له ابن جبلة همدان. ولكن ابن جبلة تظاهر بعد ذلك برضائه بأمان طاهر، ثم اغتروهم وهم آمنون فركب في أصحابه وبادر طاهر بالهجوم دون أن يشعر، وعلى الرغم من ذلك، فقد انهزم ابن جبلة وأصحابه، وظل يقاتل حتى قتل (١). ثم سيرا لأمين للمرة الثالثة جيشا عدته أربعون ألفا لمحاربة طاهر بقيادة أسد بن يزيد بن مزيد، وأحمد بن مزيد، وعبد الله بن حميد بن قحطبة، وسار العسكر الى خائقين، ولكن طاهر بث العيون والجواسيس في معسكر الامين، واحتمال في وقوع الاختلاف بينهم، فاختلفوا، وانقض أمرهم، وقاتل بعضهم بعضا، ثم انسحبوا من خائقين دون أن يواجهوا عسكر طاهر. وحدث بعد ذلك أن انقلب الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان، أحد قادة الامين عليه، وخامه وحبيه بقصر المنصور، وبايع المأمون، وتبعه في ذلك فريق من العسكر، ولسكن فريقا آخر اسماء من هذا التصرف، وتبعهم أهل الارباض، فقاتلوا الحسين بن علي بن عيسى وأسروه، ودخل أسد الحرب على الامين فخلصه من قيوده، وأعادته الى قصر الحلد. ثم استقدم الامين قائده الاسير، فعاتبه، فاعتذر اليه، وعفا الامين عنه، ثم خلع عليه وولاه العسكر، وأمره بمقاتلة المأمون، فخرج، ثم هرب، واسكن قوما أدركوه وقتلوه (٢). وفي هذه الاثناء كان طاهر بن الحسين يستولى على الأقاليم الخاضعة للامين اقلية بعد اقليم، فضم اقليم الحبال الواقع جنوبي بصرى قروين، ثم اقليم الأهواز وواسط والمدائن، واقتربت جيوشه من بغداد، وبايع حامل الحجاز المأمون، وتمكن هرثمة بن أعين من حاصرة بغداد من الجانب

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير، ص ٢٦٠، ٢٦١ - ابن طباطبا، ص ١٩٦ ومايليها.

الشرقي ، أما طاهر بن الحسين فتولى حصار الجانب الغربي من بغداد ، ودام الحصار مدة ١٥ شهرا ، وقد أصيب همران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط ، فتمهدت أسوار المدينة ، ودمرت المباني ، واشتعلت النيران في كل مكان ، حتى زالت محاسنها ودرست معالمها ، ونفذت الآفوات في المدينة ، وانتشرت الامراض والجذاعات ، واضطر الامين الى بيع ما في خزائنه من اقمعة وتحف لينفق على الجند (١) أما طاهر بن الحسين فقد هجر عن الاستيلاء على بعض احياء بغداد مثل الكرخ ومدينة المنصور وأسواق الخلد ، فتمهاها طاهر دار النكت .

ثم تخرج الامين عندما خذله كثير من اغوائه وقواده ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته ، وعلى افرامرد الموكل بقصر صالح ، وعبد الله بن حميد بن قسطنطين وأخوته ، ويحيى بن علي بن ماهان ، وخزيمة بن غازم ، وترقب على ذلك سقوط أسواق الكرخ في يد طاهر ، وتحصن الامين بمدينة المنصور ، وتولى الدفاع عنه العيارون وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة ، في أواسطهم المآزر ، ونصحه بعض اصحابه بالخروج إلى الشام وإعادة جمع قواته من هناك ، فافتتح بنصحهم ، وعزم على ذلك ، ولكن طاهر بن الحسين علم بذلك الخبر ، فكتب إلى عدد من اصحاب الامين يأمرهم باقناع الامين بالدول عن عزمه ، وأثنوه مما أقدم عليه ، ونصحه بعض الناصحين بأن يستسلم لأخيه وينزل له من الخلافة ، فقبل أن يسلم الخاتم والتضييب والبردة وهي من مخلفات الرسول ، لطاهر ويسلم نفسه إلى هرثمة بن أعين لكبر سنه ، ولما عرفته من قسوة طاهر ، غدر أن

(١) اضطر الامين الى بيع ما في الخزائن من الأمتعة ، وضرب آنية الفضة والذهب دنائير ودرهم (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٢ - الإربلي ، ص ١٨٢) .

طاهر خشى ألا يكون الأمين جادا في تنفيذ ما اعتزمه ، لا سيما وقد بلبسه من قبل أنه كان ينوى الخروج من بئداد إلى الجزيرة وبلاد الشام . فوضع حول القصر كميناً بالسلاح . فلما أرسل هرثمة إلى الأمين حراسة على باب خراسان ، ونزل الأمين بالحراسة ، أرسل طاهر جماعه من العوامين خرقوها بالسهم ، وقيل قلوبها بمن فيها ، وسبج الأمين إلى الشاطئ^(١) ، فقبض عليه بعض عمال المأمون ، وذبحوه في المحرم سنة ١٩٨ هـ ، وطافوا برأسه ، فأرسلها طاهر إلى المأمون ، فحزن المأمون لقتله ، وكان يرغب في أن يرسل إليه حياً ليرى فيه رأيه ، فحقد بذلك على طاهر بن الحسين ، وأهمله إلى أن مات طريقاً بعيداً (٢) .

٧ - أبو العباس عبد الله المأمون : ١٩٧ هـ - ٢١٨ (٨١٢ - ٨٢٣ م)

هو ابن هارون الرشيد من جارية فارسية تدعى مراحل ، بويغ له بالخلافة وهو بخراسان في سنة ١٩٧ هـ ، وبويغ له البيعة العامة ببئداد في سنة ١٩٨ هـ ، وفي هذه الأثناء كان الفضل بن سهل يستبد بأمور الدولة ويدبرها من مرو التي كان ينوى اتخاذها داراً للخلافة ، ويحاول الإدارة المركزية من العراق العربي إلى خراسان لفارسية ، ولكي ينفذ هذا المخطط الخطير ، حجر على المأمون ، ومنع أهل بيته وكبار قواده ، من الدخول إليه إلا بأذن منه ، ثم أمر على لسان المأمون بتعيين أخيه الحسن بن سهل على إقليم العراق والحجاز واليمن (٣) ، تمهيداً لجعل بلاد الشرق العربي ولاياته تابعة لخراسان . وقد أثار هذا الوضع ثائرة العرب في

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٤١٢ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٦ - الإربل ، ص ١٨٥

(٢) السيوطي ، ٢٧٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٨

بغداد وغيرها من الحواضر العربية. واستاء له العباسيون، فثار نصر بن سيار ابن شيبث من بني عقيل بشمالى حلب فى أواخر سنة ١٩٨ هـ (٨١٤م) وتقلب على ما جاوره من البلاد، واستولى على سيمساط من مدن الجزيرة، وانضم إليه حشد عظيم من الأعراب، وكثرت جموعه، فأمر الحسن بن سهل طاهر بن الحسين بالسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيبث العقيل فى أوائل سنة ١٩٩، بعد أن ولاء الموصل والجزيرة والشام والمغرب. فزحف طاهر واشتبك مع نصر بنو احمى كيسوم بالزرب من حلب فى قتال شديد أبلى فيه نصر وأتباعه العرب بلاء عظيما، وارتد طاهر إلى الرقة شبه مهزوم، وترتب على ذلك ارتفاع شأن نصر بن شيبث بالجزيرة، فقد قوى من أمره وأعلى شأنه، وتوافد عليه الاتباع والانصار، ولم يرض ابن شيبث أن يحمل من هذا النصر مكسبا شخصيا له، وإنما عبر عن ثباته على المبدأ عندما أتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له: وقد وترت بنى العباس، وقتلت رجالهم، وأعلقت عنهم العرب، فلو بايتمت لخليفة كان أقوى لأمرك، فقال: د من أى الناس؟ قالوا: د نبايع لبعض آل على بن أبى طالب، فقال: د أبايع بعض أولاد السوداءات فيقول أنه هو خلقنى وردنى؟ قالوا: د فنبايع لبعض بنى أمية، فقال: د أولئك قد أدبر أمرهم، والمدير لا يقتل أبدا، ولو سلم على رجل مدير لأعدائى لإدياره، وإنما هوأى فى بنى العباس، وإنما حاربتم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم للمجتم، (١).

ولم يوفق المأمون فى إخماد حركة شيبث الا فى سنة ٢٠٩ هـ عندما حاصره عبد الله بن طاهر بكيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان (٢)، وكما عجز الحسن بن

(١) ابن الأثير، ص ٣٠٨

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨٨

سهل عن إخماد ثورة نصر بن شبث العتيل ، أخفى في إخماد الثمن التي اشتعلت في العراق - و بالذات في البصرة والكوفة - حيث استغل البلويون هناك ضعف نفوذ الحسن بن سهل واستبداد الفضل بن سهل بالمأمون وأعلنوا ثورتهم عليه ، ففي سنة ١٩٩ هـ ظهر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسين بن علي بالكوفة ، ودعا إلى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو المعروف بابن طباطبا ، وقاد الثورة أبو السرايا السري بن منصور ، القيم بأمره في الحرب ، ونجح في إيقاع الخوذة بالجيوش التي وجهها إليه الحسن بن سهل ، واستولى على الكوفة . وعلى الرغم من وفاة محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة ، فقد تولى مكانه محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ، وانتشر الطالبيون في البلاد (١) . وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ، وعاث جيوشه بالبصرة وواسط ونواحيها ، فتغلب على البصرة والمدائن ، ثم ول عمالا على مكة واليمن والأهواز والبصرة والمدائن ، واستنحل خطر حركة أبي السرايا ، واستعصى على الحسن بن سهل قمعا ، فاستنجد بالقائد هرثمة بن أعين الذي تمكن من هزيمة أبي السرايا وحمله على الفرار من الكوفة في سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إلى إقادسية ، ومن هناك مضى إلى خوزستان ، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في يد الحسن بن سهل الذي قتله وبعث برأسه إلى المأمون (٢) . وفي نفس الوقت كانت الثورات

(١) وثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي ، ووثب بالبصرة هل بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي ، وزيد بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين المعروف بزيد النار لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين ، وظهر في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي ، وفي مكة محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الذي دعت إليه السبطية من فرق الشيعة وقالت بامامته (المسعودي ، ج ٢ ص ٤٣٩ ، الطبري ، ج ٢ ص ٤٤٥) .

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٤٤٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٩

تحتاج سائر أقاليم الدولة العباسية، لا سيما في الحجاز واليمن ومصر والشام (١)،
ويرجع سبب هذه الثورات إلى تغلب الفضل بن سهل على المأمون وأنه أنزله
قصرًا حجب فيه عن أهل بيته وقواده، وأنه يستبد بالامر دونه، فغضب
لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجتمعوا على الحسن بن سهل،
وهاجمه الثمن في الأمصار (٢).

وفي خضم هذه الأحداث الخطيرة كان الفضل بن سهل يتحكم في أمور
الدولة في مرو، فتلقب بألقاب الوزير الأمير، كما تلقب أيضًا بألقاب ذي الرياستين
لجمعه بين السيف والقلم. ولإصلاح الأمور كان لابد للخليفة المأمون من أن يطلعه
رجل عربي غيور على حقائق الأمور التي كانت تخفى عليه بسبب الحصار المحكم
الذي فرضه الفضل بن سهل على بلاطه، وتمثل هذا الشخص الغيور في شخصية
هرثمة بن أعين القائد العربي، الذي قرر السير إلى مرو ليبصر الخليفة
بالمؤامرات التي يمارسها بنو سهل وصنائعهم الفرس، وفطن ابن سهل إلى نوايا
هرثمة، فاستصدر أسرا من الخليفة بتوليته الشام والحجاز حتى يبعده عن
خراسان، ويحول بينه وبين الاتصال بالمأمون، ولكن هرثمة رفض أن ينفذ
هذا الأمر، وواصل سيره إلى مرو قائلا: «لا أرجع حتى أرى أمير المؤمنين
إدلالا منه عليه، ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه»، وأراد أن يعرف المأمون
ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار، وأنه لا يدعه حتى يرده
إلى بغداد ليمسك سلطانه (٣).

(١) البقرى، ج ٢ ص ٤٤٦ وما يليها

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٢

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٥

وبلغت هذه الكلمات مسامح الفضل ، فأوهم المأمون بأن هرثمة هو الذي أثار عليه البلاد ، وهو الذي دس أبا الصرايا ، وأنه خالف أمر أمير المؤمنين عندما قلده ولاية الشام والحجاز ، وحث الفضل الخليفة على تأديبه حتى يكون عبرة لمن يعتبر . ونجح الفضل في تغيير قلب المأمون على هرثمة ، فلما وصل هرثمة مرو ، أمر الفضل بالطبول فذقت لكي يسمعها المأمون ، فسأل المأمون عنها ، فقالوا له : « هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق » . وفي نفس الوقت ظن هرثمة أن قرع الطبول يعني قبول قوله ، فأمر المأمون بإدخاله ، ثم وجه إليه تهمة تأليب أبي الصرايا وأهل الكوفة العلويين عليه ، ولم يقبل منه أى عذر أو اعتراض ، فأهرجه فديس بطنه ، وضرب أنفه ، وحبس ، أما الفضل فقد أمر أعوانه بالتشديد عليه وتلميذه (١) ، وأقام هرثمة أياما في سجنه ثم توفي مقتولا . وثار أهل بغداد على الحسن بن سهل ، وطردوا عماله من بغداد ، كما أخرجوا على بن هشام وإلى بغداد من قبل الحسن بن سهل ، وأرادوا أن يبايعوا المنصور بن المهدي العباسي بالخلافة ، فامتنع عن ذلك ، ثم عرضوا عليه الإمرة عليهم على أن يدعوا للمأمون بالخلافة ، فأجابهم إليه (٢) في سنة ٢٠١ هـ عند ما أصرروا على ذلك قائلين : ولا نرضى بالمجوسى بن المجوسى الحسن بن سهل ، (٣) ، وتضامن أهل بغداد على إصلاح ما فسد من أحوال الأمن ووضع حد للجرائم الشطار وقطاع الطرق والعابثين في بغداد نفعا ، وعرف هؤلاء الذين تهردوا لذلك بالمتطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة . ووجد الفضل بن سهل — بعد أن تخلص من هرثمة — الطريق أمامه لنقل الخلافة من العباسيين إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣١٥

(٢) قس المصدر ، ص ٣٧١

(٣) قس المصدر ، ص ٣٧٢

العلويين ، فسا زال يزين الامر للمأمون لتنفيذ هذه الخطوة ، وينفرد من آله العباسيين الذين خرجوا عليه في بغداد ، مستغلا في ذلك ما كان يتحلى به المأمون من مروءة تجاه العلويين (١) ، حتى أقنعه بأن يختار الامام على الرضا بن موسى الكاظم وليا لعهد في سنة ٢٠١ هـ . ويذكر المؤرخون أن المأمون نظر في بنى العباس وبني علي ، فلم يجد أحدا أفضل ولا أروع ولا أعلم منه ، فاستقدمه المأمون إلى مرو ، وأنزله أحسن إنزال ، ثم بايع له بولاية العهد ، ولقبه الرضى من آل محمد (صلعم) ، وأمر جندته بطرح السواد من الثياب والاعلام ولبس الثياب الخضراء في رمضان سنة ٢٠١ ، وضرب اسمه على الدنانير والدرهم ، ثم زوجه من أم حبيب ابنته ، وزوج محمد بن علي بن موسى الرضا بابنته أم الفضل (٢) . والظاهر أن الإمام على الرضا أطلع المأمون على حقيقة الاوضاع ، وأطامه على سوء الحال من الفتن والحروب والثورات التي استمرت هكذا قتل الامين ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار (٣) . وهكذا تطأهرا المأمون وعلى الرضا برضاها عن تحويل الخلافة الى العلويين ، حتى لا يثيرا رغبة الفضل ابن سهل .

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : فاروق عمر فوزى ، سياسة المأمون تجاه العلويين ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، عدد ١٦ - سنة ١٩٧٣ من ٢٧٥ - ٢٩٨

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١ - ابن طباطبغا ، ص ١٩٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤٦ . كذلك أبلغه أن الفضل بن سهل كذب عليه وأن الناس يلعنون على المأمون . كان الفضل ومكان أشبه الحسن ومكان الامام على الرضا ، واستعفى الامام على الرضا عددا من الشهود فأخبروه بأن أهل بغداد يبايعوا لاراهيم ابن المهدي وأنهم سموا الخليفة السني على أساس اتهامهم للمأمون بالخرف ، ثم أطلقوه على أكاذيب الفضل فيما يتعلق بهزيمة بن أعين ، وطالبوا المأمون بالخروج إلى بغداد (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤٧) .

ولكن أهل بغداد أبوا أن تخرج الخلافة من ولد العباس ، وظنوا أن تحويلها إلى العلويين حلقة في مؤامرة خططها الفضل بن سهل (١) ، وكانوا قد استاءوا من منصور بن المهدي لاعتماده على الشطار بطانته . فبايعوا إبراهيم ابن المهدي (٢) بالخلافة ، ولقبوه المبارك ، وخلصوا المأمون في غربة المحرم سنة ٢٠٢ هـ ، وبايعه سائر بني هاشم ، فاستولى إبراهيم على الكوفة والسواد كله ، واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الشرقي منها إسحاق بن موسى الهادي .

وعزم المأمون على السير إلى العراق ، فتحرك إلى سرخس ، وهناك اغتيل الفضل بن سهل في حمامه غيلة في حمام دار المأمون في ٢ من شعبان ، فاستعظم المأمون ذلك ، وأمر بقتل قتلته . وقيل أنه هو الذي أمر بقتل الفضل بن سهل ، وذلك أنه لما رأى إنكار أهل بغداد لما فعله من نقل الخلافة إلى بني علي ، وأنهم نسبوا ذلك إلى الفضل بن سهل ، ورأى الفتنة قائمة ، دس جماعة على الفضل ابن سهل فقتلوه في الحمام ثم أخذهم وقدمهم ليضرب رقابهم ، وقالوا له : وانت أمرتنا بذلك ثم قتلنا . فقال : أنا أقتاكم بأقراركم ، وأما ما ادعيتموه على من أتى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة . (٣) .

وفي مدينة طوس توفي الامام علي الرضا فجاء في صفر سنة ٢٠٣ هـ ، بسبب عنب أكبر منه ، وقيل لعنب مسموم (٤) ، فحضر عليه المأمون ، ودفنه عند قبر أبيه

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦

(٢) كان يعرف بابن شكلة (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١)

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٩ ومايليها

(٤) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١ - ابن الأثير ج ٦ ص ٣٥١

الرشيـد . ثم جاء المأمون في المساء إلى بغداد ، فلما علم إبراهيم بن المهدي بقرب وصوله فر من بغداد في ١٢ من ذي الحجة سنة ٢٠٣ ، ووصل المأمون إلى بغداد ، فنزل الرحالة ، ثم تحصل ونزل قصره على شاطئ دجلة ، وكان قد استقدم معه طاهر بن الحسين من الرقة ليوافيه بالنهرين ، ويصحبه إلى بغداد . ولما استقر في بغداد ، تلقاه العباسيون ، وسألوه أن يترك لباس الخضره ويأمر بالعودة إلى السواد ، فأجابهم إلى ذلك في ٢٣ صفر سنة ٢٠٤ .

أما إبراهيم بن المهدي فقد أمر المأمون بالبحث عنه ، فظفر به في سنة ٢١٠ وكان متشكرا في ذي امرأة ، فدعا المأمون عنه ، وأما الحسن بن سهل فقد هزله عن ولاية العراق ، واستوزره بغير المصاحبه بحد قتل أخيه ، وتزوج بابنته هوران في رمضان سنة ٢١٠ . أما طاهر بن الحسين فقد ولاء المأمون خراسان في سنة ٢٠٥ ، بينما ولي ابنه عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر ، وتوفي طاهر في جمادى الأولى سنة ٢٠٧ هـ ، وقيل أنه كان ينوى الاستقلال بخراسان ، وقطع اسم المأمون في الخطبة ، ولكن الموت فاجأه ، فقد ذكر ابن الأثير أن كلثوم بن ثابت بن أبي سعيد ، القائم بالبريد في خراسان قال : فلما كان سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر ، فخطب ؛ فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له ، وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أوليائه ، واكفنا مؤونة من بنى علينا وحشد فيها ، بلم الشمت وحقق الدماء وإصلاح ذات البين ، (١)

ومن بين الثورات التي قامت في عهد المأمون :

١ — ثورة عرب مصر وأقباطها سنة ٢١٦ هـ :

قامت بالوجه البحري بسبب تعسف الولاة وتشددهم مع الأقباط والعرب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٢

في حياطة الضرائب والجزيات وقد شملت هذه الثورة كل بلاد الوجه البحري ، واضطر المأمون إلى الخروج بنفسه إلى مصر في سنة ٢١٣ ، لتهدئة الاحوال ، فأقام بها ٤٧ يوما ، والظاهر أن المأمون استخدم العنف في القضاء على هذه الثورة ، وعهد إلى الافشين بحاربهم وخاصة قبط البشرد من أهل الحوف ، فقتل منهم الافشين عددا كبيرا ، وسبهم ، فنزلوا على حكم المأمون . واستبقى المأمون في ذلك فقيها مالكييا بمصر يقال له الحارث بن مسكين فقال : « إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحمل دواؤهم وأموالهم . فقال المأمون : أنت تيس ومالك أتيس منك ، وهؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام ، وليس لهم أن يستنصروا بأسيا فهم ، ولا يستفكوا دماء المسلمين في ديارهم ، وأخرج المنصور رؤسهم فحملهم إلى بغداد (١)

٢ — ثورة الزط (٢) في جنوبي العراق بنواحي البصرة :

قام الزط بثورتهم منذ قيام الفتنة بين الامين والمأمون ، وقد ولي المأمون لمحاربتهم في سنة ٢٠٥ هـ عيسى بن يزيد الجلودى (٢) ، كما عهد في العام التالي لمحاربتهم

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٦ — السكندى ، ولاية مصر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩

ص ٢١٦ .

(٢) هم في الأصل من أهل السند والبشعاب ووقعوا في سبي الفرس ، وأسلموا زموت الفتوحات ، فأنزلهم أبو موسى الأشعري في البصرة . كذلك أتى الحجاج بمجاعة من زط السند ومعهم أهلهم وأولادهم وجوامعهم فأسكنهم بأسافل كسكر ، فقبلوا على البطيحة وتنازلوا بها . ثم انقض اليهم قوم من أباقي العبيد وموالي باهلة وخولة محمد بن سليمان بن علي وغيرهم فجمعهم على قطع الطريق ومبادرة السلطان بالمصيبة ، وكان مهمم بادیء ذى بدء اختلاس الشيء الطائيف من أهل السفن ، فتبعهم الناس المروء بهم في أيام المأمون . (راجع البلاذرى ، فتوح البلدان ، طبعة الدكتور المنجد ، ج ٢ ص ٤٦٢ . وازيد من الاخبار عن الزط أو الجبت بالهندية راجع : القاضي أظهر مبار كبرى الهندى ، العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت عبد الجليل ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٧ — ٥٨) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٦٤ .

قائده داود بن مسحور وأسند اليه أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين (١)، واستمر الزط يشكون خطرا كبيرا على الموارد الاقتصادية للدولة العباسية، إذ كانوا يفرضون المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد (٢)، ولم تخمد حركتهم إلا في سنة ٢١٩ هـ عندما وجه المعتصم لمحاربهم قائده عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وكانوا غلبوا على طريق البصرة، وأخذوا القلات من البيادر بمكسر وما يليها من البصرة، وأخافوا السيل، ورتب عجيف الحيل في كل مسكة من مسكك البريد تركض بالأخبار، فكان يأتي بالأخبار من عجيف في يوم، فسار حتى نزل تحت واسط، وأقام على نهر يقال له بردودا حتى سده، وأنهارا آخر كانوا يخرجون منها ويدخلون، وأخذ عليهم الطرق، ثم حاربهم، فأسر منهم في معركة واحدة ٥٠٠ رجل وقتل في المعركة ٣٠٠ رجل فغضب أعناق الأسرى» (٣). ثم خرج الزط إليه، بعد أن أمنهم، في ذي الحجة سنة ٢١٩ هـ، وبلغ عددهم ٢٧ ألفا بما في ذلك النساء والصبيان، والمقاتلة منهم ١٢ ألفا، ثم عبأهم في سفنهم ومهمم البوقات، ونقلوا بعد ذلك إلى عين زربة (٤)، وظلوا هناك إلى أن أغار البيزنطيون على عين زربة في سنة ٢٤١ هـ في خلافة المتوكل العباسي، فأسروا كل من كان بها من الزط مع نساءهم وذرائعهم ودوابهم (٥)، ونقلوهم إلى القسطنطينية. ويبدو أنهم انتشروا من هناك في

(١) ابن الأثير، ص ٣٧٩

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٠٨

(٣) ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٤٣

(٤) نفس المصدر، ص ٤٤٦. وذكر اليعقوبي والبلاذري أنه أسكن بعضهم

خاهين (البلاذري، فتوح البلدان، ج ٢ ص ٤٦٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٧٢).

(٥) نفس المصدر، ج ٧ ص ٨٠

نواحي أوروبا الغربية ونزل بعضهم إسبانيا ، ولعل الفجر (المسمون بالإسبانية Gitanos) من سلالة هؤلاء الزط لتشابه كلمة زط بالاسم الفارسي لهم وهو جيت وتقارب جيت من جيتانو الإسبانية ، صيا بأن هؤلاء الزط اشتهروا في المشرق الاسلامي باشتغالهم بالنناء والرقص وإلقاء الجماهر^(١) . وسنعود إلى الحديث عنهم .

٣ - حركة بابك الخرمي :

وبدأت هذه الحركة في سنة ٣٠١ هـ في الجاويدانية ، وم أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه ، وقال بالتناسخ^(٢) . واستفحل خطر هذه الحركة الأمر الذي دفع المأمون إلى محاربة بابك ، فسهر إليه في سنة ٣٠٤ فأنه يحيى بن صاذ ، ولكنه لم ينجح في مهمته^(٣) ، ثم أطاد المأمون الكرة في سنة ٣٠٦ هـ ، وسهر لمحاربة بابك قائده هيسى بن محمد بن أبي خاله ، ولكن بابك هزم قواته المأمون ونكبها^(٤) ، وقامع المأمون تسيير قواته لمهاجمة بابك ، ففي سنة ٣٠٩ عهد إلى علي بن صدقه المعروف بزريق ، واليه على أرمينية وأذربيجان ، بمحاربة بابك ، ولكن بابك أسر أحد القادة الذين سهرم زريق لمحاربته^(٥) . وظل أمر بابك

(١) المبادئ ، للرجع السابق ، ص ١٠٨ ، وراجع أيضا الفصائل عن هذا الموضوع في بحثه القيم بعنوان : حركة الزط في العصر العباسي الأول ، من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لعرق الجزيرة العربية ، الموحدة ٧١ - ٧٢ مارس ١٩٧٧ ، ص ٤٤ - ٤٩ من ملفحات البحوث .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٧٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٠ . أمر بابك القائد أحمد بن الجليل الإسكالي .

يشدد ، وجموعه تشكائر ، حتى آلت الخلافة إلى المعتصم ، فشولى قائد الأفشين
مطاردته على النحو الذى سنشير اليه فيما بعد .

° ° °

وعلى الرغم من الفتن والثورات التى ملأت عهد المأمون ، فإن عصره يعتبر
من أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية ، فقد اهتم بالمسائل العلمية
والفلسفية ، وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم ، فزود دار الحكمة التى كان
الرشد قد أسسها فى بغداد بمختلف أنواع الكتب من الهند وبلاد الروم والفرس
حتى أصبحت دار الحكمة أشبه بجماعة علمية تضم داراً للكتب يجتمع فيها شيوخ
العصر للترجمة والتأليف والتحصيل ، كما خصص فيها مواضع للنساخين وذكروا
أنه استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص (١) ، واطلع على الكثير
بما جاء فيها ، فكان أول من فحص من الخلفاء ، عن علوم الحكمة وحمل كتبها
وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل أقليدس ، ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم
فى الطب ، وقرب أهل الحكمة (٢) ، وجره ذلك إلى القول بخفى القرآن (٣) ،
وامتحان القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن ، فن أقر أنه مخلوق محدث خلق سبيله
ومن أبى أعله به ليأمره فيه برأيه ، ومن امتحنهم فى ذلك الامام أحمد بن حنبل
الذى أصر على أن القرآن كلام الله ، فأمر به فشد فى الحديد ، ثم أمر به فأرسل
إلى طرسوس مع جماعة ممن خالفوا المأمون فى مقالته (٤) .

(١) السيوطى ، ص ٣٠٣ . وقد اهتم بترجمة هذه الكتب وغيرها من لغاتها إلى
العربية ، واشتغل بذلك حنين بن اسحق ويحيى بن يعقوب والحجاج بن مطر وثابت بن قرة

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٩٨

(٣) السيوطى ، ص ٢٨٤ . أبه المعتزلة فيما ذهبوا اليه من القول بأن القرآن مخلوق .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٢٧

وكان المأمون يحب لعب الشطرنج ، ويولع به ، وكان يبرر ذلك بقوله
« هذا يشغل الـذهن » ، واقترح فيها أشياء ، وكان يقول : « لا أسمن أحدا يقول
تمالى حق نلـب » ، ولكن يقول : تتداول أو تتناقل (١) .

وكان المأمون يشترك فى المناظرات فى الفقه ، فأوجد مجالس للمناظرة ،
وكان يجلس لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكانت المناظرات تتناول
المسائل الكلامية ، وتجـرى داخل غرفة مفروشة . وجرت العادة أن يبدأ المأمون
مع من يناظره من الفقهاء بتناول الطعام والشراب ، فإذا فرغوا بخسروا بالمجامر
وطيـبوا ، ثم يبدأ فى مناظرتهم إلى أن تقرب الشمس ، ثم تنصب الموائد ثمانية
فيطمعون وينصرفون (٢) .

وقد أجمع المؤرخون على أن المأمون كان أفضل رجال بنى العباس حـزما
وعزما وحـلما ورأيا ودهاء وهـيبة وشجاعة ، وأنه لم يـل الخلافة من بنى العباس
أعلم منه (٣) .

وفى عهد المأمون قامت فى الدولة البيزنطية ثورة يزعمها توماس الصقلي
ضد الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثمانى العمورى فى سنة ٢٠١ هـ (٨٢١ م)
كادت تطوح بمرش الامبراطور ، وقد أيد المأمون ثورة توماس وأمدّها بقوة
إسلامية مقابل أن يتنازل له توماس ، بعد أن يتحقق هدفه ، عن بعض الحصون
البيزنطية ، ولكن ثورة توماس فشلت بعد عامين فى سنة ٨٢٣ م .

(١) السيوطى ، ص ٣٠٠

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٣٢ - السيوطى ، ص ٣٠٣

(٣) ابن طـاطـبا ، ص ١٩٧ - السيوطى ، ص ٢٨٤

٨ - أبو اسحق محمد المعتصم : ٢١٨ - ٢٢٧ هـ (٨٣٣ - ٨٤٢ م)

هو ابن الرشيد من ماردة أم ولده التركية ، بويغ له بعد وفاة أخيه المأمون وهو في غزواته الأخيرة إلى بلاد البيزنطيين في رجب سنة ٢١٨ ، وقد سار المعتصم على سياسة أخيه في حمل الناس على القول بخلاق القرآن ، فأهان ابن حنبل إهانة بالغة ، فقد أحضره أول خلافته وامتحنه بالقرآن ، فلم يجب إلى القول بخلقه ، فأمر به فجلد جلدًا شديدًا حتى غشى عليه ، وتقطع جلده ، وحبس مقيدًا (١) كذلك تشدد المعتصم مع العلويين ، فتمخلص من الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى في ٥ من ذي الحجة سنة ٢١٩ ، فقد قيل أن أم الفضل هنت المأمون سمته لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم (٢) ، كذلك قبض على محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين العلوي ، فسجنه في أزج اتخذه في بستان بمدينة سر من رأى ، ثم دس إليه السم فأت (٣) ، وإن كان فرعون من الزيدية اعتقدوا أنه لم يمت وأنه مهدي هذه الأمة (٤) .

وكان المعتصم شجاعًا قويًا من أشد الناس بطشًا (٥) ، وكان قائدًا موفقًا في حروبه ، حتى لقد استحق لقب الخليفة القائد ، وهو أول من أدخل الأتراك في الديوان ، وكان يقتببه بملوك الأعاجم ، ويمشى مشيتهم (٦) ، واعتمد المعتصم على

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٥

(٢) السمودي ، ج ٣ ص ٤٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦٥

(٤) نفس المصدر

(٥) السمودي ، ج ٣ ص ٤٦٥ - السيوطي ، ص ٣١٠

(٦) نفس المصدر

الأترك اعبادا كليا فى الجيش (١) ، وأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهل الفرس ، فقويت شوكة الأترك ، وارتكبوا الكثير من أعمال الشغب ببغداد ، مما أثار عليهم العامة (٢) ، فاضطر المعتصم إلى تأسيس مدينة تتسع لجنده الأترك ، فأسس مدينة سامرا فى سنة ٢٢١ هـ (٢) ، وانتمى من بنائها فى ٢٢٣ هـ ، وأقام فيها مسجدا جامعا ، وأفرد سوقا لآرباب الحرف والصناعات ، ونقل إليها الأشجار والثمار ، وأقام القصور المظيية التى بلغ عددها ١٧ قصرا . وفى عهد المعتصم ازداد خطر بابك الخرمى الذى لاذ بالاقاليم الجبلية الشمالية الشرقية منذ سنة ٢٢١ ، ولكن المعتصم وضع كل إمكالاته العسكرية للقضاء عليه ، وعهد بهذه المهمة إلى قائده الأفشين الذى نجح فى القبض عليه ، وسيره إلى الخليفة بسامرا حيث قتل شر قتلة فى سنة ٢٢٢ هـ (٢) .

والمعتصم هو بطل عمورية ، وفى عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، وكان الامبراطور البيزنطى تيوفيل بن ميشيل العمورى يعين بابك الخرمى بمعونات عسكرية انتقاما لما فعله العباسيون زمن المأمون من مساعدتهم لتوماس الصقلبى ، فقد أغار البيزنطيون فى سنة ٢٢٢ على مدينة زبطرة وفتحوها بالسيف ، ثم أغاروا على ططية وقتلوا ونهبوا وسبوا ،

(١) ذكر المسعودى أنه كان يجب جمع الأترك وشراهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم ٤ آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة ، وميزهم فى الرى عن سائر جنوده ، وكان قد اسطنح قوما من خوف مصر فهاهم المذاربة ، واستكثر من الفراغة والأشروسية (المسعودى ، ج ٣ ص ٤٦٥)

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦٦

(٣) راجع التفاصيل فى : اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٧٤ - المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٠ ، ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧٨

فاستنفر المعتصم قواته ، وسار على رأس جيش ضخم يقوده الافشين وأشناس ، وتمكن من هزيمة الامبراطور البيزنطى فى أنقرة ، ثم حاصر همورية ودخلها بالسيف ، وتركها أربعة أيام نهبا لللب والتمديد ، وأراد المسير الى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا ، فبلغه عزم العباس بن المأمون على الخروج عليه ومكاتبه الامبراطور البيزنطى ، فدخل المعتصم فى مسيره ، وقبض على العباس وأنصاره ، وفى منبع منع عنه الماء فأت بها (١) .

وفى أيام المعتصم خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان (وكان على ما يظهر من الحرورية) على المعتصم فى سنة ٢٢٤ هـ ، ويرجع سبب ثورته الى أنه أراد انتزاع الأرض من كبار الملاك العرب وتوزيعها على الفلاحين ، فأغرى الفلاحين بقتل أرباب الضياع (٢) فأمر المعتصم قائده عبد الله بن طاهر بمحاربتهم ، فسير اليه عبد الله بن طاهر من نيسابور عمه الحسن بن الحسين ، الذى تمكن من أسره ، وحمله الى سامرا سنة ٢٢٥ هـ ، وهناك أقر بأن الافشين هو الذى حرضه على العصيان لاثماقها فى الجوسيه ، فأمر المعتصم بجلده حتى الموت ، ثم صلب الى جانب بابك . أما الافشين فقد مات فى الحبس ، ثم أخرج من سجنه ميتا فصلب بباب العامة بسامرا (٣) .

وفى أيام المعتصم أيضا خرج أبو حرب المبرقع الباقى بفلسطين سنة ٢٢٦ هـ ، ويرجع السبب فى ثورته الى أن بعض الجنود اعتدوا على إحدى نساياه بالوسط فأصابها إصابة دامية ، فغضب وقتل الهندى ثم هرب ، وألبس وجهه رقما ، ودحا

(١) البطونى ، ج ٢ ص ٤٧٦ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٢

(٣) السمودى ، ج ٣ ص ٤٧٤ - ابن الأثير ، ص ٥١٠ ، ٥١٨

الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزعم أنه أموى ، فسمى بالسفهاء ،
فلما كثر أتباعه وانضم اليه جمع من رؤساء البيعة ، خاف المعتصم أن يستفحل
أمره ، فسير اليه رجاء بن أيوب الحضارى فى نحو ١٠٠ ألف مقاتل ، فرآه
رجاء فى حشود هائلة ، فسكره موافقته ، وعسكر تجهأه ، وكان الوقت أوان
الزراعة ، فانصرف من كان مع المبرقع الى عملهم ، وبقي فى نحو ألف أو ألفين .
وتوفى المعتصم فى هذه الأثناء وولى الواثق ، واتفق أن ثار القيسية بدمشق
أيضا ، فأمر الواثق القائد رجاء بالشروع فى إخماد فتنة دمشق والعودة بمد
ذلك الى المبرقع ، ولكن المبرقع وقع أسيرا فى يد رجاء ، فأرسل الى سامرا (١) .

٩ - الواثق بالله : ٢٢٧ - ٢٢٢ (٨٤٢ - ٨٤٧ م)

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم ، وأمه أم ولد رومية اسمها
قراطيس ، وكان الواثق يشارك أباه المعتصم فى ميوله وآرائه الفلسفية ، فقتدد
مع الفقهاء ، والزمهم باعتراف آرائه ، وانتصر للمعتزلة ، وقد أثار بهذه السياسة
مشاعر أهل بغداد ، فسخطوا عليه ، وأنكروا القول بخلق القرآن ، وتزعم هذه
الحركة أحمد بن نصر الخزاعى فى سنة ٢٣١ ، ولكن الواثق توصل الى القبض
على زعماء الحركة ، وجلس لهم مجلسا عاما فيه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ،
وناظر أحمد بن نصر فى مشكلة خلق القرآن . فأنكر عليه ابن نصر ذلك ، فقام
الى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبتة ثم طمأنه بطرف سيفه فى بطنه ،
وأمر بصلب رأسه عند باب الحرم ببغداد (٢) .

وبوفاة الواثق فى سنة ٢٣٢ ينتهى خلفاء العصر العباسى الاول .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٢٢ - ٥٢٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٢ - السجوطى ، ص ٣١٥

الفصل الثالث

السياسة الداخلية

(١)

سياسة خلفاء العصر العباسي الاول مع
الامويين والعلويين والدرس

١ - مع الامويين :

لم تضع معركة الزاب حداً لمقاومة الامويين ، فقد أعلن أنصار الامويين الثورة على العباسيين في حمص وقنسرين والجزيرة وحوران ، واتخذ الثوار الاعلام البيض شعاراً لهم ، ولكن أبا العباس تمكن من إخماد هذه الثورات بالقوة حيناً وبالتسوية السلمية (الوعود والأموال) حيناً آخر ، واضطر أبو العباس إلى تسليم أخيه أبي جعفر المنصور لمساعدة الحسن بن قحطبة في حصاره لابن هبيرة في واسط ، فاستمر العباسيون محاصرون هذه المدينة نحو ١١ شهراً لاقتوا خلالها مقاومة عنيفة من ابن هبيرة وقواته ، وحاول العباسيون حرق واسط عن طريق سفن ملاوها حطبا وأحرموا فيها النار ثم وجهوها إلى المدينة لتحرق ما يتقابلها ، ولكن ابن هبيرة كان يبادر بسحب هذه السفن بواسطة حراقات مزودة بكلايب (١) ، تهر تلك السفن ، ثم عمد أبو العباس إلى التفريق بين قوات ابن هبيرة ، ونجح في تحقيق هذا الهدف ، فأبى الخليفة أن تقاتل ، لتعين مروان بن محمد ، وقالوا لا نعين مروان وآثاره فينا ظاهرة ، ، بينما

(١) الطبري ، ج ٩ ، طبعة دار القاموس الحديث ، ١٤٤

رفضت الزارية أن تقا تل حتى يقا تل معها اليمية ، ثم أن أبا العباس أخذ يكاتب اليمية من أتباع ابن هبيرة ، ويطمعهم بالعود ، فأجابه اليمية وعلى رأسهم زياد بن صالح الحارثي عامل ابن هبيرة السابق على الكوفة وأقرب أصحابه إليه ، وعلى هذا النحو خذل اليمية ابن هبيرة ، ونحلى الزارية عنه ، ولم يبق معه سوى الصماليك والفتيان (١).

ولم يحدد ابن هبيرة بدا من فتح باب التفاوض مع العباسيين ، خاصة وقد وصلته الأنباء بمصرع مروان بن محمد ، فطلب الصلح مع الأمان ، فأجيب إلى طلبه ، وكتب له كتاب أن شرط له فيه ما سأل ، وختمه أبو العباس (٢) . ولكن العباسيين لم يقوا يمهدهم له ، فقد وقع في يد أبي العباس كتب لابن هبيرة إلى محمد بن عبد الله بن حسن يمايع له فيها ويعلن له أن لديه أموالا وعدة وسلاحا ، وأن معه عشرين ألف رجل ، فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر المنصور يأمره بضرب عتق ابن هبيرة . كما كتب أبو مسلم الخراساني يحرص المنصور على قتله ، وينصحه بأن يتخاص منه لأن أمر العباسيين لا يستقيم ما دام ابن هبيرة حيا ، فوجه المنصور لقتله رجلا مضريا يقال له خازم بن خزيمة التميمي ، أناء في جماعة وهو جالس في رحبة القصر بواسطة ، فقتلوه ، وقتلوا قواده وأصحابه عن آخرهم (٣) .

وبذلك تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري ، ولكن بقي عليه أن يتخاص من بقايا البيت الأموي ، ليتحقق له بذلك القضاء على كل نفوذ لهذا البيت بين أنصاره والمتعصبين له ، فلا يفكر هؤلاء الأنصار في البحث عن

(١) المصدر السابق

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ من ٣٠٣

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ من ٣٠٤

أمير أموى يستعيد سلطان الأمويين من جهة ، وليشبع انتقامه الشخصى
صنهم لما فعلوه ببني هاشم عامة من قتل وسجن وتعذيب وتشريد .

وتنفذا لهذا المبدأ ، تتبع العباسيون بقيادة عبد الله بن على العباسى مروان
ابن محمد بالشام حتى فر إلى مصر ، مارا بالأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن
على قد وجه وهو على نهر أبى فطرس بفلسطين صالح بن على فى طلب مروان ،
فسار صالح إلى الرملة ومنها إلى ساحل البحر حيث جمع السفن ، وتجهز يريد
مروان وهو بالفرما ، فسار على الساحل والسفن حذاه فى البحر حتى نزل
الغريش ، ولكن مروان فر منها إلى القسطنطينية ثم عبر النيل وقطع البحر ،
وهضى صالح يتقبه من موضع إلى آخر حتى أساط به فى كنيسة نزل بها فى
أبى صير ، فقتلوه ، واحتزوا رأسه ، وبعث بها صالح بن على إلى أبى العباس (١)
ولما وصل رأس مروان إلى أبى العباس - وكان بالكوفة - ورآه ، سجد
ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظهرنى بك ولم يبق ثأرى
قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل :

لو يشربون دى لم يروو شاربهم . . ولا دماؤهم للقيظ تروينى (٢)

فطلب الثأر من البيت الأموى كان هدفا من أهداف العباسيين ، بدليل
ما رواه المسعودى إذ يقول ، عندما تعرض "لذكر مصبرع مروان بن محمد :
« فلهفته بمصر وقد نزل أبو صير ، فبايتوه . وهجموا على عسكره ، وضربوا

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ١٣٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧

(٢) ابن الأثير ، ص ٤٢٧ .

بالطبول، وكبروا، وتنادوا: يا ثارات ابراهيم، (١). وذكر أيضا أنه لما أتاه رأس مروان، ووضع بين يديه، سجد وأطال السجود، ثم حمد الله، ثم قال: «ما أبالي متى طرقتي الموت، فقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام وابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي ابراهيم، (٢)».

ومثل آخر استدل منه على هدف آخر من أهداف العباسيين، وهو القضاء على بني أمية، واستئصال شأفتهم، حتى ينفذ أنصارهم كل أمل في إحياء دولتهم. فقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد استأمن إلى أبي العباس، «فقدم معه بائنين له، فأكرمه أبو العباس وبره وأجلسه وابنيه على الفارق والكراسي، فكان أبو العباس يمحس بالمشييات ويأذن لحواصه وأهل بيته، فدخل عليه أبو الجهم ليلة وقد أذن لأهله وخواصه، فقال له: «إن أعرابيا أقبل يوضع على ناقة، حتى أتياها بالباب وعقلها، ثم جاء بي وقال: استأذن لي على أمير المؤمنين، فقلت: اذهب وضع عنك ثياب سمرك، وعد علي، سأستأذن عليه، فقال: إني آليت ألا أضع عنى ثوبيا، ولا أحل لثاما، حتى أنظر إلى وجهه، قال (أبو العباس): فهل أنيساك من هو؟ قال: نعم زعم أنه سديف مولاك، فقال: سديف؟ ائذن له. فدخل أعرابي كأنه محجن، فوقف، فسلم عليه بإمرة المؤمنين، ثم تقدم فقبل بين يديه ورجليه، ثم تأخر، فوقف مثله، ثم اندفع فقال:

(١) المسعودي، ج ٣ من ٢٤٦

(٢) نفس المصدر، من ٢٥٧

أصبح الملك ثابت الأساس باليه اليل من بني العباس
يا أمير المطهرين من الرجس ويارأس منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداهما كم أناس رجوك بعد إياس
لانتقلين عبد شمس عشارا واقطعن كل رقلة وغراس
أفئسها أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتماس
ولقد سامني وساء قبيلى قريهم من تمارق وكراسى .

فأمر أبو العباس أبا الجهم باخراجهم وضرب أعناقهم ، ففعل . وأتاه
برؤوسهم (١) . وقد تتبع عبد الله بن علي العباسي بالاشام بقايا البيت الاموي
رجالا وأطفالا بالقتل تميدا للتضاء عليهم وتصفية البيت الاموي من أمرائه
الاشياء ، بل أمر أبو العباس بتهقب هؤلاء الامراء حيث كانوا ، وقتلهم أينما
وجدوا ، وقد أمر بقطع يدى أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ، ثم طيف به
في كور الشام ينادى على رأسه . وهذا أبان بن معاوية فارس بنى أمية ، حتى

(١) المصنف ، ج ٢ ص ٣٦٠

وروى ابن الأثير هذا الخبر مع تعديل طفيف في الأبيات الشعرية ، فذكر أن سديف
دخل على الفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه ، فقال سديف :

لايفرنك ما ترى من الرجال إلا تحت الغلوع داء دوبا
ففسح السيف وارفع الوسط لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان قتلتني يا شيخ ، فدخل الفاح ، وأخذ سليمان فقتل . (ابن الأثير ج ٥
ص ٤٢٩) . أما الأبيات المذكورة يالمن فيفسها ابن الأثير الى شبل بن عبد الله (مول
بني هاشم) أنها على عبد الله بن علي وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا الى الطمام ، فانشده
شبل الأبيات المذكورة ، فأمر بهم عبد الله فضرخوا بالمعد حتى قتلوا . (نفس المصدر ،
ص ٤٣٠) .

مات ، كذلك قتلوا الذساء والصبيان ، فذبحوا عبدا بنت هشام بن عبد الملك
 ذبحا (١) وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية ، وأمر بهم فصحوا ، كما
 قتل يحيى بن محمد التباسى أعدادا كبيرة من أهل الموصل (٢) ، ولهذا تفرق بنو
 أمية في الأقاليم للتهجد بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم
 عبد الواحد بن سليمان ، والتمر بن يزيد ، وعمر بن معاوية همرون صفيان بن عتبة
 ابن أبي سنيان . فعمد بنو العباس إلى التظاهر بالاسف والندم على ما اقترفوه من
 آثام في حق بني أمية ، وبسطوا أمانا لأمراء بني أمية حتى يجمعوهم ثم يضربوا
 رقابهم جميعا ، فيقتضوا عليهم بذلك دفعة واحدة ، فوزع هبة الله بن علي
 المنشورات في كور الشام ، بأن أمير المؤمنين قد لدم على ما كان في بني أمية
 وأحب البقاء ، وقد أمرني بتأديتهم ، فقد أمنتهم ، فلا أعلن أحدا يرض لهم
 بمكره (٣) ، فاستأن من الخليفة السفاح بذلك بضعا وسبعين رجلا ، وليل ، ثمانين ،
 منهم عبد الواحد بن سليمان والتمر بن يزيد والأصبغ بن محمد بن سعيد . وعلى
 هذا النحو أخذ العباسيون كلهم أمانهم أموى قريبه وأولوه معسكر صالح بن
 علي بالقرب من نهر أبي فطرس بفلسطين ، وأعطوه العمود والمواثيق ، وتسامع
 بذلك أمراء بني أمية الفارين في أنحاء الأرض — وكانوا قد ملوا حياة التشرد
 وأمنهم تعب للتنقل في ظل الخوف — فتداعوا من كل فج أملا في الظفر
 بالأمان ، ولكن نفرا مع أمراء بني أمية — أكثر حذرا — تشككوا في هذا
 الأمان ، فلم يضطربوا مع من اضطرب في المعسكر من بني أمية ، ولم يمتثلوا

(١) أخبار مجوعة في فتح الأندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ٤٧ .

(٢) وسبب ذلك ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس . (ابن الأثير
 ج ٥ ص ٤٤٤) .

(٣) أخبار مجوعة ، ص ٤٧

الذهاب طلبا للآمان ، وأثروا الانتظار وترقب الأحداث على مقربة من نهر
أبي نطرس ، فإذا ما حصل الجميع على الآمان أمكنهم ان يقدموا أنفسهم ، ومن
هؤلاء الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذي قدر له أن يحيى دولة بني
أمية في الأندلس (١) . فلما اكتمل بنو أمية في معسكر عبد الله بن علي أمر بهم
فقتلوا ، وكان فيمن قتل : محمد بن عبد الملك بن مروان ، ولعمر بن يزيد بن عبد
الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك ، وأبو عبيدة
ابن الوليد بن عبد الملك ، فلما فرغ منهم قال :

بني أمية قد أفديت بكم . . فكيف لي منكم بالاول الماضي
يطيب الناس أن النار تجمعكم . . عوضتم من اظاها شر متعاض
منيتم ، لا أقال الله عثرتم . . بليت غاب إلى الاعداء نهاض
إن كان غيظي لغوت منكم فلقد . . منيت منكم بما ربي به راض (٢)

وفي الحجاز قتل داود بن علي العباسي من ظفر بهم من بني أمية بمكة
والمدينة (٣) . وواصل بنو العباس بعد السفاح سياستهم الإنتقامية مع الأمويين ،
حتى في عهد المأمون نفسه ، فقد أمر سنة ٢١٢ بلمن معاوية على منابر بغداد ،
وأعد الكتب الى الحواضر الإسلامية يأمر فيها عماله بذلك ، فأعظم الناس
ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشبه عليه ترك ذلك ، فأعرض عما كان

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وأندلس ، ص ١٧٤ ومايلها .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤١٨ . وذكر اليعقوبي أنه أوثق جماعة منهم في الحديد

ورجمهم الى الطائف حيث قتلهم (ج ٢ ص ٣٥٢) .

هم به (١)، ويأتى المسمودى برواية تعبر عن كراهية العباسيين للأمويين وارتياحهم بالتخلص منهم ، فقد ذكر أن ابن دأب (٢) قال : « دحان الهادى فى وقت من الليل لم تجر المادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه دفتر صغير ينظر فيه ، فقال لى : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : لاني أرق فى هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتمت على الحموم ، وهاج لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلانا وفلانا حتى أقيت على تسدية أكثر من قتلهم ، وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القاتل بعد سفكه دمائهم :

ولقد شئى نفسى وأبرأ سقمها . . . أخذى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب ، ليت شيخى شاهد . . . سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى ، وظهرت منه أريحية ، فقال : يا عيسى ! دارد بن على هو القاتل ذلك ، والقاتل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكر تليها حتى كأنى ما سمعتها . قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل أنها لعبد الله بن على ، قالها على نهر أبى فطرس . قال : قد قيل ذلك ، (٣) .

(١) المسمودى ، ج ٣ ص ٤٥٤ وما يليها .

(٢) هو عيسى بن دأب من أهل الحجاز ، وكان أكثر أهل عصره أدبا وعلمًا ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم ، وكان الهادى يدعو له لسمارته ، فيدعو له متكا ، ولم يكن غيره يطلع منه فى ذلك (المسمودى ، ج ٣ ص ٣٢٥) .

(٣) المسمودى ، ج ٣ ص ٣٢٩

بأ - مع العلويين :

كانت الدعوة العباسية منذ البداية تستغل اسم الرضا من آل محمد (أبي بيت الرسول) لكسب الانصار والمؤيدين ، واصطنعت السرية التامة في الإفصاح عن اسم الإمام حتى لا يحس الشيعة العلويون بخروج الأمر من أئمتهم . ثم حدث أن اكتشف مروان بن محمد اسم الامام المنظم للدعوة ، وهو إبراهيم ابن محمد وأمر بالقبض عليه ، فأدرك الإمام قرب نهايته ، وأوصى إلى أخيه أبي العباس وطلب إليه أن يرحل مع ذويه إلى الكوفة ، حدث بعد ذلك كذبه أن أبوسلة الخلال - القاتل بالدعوة في العراق - أفرغ عليهم الحضور إلى الكوفة ، وقال : « خاطروا بأنفسهم وعجلوا » ، ثم أذن لهم بدخول الكوفة على كره منه (١) ، وأنزلهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود ، وكنم أمرهم ، فلم يطلع على خبرهم أحد (٢) فمحو من أربعين يوماً ، وقيل شهرين ، حمل خلالها أبو سلة الخلال على تحويل الأمر إلى آل أبي طالب ، وأخفى خبر إمامة أبي العباس عن جميع القواد والشيعة العباسيين ، فلما سأله أبو الجهم بن عطية ، أحد كبار رجال الدعوة : « ما فعل الإمام ؟ » قال : لم يقدم بعد ، فألح عليه ، فقال ليس هذا وقت خروجه لأن واشطالم تقفح بعد . . وكان أبو سلة إذا سئل عن الإمام يقول : لأنه جلوا (٣) .

وفي أثناء ذلك بعث أبو سلة بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم ، وكتب

(١) الجهادى ، الوزراء والكتائب ، القاهرة ١٩٣٨ م ٨٥ وما يليها .

(٢) الطبري ، ج ٢ م ٣٤٥ - ابن الأثير ج ٥ م ٤٠٩ - ابن طباطبا ، م ١٣٠

(٣) الطبري ، ج ٩ م ١٢٥ - ابن الأثير ج ٥ م ٤١٠

معه كتابين (١) على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي، وإلى أبي محمد عبد الله المحض بن الحسن بن الحسين بن علي يدعوا كلا منهما إلى الشيوخ من إليه ليصرف الدعوة إليه، ويجهتد في بيعة أهل خراسان له، وطلب أبو سلمة من مبعوثه أن يسرع قبل أن يقتضح الأمر، وقال له: «العجل العجل، فلا نكون كوافد عاد» (٢)، فقدم محمد بن عبد الرحمن على أبي عبد الله جعفر في المدينة ودفع إليه كتابه، فأحرقه الإمام جعفر، وكتب إلى أبي سلمة «است بصاحبكم، فإن صاحبكم بأرض الشراة» (٣)، ثم مضى المبعوث إلى عبد الله بن الحسن، فدفع إليه الكتاب قبله وقرأه وإتهج به، وحادث الإمام جعفر الصادق فيه، فنصحه بالألا يتخذع بالمظاهر لأن الشيعة العلويين ليسوا طرفاً في هذه الدعوة ولا يسرفون عن أسرارها شيئاً، فتنازعه عبد الله القول حتى قال له: «والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد، فقال أبو عبد الله جعفر: «والله ما هذا إلا نصح مني لك، ولقد كتب إلى أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك، ولقد أحرق كتابه من قبل أن أقرأه» (٤)، فانصرف عبد الله من عند الإمام جعفر منفضباً، ولم ينصرف رسول أبي سلمة إليه إلا أن يبيع السفاح بالخلافة، وعلم بترايا أبي سلمة فقتله. ويرجع السبب في فشل خطة أبي سلمة إلى الظروف

(١) وذكر ابن طباطبغا أنه كتب إلى ثلاثة من أئمة الشيعة والثالث هو عمر الأشرف ابن زين العابدين، وأوصى رسوله ألا يمضي إلى هذا الإمام إلا إذا لم يجد عبد الله المحض (ابن طباطبغا، ص ١٢٧).

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٣٥٤

(٣) الطبري، ج ٢ ص ٢٤٩

(٤) المسعودي، ج ٣ ص ٢٥٥ - ابن طباطبغا، ص ١٣٨

وحواها ، نقه حدث أن أبا سلمة أقام ينتظر انصراف رسوله إليه ، فدخل
أبو حميد محمد بن إبراهيم الحميري ذاته يوم إلى الكوفة ، فلقى سابقا الخوارزمي
غلام ابن العباس ، فسأله عن إبراهيم الإمام ، فقال : « قتل مروان في الحبس ،
وكان مروان يومئذ بجران ، فقال أبو حميد : فإلى من الوصية ؟ قال : إلى أخيه
أبي العباس . قال : وأين هو ؟ قال : مصك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من
هجومته وأهل بيته . قال : منذ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين » (١) . فطلب منه
أبو حميد أن يأخذه إليه ، فواعده على اليوم التالي ، فانصرف أبو حميد وأخبر
جماعة من قواد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك ، منهم أبو الجهم بن
عطية وموسى بن كعب ، وأبو غانم عبد الحميد بن ربيع ، وسلمة بن محمد ، وأبو
شراحيل ، وعبد الله بن بسام ، واتفق معهم أبو حميد على مقابلة أبي العباس
ومبايعته ، فمضوا في اليوم التالي سرا ودخلوا على أبي العباس ، فسلموا عليه
بالخلافة ، وألبسه أبو حميد السواد وأخرجوه إلى المسجد الجامع ، وبلغ الخبر
أبا سلمة ، فأقبل يركض حتى لحقهم ، فقال : « لاني انما كنت أدبر استقامة
الأمر والافلا أعمال شيئا فيه » (٢) وذكر الطبري أن أبا سلمة عندما سأله أبو
الجهم عن الإمام أجاب : « ليس هذا وقت خروجه لان واسطالم تقتحم به » (٣)
وظل يفضي وجوده بالكوفة عن عسكره وقواده حتى تم اكتشاف موضع
أبي العباس على النحو الذي اشرنا إليه .

ثم بويج لابي العباس في جامع الكوفة في اليوم التالي في ١٣ ربيع الاول
سنة ١٣٢ هـ ، وخطب خطبة أكملها معه داود بن علي بقوله :

(١) المصمودي ، ج ٣ ، ص ٢٢٥

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٣٥٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١١

(٣) الطبري ، ج ٩ ص ١٢٥

دأبها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الامر لتكثر لجيناً ولا عثمياً
ولا نخمر نهرها ولا نبقى قصراً ، وإنما أخرجنا الألفه من ابتزازهم حقناً ، والنضب
لبنى عمنا ، وما كثرنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم
ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشهد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم
واستذلالهم لكم واستئذانهم بغيرتكم وصدقاتكم ومناصحتكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك
وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم
بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان ،
أثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار النائية على الدار الباقية ،
فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وانتكروا المحاسن ، وغشوا الجرائم ، وجاروا
في سيرتهم في البعاد ، وستهم في البلاد التي همسا استلذوا تسريل الأوزار ،
وتجلبب الأمار ، ومرسوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي ، جهلا
باستدراج الله ، وأما لمكر الله ، فأناهم بأس الله ييانا وهم ناعمون ، فاصبحوا
أحاديث ، ومزقوا كل عرق ، فبعدا للقوم الظالمين ، وأدالسا الله من مروان
وقد غره بالله الفرور

يا أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح
الله لنا شيهتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم
دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة
من هاشم ، ويبيض به وجوهكم ، وأداكم عن أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان
وعز الإسلام واعلموا أن هذا الامر فتننا ليس بخارج منا حتى نسله

إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين . (١) .

وهكذا رسم العباسيون في هذه الخطبة سياستهم الجديدة التي وعدوا الناس بتطبيقها عليهم ، ولكنهم لم يوفقوا في تنفيذها ، كما كشف عبد الله بن علي بخطبته أن الأمر سيظل في بيت هاشم لا يخرج منهم حتى يوم القيامة . ولكن اتضح للوليين فيما بعد أن العباسيين خدعوه واستأثروا بالخلافة دونهم ، فقد كان الظن أن إلى الخلافة بعد السفاح إمام من العلويين ، ولكن العباسيين جعلوا الخلافة وراثية في ذريتهم ، ولهذا السبب بدأت حركات العلويين تظهر منذ خلافة المنصور بعد أن اتضح لهم أن العباسيين أقصوهم نهائياً عن الخلافة منذ أيام السفاح الذي همد إلى قتل أبي سلمة الخلال بحكم أنه نكث وغير وبدل (٢) . بمحاولته نقل الخلافة إلى بني علي .

وكان الحسينيون أول من طالبوا من العلويين بمحقتهم في الخلافة وذلك في زمن المنصور وأدرك أبو جعفر المنصور أن هؤلاء الحسينيين يشكلون خطراً كبيراً على دولته لا سيما وأن محمد النفس الزكية وأخاه إبراهيم تخلفا عن مبايعة أبي العباس من قبل ، وأن أبا سلمة الخلال حاول نقل الخلافة إليهم (٣) . وأن بني الحسن أشاعوا أن بني هاشم وفيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن علي ، اجتمعوا بالآهوا من طريق مكة وذلك عندما اضطربت

(١) الطبري ، ج ٩ ص ١٢٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

(٢) للمهزبي ، ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٣) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٦٩ .

أحوال الدولة الاموية وأجروا على مباينة محمد النفس الزكية (١) ، وأن عبد

(١) الاصمغاني ، مقاتل الطالبين ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، ١٧٣ - ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ - ابن طباطبا ، ص ١٩٠ ، ١٩١ . وفي ذلك يقول الأصمغاني : « أخبرني هبسي بن الحسين قال : حدثنا الخزاز قال : حدثني المدائني عن سحيم بن حفص : أن ثمر بن هاشم اجتمعوا بالأهواء من طريق مكة ، فبهم ابراهيم الامام والسفاح والمنصور وصالح بن علي وعبد الله بن الحسن وابناء محمد و ابراهيم ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، فقال لهم صالح بن علي : انكم تقومون الذين تمتد أعين الناس اليهم ، فقد جمعكم الله في هذا الموضع ، فاجتمعوا على بيعة أحدكم ، فتمرقوا في الآفاق ، وادعوا الله لعل الله أن يفتح عليكم وينصركم . فقال أبو جعفر : لأي شيء تخدمون أنفسكم ، والله لقد علمتم ما الناس الى أحد أميل أعناقاً ولا أسرع اجابة منهم الى هذا الشيء - يعني محمد بن عبد الله - قالوا : قد واثقه صدقت ، انا لنعلم هذا ، فابموا جميعاً عمداً ، وبابنه ابراهيم الامام والسفاح والمنصور وسائر من حضر ، فذلك الذي أغرى القوم لمحمد بالبيعة التي كانت في أعناقهم . وذكر الأصمغاني أيضاً أن أبا جعفر المنصور لما ولي الخلافة جد في طلب محمد بن عبد الله ابن الحسن (ص ١٩٠ ، ١٩١) ، وفي موضع آخر أشار الى أنه لما ظهرت دولة بني العباس ، « حرس السفاح والمنصور على الظاهر بمحمد و ابراهيم لما في أعناقهم من البيعة لمحمد ، وتواربوا ، فلم يزالا ينتقلان في الاستنار ، والطلب يزعمهما من ناحية الى أخرى حتى ظهرا فقتلا » (ص ١٧٣) . وذكر في موضع آخر قتلا عن عبد الأعلى بن أعين أن عبد الله ابن الحسن قال للبيعتين من بني هاشم (يوم الاجتماع) « لا تروا الى جعفر فإنه يفصد عليكم (يعني به جعفر الصادق) فأبوا . قال : فأتاكم وأنا معهم ، فأوسع له عبد الله الى جانبته وقال : قد هلمت ما سئمت من بني أمية وقد رأينا أن نبايع هذا الفتي (يعني ابنه محمد) فقال : لا تفعلوا : « فان الأمر لم يأت بهد . فنضب عبد الله وقال : لقد علمت خلاف ما تقول ولكنه يحملك على ذلك الحسد لا بني . . . فقال جعفر : « انها والله ما هي اليك ولا الى بنيك ، ولكنكها لهؤلاء (يتصد للسفاح والمنصور) وان ابنك لمقتولان . » فترقى المجلس ولم يجتمعوا بعدها . فلما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة سمى الصادق بقبيلته عليه (الاصمغاني ، ص ١٨٩) وقد كرر ابن طباطبا هذا المعنى مؤكداً أن محمد النفس الزكية كانت له في أعناق الباسيين بيعة له بالخلافة وأن جميع أعيان العباسيين والطالبين اتفقوا على مباينته ما عدا الامام جعفر بن محمد الصادق الذي قال لعبد الله المحض والد النفس الزكية : اني اهلك لاني بالخلافة ولاني بالخلافة الاصحاب القياء الأصغر ، وكان يعني المنصور بذلك إذ كان عليه يومئذ قباه أصغر ، فبايعوا محمد النفس الزكية ، ثم ضرب الدهر ضربه ، وانتقل الملك الى بني العباس ، وانتقل من السفاح الى المنصور ، فلم يكن له همه سوى طلب النفس الزكية ليقبضه أو ليخلفه ، فطلبه =

إله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد النفس الزكية أنه المهدي الذي بشر به (١)
وصريح قريش - وما زاد في مخاوف المنصور أن النفس الزكية كان شخصية
محبوبة في بلاد الحجاز ، وأنه أخذ دعائه إلى الآفاق ، وبويع له في كثير من
الأمصار (٢) .

وأخذ المنصور يشدد الضغط على محمد النفس الزكية ، فولى رياح بن عثمان
على المدينة في سنة ١٤٤ ، وأوصاه بالتشدد في طلب النفس الزكية ، فاضطر محمد
النفس الزكية إلى التعجل بالخروج قبل أن يتم أمر دعائه الذين أنفذهم إلى
الآفاق ، وخرج في أول رجب سنة ١٤٥ ، وقيل في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٤٥ ،
وأمر بالقبض على رياح ، وأخيه عباس بن عثمان وحبسهما في دار مروان ،
ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس فإنه كان من
أمر هذا طاعة عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بناءه القبلة الخضراء
التي بناها معاندا لله في ملكه ، وتصنها للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين
قال أنا ربكم الأعلى ، وأن أحسن الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين
الأوليين والانصار الموالين ، اللهم انهم قد أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ،
وأشفوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، اللهم فاحصم عددا واقتلهم بسدا
ولا تغادر منهم أحدا . أيها الناس إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم

المنصور من أبيه عبد الله الخضر فألزمه المنصور بالحضار ولده محمد النفس الزكية وإبراهيم ،
فاعتذر لعدم علمه بهما ، ثم قض عليه سنة ١٤٠ وهلى أهله من بني الحسن سنة ١٤٤
(ابن طباطبغا ، ص ١٤٦ ، ١٤٧) وسجنهم في قصر ابن هبيرة بمصر الكوفة (الاصفهاني
ص ١٥٨ ، ١٦٠) .

(١) الاصفهاني ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ - ١٨١

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٤

هندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتك لنفسى ، والله ما بحث هذه وفي
الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة ^(١) .

وكان المنصور قد أدرك ، قبل أن يعلن محمد عن دعوته لنفسه ، نواياه في ذلك ، فعمد إلى إفساد خططه ، فدرس له عيوناً يكيدون له متظاهرين بأنهم اتباعه بهدف الإطلاع على حقيقة خططه وتمويه الحقائق عليه ، وهم الذين أرحوا اليه بأن دعوته قد حمت الأقطار ، وقد أشار النفس الزكية إلى ذلك في خطبته . ولم يكتمف المنصور بذلك بل كان يكتب اليه على ألسنة قواد المباسيين يدعون عمداً النفس الزكية إلى الظهور ، ويخبرونه بأنهم معه ، فكان محمد النفس الزكية يقول : « لو اتفقنا مال إلى اقواد كلهم » ^(٢) . وبدأ المنصور يؤمن ظمسه ، منذ اليوم الذي اعتقل فيه عبد الله بن الحسن وآله ، أمام أنصاره الخراسانيين حتى لا يشهد من لديه ميول علوية منهم عليه ، فصعد المنبر بالهاشمية وقال : « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غديرنا لم تباهوا بخيرنا منا ، إن ولد بن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نمرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيهم على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فأأفلح وحكم الحكيم ، فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة ، ثم وئب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه » ^(٣) . وما زال يحذوهم عن العلويين واحداً واحداً وإخفاقهم جميعاً في الظفر بالخلافة حتى انتهى إلى زهد بن علي وكيف أخربه أهل الكوفة ثم أسلموه وكيف حذر داود بن علي غدر أهل

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٠

(٣) المسعودى ، ج ٢ ص ٣٠٠

الكوفة فلم يقبل ، فقتل وصلب بالكناسة . ثم قال المنصور : « ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كان لحم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفضونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيمة وانصارا ، فأحيى الله شرفنا وعزنا بكم يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرر الحق في قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسدا منهم لنا وبنا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبنا من بنى أمية ، وجراءة علينا . . . » (١) . وما إن انتهى من هذه المرحلة من الحرب الطائفية ضد الحسينيين حتى بدأ يكتب محمد النفس الزكية ليستثيره عليه ويدفعه إلى أن يبادره هو - أي محمد - بالحرب فيمدرسه ، وتبدأ عندئذ المرحلة الثانية من الحرب الطائفية .

ويذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور لما بلغه ظهور محمد بن عبد الله بالمدينة كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (لأنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أو ينفوا من الأرض ذلك لهم عزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين

قَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَوْا أَنْ أَلَهُ غَنُورٌ رَحِيمٌ (وَالِك عَلَى عَهْدِ
 .الله وَمِيشَاقَهُ وَذَمَّتْهُ وَذَمَّتْهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ تَبْتَ وَرَجَعْتَ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ أَقْدِرَ عَلَيْكَ ، أَنْ أَوْمَنْكَ وَجَمِيعَ وَلَدِكَ وَأَخَوَتِكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ وَمَنْ أَنْبَأَكُمْ
 عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَأَسْوَغَكَ مَا أَصَبْتَ مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ وَأَعْطَيْكَ أَلْفَ أَلْفِ
 دَرَاهِمٍ وَمَا سَأَلْتَ مِنَ الْخَوَائِجِ ، وَأَنْزَلَكَ مِنَ السَّيْلَادِ حَيْثُ شِئْتَ وَأَنْ أَطْلُقَ مِنْ
 فِي حَبْسِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَأَنْ أَوْمَنْ كُلِّ مِنْ جِأَكَ وَبِأَمْرِكَ وَأَتَبِعَكَ أَوْ دَخَلَ
 مَعَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ ، ثُمَّ لَا أَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِشَيْءٍ كَانَ مِنْهُ أَبَدًا . فَإِنْ أَرَدْتَ
 أَنْ تَتَوَقَّعَ لِنَفْسِكَ فَوْجَهُ إِلَى مَنْ أَحْبَبْتَ يَأْخُذُكَ مِنْ الْأَمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ
 مَا تَتَّقِي بِهِ ، (١) .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمُهْدِي
 مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ - (طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
 مِنْ نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
 أَهْلَهُ أَشْيَاءَ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .
 وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .
 وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مَا كَانُوا يَمْحَدُّونَ) .
 وَأَنَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَمَانِ مِثْلَ الَّذِي عَرَضْتُ عَلَى ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَقُّنَا وَإِنَّمَا
 ادْعَيْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِنَا وَخَرَجْتُمْ لَهُ بِشِيئَتِنَا ، وَحَظَّيْتُمْ بِفَضْلِنَا ، وَإِنْ أَبَانَا عَلِيًّا
 كَانَ الْوَصِيُّ وَكَانَ الْإِمَامُ ، فَكَيْفَ وَرَثْتُمْ وَلَايَتَهُ وَوَلَدَهُ أَحْيَاءَ . ثُمَّ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ
 لَمْ يَطْلُبْ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ لَهُ مِثْلُ نَسَبِنَا وَشَرَفِنَا وَحَالَتَنَا وَشَرَفِ آبَائِنَا . وَاسْتَنَا
 مِنْ أَبْنَاءِ اللَّعْنَةِ وَلَا الطَّرْدَاءِ وَلَا الطَّلْقَاءِ ، وَلَيْسَ يَمُتُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ بِمِثْلِ

الذى تمت به من القرابة والسابقة والفضل . وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا : فولدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلا ما على ، ومن الأزواج أفضلهم - خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن الولود دين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وأن هاشما ولد عليا مرتين .. ولك علي إن دخلت في طاعق وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالأمر منك وأرفى بالمهد لأنك أعطيتني من الهد والامان ما أعطيته رجلا قبلي ، فأى الامانات تعطيتني ؟ أمان ابن هبيرة أم أمان همك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم ؟ ، (١) .

ثم رد أبو جعفر المنصور على كتاب النفس الزكية مفتندا حجج الشيعة العلويين التي يستندون عليها في مطالبتهم بالخلافة ومركزا على أن الاسم أولى بالإرث من بنت الابن ، وفيما يلي مقتطفات من هذا الكتاب : « أما بعد ، فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك . فإذا جل فخرك بقراءة النساء لتفضل به الجنة والنوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالمعومة والآباء ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله جعل الم أبأ وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا وأقد بعث الله محمدا عليه السلام وله معومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتكم الاقربين) ، فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبي ، وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطح الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا ، ...

وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) ولكنكم بنو أبنته ، وإنها اقترابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهرا ومرضها سرا ودانها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيعين ، وتفضيلها ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجمد بالأم والحال والحالة لا يرثون ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصابوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ، ونفكوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الضنية والنساء وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بشاؤكم ، وأدر كنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم (١) .

والظاهر أن المكاتبات لم تؤد إلى نتيجة ، وعزم أبو جعفر المنصور على إخماد حركة النفس الزكية ، فسير إلى المدينة عيسى بن موسى على رأس أربعة آلاف (٢) ، وقيل خرج من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل (٣) ، وأتبعه حميد بن قحطبية في جيش كثيف ، وأقبل عيسى بن موسى إلى المدينة فنزل قصر سليمان بن عبد الملك في ١٢ من رمضان سنة ١٤٤ ، ثم حاجل محمدا القتال ولم يشمر أهل المدينة يوم النصف من رمضان إلا بالخيال قد أسخطت بهم حين أسفروا ، واشتد القتال ، وأصيب أنصار محمد بالمشاب فتفرق معظمهم عنه ، فأق دار مروان فصلى الظهر فيها واغتسل وتحنط ، ثم قاتل في نفر قليل من

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢١٢ ، ٢١٣ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ١٩٧ .

(٣) السعدي ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

أصحابه حتى قتل ، قتله حميد بن الحظبة واحترق رأسه (١) .

وتفرق أخوة محمد النفس الزكية وولده في البلدان ، فضى ابنه علي بن محمد إلى مصر فقتل بها ، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان ثم فر منها إلى السند فقتل هناك ، وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات في حبسه ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة وأخوه يحيى إلى الري ثم إلى طبرستان ، وإدريس بن عبد الله إلى المغرب (٢) ، أما إبراهيم بن عبد الله فقد كان قصد الكوفة وهو لا يشك أن أهلها يثبون معه بأبي جعفر ، فلما أصبح بالكوفة لم يجد ناصرا ، وبلغ المنصور خبره فوضع الارصاد والحرس بكل موضع ، وتحامل على الخروج إلى البصرة وقد بايع أهلها ، فسار في غرة رمضان سنة ١٤٥ واستولى على البصرة ، ووجه المنيرة بن الفزع السعدي إلى الأهواز فتغلب عليه ، ودخل قائدهم مقبوض ابن الفضل فارس وتمكن هارون بن سعد العجلي من الاستيلاء على ماحول واسط ، وتغلب برد بن لبيد اليشكري على كسكر . ثم خرج في أول ذي الحجة على رأس جيش كثيف وقد عزم على مقاتلة المنصور ، فسجد إليه المنصور عيسى بن موسى في ١٨ ألفا (٣) ، وزحف إبراهيم حتى أصبح في موضع يقال له باخرى ، واشتبك الجيشان واشتد القتال ، وكادت الدائرة تدور على عيسى بن موسى ، فعمد إلى الحيلة وأرسل سلم بن قتيبة الباهلي على مؤخرة جيش إبراهيم فتوهموا كميناً ، فانهزموا وبقي إبراهيم في ٤٠٠ من الزيدية يقاتل قتال الموت حتى قتل واحترق رأسه ، فوجه به إلى أبي جعفر بالكوفة (٤) .

(١) الأصفهاني ، ص ٢٠٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٤٩ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٣) (١) وائل في ١٥ ألفا (٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٥٦٧ .

(٤) البغدادي ، ج ٢ ص ٣٧٨ - الأصفهاني ، ص ٢٣٥ وما يليها - ابن الأثير ، ج ٥

أما عبد الله بن الحسن والده النفس الزكية وآله الحسينيين، فقد كان المصور
 قبة سجنهم في الكوفة داخل سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار
 ومواد الليل، وظلوا في سجنهم حتى ماتوا (١)، وقيل إن يعقوب وإسحق
 ومحمد وإبراهيم بنى الحسن قتلوا في الحبس بضروب من القتل، وأن إبراهيم بن
 الحسن دفن حيا، وأن عبد الله بن الحسن طرح عليه بيت (٢).

ثم قام العلويون (من الفرع الحسن) بثورة ثانية في الحجاز في سنة ١٦٩ هـ
 في زمن الخليفة العباسي الهادي، وقد اتبع هذا الخليفة مع العلويين سياسة تقوم
 على العنف بخلاف المهدي الذي حاول استرضاء العلويين (٣)، فألح الهادي في
 طلبهم، وأخافهم خوفا شديدا وقطع ما كان المهدي يحريه لهم من الأرزاق
 والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم (٤). فلما اشتد خوفهم،
 وكثر من يطلبهم ويحث عليهم لاذوا بالحسين بن علي بن الحسن بن الحسن
 وبأيعوه بالإمامة، ويذكر ابن الأثير أن سبب ظهور الحسين بن علي بالمدينة أن
 الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب،
 فلما وليها حمل على الطالبيين وأساء إليهم وأفرط في التعامل على الحسينيين إلى
 حد أنه اتهم أبا الزهراء الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، وسله بن بجندب

(١) المسعودي، ج ٣ ص ٢٩٨.

(٢) الأصفهاني، ص ١٦٩ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٢٧.

(٣) أخرج المهدي عن جنانهم وأمر لهم بجوائز ومسلات وأرزاق دارة، ثم أطلق
 سائر الناس (اليقطيني، ج ٢ ص ٣٩٤) والظاهر أنه كان يخشى على نفسه من العلويين
 الحسينيين فأتوزر يعقوب بن داود وكان يعقوب هذا شيعيا - ولعل المهدي استظنه ليستعين
 به على القضاء مع بني الحسن (ابن طباطبا ص ١٦٦ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٨).

(٤) اليقطيني، ج ٢ ص ٤٠٤.

الشاهزاده الهذلي، وهر بن سلام على شراب لهم (١)، فأمر بهم فضربوا جميعاً
ثمانين سوطاً، وجعل في أعناقهم حبالاً وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي
إلى العمري وقال له: ولقد ضربتهم ولم يكن لك أنت تضربهم لأن أهل العراق
لا يبرون به أبداً، فلم يحطوف بهم؟ فأمر بهم فردوا وحبسهم، ثم تولد
الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن كنفالة الحسن بن محمد، فأخرج من
المنجى على أن يقع تحت المراقبة، وحدث أن غاب يومين، فأحضر الوالي
الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله، وأغلظ لهما، فوعدها بأن يأتيها به، ثم دخل
الحسين بن علي المسجد فصلى ودعا إلى نفسه، فبايعه الناس على كتاب الله وسنة
نبيه المراتبى من آل محمد، فلما جاء الوالي ومعه خالد البريدى تصدى يحيى بن
عبد الله وأخوه إدريس بلالاً، وقتلاه، وحمل أصحاب الحسين بن علي إلى العمري
فهمزوه واتبعهم وابتدأ المال وامتنعوا في المدينة، واشتد القتال في اليوم التالي
بين شيعة بنى العباس وبين أنصار الحسين بن علي، ثم أقام هو وأصحابه أياماً
يترهبون، ثم خرجوا من المدينة في ٢٤ من ذي القعدة (وهم زهاء ثلاثمائة)
فاجتمعوا إلى مكة فتصدى لهم عند ذي طوى (٢) - وقيل عند فح (٣) - الواقعة على بعد
سبعة أميال من مكة - ستة من كبار الشخصيات العباسية اتفقوا قدومهم إلى مكة
لإعلاء قدره بفضله الجليل تلك الليلة، منهم سليمان بن منصور ومحمد بن سليمان بن
عليه والعباس بن محمد بن علي وموسى وإسماعيل ابن عيسى بن موسى، وكان
محمد بن سليمان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة حماية له ولأصحابه. وذكر

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ٩٠ - الأصفهاني، ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٩٢ .

(٣) السمردي، ج ٣ ص ٢٢٦ - الأصفهاني، ص ٣١١ - ابن طباطبا، ص ١٢٢ .

المسعودى أن عدة من كان معهم من الصكر بلغ أربعة آلاف فارس ، واشتبك
العباسيون مع الحسين بن على وهو فى قلة من أصحابه ، فقتل ومعظم من كان
معه ، وكان عدد القتلى يزيد على مائة قطعت رؤوسهم من بينهم الحسن بن محمد
ابن عبد الله ، وترك جثث القتلى ثلاثة أيام فى المراء لم توار حتى أكلتها السباع
والطير ، وأسر العباسيون نفرا من بقى الحسن منهم سليمان بن عبد الله بن
الحسن بن الحسن وإسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، فضربت
رقابهم فى مكة ، بينما أخذ لعبد الله بن الحسن بن على الأمان فحبس عند جعفر
ابن يحيى بن خاله البرمكى ثم قتل بعد ذلك (١) ، وأفلت من المنهزمين إدريس
بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وأخوه يحيى بن عبد الله ، أما إدريس فقد
فر إلى المغرب الأقصى ونزل بوليلي حيث تمكن بفضل قبيلة أوربة من تأسيس
دولة هرفت بدولة الأدارسة ، بينما فر يحيى إلى بلاد الدلم ، حيث كثرت
جموعه وقويت شوكته واتفق حمله الأنصار ، فأعلن ثورته فى سنة ١٧٦ هـ
فى خلافة الرشيد ، فسير إليه الفضل بن يحيى فى ٥ ألف مقاتل ، فكانت الفضل
يحيى بن عبد الله ولطف به وحذره ، فأجاب يحيى إلى الصلح ، ولكنه اشترط أن
يكتب له الرشيد أمانا بخطه يشهد عليه فيه القضاء والفقهاء وشيوخ بني هاشم ،
فأجابه الرشيد إلى ذلك ، وسير الأمان مع تحف وهدايا ، فقدم يحيى مع الفضل
إلى بغداد ، فأحسن الرشيد استقباله ورغب به ومنحه مائتى ألف دينار ، ولم يلبث
الرشيد أن انقلب عليه فسجنه بعد أن استبقى النخهاء فى نقض الأمان ، فمنهم من
أفتى بصحته فعاجه . ومنهم من أفتى ببطلانه (٢) ، فأبطل الرشيد الأمان وأخبره

(١) المسعودى ، ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) ومنهم عبد الله بن مصعب الزهرى وأبو البخترى وهب بن وهب .

حتى جعله سيورا ومات يحيى فى السجن فى قول (١) ، وقتل فى الحبس فى قول آخر (٢) ، ويأتى الأصمهانى برواية تنسب سبب وفاته، فقد ذكر على لسان رجل كان مع يحيى بن عبد الله فى المطبق أن الرشيد أتاه يوما فى سجنه وأمر بضربه مائة عصا وتخفيض جرابته إلى النصف ، ثم كرر ذلك يوما آخر، ثم عاد للرة الثالثة وقد مرض يحيى، فلما دخل قال : د تلى به . قالوا : هو عليل لما به . قال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا : رغيفا ورطلين ماء . قال : فاجعلوه على النصف . ثم خرج؛ فلم يلبث يحيى بن عبد الله أن مات، فأخرج إلى الناس ودفن؛ وقيل إنه بنى عليه أسطوانة بالموافقة وهو حى ، وقيل أيضا إنه دس إليه فى الليل من خنقه ، وقيل إنه سقاء سما ، وقيل أيضا إنه أجاع السباع ثم ألقاه إليها فأكلته. ولكن يبدو أن هذه الأقوال مبالغ فيها، وترجع الرواية التى يرجع سبب موته إلى تخفيض جرابته فى الظلم يوما بعد يوم ، بدليل أن إدريس بن محمد بن يحيى بن عبد الله قال : د قتل جدى بالجموع والعطش فى الحبس ، وليس بهذا أن يكون الرشيد قد عذبه بالضرب قبل ذلك مما عجل بموته ، فقد ذكروا أن يحيى بعد أن تلقى من الرشيد المائى ألف دينار قضى بها دين الحسين بن على صاحب فسخ فأنار غضب الرشيد عليه (٣) .

وفى عهد الرشيد قبض على موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين وأحضر فى قبة إل بغداد ، حيث سجن ثم قتل قتلا خفيا ، وأظهر أنه مات حتف أنفه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن جماعة من حساد موسى بن جعفر من أقاربه وشى به إلى الرشيد ، وذكر له أن الناس يحملون إلى موسى خمس

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٥ - الأصمهانى ، ص ٣٤٤ .

(٢) الأصمهانى ، ص ٣٤٩ - ابن طاباطبا ، ص ١٢٦ .

(٣) الأصمهانى ، ص ٣٤٨ - ٣٥١ .

أموا لهم ويخضعون لإمامهم ، وأنه عزم على الخروج عليه . فلما مات أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد ، فمظروا إليه ، فلم يجدوا فيه أثر الجرح أو ما يدل على جزم ، فشهدوا بذلك (١) .

وفي عهد الرشيد أيضا قتل عبد الله بن الحسن بن علي بن زين العابدين ، إذ اتهم بأنه يجمع الزيدية ويدعوهم إلى الخروج عليه ، ثم حبسه ، ولكن جعفر بن يحيى ضرب عنقه بدون أمر الرشيد (٢) .

وحاول المأمون أن يتقرب إلى العلويين إما مدفوعا في ذلك بتأثير الفضل بن سهل وغيره من كبار أعوانه الشيعة في خراسان ، ممن كان يرغب في تحويل الخلافة العباسية السنية إلى خلافة شيعية ، أو رغبة في تحسين علاقته بالعلويين وتعويضهم عما تعرضوا له من اضطهاد في العهد السابق عليه . ويذكر المؤرخون أن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة ومهمهم على الرضا بن موسى الكاظم ، فقدم بهم على المأمون ، فأنزلهم دارا ، وأنزل على الرضا دارا . ثم عرض الفضل بن سهل وأخوه على الرضا مسألة عقد ولاية العهد له ، فأبى ، فزالا به وهو يأبى ذلك ويتمنع منه حتى هدا به بضرب عنقه إن هو خالف رغبة المأمون ، فاضطر على الرضا إلى قبول ما عرضوه عليه سنة ٢٠١ هـ . ثم أعلن الفضل به سهل قرار المأمون في عقد ولاية العهد لثعلبي الرضا ، وأمر الناس بلبس الخضرة ، وحدد يوما لتلقى البيعة . وفي ذلك اليوم ، وكث الناس من القواد والقضاة وغيرهم من الناس في الخضرة ، وجلس المأمون ووضعت الرضا وسادتين كبيرتين أجلسه عليهما ، ثم أمر ابنه العباس بن المأمون

(١) الأصفهاني ، ص ٣٦٥ - ابن بطاطبا ، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .

فبايع له أول الناس ، ثم تابعه الناس . ثم أمر المأمون فضربت له الهراهم وطبع عليها اسمه (١) ، وزوج المأمون ابنته أم الفضل من محمد بن علي بن موسى . ثم توفي على الرضا مسموما ، واتهموا المأمون بدس السم له في عنب وقيل في شراب ، ولكن حزن المأمون وبكائه عليه وجزعه الشديد لفقده يبرئانه من هذه التهمة (٢) . وذكروا في ذلك أن المأمون دخل على الرضا يموده فوجده يمحوذ بنفسه ، فبكى وقال : « أعزز على يا أخى بأن أعيش ليومك وقد كان في بقائك أمل ، وأغلظ على من ذلك وأشد أن الناس يقولون إنى سقيتك سما وأنا إلى الله من ذلك برى . فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برى . ثم خرج المأمون من عنده ، ومات الرضا ، (٣) وذكروا أن المأمون شوهد يمشى في جنازة الرضا حاسرا في مبطنة بيضاء وهو بين قائمى النعش يقول : « إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن ، وأنه أقام عند قبره ثلاثة أيام يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فياكله ، ثم انصرف فى اليوم الرابع (٤) .

وواصل المأمون سياسته الودية نحو العلويين حتى بعد وفاة الرضا وبعد أن دخل بغداد ، ولم يغير ملابسه الخضراء إلا بعد أن أخذ عليه ذووه ذلك ، ثم إنه أوصى أخاه المعتصم عندما حانت ساعته فقال : « يا أبا إسحق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتقوا من بحق الله في عباده ، ولتقوثرن طاعة الله على مصيئته ، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك . قال : اللهم نعم .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ .

(٣) الأصفهاني ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) الطوبى ، ص ٤٥٣ .

قال: هؤلاء بذروهمك من ولد أمير المؤمنين على صلوات الله عليه، فأحسن
صحبته، وتجاوز عن مسيئتهم، وأقبل من محسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة
عند محفلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى، (١).

وفي عهد المعتصم، ثار محمد بن القاسم بن علي بن همر بن علي بن الحسين
الملقب بالصوفي بالطالقان، وكان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد، ويرى
رأى الزيدية الجارودية، وقد وقع في يد عبد الله بن طاهر، فوجه به إلى
المعتصم سنة ٢١٩، فأمر بدفعه إلى سرور الكبير، فحبسه في سرداب شبيه
بالبرفكاد يموت فيه، وانتهى ذلك إلى المعتصم فأمر بإخراجه منه، فأخرجه
وحبسه في قبة في بستان موسى مع المعتصم في داره، ففر من محبسه إلى
واسط حيث مات (٢).

ج - مع الفرس :

قامت الدعوة العباسية أساسا في خراسان، واعتمد العباسيون على
الخراسانيين في المكان الأول في تأسيس دولتهم، مستغلين في ذلك نقصهم
على العرب من جهة، والصراع القبلي بين القبائل العربية من جهة ثانية، وليس
العباسيون أمرا خطيرا وهو أن خراسان كما كانت مركز الدعوة العباسية لبعدها
عن دار الخلافة، ومصدرا للرجال الذين اعتمد عليهم العباسيون في إدارة
الدولة الأموية، كانت وكرا لمؤامرات الشعوبيين لتزيق وحدة الصف العربي
تمهيدا لإعادة أجداد الفرس القديمة. وقد يكون العباسيون على علم بهذا الخطر،
ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد للتحالف مع الشيطان إذا لزم الأمر طلبا

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٣١.

(٢) الأصفهاني، ص ٤١٨ - المسعودي، ج ٣ ص ٤٦٥.

لثأرهم من الأمويين (١) الذين أمانوا شرفهم وأذهبوا عزمهم ، وقتلوا وصلبواهم وشردوهم ، وانتصارا للحق على الباطل وتظلم ، وهى عبارة استهوت الموالى الذين اتهموا الأمويين بأنهم ابتعدوا عن مبادئ الاسلام القائمة على العدل والمساواة (٢) . وهكذا اجتذبت الدعوة العباسية عناصر حاكمة على الأمويين معظمها تعاطف مع آل البيت وبعضها عناصر هدامة نازقة على العرب وتسمى لإسقاط دولتهم ، وبعضها عناصر عربية ذات عصبية مواتورة تسمى لطلب الثأر ، ثم كانت مرحلة الصدام المسلح الذى انتهى بانتصار الثورة العباسية وقيام الدولة . وقد اعتبر الفرس انتصار الثورة العباسية فوزا لهم على العرب ، وكان من الطبيعى أن يعتمد العباسيون على الفرس فى تصريف شئون دولتهم اعترافا منهم بفضلهم عليهم وأن يسلبوا إليهم أزمه أمورهم لأنهم يدينون لهم بالخلافة فيقرّبونهم إليهم ويصطنعونهم فى خدمتهم ، ولذلك السبب اصطفت الدولة العباسية فى عصرها الأول بالصبغة الفارسية بحيث أصبح الخليفة العباسى - على حد قول بروكلمان - خلفا للملك الفرس بعد أن كان خلفاء دمشق أقرب إلى شيوخ

(١) وفى سبيل ذلك حاول بعض الدعاة استتارة الشعوب الفرسى الفارسي عند الخراسانيين ضد العرب عامة والأمويين خاصة ، فهذا قحطبة بن شبيب يخاطب فى الخراسانيين فيقول : « يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على مدوم لعد لهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وغلبوا ، فخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسلب عليهم أذل أمة فى الأرض كانت عندهم فتلبسوا على بلادهم . . . واسترقوا أولادهم فسكانوا بذلك يحكمون بالمهد وينصرون المظلوم ، ثم بدلوا وغربوا وجاروا فى المسكن وأخافوا أهل البر والتموى . . . فسلطكم عليهم لينتقم منهم منكم » الطبرى ج ٩ ص ١٦١ .

(٢) من العوامل الرئيسية التى أدت الى التفاف أهل خراسان خباصة والموالى عامة حول الدعوة العباسية الشعوب بالتذمر الاجتماعى والاقتصادى بين سكان المدن ممن لم يتمتعوا بامتيازات الطبقة الممتازة ، ونعنى هؤلاء السكان : التجار والصناع من الموالى الذين أصابوا نهماح فى الأمصار الإسلامية .

القبائل (١) . وكان طبيعياً أيضاً أن تسيطر النظم الفارسية في الحكم وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فقد كان لازماً على الخليفة أن يصطنع أعواناً وموظفين تدعياء لسلطانه ، ويتمثل ازدياد أهمية القوة كعنصر أساسي من عناصر السلطان في المكانة الهامة التي كان يتمتع بها السيف أو الجلاب في البلاط العباسي ؛ وتمثلت هبة الخلافة في قوة جيشه وفي ألقابه الجديدة وفي مظاهر الأبهة التي أصبحت تحيط ببلاطه وترافقه ، وفي الجهاز الإداري المصنوع بالصيغة الفارسية الذي يعتمد عليه وعلى رأسه الوزير والحاجب . وكن من الطبيعي أيضاً أن ترتفع مكانة بعض الشخصيات الفارسية التي لمعت في مرحلة الكفاح المسلح للدعوة العباسية كشخصية أبي سلمة الخلال وشخصية أبي مسلم الخراساني فيصبح الأول وزير آل محمد (٢) ، ويتلقب الثاني بأمين آل محمد (٣) ، وقرب الخلفاء المؤسسون للدولة العباسية أهل خراسان وكرمومهم بأعقابهم عصب الدولة العباسية وشيعة بني العباس وأهل دعوتهم وعندما أسس المنصور بغداد خصص لسكنى العجم مواضع منها قطيعة الراذية وقطيعة المارور وذية وقطيعة رباطة الكرمانى (٤) ، كذلك خصص المعتصم عدداً من القطائع اقواد

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة الدكتور نور نبيه فارس ، بيروت ١٩٤٩ ج ٢ ص ٩ . ويقول برنارد لويس في ذلك : « وقد أدى تغير الأسرة الحاكمة إلى إتمام تنظيم الدولة القوية بدأ في زمن الأمويين ، فبعد أن كان الخليفة مجرد شيخ قبيلة يستمد سلطانه من رضی الطبقة العربية الحاكمة المنوح عن غير طيب خاطر ، أصبح حاكماً أو ثوقراطياً يدعى أن سلطانه مقدس ، ويدعم هذا السلطان بجيش نظامي مساح . » برنارد لويس ، العرب في التاريخ ص ١١٧ وما يليها .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٥٢ - ابن طباطبا ، ص ١٢٩ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٥٢ - المسعودي ، ج ٣ ص ٢٧١ .

(٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٩١ ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

خراسان عندما أسس سامراء (١). وكان خلفاء بني العباس يحلون أهل خراسان إلى خلد تركهم يدخلون في حضرتهم ويخرجون بدون إذن منهم ، ويسمحون لهم في مجالسهم بالسبق في الكلام (٢) وعلى الرغم من الامتيازات التي تمتع بها الفرس في ظل خلفاء بني العباس وما خصهم به هؤلاء من تمييز وتقديم على العرب ، فقد غلبت على كبار شخصياتهم انصرية مشاعر الشمولية بحيث أصبحوا يشككون خطرا حقيقيا على سلطان الخلفاء ، وقد فطن أبو العباس السفاح منذ بداية الامر إلى حقيقة ما يهدف إليه أبو سلة الخلال - رغم ما قدمه للدعوة العباسية من خدمات جليلة في دورها الأخير ورغم عظيم بلائه - من استئثار الثورة لصالح العلويين من جهة (٣) ولسلطوته على الخليفة وإنفاذه للأمور بدون الرجوع إليه من جهة ثانية ، فكان يظهر من الإدلال والقدرة على الخليفة (٤) ويقيم عنده في كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الرجوع إلى بيته قربت إليه دابته إلى البصرة ، فيركب منه دون غيره (٥) . ولهذا الأسباب جأه السفاح على نفسه ، وكان لزاما عليه أن يتخلص منه انهاء أشده (٦) ، ولكن قتل أبي سلة من شأنه أن يثير عليه أنصاره ويستثير شكوك أبي مسلم الخراساني (٧) ،

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

(٢) كان المهدي إذا أراد الشورى جمع خاصة ، مشورتهم ويسمح الدوال بالأولوية في الكلام .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٣٧٠ — ابن طاطا ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٣٢٠ .

(٧) البغوي ، ج ٢ ص ٢٦٢ .

لذلك أفضى لأبي مسلم بما أنكره على أبي سلة ، فكتب إليه أبو مسلم ينصحه
بقتله ، وقال له مبررا قتله : « إنه العدو الغشاش ، الخبيث السريرة (١) » ،
فكتب إليه أبو العباس يسأله أن يبعث إليه من يقتله ، فوجه أبو مسلم مراد
ابن أنس الضبي ، فقتله . غير أن الدينوري يهزى قتل أبي سلة إلى مشاعر
الحسد التي انتابت أبي مسلم ، فيذكر أنه « عندما بلغ أبا مسلم بأن الخليفة
السفاح ولي أبا سلة الداعي جميع ما وراء بابه وجهه وزيره وأسند إليه جميع
أمواره ، دعا بمروان الضبي - وكان أحد قواده - وقال له : انطلق إلى الكوفة وأخرج
أبا سلة من عند الإمام أبي العباس واضرب عنقه (٢) » . وأيا ما كانت أسباب
قتله فإن أبا جعفر أثبت بذلك عن عقلية مفكرة وضعت أمن الدولة وسلامتها
في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها فوق كل اعتبار ، كما أثبت بتنفيذ عملية
القتل على يد أبي مسلم الخراساني براءة قائمة وفها عميقا لأمور السياسة بدون
أن يشير عليه حمق أنصاره ونعمتهم ، حفاظا على الروابط المتينة التي تربطه
بهم . ولكن من جاء بعده من خلفاء بني العباس لم يتردد في نكبة من بالغ من
الفرس في الاستبداد بدولتهم والتكثير بهم عندما تبين لهم خطرهم على سلامة
دولتهم ، وتدل حادثة نكبة أبي مسلم الخراساني على يد المنصور ، ونكبة
البرامكة على يد الرشيد ، ونكبة الفضل بن سهل على يد المأمون (إذا جاز ذلك)
على أن خلفاء بني العباس قاوموا توثب الفرس وأحبطوا مؤامراتهم الشموية
وسدوا من تقاعصهم إلى السيطرة التامة (٣) .

(١) نفس المصدر .

(٢) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٣٧٠ .

(٣) عبد الفتاح السرنجاوي ، الدولة العباسية : ازدهارها وسقوطها ، القاهرة - ١٩٤٠

فأبو مسلم الحمراساني اعتد بقتوته واستخف بالمنصور في أثناء خلافة السفاح بل وبعد وفاته ومن أسئلة استخفافه به في خلافة السفاح أنه لما بويج لابن العباس السفاح، وجه بأخيه أبي جعفر إلى خراسان لاختذ البيعة على أبي مسلم، فوصل أبو جعفر إلى مرو في ثلاثين فارساً، فلم يحتفل به أبو مسلم، ولم يلتقه، واستخف به، فانصرف واجداً عليه، وشكاه إلى أبي العباس وأعلمه ما نال منه، وكثر عليه في مأبه، فقال أبو العباس: فما الحيلة فيه وقد عرفت موضعه من الإمام ومن إبراهيم، وهو صاحب الدولة والقائم بأمرها؟ . . . وقدم أبو مسلم على أبي العباس، فأكرمه وأعظمه ولم يثر شيئاً من أمر الجنوة بدينه وبين أخيه أبي جعفر. ودخل عليه يوماً، وأبو جعفر في المجلس، فسلم عليه وهو قائم، ثم خرج ولم يسلم على أبي جعفر، فقال له أبو العباس: مولاك مولاك!! لم لا تسلم عليه؟ يعني أبا جعفر. فقال: قد رأيته، ولكن لا يقضى في مجلس الحليفة حق أحد غيره (١). . . ومن مظاهر استهائته بالسفاح وبالمنصور أنه كتب في سنة ١٢٦ إلى السفاح يستأذنه في التقدم عليه والحج، فكتب إليه السفاح يأمره بالتقدم في خمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم: . . . إنه قد وترت الناس ولست آمن على نفسي؛ فكتب إليه: أن أقبل في ألف، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يتحمل العسكر. فسار في ثمانية آلاف فرقه فيما بين نيسابور والري، وقدم بالأموال والخزائن فحلها بالري، وجمع أيضاً أموال الجليل، وقدم في ألف، فأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه . . . (٢). . . وقيل أن السفاح قدمه على أبي جعفر في الحج،

(١) اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠١.

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٥٨.

فهرف أبو مسلم خبر وفاة السفاح قبل أن يعرفه المنصور ، ولم يأتيه ليخبره بل كتب إليه معزيا مع أنها كانتا عائدتين من الحج ، كما أنه لم يهتبه بالخلافة ولم يتوقف في طريقة لبيايته وإنما اكتفى بالكتابة إليه قائلا : عافاك الله ومتع بك ، إنه أتاني أمر أعظمي وبلغ مني مبلغا لم يبلغه مني شيء قط ، وفاة أمهر المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تظليما لحقك وأصقى نصيحة لك وحرصا على ما يسرك مني ، (١) ثم مكث يومين وكتب إلى أبي جعفر ببيعة (٢) .

وذكر الحسن بن قحطبية رسول المنصور إلى أبي مسلم عندما كتب إليه يدعو إلى مقاتلة عبد الله بن علي العباسي أنه رأى أبا مسلم — عندما أتاه بكتاب المنصور — يقرأ الكتاب ثم يلقيه من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرأه ويضعه مكان استهزاء ؛ فلما انهزم عبد الله وجمع أبو مسلم ما غنم من عسكره بعث أبو جعفر أبا الخصيب إلى أبي مسلم ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فأراد أبو جعفر قتله ، فتوسط له بعض الحاضرين فخلص سبيله ؛ وعاق وقتل على كتاب المنصور : « أؤمن على الهمة ولا أؤمن على الأموال » (٣) ، ثم استخف برسل الخليفة إليه وشتمهم ، وتناول أبا جعفر بلسانه ، حتى ذكر أنه وقال : « ويلى على ابن سلامة » (٤) . وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور وهو في رومية ، فغضب وزاد

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٦٢ ، ٢٦٨ .

(٣) البغوي ، ج ٢ ص ٣٦٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦٩ — ابن طباطبائي ،

ص ١٥٠ .

(٤) البغوي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

ما في قلبه عليه ، فولى هشام بن عمرو العقيلي مكان أبي مسلم ، فانصرف أبو مسلم وأقبل يريد خراسان مناصبا لأبي جعفر حتى وثقير أهل خراسان عليه ويجعل العباسيين دائما في قبضة يده ، فر بالمدائن ، وأبو جعفر ينزل برومية على مقربة منها ، فلم يبع إلى لقاءه ، ونفذ لوجهه حتى جاز حلوان ، فسير إليه المنصور نفرا من أصحابه فاحتضروه وعظموا عليه الخطب ، وسألوه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ، وسذروه طافية البنى ونصحوه بالرجوع إلى المنصور ، فأقبل إلى العراق ، وقدم على أبي جعفر ، فأمر الناس بتلقيه ، فتلقاء بنو هاشم والناس ، فدخل على المنصور فقبل يده ، وأمره المنصور بأن ينصرف ويروح نفسه ويدخل الحرام ، فانصرف ؛ فلما كان الند دعا المنصور عددا من الحرس وأمرهم بالجلوس وراء الرواق فإذا صفق يديه وثبوا على أبي مسلم فقتلوه ؛ ثم أرسل إلى أبي مسلم لم يستدعيه ، ثم أخذ يدايته على مخائنته له ، فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم : « لا يقال هذا لي بعد ثلاثي وما كان مني » ، قال : يا ابن الحبيثة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ، إنما عملت في دولتنا وبريحتنا ، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلنا ، فأخذ أبو مسلم يديه يقبلها ويمتدح إليه ، فقال له المنصور : « ما رأيت كاليوم أ والله ما زدني إلا غضبا » ، قال أبو مسلم : « ددع هذا فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى » ، فغضب المنصور وشتمه ، ثم صفق يديه على الأخرى ، فخرج عليه الحرس فأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه^(١) ؛ وتم ذلك في شعبان سنة ١٣٦ .

ثم خطب المنصور في الناس بعد أن قتله فقال : « أيها الناس ، لا تخزيوا عن أنس الطاعة إلى وسمة المدعية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسرغش

(١) للسعودي ، ج ٣ ص ٢٦١ .

إمامه أظهر الله سريره في فلتات لسانه وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه الذي يادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفواجه ، إننا لم نبخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم ، إن من نازعنا عروة هذا التمييز أو طأناه ما في هذا للقمند ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيمينتنا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيمينته هو ، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمننا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه (١) .

ثم اضطرب اصحاب أبي مسلم بعد قتله ، ففرقت فيهم الأموال ، فأمسكوا رغبة ورهبة (٢) . واعتبر الناس يوم مقتل الخراساني أول خلافة المنصور ، لأنه كان يراهم في السلطان ، وكادهم بخلع المنصور (٣) عندما أعلن مخالفته وقصد السير إلى خراسان حيث شيعته وأنصاره من الشعوبيين أمثاله ، بدليل أنه لما نهي قتل أبي مسلم إلى خراسان اضطربت الحرورية وهي الطائفة المسماة بالمسلمية وكانت تقول بإمامة أبي مسلم ، ومن زعمائها سنان بن الجوسي الذي سبق أن تحدثنا عنه .

وبمصرع أبي مسلم الخراساني ، قوى مركز المنصور وتوطدت أركان الدولة العبّاسية . ولا شك أن المنصور بقتله هذا الشعوبيين إنما أثبت سطوته وقدرته على مواجهة المواقف الخطيرة ، وكان المنصور أول من أحس خطورة أبي مسلم وتنبه لتسلله ضد العرب وضد الدولة منذ أن قتل خميرة رجال العرب في

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٧٤ — ٤٧٩ ؛ ابن طباطبا ، ص ١٥٣ .

(٢) للمسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٣) القمي ، المعبر في خبر من غير ، ص ١٨٦ .

خراسان عن يمرقون خططه وموامراته ضد العروبة ومنهم سليمان بن كثير كبير الدعاة في خراسان ، فحاول المنصور أن يغري أخاء السفاح بقتل أبي مسلم الخراساني فقال له : « أظنني وأقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه الذرة . فقال : قد عرفت بلاءه وما كان منه . فقال أبو جعفر : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ . فقال : كيف تقتله ؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته ضربته أبا من خلفه ضربة قتلتها بها . قال : فكيف بأصحابه ؟ قال أبو جعفر : لو قتل لتفرقوا وذلوا . فأمره بقتله ، وخرج أبو جعفر ، ثم ندب السفاح على ذلك فأمر أبا جعفر بالكف عنه ، (١) .

أما نكية الرشيد للبرامكة فكانت هي الأخرى دليلا واضحا على يقظة خلفاء بني العباس وتذنبهم إلى خطر التسلسل الشعبي ، فالمعروف أن البرامكة من أصل فارسي ينتسبون إلى أشراف بلخ ويتلقبون بالبرامكة من برمك وهي رتبة وراثية لرئيس كهنة معبد نوبهار ببلخ (٢) ، وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين خالده بن برمك الذي أسهم في الدعوة العباسية ، وكان من أبرز رجال أبي مسلم الخراساني الذين اعتمد عليهم في مهمته ، وقد ولاه قحطبة ابن شبيب الطائي مهمة تقسيم الغنائم عندما انتصر قحطبة على قائد الأمويين في جرجان (٣) ، وأصبح وهو لا يزال في جيش قحطبة يتقصد خراج كل ما افتتحه قحطبة من السكور ويقوم بتقسيم الغنائم بين الجند تقسيما عادلا أرضي جميع أهل خراسان حتى قيل : « لأنه ما من أحد من أهل خراسان إلا وخالده عليه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٢) ابن الفقيه الهذلي ، « مختصر كتاب البلدان » ص ٣٢٣ —

Bouvat, les Barmecides, Paris, 1912, P. 26٥

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٤٢ .

يدومنة لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله (١). وقد أعجب السفاح بخاله ابن برمك له صاحته وأقره على عمله، ثم أسند إليه ديوان الخراج وديوان الجند (٢)، وكان هذا التكريم أول مرحلة من مراحل تدخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم في أموالهم، وأصبح خاله بذلك يودى عمل الوزراء في توليته الخراج، ولكنه تجنب أن يتلقب بالوزير تطيرا بما جرى لأبي سلمة الخلال (٣). وارتفعت منزلة خاله عند السفاح وكثر قصاده والوافدون على بابيه واتفق معه الناس. ومنذ ذلك الحين بدأ يتعصب لغاربيته، فلما بنى المنصور بغداد وعظمت النفقة عليه، أشار عليه وزيره أبو أيوب المورباني بهدم إيوان كسرى واهتمال أنقاضه، فاستشار المنصور خاله بن برمك في ذلك فقال: «لا تفعل يا أمه المؤمنين، فإنه آية الإسلام، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمر سمائي، وهو مع ذلك مصلى على بن أبي طالب عليه السلام والمؤنة في قمته أكثر من نفعه. فقال له المنصور: أبيت يا خاله إلا أميلا إلى الجمعية. ثم أمر المنصور بهدمه، فهدمت منه ثلثة فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها، فأمسك المنصور عن هدمه، وقال: يا خاله قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم إيوان. قال: يا أمير المؤمنين، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك هجرت عن هدم ما بناه غيرك. فأعرض عنه وأمسك عن هدمه (٤).

وفي عهد المهدي، زادت مكانة خاله البرمكي، فولاه الخليفة ولاية فارس،

(١) الجعفي، الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٤٨، ص ٨٧.

(٢) المصدر، ص ٨٩.

(٣) ابن طباطبا، ص ١٣٩ — إبراهيم سلمان، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، رسالة الماجستير، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٢١.

(٤) ابن طباطبا، ص ١٤١.

فعمل على التقرب من الأهالي بالتخفيف عنهم . فأسقط ضريبة العشر ، وأسرف في العطاء . ولما توفي خاله ، حل ابنه يحيى محله في المكانة السامية التي كافي يشغلها عند الخليفة ، وأسند إليه المهدي مهمة تربية ابنه هارون في سنة ١٦١ (١) . وإلى يحيى بن خاله يرجع الفضل في ظفر هارون الرشيد بالخلافة ، وقد تعرض يحيى بسبب موقفه لسم خط الهادي ، فأمر بسجنه ، ولكنه توفي بعد ليلة واحدة ، فلما تولى هارون الخلافة أخذ بهم يحيى يتألق ، فقلده وزارته وخوله من الساعات وأطلق له يده في تصريف شؤون دولته بحيث إنه أصبح الحاكم الفعلي للدولة ، فقد أسند إليه إلى جانب مهام الوزارة جميع الدواوين وديوان الخاتم (٢) . وفي سنة ١٧٨ اصطاع الرشيد الفضل بن يحيى فولاء خراسان وثغورها ، فأتخذ بخراسان جنودا من المعجم موالين له سباهم الباسية بلغت عدتهم ثمانمائة ألف رجل ، قدم منهم إلى بغداد عشرين ألفا عرفوا هناك بالكرنية (٣) . ثم قرب الرشيد إليه جعفر بن خاله ، وأقصى الفضل بسبب ميله للإمام موسى الكاظم الذي كان سجيناً لديه ، ونال جعفر حظوة كبيرة عند الرشيد ، فأسند إليه ديوان الخاتم ، وتأنق نجم جعفر وأصبحت بيده أزمة الأمور ، وباع من حب الرشيد له أنه كان لا يرد له مطلباً ، وأنه قلده برید الآفاق ودور الحرب والطرز في جميع الكور (٤) ؛ وأمر الرشيد بأن ينقش اسم جعفر على دنانير الصلوات والأفراح

(١) الطبري ، ج ٨ ص ٣٤٤ (أحداث سنة ١٦٣) .

(٢) الجاهلي ، ص ١٧٨ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٦٢ (أحداث سنة ١٧٨) .

(٤) الجاهلي ، ص ٢٠٤ .

بمدينة السلام واحمدية^(١) ثم أسند إليه النظر في المظالم^(٢) لأول مرة في تاريخ القضاء .

وهكذا نال البرامكة من النفوذ والسطوة والجاه والمنزلة ما لم تحظ به أسرة أخرى في تاريخ الدولة العباسية ، ولستكنهم لم يحسنوا استعمال السلطة . فضربوا على يد الرشيد واستأثروا بالحكم دونه ، ووزعوا الأموال على الاتباع والأهوان والآنصار إلى حد أن شهرتهم غلبت على شهرة الرشيد وتضائل نفوذه بالنسبة لنفوذهم . وقد فطن الرشيد مؤخرا إلى أن البرامكة بما ظفروا به من سلطان أصبحوا سيفا مسلطا عليه ، وقد عبر عن ذلك لاحد بدمائه بقوله : « ما عد البرامكة في هاشم إلا هيوذهم ، وأنهم هم المولاة ، وأن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها »^(٣) . ثم أخذ الرشيد يعمل بالتدريج على الحد من سطوتهم ، فمزل محمد بن خالد البرمكي عن حجابته في سنة ١٧٩ وقلدها للفضل ابن الربيع^(٤) ، ثم صرف الفضل بن يحيى عن مهامه في سنة ١٨٣ وقلدها لعل ابن عيسى بن ماهان ، ثم سحب الإشراف على الحرس من جعفر وأسندته لمرثمة ابن أعين^(٥) ، وبالتدريج أعرض عنهم قبل أن يقدم على نكبتهم ؛ وهناك عوامل دفعت بالرشيد إلى ذلك ، منها :

(١) القرظي ، شذور العهود في ذكر النفود ، تحقيق الطباطبائي ، النجف ١٣٥٦ هـ ، ص ١٢ .

(٢) الجهمشاري ، ص ٢٠٤ .

(٣) الأتليدي ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، القاهرة ١٣٠٩ هـ ، ص ٨٨ .

(٤) الجهمشاري ، ص ٢٣٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

١ - عامل سياسي : كانت البرامكة ميول سياسية ومذهبية تشكل خطرا على سلامة الدولة (١) ، فقد اتهم الرشيد يحيى بن خالد بجيلة إلى يحيى الصلوح وأنه أمدّه بمائتي ألف دينار عندما ثار في بلاد الديلم (٢) ، كما اتهم البرامكة بمحالاتهم لخصومه السياسيين أمثال عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الذي اتهمه الرشيد بأنه يطالب بالخلافة لنفسه (٣) ، كذلك اتهم موسى بن يحيى بن خالد على لسان علي بن عيسى بن ماهان الذي تولى خراسان بأنه كان يكتب أهل خراسان ليهرب إليهم ويخرجهم عن الطاعة (٤) ، وأثر هذه التهمة في نفس الرشيد إلى حد أنه أمر بحبس موسى في ١٨٦ هـ ثم أطلقه لوساطة أم الفضل .

٢ - عامل اقتصادي : سيطر البرامكة على أموال الدولة وأنفقوها على ما اشتبهوا في وجوه شتى ، وبالمعنى في ذلك إلى حد أن الرشيد نفسه كان لا يصله مال إلا بأذنهم (٥) ، وبينما كانوا يقترون على الرشيد مع اكتظاظ خزائن الدولة بالأموال كانوا يسرفون في الإنفاق على أنفسهم وعلى أنصارهم ، فامتلكوا الضياع وبانفوا في العطايا والهبات .

٣ - عامل التمهيب للفرس : كان البرامكة لا يختلفون في ذلك عن الشعوبية ، فكانوا يتمصبون للفرسية ويعملون على إعادة الأجداد الفارسية القديمة ، فكانوا يستندون المناصب الهامة في الدولة إلى أنصارهم الفرس ، بل

(١) الدوري ، ص ١٦٨ .

(٢) الجيشاري ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٧ .

(٥) المودودي ، ج ٣ ص ٣٦٨ .

وأشاع للناس أن البرامكة كانوا زنادقة (١).

٤ — الاستئثار بالسلطة دون الخليفة : كان الرشيد بهادى ذى بدء يقتاضى عما كان يصله من أخبار استبداد البرامكة بشؤون الدولة وتزايد نفوذهم وفاء منه لخدماتهم ، ولكن معاداة أخذت تتغير تجاههم إلى حد أنه لم يعد يأمن لهم وأصبح يخشى على مركزه كخليفة للمسلمين بعد أن سيطروا على أجهزة الدولة الإدارية والمالية وصاد الناس يلحقون بكروهم ويتوافدون على أبوابهم (٢). ويشير ابن طباطبا إلى أن جعفرًا وفضل بن يحيى بن خالد ظهر منهما من الإدلال مالا تَحْتَمِلُهُ نفوس الملوك ، فكبرهم الرشيد (٣) وبرى ابن طباطبا أن بختيشوع الطيب دخل يوا على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من بغداد وكان البرامكة يكتنون بمحذاته من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجله ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيل وازدحام الناس على باب يحيى ابن خالد فقال لطيبه : دجزى الله يحيى خيرا ، تعدى الأمور وأراحني من الكد ، ووفر أوقاتي على اللذة . ثم دخل عليه طيبه بعد مدة وقد شرع الرشيد بتنفيذ عليهم ، فنظر فرأى الخيل كما رأها تلك المرة ، فقال : « استبد يحيى بالآلور دوني ، فالخلافه في الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها (٤) » .

٥ — دور الفضل بن الربيع : لعب الفضل بن الربيع دورا رئيسيا في

(١) ابن العديم ، الفهرست ، ص ٤٧٣ .

(٢) ابن العباد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، السائرة ١٣٥٠ هـ ،

ج ١ ص ٣١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

أمنار صدر الرشيد على البرامكة والسمي للإيقاع بهم ، إذ ساءه وساء غيره من أعيان العرب استئثار الفرس بالمناصب الحسنة في الدولة وسيطرتهم على شؤونها وتمعية المنصر العربي . وقد سملت على الفضل بن الربيع مهمة وظيفته كحاجب للرشيد . ويذكر ابن الأثير أن الفضل بن الربيع استغل قيام جعفر بن يحيى البرمكي بتسهيل مهمة الفرار من السجن للإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن ، وأبلغ الرشيد بذلك ، فادعى الرشيد أن هذا تم بملءه (١) .

٦ — قصة المياسية أخت الرشيد : وزعموا أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسية بنت المهدي ، وكان إذا أراد الشراب دعاها للحضور معه ، فطالب من جعفر أن يتزوجها زواجا يتيح له بها استنها والنظر إليها والاجتماع في مجلس يضمهما مع الرشيد ، واشترط عليه ألا يقربها ، فأجابته إلى ذلك ، فزوجه الرشيد ، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه ، وأخذ عليه الرشيد عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يغلونها ولا يظله وإياها سقمف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثها ، فحلف له جعفر بذلك ، ورضى به وألزمه نفسه ، فأحبته المياسية ، وتحملت على أن يحتل بها ، فحملت منه وولدت غلاما ، فوكلت به خادما من خدمها . فلما خافت ظهور خبره وانتشاره وجهت الصبي والخدام والملازمة إلى مكة وأمرتها بتربيته ، وعاشت زبيدة بالخبر وكانت تكره جعفر بن يحيى الذي لمب دورا هاما في بيعة المأمون بمد ابنها الأمين ، فأبلغت الرشيد ، فسقط في يده ، وتحقق الرشيد من صدقها ، فعزم على نكحة البرامكة (٢) . ويعلم ابن خلدون في صفة هذه الواقعة وينبغيها ففيا قاطعا (٣) .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٧٦ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٣٠٨ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩ .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، أمر الرشيد خادمه معرور بقتل جعفر ، وتم ذلك في آخر المحرم سنة ١٧٨ هـ ، ثم أمر بحبس يحيى والفضل ومصادرة أموالهم .

وبنكبة البرامكة انتصر الحزب العربي في بلاط الخليفة الرشيد برعاية الفضل ابن الربيع ، وبدت ثمرات هذا الانتصار في وصية الرشيد لابنه الأمين إذ قدمه رغم صغر سنه على أخويه المأمون والمعتصم ، لاعتبارات أساسية أهمها أن أمه السيدة زبيدة عربية الأصل . ولكن الرشيد قبل وفاته وقع في خطأ فاحش إذ قسم دولته بين أبنائه الثلاثة ، وخص المأمون بخراسان ، وهنا ظهر الفضل بن سهل الفارسي الذي كان المساعد الأمين للمأمون في ولايته خراسان ، ويتمياً للفضل الذي كانت تنلب عليه النزعة القومية الفارسية أن يعمل على زيادة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون بهذا السبيل إلى إقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس على النحو الذي عرضناه من قبل .

(٢)

الحركات الدينية الهرطقة والهرطقات^(١)

قامت الدولة العباسية على أساس ديني قوامه إحياء السنة والدين وإعادة حكم العدل ، والمودة إلى نظام الخلافة الحقيقي الذي يغلب عليه الطابع الديني بدلا من نظام الملوكية الذي إقامة الأمويون^(٢) ، وتمتلك مبادئ العباسيين الجديدة في الخطبة التي ألقاها السفاح غداة أخذ البيعة له ثم أكملها معه داود ، فمن قول داود : « علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (ص) »^(٣) . واتخذ العباسيون رسوما للخلافة لها صبغة دينية بحتة ، فكان خلفاؤهم يرتدون بردة النبي (ص) في المناسبات الخاصة كصلاة العيدين والجمعة وعند توليتهم الخلافة ، كرمز لسلطانهم الدينية ، ويحيطون أنفسهم بالقمع ويستشيرونهم في مهام الدولة ومشكلاتها ، ويستندون على نظرية الإمامة في الحكم تؤكد المعنى الديني على أساس أنهم ورثة بيت الرسول بسبب قرابتهم للرسول ، وبذلك جمعوا بين الدين والسياسة وهو ما عبر عنه ابن طباطبا بقوله : « واعلم علمت الخلفاء أن هذه دولة من كبار الدول ساءت العالم سياسة مزوجة بالدين والملك ، فكان

(١) فيما يتعلق بموضوع التورات والفن يرجى الرجوع إلى الفصل الخامس بالتميز بالحقائق ثم إلى الفصل الثاني الذي يتعلق بسياسة الدولة العباسية مع العلويين . أما بالنسبة للهرطقات فقد سبق أن عالجنا هذا الموضوع مجزئا وباختصار في الفصل الأول ، ولا بأس من معالجته هنا كبحث منفرد ومفصل في آن واحد حتى تتم الفائدة ، وأرجو المنة إذا حاء تكرار في بعض الأحيان .

(٢) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١١٤ .

اخيار الناس وصلحازم يطعمونها قدينا والباقون يطعمونها رهبة أو رغبة ،
ثم مكثت في الخلافة والملك في حدود ستائة سنة (١) . وخيبت هذه المبادئ التي
قام عليها الحكم العباسي آمال الفرس أنصار الثورة العباسية الذين كان يحسدوهم
الأمل في حكومة ضعيفة سواسية معها ونة دينها ، يستطيعون في ظلها تحقيق
مآربهم التي تهدف إلى قتل من العرب وانتزاع السلطان من أيديهم وتمويله إلى
أنفسهم . وكان قد انضم إلى الدعوة العباسية جموع هائلة من أهل خراسان
لأنهم من الإسلام إلا اليسير تدرجوا بالإسلام كتنية لمحاولة إخفاء مرطقات
ونحل وديانات وثنية قديمة متمسكة بها ، ولكن العباسيين نصبوا أنفسهم
المسؤولين عن إعادة الدين الحق ، وتطبيق مبادئ المساواة والمدالة الاجتماعية
التي كان الموالي يطالبون بها في العصر الأموي . ولكن بمعاوامة وأمرات للشعبوية
المتدرة وراء إسلام الظاهري بتشجيعهم السياسي للملويين ، ناقش المنصور
النفس الزكية في حجة التي استند عليها ، مؤكدا شرعية العباسيين في الحكم .
وعندئذ اتجه الشيعيون الفرس إلى سياسة جديدة في محاربة العرب والإسلام
قوامها إحياء الديانات القديمة في فارس وإغراء طامة الناس والجمهور على
الاخذ بما جاء فيها من تعاليم هدامة فاسدة مليئة بالمنهات على ارتكاب المحرمات ،
مستهدفين من وراء ذلك تحطيم القيم الدينية الإسلامية (٢) والنيل من سلطان
العرب .

(١) ابن طاطبا ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن الحوزي ، المنتظم في التاريخ ، ج ٥ ، طبعه حيدرآباد الحسن ، ١٣٥٧ هـ ،
ص ١١٠ ؛ ويقول اليهودي إن هدد هؤلاء الشيعيين « أن يتدول (زودشت) على
الأرض كلها ويزيل ملك العرب وغيرهم ويجمع الخلق على دين واحد » (اليهودي ، الآثار
النبائية ، ص ٢١٣) .

أ — حركة بها فرید :

وأقدم الحركات الدينية المنصرية التي ظهرت في خراسان حركة قامت في صدر الدولة العباسية قبل ظهور أبي العباس السفاح ، في ركاب أبي مسلم الخراساني عندما كان يتولى زعامة الدعوة في خراسان ، وصاحب هذه الحركة رجل يقال له بها فرید من قرية روى من أبر شهر ، كان مجوسيا زرد شتيا « يصلي الصلوات الخمس بلا سجود ، متياسرا عن القبلة ، وتكهن ، ودعا المجوس إلى مذهبه فاستجاب له خلق كثير » . (١)

وذكر البهروني أنه أمر أصحابه بالسجود لعين الشمس على ركبة واحدة والتوجه نحوها في الصلاة حينما كانت وإرسال الشعور والجهم ويترك الزمزة عند الطعام ، ونهاهم عن شرب الخمر وأكل الميتة ولحاح الأمهات والبنات والاختوات وبنات الأخ ، وهي من صميم التعاليم الزردشية (٢) ، وقال بحلول الروح والرجمة ونهى عن ذبح الحيوان (٣) . فوجه إليه أبو مسلم شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضا عليه الإسلام ، وأسلم وسود ، ثم لم يقبل إسلامه لتكهنه . فقتل ، ولكن تعاليمه انشرت في خراسان خاصة بعد مصرع أبي مسلم الخراساني ، أمل الشعورية ورمزها .

ب — ثورة سنباذ : وأثار مصرع أبي مسلم غضب الجماهير في خراسان ،

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٤ .

(٢) البيهقي الآثار الباقية ، ليزج ٩٢٣ ، ص ٢١٠ — الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق كيلاني ، ج ١ ص ٢٣٨ .

Browne (Edward) : A literary History of Persia, London (٣)
P . 308-310 . 1909 — ابراهيم المدوي ، المجتمع العربي ومناقضة الشعوبية ،

فقد تجسدت في أبي مسلم آمالهم ومبادئهم التي يبتغونها وتهدف إلى إزالته دولة العرب ، فلما قتل أظهر وأهذه المبادئ ، فظهر سبناذ في خراسان يطالب بدم أبي مسلم والثأر له ، وظهر المسلمية أصحاب أبي مسلم في بلاد ما وراء النهر . أما سبناذ فكان مجوسيا من إحدى قرى نيسابور ، وكان من صنائع أبي مسلم وقائداً من قواده المقربين ، فلما علم الحرمية بقتل أبي مسلم خرج سبناذ من نيسابور في عسكر كثيف من أتباعه — ومعظمهم من أهل الجبال والضياع — فغلب على نيسابور وقومس والرى وتسمى فيروز أصبهان ، واستولى وهو بالرى على خزان أبي مسلم التي خلفها بالرى حين شخص إلى أبي العباس السفاح ، وكثرت جموع سبناذ من أهل الجبال وطبرستان ، فمات فسادا في إقليم الجبال وسبى الحرم ونهب الأموال ، وكان يظهر أنه يقصد الكعبة ويهدمها ، فوجه إليه المتصور جيشا عدته عشرة آلاف فارس بقيادة جهمزور ابن مراد العجلي فاشتبك مع سبناذ على طرف المفازة ما بين همذان والرى ، وعزم جهمزور على مطاولته ، فقدم سبناذ السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأى عسكر المسلمين قن في الحمايل وعرضن : « واحمداء اذهب الإسلام ، فنفرت الإبل وتراجعت إلى معسكر سبناذ ، فاختمت صفوف عسكره فقاتلهم جهمزور وعسكره قتالا شديدا فولوا الأدبار ودارت عليهم الدائرة وقتل منهم ستون ألفا وسبى من ذرائعهم أعداد كثيرة ، ثم قتل سبناذ بين طبرستان وقومس (١) .

ج — ثورة المسلمية : وفي نفس الوقت ثار المسلمية ، وهم فرقة من الحرمية

(١) البیهقي ، ج ٢ ص ٣٦٨ — الطبري ، ج ٩ ص ١٦٦ (حوادث ١٣٧) — المسعودي ، ج ٢ ص ٢٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١ — ابن طباطبغا ، ص ١٥٤ .

أتباع أبي مسلم ينتقدون بإمامته ويقولون إنه حتى يرزق لم يمت حتى يظهر
 فيملا الأرض عدلاً (١). وتزعم الحركة المسلمية رجل اسمه إسحق الترك لاذ
 بالترك في بلاد ما وراء النهر، وأقام بها داعية لأبي مسلم. وادعى أن أبا مسلم
 محبوس في جبال الري، وأنه يخرج في وقت يعرفونه على نحو ما يروونه
 السكيسانية في عهد بن الحنفية (٢). وفريق من المسلمية قساموا بموته
 وقالوا بإمامة أبنه طاهر وعرفوا لذلك بالفاطمية (٣). وزعم فريق من
 المسلمية أن أبا مسلم بن أنفذه زرادشت، وادعى أن زرادشت حتى لم
 يمت، وأصحابه ينتقدون أنه حتى لا يموت، وأنه يخرج حتى يقيم هذا الدين
 لهم (٤).

د — حركة الراوندية : ثم ظهرت الراوندية، وهي فرقة من فرق المسلمية
 الحزمية على رأى أبي مسلم، سميت كذلك نسبة لمدينة راوند مقر دعوتهم (٥)،
 وكانت هذه الفرقة قد انتشرت منذ أواخر العصر الأموي عندما اشتد السخط
 والتذمر بين الفرس على العرب الأمويين (٦)، فهي إذن حركة سابقة على قيام
 الدولة العباسية ولكنها ظهرت ظهوراً ذى خطر في عصر المنصور وبالذات في

(١) للسمردي، ج ٣ ص ٢٩٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٤٥ — Brown, op., cit., p. 314.

(٣) للسمردي، ج ٣ ص ٢٩٣.

(٤) ابن النديم، ص ٣٤٥.

(٥) هي بلدة تقع بالقرب من قاجار وأصبهان وأما راوند بمعنى الخير المضاعف
 (يا فؤاد، معجم البلدان، مادة راوند).

(٦) يعتقد الدكتور ماجد أنه ربما كان الراوندية في الأصل أتباع فرقة إسلامية لها
 السكيسانية التي طالبت بحق آل البيت (ماجد، المرجع السابق، ص ٧٠).

أعقاب مصرع أب مسلم الخراساني، شأنهم في ذلك شأن المسلمين والخرمية والفاطمية. وكان الراوندية يعتقدون بالحلول والتناسخ (١) (بحلول روح الله في أشخاص الأئمة من آل علي سترًا للتماليم الفارسية القديمة وراء شخصيات هربية إسلامية لتجد لها قبولاً بين ضعاف النفوس) (٢).

ويذكر الطبري أن رجلاً من الراوندية كان يقال له الأبلق وكان أبرص زعم بأن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلوا [أي الراوندية] الحرمات، فكان الرجل منهم يدعو الجماعه منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويعلمهم على أمراته، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله [القنبري] فقتلهم وصلبهم. فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبداً أباً جعفر المنصور، وصعدوا إلى الخضراء، فألقوا أنفسهم كأنهم يطهرون، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت. قال: فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم، فأقبلوا يقولون وهم يقولون: أنت أنت؛ (٣) فكانوا يعتقدون أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. وأتوا قصر المنصور بالهاشمية فجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فأثار ذلك غضب عامتهم، فمزموه على قتله، واحتاط المنصور لنفسه، فأمر بمنع التجمعات، فأعدوا نهشاً خالياً، ثم مروا في المدينة حتى اقتربوا من السجن فأخرجوا أصحابهم السجناء، واتجهوا - وقد بلغ عددهم ستائة - نحو القصر،

(١) الطبري، ج ٩ ص ١٧٣.

(٢) المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص ١٠٥.

(٣) الطبري، ج ٩ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

وحاول المنصور أن يخرج للقائهم، فمنعه من بن زائدة ورعى بنفسه أمامه وحذره من الظهور أمامهم، وتبادل حراس القصر والراوندية الهجوم، ووردى في الاسواق فأقبل الناس يحاربون الراوندية حتى قتلوا (١). وهكذا قضى المنصور على الراوندية في سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م).

وما زال ظهور الراوندية وخروجهم على المنصور يزعج عبادتهم إياه. يكتنفه الغموض، ولا يمتلئ أن تدرى حركتهم إلى رغبتهم في الثأر لابن مسلم، لأن هذا الأخير قتل في آخر سنة ١٣٦ وأول ١٣٧، في حين أن حركتهم ضد المنصور قامت في سنة ١٤١. وقد ذكرنا فيما سبق أنهم قدموا إلى قصر المنصور في عدد قليل لا يزيد عن ٦٠٠، وأنهم صعدوا إلى قصر الخضراء، وأخذوا يلتقون بأنفسهم كالوكانوا يطهرون وقد تسلط على عقولهم فكرة روبريته لا يكثر ثون لما يصيبهم من الموت، فتصدى لهم المنصور، فكانوا يقولون: «أنت أنت». ويورد الطبرى رواية على لسان أبي بكر الهزلى أنه قال: «إني لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلعت، فقال رجل إلى جاني: هذا رب العزة الذى يطعمنا ويسقينا. فلما رجع أمير المؤمنين ودخل عليه الناس، دخلت وخلا وجهه، فقلت له: سمعت اليوم عجباً، وحدثته، فتك في الأرض، وقال: يا هذلى، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويمتلئهم أحب إلى من أن يدخلهم الجنة بمصيتنا» (٢). فلما حاربهم أبو جعفر المنصور وسجن من زعمائهم مائتين لم يمد له شرعية الحاكم في نظرهم من الألوهية فجاز لهم قتله (٣).

(١) راجع التفاصيل في: الطبرى، ج ٩ ص ١٧٤ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٠٢.

(٢) الطبرى، ج ٩ ص ١٧٥. والظاهر أن هذا القول ينطبق على حادثة وقعت قبل سنة ١٤١ عندما كان المنصور في حاجة إلى أنصار يؤيدونه. أما وقد أصبح خليفة للإسلام وحامياً للدين فلم يعد يتقبل من المبادئ ما يتعارض مع الإسلام، ولهذا حاربهم.

(٣) الدورى، العصر العباسى الأول، ص ٩٠.

ولم تكن حركة الراوندية ختاما للحركات الدينية العنصرية أو البدع والمطقات ، ففي سنة ١٥٠ هـ خرج أستاذ سيس على المنصور في سجستان من بلاد خراسان وادعى النبوة ، وتبعه عدد كبير من الناس بلغ فيما قيل ثلاثمائة ألف مقاتل ، فقتل بهم على عامة خراسان ، وعندما تصدى له الأجنثم المروزي في أهل مرو الروذ قتلوه قتالا عنيفا ، وهزموه وقتل الأجنثم قاضى المنصور إلى تسير جيش بقيادة غازم بن خزيمه لمحاربة أستاذ سيس ، وضم غازم إلى جيشه قلوب الأجنثم ، ونزل بموضع خندق حوله عليه وعلى عسكره ، وجعل له أربعة أبواب ، على كل منها ألف من رجاله . وأقبل أتباع أستاذ سيس وقد تسلحوا بالنزوس ومعهم المروزي ليظهروا الخندق . فقاتلهم عسكر غازم على ما بين من الأبواب الأربعة ، ثم أئذ أحد قواده واسمه الهيثم من أحد الأبواب التي شغل عنها أصحاب أستاذ سيس ويطوق عسكره من الخلف ، وفي هذه الأثناء يخرج غازم من الخندق وقاتل أصحاب أستاذ سيس ليشغلهم ، واشتد القتال ، ولذا بأعلام الهيثم مقبلة ، فانهزم أصحاب أستاذ سيس ووضعت فيهم السيوف ، وبلغ عدد قتلاهم ٧٠ ألفا وأسراهم ١٤ ألفا ، وقبض على أستاذ سيس وصدف بالأغلال ، وحمل إلى بغداد حيث قتل في سنة ١٥١ هـ (١) .

٥ - الزنادقة : وفي عهد المهدي ظهر الزنادقة ، وأصلهم من أبرار المانوية وصديقيهم ، ويرجع أن كلمة زنديق مقبسة من الأصل الآرامي صديق (٢) ، ثم أصبحت بالفارسية زنديك ، فمرت إلى زنديق بمعنى ملحد ، بدليل أن الزنادقة كانوا يقولون بالثنوية ويتبعون تعاليم ماني ، فقد ذكر المسعودي أنه

(١) الطبري ، ج ٢ ص ٣٨٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٢ وما بينهما .

(٢) ابن النديم المهرست ، ٢٣٣ - ٣٣٥ .

قبض في البصرة في زمن المأمون على عشرة من الزنادقة من يذهب إلى قول ماني
ويقول بالانور والظلمة (١) ، وكذلك يربط ابن النديم بين المانوية أتباع ماني
وبين الزنادقة ويذكر أسماء رؤساء المانوية المتكلمين الذين يظهرون الإسلام
ويبطنون الزندقة (٢) . ثم تطور لفظ الزندقة وأصبح يطلق على جميع أتباع
الهرطقة والنحل الفارسية ، لافرق بين الخرمية والمزدكية والمانوية والمجوسية (٣) ،
ثم تطور مرة ثانية حتى صار يشمل الملحدين أو المتشككين في الدين .

وأول من طارد الزنادقة من خلفاء بني العباس الخليفة المهدي ، ففي سنة
١٦٧ هـ جدد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الأفاق وقتلهم ، وولى عمر
الكلواذي لتعقبهم ومطاردتهم ، وقبض على يزيد بن القيس ، فأقرضه ولكنه
هرب من سجنه (٤) . وذكر ابن طباطبا ، أن المهدي كان شديدًا على أهل
الإلحاد والزندقة لأنهم في إهلاكهم لومة لائم (٥) . وفي أحداث سنة ١٦٩
يذكر ابن الأثير أنه اشتد في طلب الزنادقة وقتل منهم جماعة من بينهم : علي
ابن يقطين ، يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس الذي أقر بالزندقة (٦) ،
وولده داود بن علي العباسي (٧) ، ويضيف الطبري إلى هذه الأسماء يوزان بن

(١) الممودي ، ج ٢ ص ٤٢١ .

(٢) ابن النديم ، ص ٢٢٨ .

(٣) رذكر ابن النديم الفرق بين المانوية والمجوسية والريسونية ، وتستدل من
دراسة هذه المذاهب على وجود قرابة واضحة بينها .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ص ٩ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٥ .

(٥) ابن طباطبا ، ١٦١ .

(٦) فقه الخليفة المهدى وذلك بعد وفاة المهدي .

(٧) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

بإذان كاتب المقطين (١) ؛ ويضيف اليمتقون أمم صالح بن أبي عبيد الله كالبه. (٢)
وأوصى المهدي ابنه الهادي يوماً - وقد قدم إليه زنديق فاستتابه (٣) ، فأبى أن
يقرب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه - فقال : « يا بني ، إن صار لك هذا الأمر
فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدهو الناس إلى ظاهر
حسن كاجتباب الفراخس والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها إلى
تحریم اللحم ومنع الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تخرجها وتحويها ، ثم
تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم يبيع
بعد هذا تكاح الأخوات والبنات ، والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من
الطرق لنتنهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرّد
فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإن رأيت جدك العباس في
الناس قدامي بسيقين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين . فقال موسى [الهادي]
بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن شئت لأقتل هذه الفرقة كلها
حتى لا أترك منها عينا تطارف . ويقال إنه أمر أن يهيا له ألف جذع ... ومات
بعد شهرين ، (٤) .

ومن مظاهر اهتمام المهدي بمطاردة الزنادقة وتبليغهم أنه خصص وظيفة لذلك
عرف متوليها بصاحب الزنادقة ، وأول من تولى هذه الوظيفة عمر الكلواذي ،

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن المهدي استتاب في سنة ١٦٦ داود بن روح بن حاتم ،
واسماعيل بن مجاهد ، ومحمد بن أيوب المكي ومحمد بن طيفور ، وأنه أخل سيلهم (ابن الأثير ،
ج ٦ ص ٧٣) . وفي هذه السنة قتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ، ص ٤٢ .

فلما توفى في سنة ١٦٨ هـ ولى مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه ، فقتل من الزنادقة خلقا كثيرا (١) . وذكر السيوطي أنه كان « حسن الاعتقاد ، تقبّع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملاحدين » (٢) .

والظاهر أن حركة الزنادقة كانت تشكل خطرا شديدا على المجتمع الإسلامي بإباحة الزندقة للموبقات والمحظورات من جهة ولأن شيوع الزندقة كان في حد ذاته كفيلا بإضعاف الدين الإسلامي وبالتالي إضعاف سلطان الخليفة ، وهدم أساس الدولة وتفسخ مقومات المجتمع ، وعلى هذا الأساس يكون الدافع الرئيسي لظهور حركة الزندقة ، كراهية الفرس بوجه خاص للسلطان العربي وللإسلام ؛ ويمبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « فإنما عامة من ارتاب بالإسلام لما جاءه هذا عن طريق الشيعوية ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك الأمة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » .

و — المقنمية : وقد اقترن بظهور الزنادقة حركة أخرى عنصرية دينية في مروجها أهدافا لحياء التماثل المجوسية والدعوة إلى إعادة مجد إيران القديم وإنهاء السيادة العربية عليها تنسب إلى المقنع الخراساني ، واسمه هاشم بن حكيم ، ولقب بالمقنع لأنه تبرقع بحمير أخضر في رواية (٣) ، أو أنه اتخذ قنصا من ذهب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٠ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥٣ .

(٣) البيهقي ، الآثار الباقية ، ص ٢١١ - البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

لإخفاء وجهه في رواية ثانية (١) وبينما يطل لإخفاء وجهه عن أتباعه بأن الأحياء لا يستطيعون تحمل نوره ، أشاع موزخو العرب أنه كان أعمى (٢) . وادهى الألوهية ، وكان يتول بالحلول والتناسخ والإباحتة في النساء ، وكان يقول : إن الله خلق آدم ، فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح ، وهكذا إلى أن يصل إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إلى هاشم (أى نفسه ، لأنه سمي نفسه هاشم) (٣) . وتابته في مئة . عند كبير من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون له من أى النواحي كانوا ، ويستجدون به في الحزب فيقولون : يا هاشم أعضا (٤) . وحمد إلى أمة . اب الناس عن طريق الخيل التي ظن الناس في عصره أنها من المدرات ؛ ويذكر القزويني أنه ، أنشأ بنخشب بئرا يصعد منها قر يراه الناس مثل القمر ، واشتهر ذلك في الآفاق والناس يصدقون بنخشب رؤيته ويتهجبون منه ، وعوام الناس يحسبونه سحرا ، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر ، لأنهم وجدوا في قصر البئر طاسا كبيرا ملؤه زئبقا ، (٥) .

وتعتبر حركة انتعاش الحركة الماسمية الرزامية ، فقد كان على دين الرزامية (٦) ، والرزامية (وهم أتباع رزام بن رزم) فرق من الماسمية (٧) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٨ - ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٨ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ . ولعله استهدف من هذا التناقض إخفاء القميص والحربة على شخصه (الفاروق عمر ، حركة المنع الخراساني ، المجلة التاريخية ، عدد (١) ، السنة الأولى ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١٣٧) .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٩ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٥) الأزهري ، آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة سامرة ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦٦ .

(٦) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

(٧) عبد القاهر بن طاهر ، الهدى ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، تحقيق عمى الدين محمد الحميد ، ص ٢٥٦ .

ويذكر الشهرستاني أن الررامية سافروا الإمامة إلى أبي مسلم فقالوا: له حظ في الإمامة وادعوا روح الإله فيه، وقالوا بتناسخ الأرواح (١). وأباح المقتنع لأتباع الأموال والمهرجات وحرم عليهم القول بالتحريم، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات (٢). وعلى هذا الأساس تكون ببادئ المقتنع خرمية فارسية رزامية ذات طابع شعوبي، لأن الرزامية نقلت الإمامة بعد السفاح إلى أبي مسلم (٣)، وهذا يفسر رواج هذه النحلة بين أتباع أبي مسلم في بلاد ما وراء النهر، فظهرت المبيضة ببخارى والصند مسارين له (٤)؛ والمقصود بالمبيضة أتباع أبي مسلم في بلاد الترك، وانتشار الحركة بين الترك، واشترك العناصر السابقة على العباسيين فيها إنما يدل على أنها حركة عنصرية وسياسية.

ولما ضمن المقتنع أنه كون قوة كبيرة يتمتع عليها بدأ يتخذ مركزا لتجميع قواته في قلعة بسنام وسنحردة من رسانيوز كش سنة ١٥٩ وما إن حشد الحشود من أتباعه وحلفائه حتى بدأ يغير على الذرائع المجاورة ويستولي على أموال المسلمين (٥) ثم تلب على بعض الحصون وعلى نواكث، وتصدى له من القواد العرب أبو التمان والجنييد وليث بن نصر، والتحموا معه مرة بعد مرة، ولكنه تمكن في كل مرة من التغلب عليهم، وقتل من العرب حسان بن

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ج ١ ص ١٥٣، طبعة القاهرة ١٩٦١.

(٢) البغدادى، ص ٢٥٨ - الشهرستاني، ج ١ ص ١٥٤ سالفاروق عمر، حركة المقتنع، ص ١٤٠.

(٣) الدورى، ص ١١٧.

(٤) البغدادى، ص ٢٥٧ - ابن الأثير، ج ١ ص ٢٩.

(٥) ابن الأثير، ج ١ ص ٢٩.

نعم بن نصر بن سيار ، ومحمد بن نصر وغيرهما ، ثم سهر إليهم المهدي القائد
جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد ، ولكن جيئته شغل طوال أربعة أشهر بمقابلة
المبيضة ببخارى ، فانهزم المبيضة وقتل منهم نحو سبعمائة ، ولحققت فلولهم
بالمقنع ، ثم لاحقهم جبرائيل وحاربهم ، ولكن حربه المسابقة مع المبيضة
استنفذت قواه ، فأمدّه المهدي بإمدادات متتالية ، لم تؤد إلى نتائج (١) .

واستأنفت حركة المقنع ، بعد انتصاراته السابقة ، فطغى وبغى ، وأصبح
القضاء على حركته شاغل المهدي الأول ، فسير في سنة ١٦١ هـ جيشا كثيفا
بقيادة معاذ بن مسلم ، جعل على مقدمته سعيد الحرشي ، وخرج من زم جيش
آخر بقيادة عقبة بن مسلم ، فالانقى الجيشان في الطواويس حيث أوقعوا
بأصحاب المقنع فهزموهم ، وامتنع المنهزمون بقلعة بسنام قاعدة المقنع فحصنها ،
وحفر حولها خندقا ، وسعى الحرشي إلى الانفراد بالقيادة ، وقنع معاذ بن مسلم
بإمداده بقسم من جيشه ، وحاصر المسلمون المقنع سنة ١٦٣ هـ حصارا شديدا ،
فلما طاب على أصحابه طلبوا الأمان سرا من الحرشي ، فأجابهم إليه ، فخرج
منهم نحو ثلاثين ألفا ، ولم يبق مع المقنع سوى ألفين ، ثم اقتحم المسلمون
الخندق ، واقتربوا من السور ، فلما أيقن بالمزيمة أن أن يستسلم ، فجمع
لساءه وأهله وسقاهم السم ، وأمر أن يحرق هو بالنار في تدور بحصنه أذاب
فيه النحاس ، لا حتى لا يمثل العرب بجثته ، وقيل إنه أحرق كل من في قلعته ،
ودخلت جيوش المهدي القلعة فألفوها غالية ، وكان ذلك من العوامل التي
ساعدت على افتتان من بقي من أتباعه من المبيضة به (٢) إذ اعتقدوا أنه صمد

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن الأثير ٢ ص ٥٢ - ابن طباطبغا ٤ ص ١٦٢ .

إلى السماء (١) . وظلت بقية منهم حتى زمن المقدسى (٢) ، بل استمروا حتى أيام ابن العبري (٣) .

ز - البابكية الخرمية : تعتبر هذه الحركة أخطر الحركات الدينية المنصرية في تاريخ الدولة العباسية على الإطلاق ، وتنسب هذه الحركة إلى بابك الخرمي الذي ظهر في عهد المأمون عندما كان مقبلاً في مرو ، ووضعت خطورة بابك عندما نهج في التغلب على جيش بعث به المأمون لقتاله في سنة ٨٢٠٩ (٨٢٦م) وفي أسر قائد هذا الجيش أحمد بن الجنييد الإسكافي (٤) .

وقبل أن نتعرض لموقف العباسيين منهم ، لا بد أن نشير إلى أن البابكية الخرمية كانوا يذهبون مذهب الخرمية والمزدكية من إباحة اللذات والشهوات والمواساة والاختلاط ، ولكنهم يبيعون - بخلاف المزدكية - القتل والنهب والمثلة (٥) . والظاهر أن بابك اتصل في شبابه بزعيم الخرمية في جبل البذ واسمه جارييدان بن سهرق ، وحدث أن أصيب جارييدان في إحدى الممارك وكانت امرأة جارييدان تتعشق بابكاً ، فلما مات جارييدان اتفقت معه على أن تعلن أمام الملأ أن جارييدان قال في لحظة انتقاله : « إني أريد أن أموت في هذه الليلة وإن روحي تخرج من بدني وقد دخل في بدن بابك وتشترك مع روحي ،

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٩ .

(٢) المقدسى ، ص ٣٢٣ . وظلوا أيضاً في زمن عهد القاهر بن طاهر البغدادي .

(٣) ابن العبري ، مختصر أخبار الدول ، تحقيق الأب أنطون سالمان ، ص ٩٠ .

بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩٠ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

وأنة سيدبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعدد أحد ، وأنة يملك الأرض ، ويقبل الجبابرة [أى العرب] ويرد المزدكية ، ويمزج ذليلكم ويرفع به وضعكم ، وعندما أعلنت ذلك أمام أتباع جاویدان ، قبلوا وصيته وارتدوا به زعما عليهم (١) .

وعظم أمر بابك بالبذ ، وغسل الماءون في اسمه زاله ، ومزيت الجيوش التي سيرها لذلك بالهزيمة والفشل ، وعرف أصحاب بابك بالمحمرة (٢) لأنهم صبغوا ثيابهم باللون الأحمر شعارهم .

وكان البابكة يهدفون سياسيا إلى القضاء على سلطان العرب السيامي والإسلام كما وضع في وصية جاویدان ، لإعادة المزدكية ، ونصرة الجمعية ، وكانوا يذهبون إلى القول بالجهاد ضد الجبابرة المتسلطين من العرب ويسمونهم اليهود (٣) . وقد اعتبر العباسيون الحرمية البابكية هرطقة على الرغم من اتخاذ الحرمية لجميع المظاهر الإسلامية من الصوم والصلاة (٤) ، وذلك لأنهم باطنية أى يبطلون من قصد غير ما يظهرون وكانوا يتبعون التقاليد الفارسية القديمة في معاملاتهم التقليدية كالزواج والأعياد والرسوم الجنائزية ويبيعون المهرمات .

بدأ بابك بضم أذربيجان إلى دعوته ، ثم انتشرت دعوته في إقليم الجبال ،

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤٤ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٧١ - البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٨ ،

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧١ .

(٤) يذكر البغدادى أنهم بنوا مساجد للمسلمين في جبالهم وأنهم يعلسون أولادهم القرآن ولكنهم لا يصلون في السرى ولا يصومون (البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٦٩) .

فدخلت جماعة كبيرة من أهل هذا الإقليم (من همدان وأصبهان وما سبذان
ومرجا نغذق) في دين الحرمية ، وتجمعوا فمسكروا في حمل همدان (١) . ثم
خرجت الحمرة أصحاب بابك بالجبل فقتلوا وقطعوا الطريق وتعرضوا لحاج
خراسان فهزموهم وقتلوا منهم جماعة ، فوجه المعتصم لقتالهم جيشا بقيادة
هاشم بن بانيجور ، فاشتبك معهم فهزموه (٢) ، فوجه المعتصم إليهم إسحاق بن
إبراهيم بن مصعب في جيش في شوال سنة ٢١٨ هـ ، فواجههم ، وانتصر عليهم
وقتل منهم في حمل همدان ستين ألفا ، وفر باقيهم إلى بلاد الروم (٣) بينما أسر
عددا من الحرمية والمستأمنة قدم بهم إلى بغداد في ١١ جمادى الأولى .

واشدت شوكة بابك ودخل عصمة الكردي صاحب مرند في طاعته ، (٤)
ودخل في الحرمية جماعة من أكراد جبل البذر . وفي سنة ٢٢٠ تحاليل محمد بن
البيعت صاحب قلعة شاهي بأذربيجان للقبض على عصمة الكردي ونجح في
مخطته ووقع عصمة أسيرا في يده ، فقد تظاهر ابن البيعت بمشايمته لبابك ،
وفتح باب حصنه لسراياه ينزلون في ضيافته ، فوجه بابك قائده عصمة في
سرية ، فنزل عصمة في ضيافة ابن البيعت ، فأكرمه هو وأصحابه وأغدق لهم
الخمر حتى مسكروا ثم وثب على عصمة فأوثقه ، وقتل من كان معه من أصحابه
ولاذ بعضهم بالفرار ، ثم سار عصمة إلى المعتصم فسجنه ، وظل سجيننا حتى
أيام الراحل (٥) .

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٥ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٣ ص ٤٧١ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٥ .

(٤) اليعقوبي ، ص ٤٧٣ .

(٥) اليماني ، ص ٤٧٣ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٨ . ولقد تعرض عصمة
لاصحاب البابك فسلمهم على مورث بابك .

وانشرت الحركة الباكية في طبرستان وجرجان وأرمينية ودخل فيها قسم كبير من الهداية ، واشترك فيها عدد من المهاجرين أمثال المازيار أصيبند طبرستان الذي كان يكاتب بابك (١) ، ومنكجور أحد أقارب الأفشين وكان يتـ ولى أردبيل (٢) - وقيل إنه كان يتولى أذربيجان (٣) - وعندئذ وجه المعتصم قائده الأفشين إلى بلاد بابك ، فنزل برزند (من نواحى تفليس) وهسكر بها ، وضبط الطرق والحصون فيما بين برزند وأردبيل ، ووزع الأفشين رجاله في مواضع مختلفة تحصنوا فيها وطهروها من أتباع بابك ، واتخذوهم هيونا لهم وأدلة يذلونهم على عورات بابك وممالك بلاده ، وكان رجال الأفشين إذا ظفروا بأحدهم حملوه إليه ، فكان يحسن إليهم ويسألهم عن الذى يعطيه لهم بابك ، فيضاعفه لهم ويقول لهم : «كونوا جواسيس لنا» (٤) .

وظهرت ثمرة هذه السياسة الموفقة عندما وجه المعتصم بنا الكبير إلى الأفشين ومعه أموال الجند ونفقاتهم ، فلما وصل بنا إلى أردبيل تهبأ بابك لاعتراضه ، فأصل جاسوس بالأفشين وحذره ، وعلى هذا النحو أعد الأفشين عدته واشتبك مع بابك في قتال عنيف انتهى بهزيمة بابك ، ولم يفلت من رجاله أحد ، ونجما هو في نفس قليل من خيالاته ولاذ بموقان ومنها إلى البذ ، وانتقم بهد ذلك من الأفشين ، فكان يتعرض للقوافل التى تحمل لجند الأفشين ميرتهم وأطعمتهم ويستولى عليها ، وسبب للأفشين بذلك مضايقات كثيرة (٥) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠٥ .

(٣) اليعقوبى ، ص ٤٧٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٥١ .

وفي سنة ٢٢١ حدثت وقائع بين الأفشين وبين بابك ، انتصر فيها بابك مرة ، وانتصر الأفشين مرة ، ووقع أحد كبار قواد بابك - واسمه طرخان - أسيراً في يد ترك - مولى إسحق بن إبراهيم - فقتله بمراغة .

وأمام اشتداد هجمات المسلمين ومرابطة الأفشين في المنطقة ما بين برزند وأردبيل على مدار السنين ، اضطر فل بابك إلى اللجوء إلى أراضي الدولة البيزنطية حيث أفسح لهم الإمبراطور تيوفيل المجال لدخول أراضيه وقتل شاموا ، والواقع أن تيوفيل رأى في حركة بابك فرصة للانتقام من الخلافة العباسية التي وقفت موقفا مؤيدا من ثورة توماس الصقلي على أبيه ميثيسيل العموري ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك ، وفتح لهم أبواب بلاده في زمن المأمون ، حيث دخلوا في خدمة الإمبراطور ، عند ما كان يشن غاراته على الحدود الشرقية لبلاده ، واستمرت الغزوات متبادلة بين المسلمين والبيزنطيين في عهدي المأمون و تيوفيل تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة ، فلما هزم المعتصم على إخماد حركة بابك عزما قاطعا ووجه قائده الأفشين وأمدته بإيتاخ وجمعة الخياط ، أرسل بابك إلى تيوفيل يعرضه على مهاجمة أراضي المسلمين حتى يخف بذلك ضغط المعتصم على بابك ، ووعدته في مقابل ذلك باعتناق المسيحية ، فاستجاب تيوفيل لرغبته ، وهاجم حصن زبطرة في سنة ٨٢٣م (٨٣٧ م) وأوقع بأهلها (١) ، وكان معه من المحمرة - أي الحرمية - عددا كبيرا يصل إلى ٢٠ ألفا ، ثم أغار على مناطق وسبي المسلمات ومثل بمن وقع في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم ، وطاد بعد ذلك إلى القسطنطينية مظهرا منصورا .

ولكن حملة تيوفيل لم تكن المعتصم عن خطته في القضاء على

(١) ابن الأثير ، ص ٤٧٩ .

بابك ، فقد أمر الأياد بالانتقام لحادثة زبطرة قبل أن يتخلص نهائيا من بابك ؛ وكانت قوات الأفشين - اقربت من البذ ، فتحول الأفشين من كلان روذ متجها ببطء إلى مركز قيادة الحرمية في جبل البذ ، وكان بابك قد نصب له عددا من الكدائن ولهذا السبب حرص الأفشين على التسلل ، وكان يأمر للكمرباية (أصحاب الأخبار) بالبحث في قمم الجبال عن مواضع يتحصن فيها عسكره خوفا من هجمات الحرمية من المطاولة ، ففتحوا باب البذ وانطلق منهم جماعة يهاجمون أصحاب جعفر الحياط وارتفعت مرغانهم ، وكان مع أبي دلق فرقة من المتطوعة ، فتلقوا بالبد وتسلقوه ، وارتفعت صيحاتهم فظن كئنا بابك أن اشتباكا وقع ، فتحركوا ، فعرف الأفشين مواضعهم ؛ ثم زحف بحبيبه متجنباً مواضع الكئنا ، وهاجم جعفر والمتطوعة سور البذ ، وأوصى رجاله بأن يرفعوا الأعلام السوداء عندما تخرج لهم كدائن الحرمية ، ثم أرسل الأفشين فرقة من الرجال النشابة عددهم ألف رجل اتسروا في جبال وعرة حتى تصل إلى جبل شامق بدون أن يعلم بهم أحد من رجال بابك ، وأوصاهم ألا يتحركوا حتى يأمرهم غير منه ، فإذا رأوا أعلام الأفشين في القدير كبروا أعلامهم في الرماح وانحدروا من فوق الجبل ورموا الحرمية بالنشاب والسيخ ، وحل هذا التحرك تمكن الأفشين من تطويق عسكر بابك وإحباط كائنه ، ودخل البذ ودمر قصور بابك بالنفط وأحرقها ، ووقع في أيدي قواد المتصم أبناء بابك ، بينما استطاع هو الفرار بقصد إعادة جمع صفوف أتباعه ومعارضة العرب من جديد ؛ ولكنه وقع أسيرا في يد الطريق سهل بن سباط بأرمينية ، فسلمه بدوره إلى الأفشين ، فأمر الأفشين له بعلين درهم ومنطقة منقوشة بالجواهر وتاج البطرة مكافأة لما قدمه للعرب بتسليم بابك (١) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦٢ - ٤٧٤

ثم قدم الأفشين ومعه بابك الحثري إلى سامرا في صفر سنة ٢٢٣ ، فصره
المتصم ، ثم أدخل قصره ، فأمر بإحضار سيف بابك ، فحضر ، فأمره أن
يطلع يديه ورجليه ، فقطبها ، ثم أمره بشيخه ، فقبل ، وشق بطنه ، وأخذ رأسه
إلى خراسان ، وحبس يده بسامرا .

وأحصى ضحايا حرب بابك مدة عشرين سنة فكانوا ٢٥٥٠٠٠ شخص ،
وكان مجموع أسرى بابك من المسلمين ٣٢٠٩ شخصا ، وعيدد الأسرى من
الغلاة والعبيان ٧٩٠٠ شخصا (١) .

وأحدث مقتل بابك رد فعل بين أتباعه الخزمية ، فثار مازيار (المختار بن
قارن بن بسداد هرمز) إسمه بستان طبرستان على المتصم في سنة ٢٢٤ هـ ، فزحف
الزعم من أن المصادر الخزمية تشير إلى أن سبب قيامه بالثورة إنما يرجع إلى
خلاف قام بينه وبين عبد الله بن طاهر حول خراج طبرستان ، فكان عبد الله
أن طاهر يطالب المازيار بحمل هذا الخراج إلى الخليفة في حين أصر مازيار على
أن يسلمه لمندوب الخليفة ، فلما قضى الأفشين على حركة بابك طمع في ولاية
خراسان وأراد أن يتزعمها من ابن طاهر ، فكتب يستميل مازيار ويغريه
بإعلان الثورة فيسيره المتصم إلى حربه ، ويتخذ الأفشين ذلك ذريعة لا ترفع
خراسان من الطاهريين (٢) . ويؤكد الباحثون أن الحركة المازيارية وانتهت لهذا
الآخر بالأفشين معنى بعيداً ، فقد كان المازيار على اتصال بابك ، وكان يكاد
ويحرضه ويعرض عليه النصرة ، مما يدعو إلى الاعتقاد بوجود أهداف مشتركة

(١) الصدوقه ، ج ٦ ص ٤٢٨ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٤٨ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦٦ .

بينهما ؛ ويشير البغدادي إلى أن المازيار كان خرميا من المحمرة (١) ؛ كما يشير ابن الأثير إلى أنه كان يأمر أكره الضياع بانتهاب أربابها (٢) ؛ وكان العدد الأعظم من ملاك الضياع من العرب أو من مواليهم ، ولم يكتف بذلك بل إن سرخاستان حمله على سارية كان يأمر الفلاحين بقتل أرباب الضياع (٣) . وهكذا كانت حركة المازيار حركة فارسية دينية سياسية تهدف إلى التحرر من سلطان العرب بل والقضاء عليه وعلى الإسلام . وثبتت من تحريات عبدالله بن طاهر وأهوانه أن الأفشين متواطئ مع المازيار ، وأنه كان يبحث أيام حربه ضد بابك بجميع ما يتلقاه من هدايا إلى أشروسنة ، وكلما تهاى لديه قدر من المال حمله أو ساط أصحابه بقدر طاقتهم ، فقد فتش جماعة من أعوان الأفشين ومصادر المال ، فكتب له الأفشين بأمره بأن يطلق أهوانه ليمضوا إلى أشروسنة (٤) ، ثم تبعه فيما بعد أن الأفشين كان يكاتب المازيار ويشجعه على الثورة وعلى مخالفة الخليفة (٥) ، ولكن الملتصم تكتم الأمر ولم يفصح عما بنفسه للأفشين وآثر أن يقضى قبل كل شيء على المازيار ثم يتفرغ للأفشين . وكان سرخاستان أعظم قواد المازيار قد استخدم مع السرب — في المناطق الخاضعة للمازيار — منتهى القسوة والصف في جمع الأموال ، فأخذ أهل آمل وأهل سارية جميعهم وكبلهم بالحديد ثم نقلهم إلى جبل يقال له هرمز أباد وحبسهم فيه ، وكان عددهم عشرين ألفا ، ثم أمر بتخريب سور آمل وسور سارية وطميس فخرت (٦) . وفعل

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١١ .

(٥) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٦٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

المازيار نفس هذه الأفعال في مدن خراسان التابعة له ، فجبي من أموال الخراج في شهرين ما كان يؤخذ في سنة .

وبادر المعتصم بإرسال الجيوش لمحاربة المازيار ووضع حد لأعماله العنيفة ، فسور شمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبري من العراق ، وسير المثنى بن الحسن صاحب دلياورد - إلى الري ليدخل طبرستان من هذه الجهة ، وكان عبد الله بن طاهر قد أتتد معه الحسن بن الحسين في جيش كثيف للدفاع عن جرجان ، كما وجه حيان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قومس (١) وأحذقت القوات العباسية بمازيار من كل جانب ، فعدد مازيار إلى اصطخاف أقصى ومنازل التعذيب مع المعتقلين لاستصفاء أموالهم ، وعهد قائده سرخاستان إلى أن يدعم مركزه بقتل الأهل المعروفين بميولهم نحو العرب والعباسيين ، فجمع منهم نحو ٢٦٠ فتى وقال لاتباعه من الأكره : « ان الأبناء هوام مسع العرب والمسودة ، ولست آمن غدوهم ومكرهم ، وقد جمعت أهل الظلنة ممن أخاف الحية ، فاقتلوهم لتأمنوا ، ولا يكون في عسكركم من يخالف هواه هواكم (٢) » . فارتكبهم ودفعهم إلى الأكره والفلاحين فقتلوهم عند قناة ورموا بجثثهم في بحيرة القناة .

وفي هذه الأثناء ، ضاق حرس سرخاستان بأعماله ، وتأمروا مع قوات الحسن ابن الحسين على أن يسهلوا لهم مهمة اقتحام السور ، ونصبوا العلم العباسي على السور في معسكر سرخاستان ، وبلغ سرخاستان الخبر فخرج حاربا من حمامه في غلالة ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على معسكر سرخاستان ووقع أخوه

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٥٧ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٥٢ .

عنه يار اسيرنا، انما هو فقد قبض عليه امر من غلامه وسلموه الى الحسن بن الحسين فامر بقتله (١). ووجه برأيه الى عبد الله بن طاهر، فوشت امر عتقه سمعنا ما تروي من عزمه ما لا يدور وان شئت عليه بالخدمة لا سمي له ولا يسمي له يار من قومه يار ابن عم مازيار، فاستدعيه مازيار بن عمه قومه يار طاهر على ان يكاتب من خدمه ويؤمن الاقربين كان يوجهه فيها على شق عصا الطاعة على الخلفاء، ثم امره اليه بوجه الدفاع عن منتهى حال طهرستان التي كان يقول انهم قبل قتل قهلم الملك يار مشهور به ودا طهرستان مازيار الى جندو المنطقة الامر وفيه بكثرة مضطرب ووعود في سبل الكيا اذ وكل بماتيه الملك قومه يار، لو ان قومه يار لم يلهو على هذه الحيل لانه في الدفاع عن هذه المناطق، فكاتبه بالحريستين والحسين يستعين عليهما لخصامه اليه والمقل على تسليم المذاري اذا تهمتوا الفولة العظمى بتولية الملك الخاقان والحليمة التي يترجمها اذ قال له عن ما عهد له من كل الملقين وخبره الكتب التي كان يتبادلها الافشين بوزن يار، فوجه الحسين بتفصيل كل ما طهره وضمن له اتمه يمينه الى اجماله، ففرض قومه يار بذلك واعد لهم ما يستلزمه من الجمل، فقبضه على كثر الحسين، ورافى نفس للوقت كان الحسين قد سهر به شيئا لمحاربة جرحه احمد قواد مازيار، فلم يشمر مازيار وهو في قصره الا والخيل على بابته بقصره وفسره الحسين بن الحسين، وارسله الى عبد الله بن طاهر بالبحر خريسان الذي سبه الى المعتصم، وذكروا ان عبد الله بن طاهر استجوب مازيار عن امر الكتب التي ارسلها الافشين الى مازيار وشجعهم فيها على الثورة ويقول في استرجاع دينهم وسيرة القديم، واعترف مازيار بامر الكتب، فطلبت هذه الكتب فوجدت، فسرهما الى المعتصم (٢). فلما ساله المعتصم عن الكتب لم يقر بها، فأمر بضربه

(١) الطبري، ج ١، ص ٣٥٥ - ابن الأثير، معجم، ص ٤٧.

(٢) الطبري، ج ١٠، ص ٣٦١ - ابن الأثير، معجم، ص ٤٧.

يحيى المورشي فلما مات صلبت بيته إلى الجانب باليد ، وانهارت بذلك ذبيحة
محمدة بإياديه والخرمية .

أما الأفشين فكان المعتصم قد أمر بالقبض عليه وحجبه قبل ما يؤول إليه ما يار
لايباب : منها قيام منكجور أحد قرابته بإخفاء أموال في أذربيجان عن
المعتصم وغروجه على الدولة ، ولكن المعتصم نجح في إخماد حركته وسجنه
وعندئذ اتهم الأفشين في أمره (١) : ومنها أن الأفشين تأمر على قتل المعتصم
بدس السم له ، واتفق مع بعض قادته على الفرار إلى بلاد أرمينية ثم بلاد
الخر (٢) : ومنها أن مازيار أقر على الأفشين بأنه بمشه على الخروج والهيان
للمذهب كانوا اجتماعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الشوية
والجوس (٣) .

ثم عقد المعتصم محاكمة للأفشين في قصره في يوم ٥ ذي القعدة سنة ٢٢٥
بمضور الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وأعيان الدولة ، ووجهت إليه تهمة
اتآمر على سلامة الدولة وانصالة بجماعة المازيارية ، وتمسكه بالشوية (٤) ،
وروجه الأفشين في كل اتهام بالشهود والأدلة ، واتضح من محضر المحاكمة -
الذي سجله الطبري كاملا (٥) - أن الأفشين كان ينفذ العرب ويعمل على

(١) المورشي] ، ص ٤٧٨ - الطبري ص ٣٦٣ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٦ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٦٤ وما يليها - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١٢ .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) وذكروا في هذا الشأن أن الأفشين جلد في أشروسنة مؤذنا وإماما أتاما مسجدا
هناك ، وأنه ممر عنده على كتاب مزين بالذهب والجواهر والديباج فيه كفر بالله ، كما أنهم يأكل
الحرم الخنوقة غير المذبوحة ، وأن أهل أشروسنة كانوا يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عبده
فلان» ، واتهم أيضا بأنه غير عتق ، وهذه أدلة على أنه من الحرمة (راجع ابن الأثير ،
ج ٦ ص ٥١٣ وما يليها) .

(٥) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

إذ التهم ، وأن إسلامه كان سطوحيا مظهريا، وأنه كان يـبـطن الحرسية أو البوذية.
 إذ عثر عنده على أحضان زعموا أنها كانت تحمل معه (١) وأمر المعصم بحبس
 ولما مات في سجنه أحرقت جثته .

وهكذا أسدل الستار على ذبول حركة دينية سياسية هدامة كادت تقضى
 على كيان الدولة العباسية .

(١) المسودى ، ج ٣ ص ٤٧٠ .

الفصل الرابع

السياسة الخارجية للدولة العباسية

كان العالم الإسلامى طالما كبرها يمتد وسط العالمين الشرقى والغربى، ويحيط بالعالم الإسلامى شعب الروم فى آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا الجنوبية، ثم الفرنج فى إيطاليا الشمالية وفرنسا، ثم الترك والصينيون على حدوده الشمالية والشرقية، ثم الهنود على حدوده الجنوبية الشرقية. وقد اتصل العباسيون بهم جميعاً (١) اتصال حلف على أساس اتفاقات ومعاهدات، أو اتصال حرب — مع الروم وأحياناً مع البياطلة للترك — تنقطع من حين إلى حين بمقد هدنة قصيرة يفادون فيها أسراهم، ثم كانت هذه الحرب لا تمنع بعد ذلك من الاتصال السلمى، فكانت التجارات تسير بين البلاد المتحاربة بين العرب والروم فى آسيا الصغرى، وبين أهل الأندلس والفرنجية.

والسياسة الخارجية لأى دولة هى العامل الأساسى الذى يؤثر على كيانها، فهى أقوى من السياسة الداخلية، والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ. فسياسة

(١) فى العصر الذى نبحث السياسة الخارجية العباسية مكاناً بارزاً فى ظل سلام إسلامى ساعد على تسرب حضارى واسع النطاق من الهند والصين وبلاد ما وراء النهر إلى ومن اليونان والغرب الأوروبى، وكان لذلك التسرب أثره الكبير فى تشكيل الحضارة الإسلامية، إذ انتبش العرب من الثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية عناصر هامة كان لها فضلها فى ازدهار الذى أسس الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى. كذلك ساعد السلام الإسلامى والاحتكاك السلمى بين المسلمين وشعوب آسيا الوسطى من جهة والغرب والمجاعة لهم فى الديار الغربى على انتشار التجارة وظهور الموانئ الإسلامية الآسيوية كإبصرة وسيراف وعدن، وكذلك الأسواق الإسلامية بمناجر الشرق والغرب.

دولة الرسول في المدينة خارسيا من التي لم تكن لها فوحيد الجزيرة العربية
وأشأت النظام للتبوي العربي، بذلك كانت سياسة من الخارجية في القوق
هي العامل الأول في تشكيل الدولة العربية، كما أن نيات الأمويين في مركز
للخلافة جدد طويلة - رغم كراهية الشعوب للعلماء - يرجع في الحقيقة إلى
مناخهم الخارجية الرائعة وإلى الانتصارات المتوالية التي أجرونها في البر
والبحر على دولة الروم.

وبنق سقوط الدولة الأموية منع نهضة الجيش البيزنطي وإخاذه سيطرته على
يد الأسرة الأموية المروقة بالأيسورية، ويكاد المؤرخ يرجع إلى اجتماع
سقوط الدولة الأموية إلى مسألة الانتصارات التي أحرقتها في حرب الروم
قرب نهاية الدولة، فأحس الثامن بمشدد أن تهوى الجيش البيزنطي أن تقوى
الأمويين لم تعد كما كانت، ولعل النظرية القائلة بتوهم كيان الدولة على إيلاسها
الخارجية نظرية مستمرة في التاريخ حتى العصر الحديث، فالعلاقات الخارجية
للدولة من الدول يجب أن نوضح في المرتبة الأولى.

أولاً-

سياسة الدولة العباسية مع جاراتها الإسلامية في المغرب والمشرق

(١٠١)

سياسة الدولة العباسية مع الأمويين في الأندلس

سمح الأمير عبد الرحمن بن معاوية في الإقلات من أيدي العباسيين رغم المحاولات المديدة التي قام بها هؤلاء لأقتناعه واستطاع أن يصل سليماً إلى كورة فلسطين، وهناك التقى بعلام بدر ويسالم أبي شعاع غلام شقيقته (١)، وكانا يتطلعان إليه بمكة وشيئاً من جورمه، وانطلق سمعاً إلى موضع إلى موضع ثم منها إلى القصر، ثم شارفاً إلى برقة، فبقى فيها أسيراً لمدة، ثم تم إرساله عنها فأوصل إلى القرية وقبضوا على قوا عدد من أهل بيته، وكان يملئ القرية بالمعزبة مثل أيام مروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف أحمد بن محمد بن أبي خبيب القهرى، استقل بولايته منذ أن دخل مروان وتولى عن طاعة الخليفة العباسي السفاح والمنصور، وخاف عبد الرحمن بن حبيب من وجود عبد الرحمن بن معاوية في المغرب وخاف من نشاطه السياسي وسطوته، الواضح إلى حليلاته طوالة خلاصته وكان عبد الرحمن بن معاوية في الواقع يهدف إلى تكوين إمارة أموية في المغرب أو الأندلس تكون استمراراً للدولة الأموية في المشرق، فقد كان شاباً طموحاً، في العشرين من عمره، يتدفق حماسه ويقرض أسلافه إسلامه هذه الدولة في المغرب، وكان يدفعه إلى ذلك ويحدد عزمه مازعموه من نبوة مسلمة بن عبد الملك له وهو ابن عشرين سنة.

—————

(١) المرقى، نفع الطيب من عهد الإنجليس المطبوع في مصر سنة ١٢٨٥ هـ.

وقاسى عبد الرحمن بن معاوية مرارة العيش في أرض المغرب طريدا شريدا ، واحتمل آلام الفرار والاختفاء بدون ضعف أو استسلام ، واستقر به المطاف أخيرا عند أخواله من قبيلة نفزة وكانت تقيم قريبا من سبتة (١) عبر الأندلس . وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات والقبلية ، وهنا لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل ، فلابد له وهو سليل خلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع بحالا يحدد فيه دولة أجداده ، ويملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع في استقلال هذا الوضع لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التي أخفقت في المغرب .

واتصل وهو بالمغرب بموالى الروانية - الموالين لبني أمية - في الأندلس عن طريقين مولاة بدر ، وبفضل هؤلاء الروانية استطاع أن يعتمد على العصبية اليمينية الموثورة من المضربة واتيمسية كما سبق أن أسلفنا القول ، وكان اليمينية يتلمهون للثأر من المضربة الذين أطاحوا بسلاطنتهم ، فلما عرض عليهم بدر مولى عبد الرحمن الأموي رغبة مولاة في دخول الأندلس بشرط أن تساعد اليمينية وتذهبهم رجبوا به ترجيبا بالغا (٢) ، وما إن وصلت هذه الأنباء الطيبة إلى عبد الرحمن حتى بادر بركوب البحر إلى الأندلس فدخلها في آخر ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٢) (٧٥٥ م) - ولذلك سمي بالداخل - واستقبله موالى الروانية استقبالا حافلا أساء ما عاناه من آلام ونشريد ، وأقبل اليمينية إليه من كور الأندلس . واستطاع عبد الرحمن بفضل ألبنة ذكائه أن يقتحم

(١) حنين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٦٦٤ .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الملمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، ص ٢٥ .

وحده من أمراء بني أمية المشردين هذه البلاد في وقت نشبه فيه الإحن بين
المصبيين اليمينية والمضربة ، فأصفت اليمينية على أمره وآزرتة ، وبأيمه
كثير من جند الأندلس وتوافت إليه جنود الأمصار ، وتضخم عدد أنصاره ،
واستمال قلوب الناس بحسن سياسته حتى انقاد له كل أبى وأطاعه كل عصى ،
واستطاع أن يزعم والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري ومن
أقمد عليهم من القيسية بزعامة الصمحل بن حاتم بن ذى الجوشن في موقعة
المصاراة التي جرت في ظاهر قرطبة في ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٨ هـ . وتعتبر هذه
الواقعة أخيرة موقعة مرج راهط التي وقعت في أرض الشام في سنة ٦٤ هـ .
وبانتصار عبد الرحمن ، تجمدت دولة بني أمية في الأندلس ، إذ دخل قصر
قرطبة دخول الأبطال وأصبح أمير الأندلس بفهم منازع (١) .

وشهدت الأندلس في بداية عبد الرحمن الداخل صراعا متواصلا بين
الأمير الأموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية أو تورين
واليمينية الذين انقلبوا عليه ، ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على أعدائه
ومناوئيه بفضل دهاءه وقوة شكيمته ومضاء عزمه ، كل ذلك بدون أن يتراخى
عن تجديد ما طمس لدى أمية في المشرق من معالم الخلافة ، فشيد الدور ، وأقام
القصور وبنى المسجد بقرطبة وحسن المدينة بسور يدور حولها . وإليه يرجع
الفضل الأعظم في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الإدارة والحكم فيها ؛
ويشير ابن حيان إلى ارتقاء الأندلس في عهده من مجرد ولاية تابعة للخلافة في
المشرق إلى مصاف الدول الكبرى ، وإلى التطور الكبير الذى طرأ على شؤون

(١) راجع التفصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٨٣ - ١٩٣ ؛
ولفس المأزم : قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس ، ج ١ بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٥

ببلادهم ولا يحيطون بمطالعكم في قتل خذلة الأمازيغ، فيقولون: ملا التي (الداخل) الأندلس ثمينا
عنهاميا غفلا، لمن حليف الملك يحاط باله أروفت أهلها بالاطاعة السلطانية، ورسولهم
بالأصيرية الملوكية، وانما ذهب بالأداجية فليكن يستقيم عما قليل المزمور - سراقام - على
الطريقة، وبما انقلوب الدواوين وقيل من الاطعية، وهبسله الآله به بزر جند
بالاجناد بنار فتح العاصية، وامن الملايو تاذ به سراقام للملك، آلت به، وبأخذ السلطان
محذو به فاعتزوا له بذلك أمكابر الملوكية، وحذر من اجانبه، وسخطوا به حوزته، ولم
يحبذ نال وانك له بلاد الاقدالين، واستقر في الامر فيها، (هذا) ويرجع الضلالي
فما سمعوا ياتونه في واطفله ما كذا الى بوزن اية الرخا به الذي في الحسن اختيف ليل الام
والا تقاتلهم من يمين من اذنتهم الاندلس من الملوكية، وتواين به ولا يصروا، ولا غلبوا
له، وعمل عبد الرحمن الداخل على اعاكسة قيسلر بهالة، أن اضعفها بالملوك بالبيعة
الخلفاء، فزود جابضته قسطنطين، وروانج المنشآت والمبائر، وقامت فيها حركة
صبرانية، ومعمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل، واتخذت قسطنطين منذ ذلك اليوم
مظهر المدن الكبيرة، وما اخرجت جديده، بأن تكون دمشق الاغدير

ولكن ابا الخضر المذمور لم يتبعه بنو هذه الا مائة فاحسبوا حشيشا على
سقله واسقاطه وتحويين الاندلس الى ولاية عباسية . . فقط سنة ١٤٦ هـ
اليه المذمور قائد من قواد العباسيين وهو للعلاء بن جعيف اليه خصي ، غير التبر
لبن افراتيقية فلولي الاندلس والبن السواد ، وبعثا بالاف من جوهر المذمور
في باجة بنو الاندلس . وكان المذمور قد أرسل اليه بنو ولوا ، فاجتمع
اليه خلق كثير ، وأطلق لكثير الحسن الاندلس الى ملج عباد الرمن (٢٦) ، وعلى

(۱) القری، ج ۱، ص ۳۱۰.

(٢) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٣٣ - أخبار جموعة ، ص ١٠٢ - ابن عساف المراكشي ، ج ٦ ص ٧٧ - ابن الأثير ، ج ١ ص ٧٤ .

الأنفص جماعات الألفاية التي أعقبت العزم على التخلي عن الجوارية ويبدو أن العلاء بن ميمونة احتار في الوقت المناسب للمثابة على تولية عبد الرحمن الفتية، فقد كانت الثورات تحتاج الأندلس في شياطينها، وكان للأمة مشغولا وقتئذ بإخماد إحدى ثورات القيسية بمدينة طليطلة، وعلم وهو يقسم الحصار على هذه المدينة بشورية السلام وأنضم الثورات إليه، فخرج لمواجهة العلاء، وليسكن المسلمون زحف إليه بجمع كثيف، فاضط الدخايل إلى التحصن في قرمونة الواقعة بالقبيل من إشبيلية، وتجهن عبد الرحمن الداخل بقرمونة مع مواليه وثقاته رجاله، وقسم العلاء، ونزل به بقرمونة، وحاصره بها ما يقرب من شهرين حتى ساءت حالته، وفقدت مؤناته ودب اليأس برجاله، وكذلك انحذل عن العلاء أكثر أنصاره أطول الحصار، وأدرك عبد الرحمن أن هذه هي فرصته للانقضاض على بكر العلاء، وكان لابد له أن يغامر بكل شيء، فجمع قواته (وكانوا لا يتجاوزون السبعماية) وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية من أبواب مدينة قرمونة، ثم أمر بإغداد السيوف فطاحت في النار وقال لهم: «خرجوا» فخرجوا هذه الجموع جروج من لا يحدث نفسه بالرجوع، (١) وسهل سيفه في مقدمة أصحابه، وإذا فجع من باب المدينة وخلقه كساة رجاله، وانقضوا على جيش العلاء، فمدا قوة شرمزق، حتى بلغ عدد القتلى منه سبعة آلاف (٢)، وسقط العلاء نفسه صريحا، فأمر عبد الرحمن، بمسافة منه في السخرة من حصنه المتصور، أن يبعث رأس العلاء إليه فأخذ رأس العلاء، وصبره ولقه في السجل واللواء، ووضع في سبط، وبعث به مع رجل من أهل قرطبة كان قاصدا مكة لأداء الحج، وأمره أن يضع السبط في مكة أمام سرادق

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٧٧

(٢) المعري، نفع الطيب، ج ١، ص ٣١١.

المنصور الذي كان يحج هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به الأمير ، فلبس نظراً إليه المنصور ارتاع ، وقال : « إنا لله ، هرحنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (١) .

وقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوة الحيلة وشدة اليأس وسرور المراس ، فذكروا أنه قال يوماً لبعض جلسائه : « أخبروني من صهر قریش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين [يصدقونه هو] الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئاً قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئاً . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صهر قریش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه . فصر الأماص ، وجند الأجناد ، ودون الدوارين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تديبه ، وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذلاله صعبه ، وعبد الملك بديمة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب عثرته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مزود برأيه ، مستصحب لعزمه . وطرد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، فأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين » (٢) .

وفي خلافة المهدي العباسي ، بدأت الدولة العباسية من جديد فكرة القضاء على إمارة عبد الرحمن الداخل في الأندلس ، واستنادت الدولة العباسية هذه المرة من التجربة الأولى الفاشلة ، فلم تبعث داعية من دعاتها هذه المرة ، ولا جيشاً

(١) ابن القوطية ، ص ٣٤ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ ؛ المهري ، ج ١ ص ٣١٠ .

من أفريقية لغزو الأندلس ، وإنما اعتمد المهدي على الدماء والهدس ، فقد انفق المهدي مع بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للوجود الأموي على أن يعلنوا ثلاث ثورات في آن واحد في الداخل ، فينتهز شارلمان بن بين القصير ملك الفرنجة الذي كانت تربطه بالخليفة العباسي علاقات ودية الفرصة وينزو الأندلس ، ويسقط النظام الأموي .

أما الثوار العرب الذين اعتمد عليهم في الأندلس فهم :

١ — عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي ، وسمى بالاصقلي لأنه كان طريلا أشقر أزرق أسمر (١) ، وقد ثار ابن حبيب بتدمير في سنة ١٦٢ هـ .

٢ — سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة ، وثار منه بمرسة سبعة مائة ابن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة .

٣ — الراحمس بن عبد العزيز السكتاني ، والي الجزيرة الخضراء ، وقد ثار سنة ١٦٤ هـ .

ولم يكن شارلمان يهدف في امتلاك الأندلس ، فقد كان قد فرغ من حروبهِ في أوروبا ، وضم إليه لمبارديا وسكسونيا وبافاريا ، وامتد ملكه حتى الدانوب (٢) .

وكان قارلة (شارلمان) يحلم بطرد المسلمين من الأندلس (٣) ، ويطمع في ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته .

(١) أخبار جموعة ، ص ١١٠ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) Levi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Leiden 1950, T, I, P. 120.

(٣) في رؤيا رآها شارلمان ناداه القديس جيمس قائلا : إن جثثته الذي لا يعرفه

ويبدو أن الإمارة دبرت بعلم المهدي وموافقته ، وليس أدل على ذلك من
التجاسم الرماحس بن عبد العزيز الكتاني إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية
في الجزيرة الخضراء . وهناك دليل آخر هو رسالة أرسلها صاحب الأندلس إلى
المهدي العباسي عليه فيها وسبه ولعنه ، فرد عليه المهدي برسالة مماثلة عدد فيها
مثالب بني أمية (١) .

وبدا عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي بالعبور إلى أفريقيا ، ثم حاد
بمحيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمر ، وبادر بمكاتبة سليمان بن يقطان
بالدخول في أمره ومخاضة عبد الرحمن الأموي والذواء إلى طاعة المهدي (٢) ،
وكان سليمان يرسلونه ، فلم يحبه ، فاعترض عليه ، وقصد باده فيمن أمته من
البربر ، فمزقه سليمان ، فعاد الصقلي إلى تدمر . وكانت متهمة سليمان بن يقطان
الأعرابي الزحف إلى سرسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهما
سليمان بن يحيى الأنصاري ، أما الرماحس فكان عليه أن يمان الثورة في جنوب
الأندلس في نفس الوقت حتى يمجز عبد الرحمن الداخل عن القضاء على الثورات
جميعا . ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم ، واختلنوا في توقيت حركاتهم ،
فلست طلاع عبد الرحمن الداخل أن يقضى على كل ثورة على حدة .

فبدأ عبد الرحمن وأخطارهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي
فسار إليه الأموي في البدد والمدة ، وأحرق السفن تضييقا عليه في الحرب (٣) ،

المسلمون والمسيحيون برقد في تلك الأرض الثانية ، ثم أمر شالان بأن ينهس وأن يستخلص
جليقية من يد المسلمين . وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع شالان إلا أن يطي
النداء في المرة الرابعة (كارلس ديفيز ، شالان ، ترجمة الدكتور الباز المصري ، القاهرة
١٩٥٥ ، ص ٩٨) .

(١) الطبري ، ج ١٤ ص ١٣٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٩٠ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٤ .

فهرب الصقلي إلى جبل منيع بناحية بلنسية ، ومن هناك أرسل إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة يدعو إلى الدخول في أمره ويسأله أن يمدّه بمعونته ، ولكن سليمان لم يجبه ، فامتعض الفهري ، ولها عقد رجل من البربر يقال له مشكار البربري ، فاطمان إليه الصقلي ، وكان عبد الرحمن الداخل قد أعلن أنه يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله مشكار طمعا في المكافأة وأتى برأسه ، وتم ذلك في أواخر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) (١) .

ثم صرف عبد الرحمن الداخل همه بمد ذلك لمقاتلة الرماحس ، فأرسل إليه وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش ، باغته بالهجوم على قصره في الجزيرة الخضراء ، ففر الرماحس على مركب هربا به البحر ، حتى قدم إلى الخليفة العباسي .

وأما سليمان الأعرابي ، فقد ثار بمرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، في أواخر سنة ١٦٣ هـ ، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف ، فقاتلها ثعلبة قتالا عنيفا ، وعاد يوما إلى مخيمه ، فاغتم سليمان غرته ، فخرج عليه وأسرّه ، ففترق عسكره ، وعمل على الإقادة من أسيره ، فترك على سرقسطة صاحبه حسين بن يحيى الأنصاري ومضى هو وأسيره إلى إفرنجة حيث قابل شارلمان وسلبه ثعلبة وجرّنه على دخول الأندلس (٢) .

(١) أخبار مجومة ، ص ١١٢ .

(٢) ويرى ليفي بروفلسال أنه من المحتمل أن يكون سليمان قد توجه إلى إفرنجة وفي صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو نور ، وكان واليا على وشقة ، ويسند ليفي في ذلك على فترة من الحوليات الملكية لدولة الفرنجة و يروي أن ملك الفرنجة تلقى في سنة ٧٧٨ م (١٦٣ هـ) من أبي نور صاحب وشقة وابن الأعرابي صاحب برشلونة وجرّنه مددا من الرهائن .

(Lévi - provençal op, cit., p. 123)

ويذكر ابن الأثير أن سليمان ، استدعى قارلة ملك الافرنج ، ووعده بتسليم البلد وتعلية إليه ، فلما وصل إليه لم يصبح بيده غير تعلية ، فأخذه ، وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم القداء ، فأمله عبد الرحمن مدة ، ثم وضع من طلبه من الفرنج ، فأطلقوه ، (١) .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كان شارلمان ملتزما بالاتفاق المقتضود بينه وبين المهدي ، ولهذا لم يتردد في السير إلى الاندلس ، فخرج على رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرقات (البرانس) ، فاجتازها إلى رنشالة ، وهاجم بنبلونه واستولى عليها ، ثم واصل زحفه إلى سرقسطة ، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، إذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن حسين بن يحيى الأنصاري طمع في الانفراد بولايتها ، فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان ، وأصر أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان . وطال وقوف شارلمان أمام المدينة عتبا حتى يش من فتحها ، وكانت قد وصلت أنباء موقعة مؤداها قيام اضطرابات وفتن في بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقفل عائدا إلى بلاده ، وقد أرغم سليمان على التراجع معه لجزءه عن تحقيق ما وعده به من إدخاله المدينة .

انسحب شارلمان بجيشه إلى غالة ، ولما بلغ بنبلونه سحب حاميتها الفرنجية وهدم أسوار المدينة ، واسكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل في سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس (٢) ، وكانوا ينتمون على شارلمان تخريبه عاصمتهم بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحسد دروب شعاب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٤ .

(٢) أخبار بموعة ، ص ١١٤ .

رئشالة وأمطروها وأبلا من السهم وكتل الحجارة حتى قضوا على هذه المؤخرة
قضاء مبرما ، وقتل في رئشالة عدد كبير من أعظم قواده تذكر منهم إيجهار
Eggihard وأنسيلم Anselmo كما قتل صفيه وأعظم قواده رولان Roland ،
فحزن شارلمان لقتله ، وكان مصرعه موضوع أنشودة من شعر الملاحم القرملي
تعرف بأنشودة رولان .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان الأعرابي من تخليعه ، ورجما به إلى
سرة سطة . وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن على المتآمرين عليه ، واضطر
شارلمان إلى مهادنته ليتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفي ذلك يقول المقري :
« وخاطب عبد الرحمن قارلة (أي شارلمان) ملك الإفراج ، وكان من طنائة
الإفراج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فإل معه
[أي شارلمان] إلى المدارة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابته السلم ولم
تم المصاهرة » (١) . ويؤيد ليفي بروفنسال ما ذكره المقري مستندا إلى أن شارلمان
لم يقم بأي مناصرة أخرى في أسبانيا منذ حملته الفاشلة التي قام بها في سنة ٧٧٨
حتى سقوط برشلونة في سنة ٨٠١ (٢) . وأيقن شارلمان أنه إن يتمكن من بسط
نفوذه على الأندلس طالما لا يرتكن في أسبانيا نفسها على قوى منافئة للأمير
الأموي ، كما وضع لديه استخالة قلبه على الإسلام في أسبانيا ما لم يؤمن بلاد
الفرنجية والغرب المسيحي ، ولذلك حمد في نفس السنة التي رجع فيها إلى بلاده
من حملته الفاشلة إلى ضم مقاطعة أقطانية إلى مملكته بقصد مراقبة نشاط أمراء
الأندلس المواليين للقرطبة أو الخارجين عن طاعتها على منحوم البرانس ، أو

(١) المرقى ، ج ١ ص ٣١٠ .

l évi - provençal op. cit. , t. I, p. 121

(٢)

الحد من هذا النشاط . ومنح شارلمان هذه المملكة الكارولنجية إلى ابنه لويس الذي صمى فيما بعد باسم لويس التقي ، وتآلفت من المملكة الكارولنجية وملكتي غسقونية وسبتانية جبهة قوية تواجه أملاك المسلمين في أسبانيا ؛ وقد أثمرت هذه السياسة الواقعية ، إذ سلم أهل جرنندة مدينتهم في سنة ٧٨٥ م إلى ممثلي السلطات الفرنجية ، وتبع ضياع جرنندة سقوط مدينة برشلونة في يد الفرنجة سنة ٨٠١ .

وبينما كان جيش شارلمان يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن الداخل يتأهب للسير نحوها للقضاء على سليمان الأعرابي وصاحبه الأنصاري ، وقبل أن يصل الداخل إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصاري إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابي في المسجد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) حتى ينفرد بحكم سرقسطة ، ولكن عبد الرحمن الداخل حاصر المدينة ودخلها .

وهكذا فشاهم المؤامرة الدولية الكبرى التي دبرها المهدي بالاتفاق مع ثوار الأندلس وشارلمان . ولكن سلسلة المؤامرات العباسية لم تنته بعد ، واستمرت في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل ممثلة في تأييد الأغلبية — التابعة للدولة العباسية — في أفريقية لثوار الأندلس النافقين على أمرائها ، وعلى الأخص التائرهم بن حفصون الخارج على الأمير الأموي عبد الله (٢٧٥ — ٢٣٠ هـ) ، وكان ابن حفصون يطمح في الاستيلاء على الأندلس كلها وولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بني أمية ، بدليل أنه أظهر الميل إلى الدعوة العباسية وكاتب ابن الأغلب أمير أفريقية ، ولكن هذه المحاولة فشلت كسابقاتها ، وفقد العباسيون الأمل نهائيا في إسقاط الحكم الأموي بالأندلس .

(٢)

سياسة الدولة العباسية مع دويلات المغرب الاسلامي

١ - موقف العباسيين من الخوارج في المغرب :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحمن بن حبيب استقل بأفريقية في خلافة المنصور، وسبب استقلاله عن العباسيين أنه لما سقطت الدولة الأموية أعلن عبد الرحمن ابن حبيب دخوله في طاعة السفاح، فلما توفي السفاح وبويع لابن جعفر المنصور بالخلافة أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية أفريقية، وأرسل إليه خمسة سوداء، وهو أول سواد دخل المغرب. ثم كتب إلى عبد الرحمن يدعوهم إلى الطاعة فأجابوه ودعاه وأهداه بعض الهدايا، وكتب إلى المنصور ينهاء عن طلب سبي أو مال لأن أفريقية أصبحت في عهده إسلامية كلها، فنضب المنصور وكتب يتمدده. فلما وصل كتاب المنصور جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ثم صعد المنبر وأخذ يسب أبا جعفر ويقول: «إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل، وإني الآن قد خنسته كما خنعت نعلي هذا». وقذفه من رجله، ثم دعا بخليع السواد وأمر بتخريقه^(١). ولكن أنصار الدولة العباسية تأمروا على قتله وتنصيب أخيه إلياس مكانه وإعادة الدعوة لابن جعفر. ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشيء من تلك المؤامرة، فولى أخاه إلياس على تونس، فأثناء إلياس ليردعه قبل أن يرحل إلى مقر عمله ثم قتله، ففر حبيب بن عبد الرحمن إلى همدان خوفاً من إلياس، وانفقا على محاربة إلياس ولكن إلياس اتفق معهم على أن يكون لحبيب قصبة وقسطنطينية، ولعمران تونس، وصطغفورة وباقي أفريقية لإلياس، وتم ذلك الاتفاق في سنة ١٣٨. وكان إلياس يضم السواد بأخيه عمران ويسمى

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٧٦.

للتخلص منه ، فقدر به وقتله واسترجع تونس (١) ، وبعث بطاعته إلى أب
جعفر المنصور مع وفد من العرب (٢) .

فاستعان حبيب بن عبد الرحمن بموالي أبيه وزحف على القيروان واشتبك
مع عمه إلياس في قتال عنيف ، فلما أصيب حبيب أوقد ناراً وأوهم عمه أنه يقيم
ثم أسرى فدخل القيروان واستولى عليها (٣) ، وهناك كثرت جموعه ، وحاد
إلياس إلى عاربته ، ولكن أكثر جنده تنحى عنه وانضموا إلى عسكر حبيب ،
فطلب حبيب من عمه أن يخرج ليبارزه ، ففعل محرراً أمام عسكره ، فضربه حبيب
ضربة أسقطته وحر رأسه (٤) .

ونزل أخوة إلياس بعد مصرعه بقبيلة ورفجومة وكانوا من خلاة الخوارج
الصفورية ، فطلب حبيب من حاصم بن جميل أمير ورفجومة أن يرد أمهاته ،
ولكن حاصم نصرهم ، فزحف إليه حبيب واشتبك معه في موقعة انتهت بهزيمة
حبيب ، فترجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة ، وكان حاصم زعيمهم كاهناً
ادعى النبوة والكهانة وبدل الدين وأزاد الصلاة وحرف في الأذان . فلما رأى
أهل القيروان تنابح حاصم على أميرهم حبيب ، كتبوا إلى حاصم يدعونه للولاية
عليهم على أن يدعو لأبي جعفر المنصور ، فزحف حاصم بمجموع ضخمة من
البربر ومن انضم إليهم من العرب إلى القيروان ، فخاف قاضي القيروان من

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٥ - ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤٠٩ - السلاوي ، الاستقصا لأخبار المتشرب الأئمة ، القار البيضاء ١٩٥٤ ،
ج ١ ص ١٢١ .

ارتكبا ورفجومة المحارم إذا ما دخلت القيروان ، فنخرج مع ألف رجل
يقاثلون حتى الموت ، فقتل ومعظم أصحابه ، ودخل بربر ورفجومة القيروان
في ذى الحجة سنة ١٢٨ فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، وربطوا دوابهم
في جامع القيروان (١) ، أما حبيب فقد فر إلى جبل أوراس فطارده حاصم
ولشبه القتال بينهما ، وانتهى بسقوط حاصم قتيلا ، وعاد حبيب إلى القيروان
ليخرج عبد الملك بن أبي الجعد نائب حاصم منها ، فهزمه عبد الملك وقتله في
المهرم سنة ١٤٠ (٢) .

خضعت أفريقية لورفجومة المتطرفة التي ارتكبت قبيلها الكثير من الفظائع
فسفكوا دماء أهل القيروان وهتكوا الحرمات وأساءوا إلى الإسلام . وكان
إقليم طرابلس وكل سكان المغرب الأوسط (الجزائر) إباحية ، فبايعوا
أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المسافري إماما عليهم في طرابلس سنة ١٤٠
أي بعد دخول الصفرية القيروان ، وكان نفوذه يمتد من خليج سرت إلى قابس ،
ولم يلبث سكان المغرب الأوسط من الإباحية أن انفضوا تحت لواء أبي الخطاب
وبأيده بالامامة ، وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباحية تضم إقليم طرابلس
وقسم أكبرها من المغرب الأوسط (٣) ، وأصبح المغرب الإسلامي كله بعد انقراضه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٥ .

(٢) ابن الأثير ، ص ٣١٦ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٨١ .

(٣) من المعروف أن الخارجية غلبت على المغرب في عصر الدولة الأموية ، فقد استغل
هدد من الحوارج استياء أهل المغرب من مظالم الأمويين وتشكيكهم بهم واسلطوا بمبادئهم
القائمة على العدل والمساواة بين البربر مستغلين نزاع المدينة والقيسية واشتغال الولاة بهذه
المصايف ، ووجد دعاة الحوارج من البربر في المغرب أرضا خصبة لدرس تعاليمهم القائمة على
المساواة بين المسلمين والثروة على الظالم ، ولكن البربر اختلفوا في مدى تقبلهم لهذه
التعاليم ، فبربر القسم الغالب من المغرب الأتقي والأوسط قبلوا المذهب الإباحي المعدل ، بينما =

دولة بنى حبيب القهرى فى قبضة الخوارج الإباضية والصفرية والمراطقة
البرغواطيين فى إقليم تامسنا (١) .

فلما استولت ورفجومة على القيروان سامت أهلها الظلم والفساد ،
وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى ، ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لالذين
يحمى أبى الخطاب عبد الأعلى ، وطالعوه بما ارتكبه الوردفجوميون من الفساد
واستباحة الأعراس وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عربيا من وجوه
العرب الذين تقبلوا مبادئ الخوارج على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغه
ذلك غضب وأبكر من ورفجومة سلوكها ، فتحركت فى نفسه عواطف الغيرة
على الإسلام ، فاستنقر أنبأه الإباضية ، وشايمه بربر طرابلس وفى مقدمتهم
هواره ، وزحف بمجموعه نحو القيروان لتعلميها من دنس ورفجومة ، وتحرير
أهل القيروان من استبدادها وطنيانها . وما إن علم عبد الملك بن أبى الجعد
بذلك حتى خرج من القيروان ، واشتبك المريقتان بالقرب من القيروان فى

تقل بربر القسم الجنوى من المغرب الأقصى مذهب الصفرية المتطرف وكان الثلاثة وقد
داخلهم الدعوة البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام أو إسلام
متبرر وانتهى البربرية . وأول من نشر الإباضية فى المغرب سلمة بن سعد فى أوائل القرن
الثانى وعنه أخذ عبد الرحمن بن رستم الفارسى وعاصم السدراتى وأبو الخطاب عبد الأعلى
ابن السمح ، ثم أعلن البربر ثورتهم على العرب بعد أن فشلوا فى مقابلة هشام بن عبد الملك
بدمشق وشؤوا من الإصلاح ونجحوا فى هزيمة العرب فى موقعة حاسمة : الأسراف
١٢٢ هـ (٧٣٩ م) وبقدورة على وادى سبو ١٢٤ هـ (واجمع : عبد العزيز سالم ،
المغرب الإسلامى ، ص ٢٩٣ - ٢٢٧) .

(١) كان زعيمهم طريف بن شموون قد شرع لهم تشريعا مخالفا للإسلام ، فلما مات
خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية ، وزعم أنه المهدي الذى يكون فى
آخر الزمان . (راجع : ابن هشارى ، ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ - ابن الخطيب ، أعمال
الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار البادى ، ص ١٨٤) .

صفر سنة ١٤١ هـ واشتد القتال ، ودارت الهائرة على عبد الملك ، إذ غزله أهل القـيـروان ، وانزموا عنه ، فأئـنـحـن فيهم عبد الـاهـلـى ، وهرمهم ، وقتل منهم أعدادا كـبـهـرة ، من بينهم عبد الملك نفسه ، ودخل عبد الـاهـلـى القـيـروان (١) . واستخلف عليهم زميله في الكفاح عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الإباضية ، وهاد هو إلى طرابلس استعدادا للقوات العباسية التي سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

وكان قد وفد على أبي جعفر المنصور بعض أجناد العرب وشيوخهم منهم قاضي أفريقية عبد الرحمن بن أنعم يستصرخونه لإيقاد أفريقية من فسادور فجومة ، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتي أحد جنود عبد الـاهـلـى الخارجي عليه ، فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وأفريقية ، وسهر من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبي الاحوص همر بن الاحوص العجلي لاسترجاع أفريقية ؛ وكان ذلك هو السبب في عودة عبد الـاهـلـى إلى طرابلس سريرا بعد تغلبه على عبد الملك بن أبي الجعد ، فاشتبك عبد الـاهـلـى مع القوات العباسية في بلدة سرت وهرمهم في سنة ١٤٢ هـ فعاد فلم يزل إلى مصر (٢) . فدخل المنصور محمد بن الأشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة . فخرج ابن الأشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) وكان في جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين نذكر منهم

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٢ - ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٠ - السلاوي ، ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ .

(٣) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ . وذكر ابن عذاري أن عدة جيشه بلغت ٢٠٠ ألف مقاتل (ج ١ ص ٨٣) وهو رام مبالغ فيه بدليل أنه يذكر في موضع آخر أن خرج في أربعين ألفا عليهم ٢٨ قائدا .

الأغلب بن سالم التميمي (جد الأغالبة الذين سيستقلون بتونس) والحارب بن هلاله والخارق بن غفار الطاق. وكان جيش عبد الأعلى يضم عسكرياً من بربر زناتة وهوارة، فتنازعت القبيلتان، واتهمت زناتة عبد الأعلى بميله إلى هوارة ومحاباتها، ففارقه جماعة كبيرة من الزناتيين، في الوقت الذي أقبلت فيه جيوش العباسيين، وعندما بلغ ابن الأشعث نخلي الزناتيين عن عبد الأعلى قوى عزمه، ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر، وتباطأ في سعيه وتراجع بالفعل معاهدة ثلاثة أيام، بحيث إن جواسيس عبد الأعلى طادوا يخبرونه برجوعه إلى مصر، ففرق عنه كثير من أتباعه وأطباء الباقون، فعاد ابن الأشعث سريعاً وفاجأ قوات عبد الأعلى الباقية وهي على غير استعداد للحرب وهاجمها، فوضع العباسيون السيوف فيهم، واشتد القتال، وأسفر عن مصرع عبد الأعلى وعامة أصحابه في صفر سنة ١٤٤ هـ (١)؛ ودارت هذه المعركة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومصراته، وأبدى فيها الإباضية ربحاً عظيماً وأعدادهم وعدم استعدادهم للقتال الكثير من ضروب الشجاعة والإقدام حتى استشهدوا جميعاً، فاحتز ابن الأشعث رأس أبي الخطاب وأرسله إلى المنصور.

وكان عبد الأعلى - بعد أن علم بقرب وصول ابن الأشعث - قد استنفر الإباضية للجهاد، فلما انتصر ابن الأشعث على قواهم أبي الخطاب وقتله في عامة رجاله ظن أنه ضمن القضاء نهائياً على الإباضية، ولكنه فوجئ بوصول أبي هريرة الزناتي أحد قادة أبي الخطاب في ١٦ ألفاً من زناتة وغهم (٢) جاءوا ملبيين نداء أبي الخطاب ولكن بعد قوات الألوان، فتلقاهم ابن الأشعث ومزق صفوفهم.

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٧.

(٢) ابن مغازي، ج ١ ص ٨٣ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٢١٧.

وهزمهم في ربيع الأول سنة ١٤٤ . كذلك كان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب
لنجدة أبي الخطاب ، فلما وصل إلى قابس قادما من القيروان بنفسه ما انتهى إليه
مصر صاحبه أبي الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق بإباضية
المغرب الأوسط ، فنزل في قبيلة لماية البربرية لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا
حول له وبايعوه بالإمامة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له في
المغرب الأوسط ، فشرع في بناء مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ ، وأتمها واستقر
بها في سنة ١٤٥ هـ (١) .

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فارتقت أهلها في
الحديد وولوا على أنفسهم أحد شيوخ العرب ظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن
الاشعث إلى القيروان ودخلها في غرة جمادى الأولى من نفس السنة (٢) . ثم
كتب ابن الاشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولي عماله على المغرب ،
فأقام على طرابلس القائد المخارق بن غفار الطائي ، كما ولي على طبنجة والزاب
الأغلب بن سالم (٣) . وأخذ ابن الاشعث وهو مقيم بالقيروان يطهر أرض ليبيا
وتونس من الإباضية ، وفرض سطوته على البربر فأذعنوا له بالطاعة . ولم
يشأ ابن الاشعث أن يقاتل الإباضية في المغرب الأوسط ، واكتفى باستيلائه
على أفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها في أيديهم لتكون
سدا منيعا أمام حركة الخارجية .

(١) السلاوي ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) ابن حذاري ، ج ١ ص ٨٤ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ .

ب - سياسة العباسيين في المغرب :

ظل ابن الأشعث يتولى أفريقية حتى سنة ١٤٨ (١)، وفي هذه الفترة اشتملت نار المصيبة العربية من جديد في المغرب ، فقد كان ابن الأشعث يمنيّا بينما كان معظم عسكريه من المضرية ، فاصطدم بصراع المصيبات ، وانتهى الأمر بأن خلع المضرية وولوا عليهم رجلا من خراسان اسمه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني ، فاستمر عيسى يقوم بإمارة المغرب حتى ولي المنصور على أفريقية الأغلب بن سالم التيمي (١٤٨ - ١٥٠) وكان من أصحاب أبي مسلم الخراساني وأسهم في نشر الدعوة العباسية بخراسان ، اختاره المنصور لولاية أفريقية لما عهد فيه من الحزم والشجاعة وحسن الرأي ولكونه مضريا يرضاه المضريون ، ولكنه قتل في سنة ١٥٠ على يد بعض الجند . وخلفه عدد من الولاة من قبل بني العباس هم على التوالي :

١ - أبو جعفر محمد بن حفص المعروف بهزار مرد : ولقب بهزار مرد بمعنى ألف رجل بسبب شجاعته وشدة بأسه ، وتولى هزار مرد بأمر المنصور ، وقد أبدى في الممارك التي خاضها ضد البربر الإباضية كثيرا من ضروب البسالة والإقدام حتى قتل في ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ وهو يقاتلهم ؛ وكان سبب هاربتهم لهم أن المنصور اغتر بالنفوذ العباسي في أفريقية ، فتطلع إلى امتلاك المغرب الأوسط ، فأمر هزار مرد بالتوجه إلى طنبجة وتحصينها لتكون قاعدة للعمليات العربية المقبلة ضد عبد الرحمن بن رستم . وأجس الخوارج بالخطر الذي يهددهم ، فاتفق ابن رستم مع أنصاره في طرابلس وتلبسان على محاربة العباسيين ، في غياب هزار مرد عن القيروان ، وتمكنوا من إيقاع الخريمة بهيش

العباسيين فى القيروان وسحقوهم ، ثم توجهت حشود البربر الحوارج إلى طبنجة ، واشترك فيها أبو قرّة الصفرى وعبد الرحمن بن رستم الإياضى وعاصم السدراتى وأبو حاتم يدقوب بن حبيب الإياضى ، ولكن على الرغم من قلة ما لدى هزارمرد من قوات فقد تمكن بفضل تأخير الأموال من تفريق كلمة البربر ، فانسحب الحوارج ، وطاد هزارمرد إلى القيروان لاستئذانها ، ولكنه سقط قتيلًا فى اشتباكه مع قوات أبى حاتم الإياضى (١) .

٢ — يزيد بن حاتم : كانت أخبار الثورات التى أشعلها البربر فى المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب على المغرب وسيره فى جيش عدته ستون ألفا (٢) . وهزم يزيد على القضاء على ثورة البربر الإياضية ، فالتقى مع قوات أبى حاتم ، وسقط نحو ٢٠ ألفا من رجاله صرعى ، وظل العباسيون يقتلون الإياضية فى جبل نفوسة شهرا حتى سحقوهم . وكان يزيد من خيرة ولاية أفريقية ، ف قضى على الثورات وضبط البلاد وأمن الناس على معاشهم وأموالهم . وتوفى يزيد فى رمضان سنة ١٧٠ فى خلافة الرشيد (٣) .

٣ — روح بن حاتم بن قبيصة : فى عهد ساد الهدوء فى أفريقية ، فقد هادن هبيل الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يتاهرت ووادعه (٤) ، ولم يطل عهده إذ توفى فى القيروان فى ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ٩٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٤ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٩ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ .

٤ — الفضل بن روح بن حاتم : ولاء الرشيد ولاية أفريقية في سنة ١٧٧ ، وفي عهده تجددت الثورات في البلاد ، وثار الجند بقيادة ابن الجارود المعروف بعبد ربه الأنباري والتف حوله كثير من الساخطين على الفضل ، فسير الفضل إليهم جميعا هزمه ابن الجارود ، الذي أقبل يحاصر القيروان وتمكن من اقتحامها في جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وقتل الفضل (١) .

٥ — هرثمة بن أعين : لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب في أفريقية ، ولي عليها هرثمة بن أعين (الذي سينا مر فيها بعد ويسمى إلى اختراق السياج الحديدي الذي فرضه الفضل بن سهل على المأمون في خراسان ، ويذهب ضحية شجاعته وعرويته الصادقة) ، وأرسل الرشيد إلى ابن الجارود الشاعر يحيى بن موسى ليستميل ابن الجارود حتى يعاود الطاعة قبل وصول هرثمة . ونجح يحيى بن موسى في استمالة جند ابن الجارود للفرس وعلى رأسهم محمد بن الفارسي ، ولكن ابن الجارود قتل محمد ابن الفارسي وهزم عسكره ، فتراجع يحيى بن موسى إلى طرابلس حيث وصلها هرثمة . وفي غرة ربيع الآخر ١٧٩ وصل هرثمة إلى القيروان فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب القائد إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولما بالبناء فأقام رباط المستنير سنة ١٨٠ وبنى سور طرابلس بما يلي البحر (٢) . وفي سنة ١٨٠ قامت ثورة جديدة في البلاد ضد هرثمة ، وعلى الرغم من نجاحه في إيقاع الهزيمة بالشوار فقد كتب إلى الرشيد يطلب الاستعفاء

(١) ابن حناري ، ج ١ ص ١٠٦ — ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٧٧ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٧ .

(٢) ابن حناري ، ج ١ ص ١١٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٩ .

لكثرة مآرآه في أفريقية من الاختلاف وتقلب أهواء جندها ، فأمره الرشيد
بالقدوم عليه ، فترك أفريقية في رمضان سنة ١٨١ ، واستعمله على
فلسطين (١) .

٦ - محمد بن مقاتل المكي : كان أبا الرشيد في الرضاع فاستعمله الرشيد
على أفريقية بعد هزيمة ، فقدم إليها في أول رمضان سنة ١٨١ . ولم ينجح
ابن مقاتل في تهدئة نفوس الجند بل على العند من ذلك أثار عليه كراهية
الجند لسوء سيرته وقبيح ما يؤثر من أخباره ؛ من ذلك إقدامه على قتل
الاهلول بن راشد أحد أئمة البربر الكبار في الشريعة بسبب وعظه له وصارعه
له في تصرفاته لاسيما عند ما أمد البيزنطيون في حقلية بالاسلحة ؛ كذلك
إساءته السيدة في الجند وفي الرعية واقطاعه أرزاق الجند ، فقتل في قيامهم
عليه (٢) ، فثار عليه الجند استهجانا لتصرفاته ، وزحف أبو الجهم التميمي حامله
على تونس لدخول القيروان واشتبك مع ابن مقاتل فانهزم الأخير ، ودخل
أبو الجهم القيروان في رمضان سنة ١٨٢ ، فأمن المكي على دمه وماله ، فخرج
المكي من القيروان بعد أن آمنه أبو الجهم ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه
قوم من الحراسانيين دخل بهم طرابلس وأقام بها وفي هذه الاثناء استاء
إبراهيم بن الأغلب التميمي من خروج أبي الجهم على الوالي الشرعي ، فجمع
جيشا من الزاب سهره إلى القيروان ، ودخلها ، وكسب إلى ابن مقاتل بطرابلس
يدعوه إلى دخول القيروان ، فعاد ابن مقاتل ، وانزعج الناس لمودته ولأذوا
بأبي الجهم في تونس . فلما استعصر أبو الجهم أن لديه قوة كافية ، عزم على مهاجمة
القيروان ، فتنصدى له إبراهيم بن الأغلب ، فانهزم أبو الجهم وانسحب إلى تونس

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٤١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١١ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٤ .

وحاصره ابن الأغلب فاضطر إلى طلب الأمان فأمنه ، وسيره إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسهم في المطبق (١) وأصبح ابن الأغلب رجلاً أفريقية القوي بعد أن هزم أبا الجهم وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن الجند والآهالي كانوا قد صنعوا حكم ابن مقاتل وكرهوا استبداده ، فاتصل جماعة من الجند والآهالي بابن الأغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلاً من ابن مقاتل ، وحلوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على إمارة أفريقية ، فكتب إليه في ذلك ، وأبلغه أنه مستعد في مقابل تتمه بالإمارة أن يتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبعثها حكومته كل عام موقعة لأفريقية بالإضافة إلى استمداده لإرسال أربعين ألف دينار إليه (أى إلى الخليفة) كل عام . فلما عرض الرشيد الأمر على هرثة يستشهده ، أشار عليه بأن يوافق على منح ولاية أفريقية لسكنايته وجرمه ومقدرته الحربية في إخماد الثورات بالإضافة إلى شعبيته . فكتب له الرشيد عهداً بولاية أفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ ، ويسجل هذا التاريخ قيام دولة بني الأغلب مستقلين استقلالاً جزئياً عن الخلافة (٢) .

* * *

وشهد المغرب الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه ، ففي المغرب الأدنى بالقهروان قامت دولة الأغالبة ، وفي المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين الخوارج الإباضية ، وفي المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الأدارسة الحسينيين ، وفي سجلماسة قامت دولة

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٥ — ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤١٩ — السلاوي ، ج ١ ص ١٣٥ .

بنى المدرار الخوارج الصفرية ، وفي نكور والريف الغربي قامت دولة بنى صالح ابن منصور الحميري ، وفي شالة بنما سنا قامت دولة بنى صالح بن طريف البرغواطى المرابطية . وجميع هذه الدويلات كانت مستقلة عن الخلافة العباسية باستثناء دولة الأغالبة التي كانت ترتبط اسميا بالخلافة العباسية . وعلى هذا الأساس يمكن التذيق بسياسة الدولة العباسية في المغرب ، فهي سياسة عدائية بالنسبة للدويلات المستقلة التي قامت فيها وراء أفريقية . أما سياستها نحو دولة الأغالبة فكانت ودية ، لأن هذه الدولة كانت تدّين الولاء لبنى العباس . ساعد الرشيد على تأسيسها بمعهد منه ، لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية والقوى غير الشيعية في المغربين الأوسط والأقصى خاصة قوة الإدارة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد المغرب والمشرق الإسلاميين تحت قيادتهم^(١) ، فقد وجه لإدريس بن عبد الله مؤسس دولة الإدارة رسالة إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الإدارة بأهل مصر (٢) .

أما أسرة الأغالبة^(٣) فأسرة راقية في مضمار الحضارة عملت على نشر

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧ هامش رقم ٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أقامت أحداث أفريقية التواليية من ممارك خاضها العرب ضد الصفرية والإباضية ومن حركات التمرد والشغب التي قام بها الجند ، ومن فتن طاحنة متوامة ، الرشيد بأد انفصل المغرب عن الدولة العباسية مات حكمة واقعة ، وقد دفعه هذا الشعور بالواقع إلى قول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والقائم باستقلال ولاية أفريقية استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية والاكتماء بلبعية إسمية لها مقابل مبلغ من المال يبيته إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذي ضامه إلى بنى الأغلب وإقرار كل خليفة عباسي بهذا القاب

(Marçais, la Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge

(Paris , 1946, p. 59) ولا شك أن الرشيد بإرساله عهد ولاية أفريقية إلى ابن

الخطيب إنما كان يقر استقلاله الفعلي بهذه البلاد مع التبعية الاسمية للخلافة .

الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذهما أى في أفريقية و طرابلس وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا المساجد والحصون والأربطة ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون وحمى أمراء الأغالبة المشرق الأدنى الإسلامى من خطر التغلغل الشيعى والحارجى ، واضطروا إلى الاصطدام عسكريا بالرستميين الخوارج وبالدهاة الإسماعيلية حينما آخر . وظلت دولة بنى الأغلب موالية للعباسيين ، ينعكس ذلك على الإسم الذى أطلقه إبراهيم بن الأغلب على المدينة التى أسسها فى سنة ١٨٥ جنوب القيروان فسماها العباسية إمامانا فى إظهار ولائه للعباسيين^(١) ، وعلى مؤامرات إبراهيم بن الأغلب ضد دولة الإدارة الفتية^(٢) ، إلى أن تولى المأمون العباسى الخلافة ، وأرسل إلى زيادة الله بن إبراهيم الأغلبى (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) التتليد بالإمارة ، فأخلص له زيادة الله حق عندما توثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة ببنداد وتسمى المبارك (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) ، فلما دخل المأمون ببنداد فى سنة ٢٠٤ هـ وخلاصت له الخلافة شكر له ذلك^(٣) . ولكن عندما كتب إليه المأمون يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر أفريقية غضب غضبا شديدا وبعث مسع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بنى إدريس^(٤) ، وفى ذلك تهديد واضح للخليفة بخروج الأغالبة على العباسيين وانضمامهم إلى الإدارة لو فكر العباسيون فى مس استقلال بنى الأغلب الذاتى .

كذلك ينمكس ولاء الأغالبة للعباسيين فى قيامهم بمحاربة البيرنطيين فى

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة العباسية .

(٢) - تتعرض لذلك فى حينه .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٦٠ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٧٠ .

صقلية منذ سنة ٢١٢ (١) ، وفي مساندة ابن حفصون الشاعر على بن أمية في الأندلس . وسقطت دولة الأغالبة في سنة ٢٩٦ هـ . على يد أبي عبد الله الشيعي داعي دعاة الشيعة الإسماعيلية .

أما دولة الإدارة فقد أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي في المغرب الأقصى في وائل وذلك في سنة ١٧٢ هـ أي بعد مصرع الحسين ابن علي بن الحسن وهزيمة أصحابه في موقعة فخ بمكة بثلاث سنوات . وكان إدريس قد اشترك في القتال مع الحسين بن علي ، ونجح في الإفلات مع المهرومين من بني الحسن (٢) ، فاستقر بعض الوقت ، فلما ألح العباسيون في طلبه قصد إلى مصر مع موله راشد ، وساعده واضح مولى صالح بن المنصور — وكان يتشيع لملي — على النسرار إلى المغرب ، فيقال إنه حمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو وراشد ، فنزلا يوليلي من أعمال طنجة (٣) في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ ، فنزل على إسحق بن عبد الله الأوربي ، أمير قبيلة أوربة البربرية فأجاره وأكرمه ، فأقام في كنفه ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته ، ونجح بفضل فصاحة لسانه وبلاغته في التأثير في نفوس البربر — خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول — فتملقت آمالهم به واجتمعت عليه قبائل

(١) راجع في ذلك : ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٣٣ ومايليها — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٧ - Marçais , op. cit., p. 65 - احسان عباس ، العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٢ - عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، ص ٣٨٥ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٣ .

(٣) البكري المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ، ص ١٩٩ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ - المغرب الإسلامي ، ص ٤٦٨ .

أوربة ومنيلة وصدينة ، وزناته ، وبايعوه بالامامة ، وتمكن إدريس من تكوين جيش وجهه بادية ذى بدء إلى المناطق التي تسكنها قبائل على دين اليهودية والمجوسية وخامسة مناطق شالة ونادلا التي لم يكن الإسلام قد انتشر فيها بعد (١) . وبفضل غزواته وفتوحاته أمكنه أن يؤسس إمارة قوية بالمغرب الأقصى (٢) .

واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس في المغرب من دخول البربر في طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه ، وأبلغ بحزمه وقوته ، فعظم عليه الأمر ، وخاف أن يقضى الإدارة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسي في أفريقية وطرابلس ، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر ، ولا شك أن اصطلاح إدريس ابن عبد الله لسياسة النزو المسلح في نواحي تامسنا ونادلا وتلمسان كان يعبر عن رغبته في التوسع ومد نفوذه على المغرب كله ، وكان لذلك صدق حقيق في المشرق الإسلامي ، وأصبح الخليفة المتعا على مصر المغرب ومصر ، بل إن صاحب كتاب الروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس يذكر أن الرشيد أخبر بهزم إدريس وعلى غزو أفريقية ، فخاف أن يعظم أمره فيحصل إليه ، لما يعلم من فضله وكماله ، رغبة الناس في أهل بيت

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٤ — الجزائى ، كتاب زهرة الأكر في بناء مدينة فاس ، نشره ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ١٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : لبني برونسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ — والمغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الإسلامي لعبد العزيز سالم ، ص ٤٦٥ - ٤٠٤ .

الغنى على الله عليه وسلم ، فاعظم لذلك غما شديدا ، وعظم عليه شأنه ، (١) .
ففكر الرشيد في اللجوء إلى السيف للقضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ،
ولكن الأمر لم يكن من السهل تحقيقه ، فالنفوذ العباسي الفعلي لم يكن
يتجاوز حدود مصر العربية ، وعلى أقصى تحديد الحدود التونسية
الجزائرية ، وذلك إذا اعتبرنا أن أفريقية (أى تونس) ترتبط بالخلافة
العباسية ارتباطا ولاء . فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد
البرمكي ، وأخبره بأمر إدريس واستشاره فيه . وقال له : إنه والله على بن
أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي صلعم ، وقد قوى سلطانه ، وكثرت جيوشه
وعلا شأنه ، واشتهر أمره واسمه ، وفتح مدينة تلمسان وهو باب أفريقية ،
ومن ملك الباب يوشك أن يدخل اندلس . وقد عزم على أن أبعث له جيشا
عظيما لقتاله ، ثم إنى فكرت في إمد البلاد وطول المسافة ، وتنشأ المغرب عن
المشرق ، ولا طاقة للجيش العراقي على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ،
فرجعت عن ذلك ، وقد هالني أمره ، فأشر على برأيك فيه ، (٢) . فأشار
عليه البرمكي بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر
والدهاء مع البلاغة والجرأة ليقتله ، ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير (٣) ،
وقيل سليمان بن جدير (٤) وقيل ابن حريز (٥) المعروف بالشاهخ (٦) . وكان

(١) انظر النص المذكور في : Lévi — Provençal, Extraits des :
historiens arabes du Maroc, Paris, 1948, P. 18

(٢) Ibid., p. 18

(٣) Ibid. — الجزائري ، ص ١٠ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ .

(٥) البكري ، ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ص ٢٥ .

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٩ .

وكان سليمان هذا من أهل الشجاعة والدهاء والتمساح ، فأخبره يحيى بالمهمة التي
يهد إليه بها ، ووعده برفعة المنزلة والصلوات السنوية ، وغمره بالأموال والتحف
المستطرفة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية (عطر) مسمومة ،
ثم وجهه معه رجلا يثق به ويشجاعته ، فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ،
وهو متشكر في هيئة طبيب ، وما زال يحرق في السفر حتى وصل إلى وابل ، فانصل
بإدريس ، فـأله عن اسمه ونسبه ووطنه ، وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر
له أنه من بعض موالى أبيه ، وأنه انصل به خبره فأثناء برسم خدمته بسبب محبته
لاهل البيت ، فأنس إليه إدريس وسريه ، واتخذ صاحبا ونديما ، لا يجلس إلا
معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدريس في هذا البلد البربري ، يحن إلى
مجالسة العرب ومخادتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من علمه وأدبه وبلاغته
وحواره ما جعل إدريس يتعلق به ويرفقه إلى تلك المنزلة (١) . وأخذ سليمان
الشباخ يتزصده فرصة يقتال فيها إدريس بالسم ، فلم يتهيأ له ذلك فبلازمة
راشده له ، وظل يترقب فرصه مواتية لتنفيذ خطته ، إلى أن اغتم غيا ب راشد
لثبات يوم لبعض شؤونه ، فدخل على إدريس فألقاه وحده ، فجلس بين يديه على
هادته ، وتحدث معه مليا فلم يظهر راشد ، فانتهر الفرصة ، واغتم الخسوة
فقال : يا سيدي جلس فذاك ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أنطيب
بها ، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها مني
فأخذها لتطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي ، وهو من بعض ما يجب لك على .
ثم أخرجها من وعاء وقدمها له ، فشكره إدريس ، وفتح السدادة وشمها . فلما
أكد الشباخ من ذلك استأذن وخرج ، ثم ركب فرسا له قد أعدها لذلك ، وفر

(١) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ - الجزناني ، ص ١٠ - الروض القرطاس من كتاب
« مقتنيات لافرنس العرب في المغرب » ، ص ١٩ .

من وليلى . أما إدريس فُتد غشى عليه وسقط بالأرض ، والقوم من حوله لا يفهمون ما حل به . وقضى إدريس فى غشيته إلى غشى النهار ، فتوفى فى مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ ، (١) ، وقيل فى سنة ١٧٥ هـ . (٢) وهو الأرجح . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غيبة الشهاخ ، فعلم أنه هو الذى سمع ، فركب فى طلبه ، ومازال يندى سيرة فى اتجاه الشرق حتى لحق به بوادى ملوية ، فضربه بسيفه ضربة قطع بها يده ، ولكنه لم يتمكن من الإجهاز عليه ، إذ كبا به فرسة ، وتمكن الشهاخ من عبور الوادى واحتفى فى البرابرة (٣) ، فأمن الشهاخ من مطاردة راشد له ، وعصب جراحة ، ووصل إلى ينداد (٤) ، فولاه الرشيد على بريد مصر (٥) . ودفن إدريس بخمارج باب وليلى فى فناء رابطة ليتبرك الناس بتريقته .

وهكذا نفذت مؤامرة الرشيد ويحيى البرمكى ، ونجحا فى التخلص من إدريس . ولكن إدريس توفى وقد ترك جارية له حاملا فى السابع من أشهر الحمل ، فاتفق راشد مع زعماء البربر على أن يقوم بأمرهم إلى أن تضع الجارية ، فإذا جاء المولود ذكرا بايعوه ، وإذا كانت بنتا نظروا لأنفسهم (٦) . ووضعت

(١) الروض القرطاس ٣ الاستلما ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) البكرى ، ص ١٢١ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ - القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٥ ص ١٨٠ - الجزائى ، ص ١١ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ .

(٤) البكرى ، ص ١٢١ - ابن عذارى ، ص ٢٩٩ - ابن الخطيب ، ص ١٩٥ - السلاوى ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) البكرى ، ص ١٢١ - ابن الأثير ، ص ٩٣ .

(٦) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ - ج ١ ص ١٦٠ .

الجارية في ربيع الآخر سنة ٧٥ (١)، وجاء المولود غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر فأعجبوا من شبه الكبير بأبيه، فقالوا: هذا إدريس كأنه لم يمت، (٢)، فسمى باسم أبيه، وقام راشد بأمره وكفله حتى شب، فأحسن تأديبه وأقرأه القرآن وأحفظه إياه ولم يتهرب إدريس من العمر ثمان سنوات بعد، ثم علمه السنة والفقه، وأشعار العرب وإمامهم وسير الملوك، ودرسه على ركوب الخيل والمصارلة وأحكام الرماية بالسهم (٣)، ولما أتم إدريس من العمر عشر سنوات جدد له راشد البيعة بهجامع ويلي.

ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى، إذ ساء استنحال أمر إدريس براشد، فلم يزل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا وسبق رأسه إليه وذلك في سنة ١٨٦ (١)، وفي ذلك يقول إبراهيم بن الأغلب يخاطب الرشيد، ويكذب أدماء محمد بن مقاتل الهكي الذي سب إلى نفسه محاولة قتل راشد:

الم ترقى أهلك بالكيد راشدا . وأنى لآخرى لابن إدريس راصدا
وتاء أخو عك بمالك راشدا . وقد كنت فيه ساهرا وهو راقدا (٥)
وتجمع معظم المصادر على أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل

-
- (١) البكري، ص ١٢٢ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٢٤ - ابن الخطيب، ص ١٩٦ .
(٢) ابن الخطيب، ص ١٩٦ - السلاوي ج ١ ص ١٦٠ .
(٣) نفس المصدر - الجزائى ص ١٢٣ .
(٤) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٥٠ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٧٤ .
(٥) ابن الخطيب، ص ١٩٧ .

اسمه أبو خاله بن يزيد بن إلياس النبدى (١)، وحدثت لإدريس الثاني البيعة في ٧ ربيع الأول سنة ١٨٧ هـ (٢)، وهو ابن ١١ سنة، وبايعته جميع مدع القبائل من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر، فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى، وقوطد ملكه وعظم سلطانه، وقوى عسكره ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٣). وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من أفريقية والاندلس من القيسية والأزد والخزرج ومذلاج وبني محصب، فمر لإدريس بوفادتهم عليه وقربهم منه وجعلهم بطانته (٤)، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدي.

ولما رأى إبراهيم بن الأغلب — الذي كان أكثر الأغلبية ولاء للعباسيين — عظم قوة إدريس استعمال إليه كبير أوربة أبا ليلى إسحق بن محمود الأوربي، ويبدو أن إدريس تبين له تفسير إسحق عليه وميله لابن الأغلب، فقتله في ٦ من ذي الحجة سنة ١٩٢ (٥)، ثم كثرت حاشية إدريس وأنصاره، وضائق وليلى بهم وبمن وفد عليه من عرب القيروان والبربر فأسس لهم ريفر القرويين من مدينة فاس في سنة ١٩٢ (٦) هـ، ثم انتقل من المنطقة التي عرفت فيما بعد بمدرة الاندلسيين — ولم تكن هذه المدوة

(١) البكري، ص ١٢٢ — ابن الأثير، ج ٦، ص ١٧٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٢ — ابن عذاري، ج ١، ص ٢٩٩ — ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٦.

(٣) الجزائى، ص ٢٣.

(٤) ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٦ — الجزائى، ص ١٣.

(٥) البكري، ص ١٢٣ — ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٦.

(٦) نفس المصدر، ص ١٢٣ — ابن عذاري، ج ١، ص ٢٩٩ — ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٦.

من فاس قد أسست بعد - إلى عدوة القرويين حيث بنى دار القيطون وأسس
بحوارها جامع الشرفاء بفاس (١) .

ويبدو أن إدريس اتخذ بالإضافة إلى وزيره العربي عميد بن مصعب وزيراً
من البربر اسمه بهلول بن عبيد الواحد المطغرى ، فلما أخضع إدريس خوارج
المغرب الأوسط لطاعته . وامتد نفوذه حتى وادى شلف ، وأصبح يهدد نفوذ
العباسيين بأفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى أن يدافع عن حماه ، فبلاطف
بهلول واستماله إليه بالكتب والهدايا حتى انحرف عن دعوة الإدارة إلى
الدعوة العباسية ، ثم وفد إلى القيروان ، ومنذ ذلك الحين استراب إدريس
بالبربر فاستكثر من العرب وصالح ابن الأغلب (٢) . وترك الخلافة العباسية
دولة الإدارة وشأنها .

أما دولة الرستميين أصحاب تاهرت فكانت علاقة العباسيين معهم علاقة
عداء ، وتنسب هذه الدولة إلى عبيد الرحمن بن رستم الإباضى الفارسى ، ومن
المعروف أن المذهب الإباضى انتشر في المغرب انتشاراً سريعاً ، وساعد على سرعة
انتشاره منذ أول القرن الثانى الهجرى أن الدولة العباسية كانت أشد وطأة على
الخوارج من الدولة الأموية ، فاستبد العباسيون بالدولة ورفعوا السيف على
كل من ناوراً سلطانهم . وكان مؤسس هذه الدولة وهو ابن رستم أحمد علماء
خمس عرفتوا بجملة العلم ، رحلوا إلى البصرة مقر ابن عبيدة مسلم بن أبى كريمة
إمام الإباضية ، وقد رأينا فيما سبق أن الإباضية والصفرية تنلبوا على الأمويين
في المغرب وأطاحوا بنفوذهم ، ولكن قيام الدولة العباسية كان كارثة بالنسبة

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ - الجزائى ، ص ١٤ ، ٢٠ .

(٢) نفس المصدر - ابن خلدون ، ص ٢٧ ، ٢٤٠ .

لهم ، إذ أن أبا جعفر المنصور ساءه أن يضيع نفوذ بني العباس في المغرب ، ولهذا السبب عزم على القضاء على الدولة الإباضية التي أسسها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وتمكين السيطرة العباسية على أفريقية ، فأخذ يبعث طاقاته ويحشد لها لهذا الغرض ، ثم كانت حملة ابن الأشعث التي انتهت بمصرع أبو الخطاب في جملة من خيار أصحابه يبلغ عددهم ١٢ ألفا (١) وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لتجدة صاحبه أبي الخطاب عندما بلغه وهو في طريقه إليه خبر الهزيمة الشنعاء التي منى بها جيشه ، فآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه ، ويمضي إلى المغرب الأوسط حيث لا يهل نفوذ المباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انتصروا لأبي الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على نسق دولة أبي الخطاب .

ومن المعروف أن عبد الرحمن بن رستم هذا من أعقاب رستم قائد جيش المرس في السادسة ، وإن كان بعضهم يرفع نسبه إلى بهرام كور كمرى فارس (٢) ، وسلك ابن رستم في فراره إلى المغرب الأوسط مسالك صعبة وطرقا وعرة إلى أن نزل على وادي سوفجج ، وكان عامرا بالإباضية ، وهناك تسارعت قبائل هوازة ولوانه ولماية بالانضمام إليه . ولما علم ابن الأشعث في القيروان بنجاح ابن رستم في الفرار إلى المغرب الأوسط والتفاف القبائل حوله ، جهز جيشا خرج به إلى هذا الجبل بقصد أستنزال ابن رستم قبل أن يستفحل أمره .

(١) ابن عذاري ، ص ٨٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ - أبو الربيع سليمان الهاروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ١٩٣٨ ، ص ٣٤ .

(٢) البكري ، معجم ما استمع * مادة فاهرت - فاهوت ، معجم البلدان ، مادة فاهرت - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٧ . وكان ابن رستم مولد لثمان بن عقال ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين .

فلما قُدم بجيشه عسكر في سفح الجبل، وحفر خندقاً حول معسكره وبدأ يحاصر ابن رستم، واستمر يحاصره فترة طويلة عجز خلالها عن الوصول إلى معقل خصمه. ولما طال الحصار ستم جنده البقاء لاسياً وقد تنشق وياه الطاعون بينهم، فاضطر ابن الأشعث إلى رفع الحصار والعودة إلى القيروان ثم أسس ابن رستم مدينة تاهرت واتخذها مركزاً للدولة، وذلك في سنة ١٤٤ هـ. وازدهرت تاهرت وأصبحت مركزاً للحجرات لما شاع من عدل ابن رستم في رعيته وحسن سيرته فيهم، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ومن ضاقت نفوسهم من عسف خلفاء بني العباس ولم يبايع ابن رستم بالإمامة الإباضية إلا في سنة ١٦٠ بعد أن رست قواعد دولته ورست دعاتها وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها.

ثم بدأت مرحلة الصراع بين العباسيين ممثلين في الأغلبية وبين الرستميين، فقد كان العباسيون يهدفون إلى القضاء على العنصرية في تلمسان والإباضية في تاهرت. ولم يكن لإباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم بعد استشهاده إمامهم أبي الخطاب في سنة ١٤٤، وإنما ظلوا يخوضون المعارك ضد العباسيين، متخذين من جبل نفوسة حصناً ومعقلاً يتحصنون فيه في ولاية الأغلب بن سالم تمكنت زمامة البربرية في تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبي قرعة بن دوناس الصفرى، وكان الأغلب يتولى الاشتباك مع هذه القبيلة، ولكنه في إحدى المعارك مع العرب أصيب بسهم أوداه قتيلاً في سنة ١٥٠. وخلفه عمر بن حفص المعروف بهزار مرد، وكان يهدف إلى تحصين طبة واتخاذها مركزاً لشن غاراته على الإباضية والصفرية، فأكاد يخرج إلى طبة في سنة ١٥٤، وتخلو أفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مسبق مع صفرية تلمسان وإباضية تاهرت وطرابلس. وهاجم البربر الجنيد بن بشار في القيروان، واجتمع الإباضية في

طرابلس وبايعوا أبا حاتم يعقوب الإباضى بالإمامة سنة ١٥٤ . فلما هوجم الجعيد ، استنجد بهزار مرد ، فأمدّه بعسكر لمواجهته الموقف . ولكن قوات الإباضية أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس ، فحاصروهم بها أبو حاتم ، وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية حتى قيل إن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشاً توجهت جميعاً إلى الزاب ، ولكن هزار مرد تمكن من فك الحصار عن نفسه عن طريق الرشوة بالمسال ، فراجع ابن رستم إلى تاهرت . أما الإباضية طرابلس ، فعلى الرغم من انتصارهم بقيادة أبي حاتم ، هزار مرد في القيروان ، فقد انتهى أمرهم بالهزيمة على أيدي قوات يزيد بن حاتم وذلك في جبال نفوسة سنة ١٥٠ ، وقتل أبو حاتم وصفوة قواده (١) .

أما ابن رستم فقد تفرغ الإصلاح الداخلى ، وبمرور الزمن استطاع أن يسير بدولته في طريق القوة والمثمة ، فهاهنا روح ابن حاتم الالى الدباس بأفريقية ، ورغب في موادعته ، فهاذنه في سنة ١٧١ هـ (٢) ، كما وادع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من بعده (٣) .

ولما قامت دولة الأغالبة ، كان من الطبيعي أن يمتدوا الرستميين خصوما لهم بحكم موالاة الأغالبة للعباسيين ، فبدأ أمراء الأغالبة ينازعون الرستميين أملاكهم بنفوسة ، فلما استعانت قبيلة هواة بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم في سنة ١٩٦ ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٤) ، لم

(١) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤١٥ .

(٤) في سنة ١٩٦ تارت قبائل هواة بجبل نفوسة على العباسيين وأعلنت استقلالها فاستنجد عاملها إبراهيم بن الأغلب ، فمير ابنه أبا العباس عبد الله على رأس جيش عدده =

يتردد في نهجتها، وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم، فتحصن عبد الله الأغلب داخل اسوار طرابلس، وعندئذ حاصره الرستميون، وكان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد أغلق أبواب المدينة ولم يترك منها مفتوحا سوى باب هواره لكي يخرج منه لقاتلة الرستميين (١). وواصل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حصاره لطرابلس إلى أن علم عبد الله الأغلب بوفاة أبيه إبراهيم في ٢٠ شوال سنة ١٩٦، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة قبل أن ينتصبها منه أحد أخوته، فاصطالح مع عبد الوهاب بن رستم على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغلبية بمدينة طرابلس والساحل (٢).

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغلبية، وكانت تاهرت قد ازدهرت في عهد أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠ هـ) وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله، إذ اجتذبت إليها التجار من على دولة الأغلبية من الجند وأهالي القهروان، وتضخم ملك الرستميين وتآلق نجمهم في سماء المغرب، وعندئذ همد أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ) إلى محاربة الرستميين، عن طريق إنشاء مدينة تجاور تاهرت وتنافسها. ففي سنة ٢٢٧ هـ، أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية. فسكت الإمام أفلح ولم يحاول أن يثنيه عن

= ١٣ ألب فارس، فانهزم المواديون، ودخل الأمير الأغلب طرابلس، وعندئذ استغاثت هواره بالإمام عبد الوهاب.

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٧٠ - الباروني، كتاب الأنهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية، ص ١٤٤.

(٢) ابن الأثير، ص ٢٧٠ - ابن حليدون، ج ٤ ص ٤٢١ - الأنهار الرياضية ص ١٤٥ - محمد بن ناويز الطنجي، دولة الرستميين، صحيفة الدهر المصيري، مدريد، المجلد الخامس، ١٩٥٧ ص ١١٦.

لإقامتها أو يعترض على تخطيطها ، إلى أن أتم أبو العباس بنائها ، ونظم أسواقها .
وعندئذ فقط تحرك أفلح ، فوثب عليها بجيوشه وأجلا سكانها عنها ثم أضرم
فيها النيران (١) . ومع ذلك فقد لزم أبو العباس الصمت ولم يعمل على محاربة
الرستميين لمعجزة ، وظل الأغالبة يكيدون للرستميين ويتربصون الفرص لضربهم
إلى أن تمكن إبراهيم بن أحمد الأغلب (٢٦١ — ٢٨٩) من إيقاع المزيعة بجيش
الرستميين بقيادة أفلح بن العباس في راقعة قصر مانو سنة ٢٨٣ هـ ، وفي هذه
الموقعة استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتي
الأغالبة والرستميين على أيدي الشيعة الإسماعيلية .

وكان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة بأئمة الرستميين في
تاهرت ، وتقوم بينهم محلات ودية (٢) لمعامل مشترك هو أن العباسيين كانوا
يمادون الأمويين في الأندلس والرستميين الإباضية . كما كان من الطبيعي أن
يتحالف ثوار الأندلس مع الأغالبة التابعين للعباسيين ، ويستمر الحال على
ذلك إلى أن تقوم الدولة الفاطمية وتقضى على الدولتين الأغلبية والرستمية
وتطيح بنفوذ العباسيين نهائيا من بلاد المغرب .

(١) بن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٩ .

(٢) كان أبو اليخطل محمد بن أفلح الرستمي لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومضلاته ،
الا عن رأى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمير قرطبة (ابن عذاري ج ٢ ص ١٦١
— ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، تحقيق لينى بروفنسال ، ص ٢٤) .

(٣)

سياسة العباسيين مع الترك والهنود والصينيين

أ - مع الترك . كانت سياسة الدولة العباسية نحو جيرانها من الترك سياسة سلمية ، وقد آثر العباسيون السلم في هذه النواحي الشرقية لأنهم وجدوا من جيرانهم الترك تقبلا للدعوة الإسلامية ، وتهاافتا على اعتناق الإسلام ، ودور العباسيين في انتشار الإسلام ولو سلميا لا يقل عن دور الأمويين . وقد صحب قيام الدولة العباسية ظهور أطماع صينية سافرة في الأقاليم الشرقية الواقعة على أطراف لإقليم ما وراء النهر ، وهذه الأطماع لم تكن سياسة على أى حال وإنما كان الهدف منها السيطرة على طرق القوافل التي تمر بها متاجر الشرق الأقصى إلى بلاد ما وراء النهر والشرق الأدنى الإسلامى وأوروبا .

وتتمثل الأطماع الصينية في قيام الصينيين بغزو أطراف بلاد ما وراء النهر ومهاجمتهم لإقليم الشاش ، ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ١٣٣ هـ أن إخشيد فرغانة نازع ملك الشاش ، فاستمد إخشيد ملك الصين فأمدّه بمائة ألف مقاتل ، وحاصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين ، وعندئذ سار أبو مسلم الحراساني لمحاربتهم فقائد زياد بن صالح في جيش من المسلمين ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وأرغموهم على الانسحاب إلى الصين (١) .

وفي سنة ١٣٤ غزا أبو داود خالدين إبراهيم أهل كش فقتل ملكهم واستولى منهم على عدد من « الأواني الصينية المنقوشة المذهبة مالم يرمثلها ، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئا كثيرا (٢) » . ولكن هذين النصيرين

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

لم يضعوا حدا لاطماع الصين ، فقد عاودوا الظهور ، وقاموا بمحاولة جديدة لإثارة الحسكام الوطنيين في بلاد الترك على العرب ، ولكن هذه المحاولة بامت بالفشل ، ونتج عن ذلك أن الصين خرجت من ميدان المعركة بين العرب وبين الترك في شرق بلاد ما وراء النهر . وأصبح لزاما على هذه الشعوب التركية أن تعتمد على نفسها في مواجهة العرب ، واستطاع العرب — بعد أن تفرقت وسدة الترك وأصبحوا لا يشكلون خطرا على إقليم ما وراء النهر — أن يوقنوا عدوان الأتراك الشرقيين ويقضوا في آن واحد على الخطر الصيقي (١) .

ثم تأتى مرحلة الفتح المعنوى عن طريق نشر الإسلام والثقافة بين الأتراك وعدم اللجوء إلى السيف إلا عند الضرورة وفي الأوقات التي يلوح فيها عدوان على أراضى المسلمين أو تقوم خلالها فتن وثورات ، (٢) وقد كان لتمكين نفوذ العباسيين السياسى في بلاد ما وراء النهر أثره الكبير في سلامة الأمن التي سادت هذه المناطق مما أتاح الفرصة وساعد بطريق غير مباشرة على امتداد الإسلام وانتشاره ، وواصل العباسيون سياسة دعم هذا الاستقرار السياسى عن طريق اصطناع العنصر التركي في الجيش وفي الإدارات ، فأنشأ الفضل بن يحيى البرمكى

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامى في العصر العباسى ، ص ١٧١ .

(٢) في أيام المنصور حارب العرب أمير فرغانة وأرغموه على طلب المذبح ودفع الجزية . وفى أيام المهدي أخضع العباسيون لإخشيد الصفد وصاحب أشروسنة ومالك فرغانة وحسكام الغرلوخ وخاقان الأغوز ، وتنازل العباسيون حتى أخضعوا ملك اللبت . وفى عهد الرشيد بوغل العرب في مناطق لم يكونوا قد طردوها من قبل ومددوا نفوذهم إلى أشروسنة وقلب آسيا الوسطى ، فنهضت لهم هذه البلاد ، ونالت مهاراتهم إلى بلاط المأمون لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وهكذا وصل نفوذ العرب حتى أسوار الصين . (راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٩١ - حسن محمود ، العالم الإسلامى في العصر العباسى ، ص ١٧٧) .

فرقة تركية فى خراسان بلغ عددها نحو ٥٠ ألف مقاتل ، سير منهم إلى بغداد
٢٠ ألفا عرفوا باسم الفرقة العباسية ، كما اشترك فى قوات على بن عيسى رجال
من الصفد والحوارزمية .

وفى عصر المأمون دخل كثير من زعماء الأتراك فى خدمة الخليفة ، وأصبح
بلاطه ينص بزعمائهم ، كما اشترك عدد من فرسان الأتراك فى الحرس الخلفى ،
وظلت هذه السياسة قائمة إلى أن اعتلى المعتصم دست الخلافة فاستكثر منهم
بحيث أصبح العنصر التركى فى خلافته دعائم الخلافة ، وقد ساعد ذلك على تقوية
حركة نشر الإسلام فى المناطق المتاخمة لإقليم ما وراء النهر ؛ ومن الملاحظ أن
الوثنية لا تقوى أمام الأديان السماوية ، ولذلك لم يكن غريبا أن ينتشر الإسلام
فى بلاد ما وراء النهر بمثل هذه القوة بحيث تغلب على هذا الإقليم بأكمله ، بل
تجاوزته إلى ما وراء سيمعون وجيحون والبقاع المتاخمة ، وسار التجار بقوافلهم
وتجاراتهم إلى الصين ، فنشروا معهم الدين الإسلامى ، ولهذا السبب عقدت
علاقات سلمية بين الصين والترك وبين الخلافة العباسية ، ويقال إن المنصور عقد
صلحا مع أمباطور الصين .

ولم يكن الدافع لنشر الإسلام الدين لذاته ، وإنما كان الدافع الحقيقى
اكتساب قلوب الترك ، فإن اكتساب القلوب كان فى كل عصر أجدى من اتخاذ
الحصون ؛ شجعنها بالحاميات والرجوع إلى السيف . ولقد جرى الخليفة تان
المأمون والمعتصم على هذه السياسة ، فكانا يرسلان إلى هذه النواحي رسلهم
تعرض الإسلام على قادة الترك وعلى أبناء ملوكهم ، كما كانت تعرض عليهم
الدخول فى الجندية والنزوح إلى أرض الإسلام ، فدخل فى الإسلام وقتشد
خلق كثير .

وهناك دافع آخر دعا المأمون ومن بعده المتعمم إلى الاستكثار من العنصر التركي في الجيش، هو الحد من نفوذ العرب والفرس في آن واحد وإيجاد نوع من التوازن بين القوتين وذلك باستخدام العنصر التركي .

ب - مع الهندود : استطاع الآمويون فتح بلاد السند على أيام الوليد بن عبد الملك بفضل الجهود التي بذلها محمد بن القاسم الثقفي ، ولكن تقلص ملك المسلمين في السند في عصر هشام وارتد عدد كبير من الهندود إلى الهندوكية ، وأدرك الآمويون (قرب نهاية دولتهم) أن تمكين الفتح العربي للسند لا يمكن أن يتم بدون إنشاء قواعد عربية ، فاضطروا لذلك إلى تأسيس مدينتي المحفظة الواقعة بالقرب من شاطئ السند غير بعيد من برهنا باد والمنصورة التي تقع في الأخرى بالقرب من المحفظة (١) ، وبفضل هذين المصيرين استقرت الأمور نوعاً ما ورضى القوم بحكم العرب (٢) . وفي العصر العباسي ، احتل العباسيون بإمارة قنوج وأحضرزوا بعض الانتصارات ، ويشهد البلاذري إلى أنه في عهد المنصور قام القائد هشام بن عمرو التغلبي بفتح ما استقل من السند وتمكن عمرو بن جمل من استرجاع قشمير (٣) ، وفتح الملتان والقندهار في السفن ، وهدم البد وبني في موضع مسجد .

وفي عهد المهدي غزا المسلمون بلاد الهند سنة ١٥٩ ، وحاصروا مدينة باربد بالجنين وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار في اليد ، وكان قد احتل

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ٦٢٧ - ٦٣٢ .

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٤٣ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٩٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

فيه بعض الأهالي فاحترق بعضهم وقتل الباقون . ولكن المسلمين أصيبوا بوباء خطير فأت منهم نحو ألف رجل منهم الربيع بن صبيح ، ثم رجع المسلمون بحرا إلى ساحل فارس ، فلما بلغوا ساحلا يقال له بحر حران عصفت بهم الرياح ففجطت معظم سفنهم وغرق بعضهم ونجا البعض (١) .

وفي عصر المأمون والمعتصم تابع المسلمون توسعهم شرقا ، فانتشر الإسلام في المناطق الواقعة بين كابل وقشمير والمثلثان ، وأسس المسلمون في ولاية همران بن موسى مدينة البيضاء في عهد المعتصم وشحنوها بالجنود . وفتح همران مدينة قنڊاهل ، وغزا الهند .

ج - مع الصينيين : العلاقات بين الصين والمسلمين علاقات قديمة بدأت منذ العصر الأموي ، ومن المعروف أن الإسلام دخل إلى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحري الذي كانت تسلكه السفن التجارية (٢) . وبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبله فرصة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومبسط والبحرين وهرمز بخليج فارس (٣) ، ثم ترسو السفن في ملابار وسيلان ومأبد وسومطرة وجارة وتنسج كنسج (تنكين) . وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب كانتون التي كانت تعرف في المصادر العربية باسم خانفو أعظم مراكز التجارة في الهند الصينية (٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦ .

(٢) زكي محمد حسن ، الصين وثقوب الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٩ .

(٣) بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٩ .

(٤) جورج فاضلو حوراني ، العرب والإسلام في المحيط الهندي ، ص ٢١٦ - محمد

محمد زرينكون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة انشأ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥ .

وقد تزايد اهتمام العباسيين بالشرق الأقصى والصين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، ويعبر عن هذا الاهتمام مكتبة جغرافية غنية بوصف الممالك والحديث عن السفن والمتاجر ، سجلها سجيل أول من الرحالة المسلمين نذكر منهم سلام الترجمان الذي قام برحلة إلى سور الصين الشمالي ، وابن وهب القرشي الذي ركب البحر من البصرة إلى سيراف ، وابتزاز بمالك الهند حتى بلغ مشارق الصين ثم انتهى إلى ميناء خانفو والتقى بمقابلة ملك الصين ، فأكرمه مدة إقامته في الصين وناقشه في الدين والسياسة ، وعرض عليه حضور بعض الأنبياء كانت تحتل قصوره ، ثم عاد ابن وهب القرشي إلى العراق (١) . وقد كانت هذه الرحلات الناجحة مقدمة لرحلات أخرى كثيرة إلى الهند والصين منها رحلة سليمان السيرافي التي ذيل عليها أبو زيد حسن السيرافي في القرن الرابع الهجري . وتستدل من أقوال الرحالة سليمان السيرافي على وجود جماليات إسلامية بالصين كانت تتمتع في زمانه بامتيازات خاصة (٢) . ومما قلّم هذه الجماليات من التجار الذين كانوا يحملون من الصين المسك والكافور والنفخار والدار صيني (٣) ، ومن ملبار كانوا يأتون بخشب الساج الذي كان يستخدم في عمارة الدور وفي صناعة السفن . وقد أعجب المسلمون بالتمهف الفنية للصينية كالتصاوير الدقيقة التي تمثل الواقعة (٤) والخزف الصيني المذهب (٥) الذي

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦١ .

Sauvaget, Relation de la Chine et de l'Inde, Paris, 1948 (٢)

(٣) ابن خردادبه ، للمالك والمالك ، لندن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ — ابن الفقيه المذاني ، ص ٢٧٠ .

(٤) للمسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٥ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

قاده المسلمون في بغداد والفسطاط والرى ، ولا سيما فى مصر فى العصر الفاطمى ، فقد حاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من أتلاميذه أن يصنعوا نوعا من الخزاف ذى الزخارف المحفورة تحت الدهان، وكانوا يقلدون به خزف سونج الصين (١) .

ثانيا

سياسة الدولة العباسية مع البيزنطيين والفرنجة

(١)

مع البيزنطيين

ورث العباسيون فى جملة ما ورثوه من الأمويين الجهاد التقليدى ضد بيزنطة بحكم الحدود المشتركة (٢) ، ولكن صراع العباسيين مع البيزنطيين اتسم بسمات دينية فحسب فكان هدفهم المباشرة والجهاد فى حين كان الأمويون يتطلعون إلى قهر القسطنطينية والسيطرة على البحر المتوسط الشرقى . وعلى هذا الأساس أصبحت الحرب بين العرب والبيزنطيين فى العصر العباسى لا تعدو تبادل النار و ما يصحب ذلك من تدمير وتخريب وقتل ومضى ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى قلة اهتمام البيزنطيين بالبحرية من جهة ولتحول السياسة الإسلامية للعباسيين بعد قيام دولتهم إلى الشرق .

فى خلافة السفاح : وقد استغل البيزنطيون اشتغال العباسيين بتثبيت

(١) زكى حسن ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) عبد العزيز الدوى ، ص ٩١ .

فواعد دولتهم الجديدة زمن السفاح فهاجم الإمبراطور قسطنطين الخامس منطقة الثغور الجزرية ودمر تحصينات الفرات بما في ذلك ملطية والحدث وفي هذه الغزوة يقول اليعقوبي : « وغزا بالناس في أيامه - سنة ١٢٣ - أقبل طاغية الروم وهو قسطنطين . حتى أناخ على ملطية ، فحصرها ، فصولح عنها ، وزسنت إليه موسى بن كعب التميمي فلم يكن بينهما لقاء . وكتب أبو العباس (السفاح) إلى عبد الله بن علي يعلمه أن العدو قد كلب بالنزلة عنه ، وأمره أن ينفذ بالجيوش التي معه ، فيبث جيوشه في نواحي الثغور ، وزحف حتى قطع العرب ، ولم يزل يهجم حتى أتاه خبر وفاة أبي العباس ، فانصرف ، (١) . وذكر البلاذري هذه الغزوة فقال : « لما كانت سنة ثلاث وثلاثين ومئة أقبل قسطنطين الطاغية حامداً لملطية ، وكخ يومئذ في أيدي المسلمين ، وعليها رجل من بني سليم . فبث أهل كخ الصريح إلى أهل ملطية ، فخرج إلى الروم منهم ثمان مئة فارس ، فواقمتهم خيل الروم فهزمتهم ، ومال الرومي (يقصد قسطنطين) فأناخ على ملطية فحصر من فيها ، والجزيرة يومئذ مقنونة وعاملها موسى بن كعب ببحران . فوجهوا رسولا لهم إليه ، فلم يمكنه إغاثتهم . وبلغ قسطنطين ذلك فقال لهم : يا أهل ملطية ، إني لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم . انزلوا على الأمان واختلوا المدينة وأخربها وأمضى منكم . فأبوا ، فوضع عليها المجانيق . فلما جهدهم البلاء واشتد عليهم الحصار ، وسألوه أن يوثق لهم ، ففعل . ثم استدعوا للرحلة وحملوا ما استدق لهم ، وألقوا كثيراً مما ثقل عليهم في الآبار والخنادق ، ثم خرجوا وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا فيها ، وهدم الروم ملطية ، فلم يبقوا منها إلا هرباً ، فإنهم شعثوا منه

شيئا يسيرا ، وهدموا حصن قلوذية ، (١) .

في خلافة المنصور : فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة عمل على تحصين مناطق الثغور الجزرية والشامية وشجعها بالمرابطة ؛ ففي سنة ١٣٩ كتب المنصور إلى صالح بن علي العباسي يأمره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى المنصور أن يحمل هذه المنطقة الثغرية كيأنا إداريا قائما بذاته ، ومنطلقا لغزو الروم ، فولى على الجزيرة وثنورها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، كما أمر في نفس سنة ١٣٩ بمعمران حصن المصيصة وكان قد قل سكانها وتقرب سورها ، فوجه صالح بن علي إليها جبريل بن يحيى البجلي فأسكنها أهلها وبني سورها في سنة ١٤٠ هـ (٢) وسماها المعمورة ، وبني فيها مسجدا جامعيا في موضع هيك كان بها (٣) ، وفرض المنصور فيها آلاف رجل ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأتباط نصارى كان قد أسكنهم مروان بن محمد .

أما ملطية فقد توجه إليها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطبة في جنود خراسان ، فاستدعى جند الشام والجزيرة ، فتوافى معه سبعون ألفا ، عسكر بهم على ملطية ، ثم جمع الغلة من كل بلد ، فأخذ في بنائها . وكان الحسن يطعم الناس من ماله ، ويحمل الحجر بنقسه ويناوله للبناء طلبا لثواب الله . وجد الناس في العمل حتى انتهوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ، وبني للجند الذين سكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقها واصطبل ، والعرافة عشرة نفر إلى نخة عشر رجلا ، وبني لها مسلحة على بعد ثلاثين ميلا

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

منا ومسلحة على نهر قباقيب الذى يصب فى الفرات . ثم أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم ، ووضع فيها شحنتها من السلاح ، وأقطع الجند المزارع ، كذلك بنى حصن قلوذية . وفى سنة ١٤١ أقبل إليها محمد بن إبراهيم فى جند من أهل خراسان ، فربط بها حتى لا يطمع فيها البيزنطيون ، ولهذا السبب اجتذبت المدينة عددا من السكان المدنيين ، ورجع إليها من كان باقيا من أهلها (١) .

وفى سنة ١٤٢ ، بنيت مدينة أذنة وعسكر عليها جند من الحراسانيين مع مسلم بن يحيى البجلي ، وجند من الشاميين مع مالك بن أدهم الباهلي ، وجههما صالح بن علي العباسي لهذا الغرض (٢) . كذلك أتم صالح بن علي بترميم حصن مرعش بعد أن خربته القوات البيزنطية إبان الفتنة التى قامت زمن هروان بن محمد ، وحصن صالح بن علي هذا الحصن وندب الناس إليه على زيادة العطاء .

وهكذا نظم صالح بن علي بتوجيه من المنصور مناطق الثغور وحصنها وحدد أسلوب القتال وتقاليده من صوائف وشواتى ، ووضع بذلك حدا لمطامع قسطنطين الخامس . وظهور فى أيامه قائد من قواد العرب العظام هو مالك بن عبد الخشمى ، غزا بلاد البيزنطيين فى سنة ١٤٦ وغنم غنائم كثيرة وأبلى بلاء حسنا فسمى لذلك بمالك الصوائف (٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

(٢) البلاذرى ج ١ ص ١٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٢٧ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٢٦ .

في خلافة المهدي : وتابع المهدي نفس سياسة أبيه من حيث الاستقام
ببناء الحصون الثغرية وشحنها بالاجناد ، فحصن طرسوس وشحنها بالمقاتلة
وكانت خرابا وأمر الحسن بن قحطبة ببناها ، كما أمره ببناء حصن الحدث ،
فبدأ بالحدث وانتهى بطرسوس (١) . وفرض المهدي بالمصيصة لآلف رجل ،
وكانت الطوالع تأتيها من أنطاكية كل عام إلى أن وليها سالم البرلسي (٢) .

وفي عهد المهدي ، سار الإمبراطور ليو الرابع المعروف بالخرزي
(٧٧٥ — ٧٨٠) حملة ضد سميساط في سنة ١٥٩ (٧٧٦ م) ، فرد عليه
المهدي بحملة قوية بقيادة العباس بن محمد بلغت أنقرة (٣) . ولكن البيزنطيين
خرجوا في عام ١٦١ بقيادة ميخائيل (لعله ميشيل العموري قبل أن يرتقى
العرش) من درب الحدث في ثمانين ألفا ، فأتى حمق مرعش فقتل وسبى من
المسلمين عددا كبيرا وأحرق ما قابله من همران ، وما زال يعمق في الغزو حتى
وصل إلى مدينة مرعش ، وبها عيسى بن علي وكان قد غزا في تلك السنة ،
فحاصر ميشيل مرعش ، وعندئذ خرج إليه موالى عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم
فرشقوه بالنبال والسهم ، فتظاهر بالانسحاب ، ثم كر عليهم فقتل من موالى
عيسى ثمانية نفر وائة صدم الباقون بالمدينة ، فحاصروهم بها ، ثم رفع الحصار
ومضى إلى جيمحان . وبلغ الخبر ثمانية بن الوليد العيسى وهو مقيم بدابق ، وكان
قد تولى قيادة الصائفة سنة ١٦١ ، فوجه إلى ميشيل خيلا كثيرة ، فأصيب
البيزنطيون إلا من نجى منهم (٤) .

(١) البلاذري ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١ .

(٤) البلاذري ، ص ٢٢٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٥٠ .

وأغار البيزنطيون على حصن الحدث في العام التالي فهدموا صوره (١) ، وكان الخليفة قد وجه الحسن بن قنطية بالصانعة لمساح في بلاد الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى إنهم صوروه في كنائسهم وسموه للثنين ، ومرت الحسن في غزوته عبر درب الحدث ، فشاهدها خربة ، فحدث المهدي في بنائها وبناء طرسوس وذلك عقب عودته من الغزو ، فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث ، فأعيد بناؤها سنة ١٦٩ وسميت المحمدية أو المهدية ، وفرض على بن سليمان لمدينة الحدث لأربعه آلاف فأسكنهم فيها وتقل إليها إلى رجل من ملطية وشه شاط وكيسوم ودلوك وريهان ، ولسكن الحدث لم تلبث أن تلت وتشتت بنيانها ولم يتم ترميمها وتحصينها إلا في زمن الرشيد (٢) .

وفي سنة ١٦٣ تجهز المهدي لغزو بلاد البيزنطيين ، فخرج إلى رأس جيش كثيف ، واستمع مع ابنه هارون ، ثم عبر الفراه إلى حلب ، ومن هناك همد إلى ابنه هارون بمواصلة الغزو ، وسير معه بمحبته يحيى بن موسى وهب الملك ابن صالح والربيع الحاجب والحسن بن قنطية والحسن وسليمان ابنا برمك ويحيى ابن خالد بن برمك ، وخرج المهدي مع الحملة مودعا لابنه هارون حتى قطع الدرب وبلغ جيحان وارتاد بها المدينة المسماة المهدية ، وهكذا ودع هارون عند نهر جيحان وعاد إلى حلب ، أما هارون فقد تابع حملته حتى نزل على حصن سمالي فحاصره ٣٨ يوما ونصب عليه المجانيق وفتحه بالأمان (٣) ، كما فتح قنقرا أخرى كثيرة . وفي العام التالي أغزى المهدي عبد الملك بن هبند الحميد بن

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٨ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٢ — الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٥ — ابن الأثير ،

عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحادث ، فتهدى له ميخائيل البريق وطا زاد الأرمني البطريق في نحو من تسعين ألف مقاتل ، فدب الرعب في قلب عبد الكبير ، وخاف أن يشترك مع البيزنطيين ، ففتح الناس من القتال ، وعاد بهم فأراد المهدى قتله ، فشفع فيه ، فاكتمى بحبسه في المعتاق (١) .

وعزم المهدى في العام التالي (١٦٥ هـ) أن يسير أبنته هارون إلى بلاد الروم كرد فعل لتراجع عبد الكبير . ففى هذه السنة ، وجه المهدى السفاعة يوم ١١ من جمادى الآخرة بقيادة هارون لغزو بلاد الروم ، وحمل إليه الربيع مولاة ، فتوغل هارون في بلاد الروم ، فافتتح مابدة وآمدى له البيزنطيون بقيادة نيقطا Nicola قومن القوامسة ، فبارزه يزيد بن مريد الشيباني فأنهزم بالجراح ، والهزم البيزنطيون ؛ وواصل هارون تروسه في قلب آسيا الصغرى متجهاً إلى القمودية (نيقوميديا) ليحارب الدمشقي صاحب المصالح ، وكانت عدة جيش هارون ٩٥٧٩٢ مقاتلاً ، ومازال يحد في زحفه حتى خليج القسطنطينية ، وكان لإمبراطور بزنطة في ذلك الوقت أيرين أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها قسطنطين السادس . ويحبر الطبرى عن ذلك بقوله : دسنى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ أغسطس امرأة أليون ، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو فى حجرها ، (٢) . وشاف أيرين أن ينجح المسلمون فى التغلب على القسطنطينية العظمى ، وآثرت أن تشتري سلم المسلمين بالجزية ، فجرت بينهما وبين هارون الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة ودفع

(١) البلاذرى ، ص ٣٤٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٢) ويرجع الطبرى تاريخ هذه الغزوة إلى سنة ١٦٤ خطاً ، فى حين يعمده البلاذرى بسنة ١٦٥ (انظر اليطوسى ، ج ٢ ص ٣٩٦ — البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٩) وقارن ذلك بما أورده كل من الطبرى ، ج ٩ ص ٣٤٧ — ابن الأثير ج ٦ ص ٦٦) .

الجزية، فقبل هارون ذلك منها، واشترط عليها والوفاء بما أعطت له وأن تقيم له
الآداء والاسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين،
فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون
ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران، فقبل ذلك منها،
فأقامت له في الاسواق في منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدي
بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب
الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الاسارى، (١).

وفي هذه الغزوة الموقعة يقول الشاعر مروان بن أبي صفصة:

أطفت بقمصطنطينية الروم مسندا . . إلهما القناحق اكتسى الذل سورها
ومارستها حتى أنتك ملوكها . . يهزيتها والحرب تغلى قدورها (٢).

في خلافة الرشيد: وهكذا أثبت هارون الرشيد أنه لم يكن الخليفة اللاهى
العابث كما تصوره القمص والروايات، وإنما أوتى من بعد النظر واتساع الأفق
وحسن القيادة ما جعله يظفر بما ظفر به من انتصارات، وإليه يرجع الفضل
الاعظم في تحصين منطقة الثغور وإنهاء منطقة العواصم في أول خلافته،
والعواصم منطقة ثغرية جديدة تضم قسما من أرض فسرين والجزيرة، فصلها
عن الثغور جميعا وجعل قاعدتها منبج، ورتب لها جيشا ثابتا على طول
الحدود (٣). وفي سنة ١٧٠ أمر الرشيد هرثمة بن أعين قائد الصائفة لعام ١٧١
بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها، فعهد هرثمة إلى فرج بن سليم الخادم بعمارتها،
فلما أتم بناءها وتحصينها وبناء مسجدها نزلتها فرقة أولى خراسانية قوامها

(١) الطبري، ج ٩ ص ٣٤٧ — ابن الأثير، ج ٦ ص ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٨ .

ثلاثة آلاف رجل وقرعة ثانية تضم ألف رجل من أهل المصيصة وألفاً آخر من أهل أنطاكية ، زيد في عطائهم عشرة دنانير لكل منهم ، وأقطع أهل طرسوس الحطاط في شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (١) . كذلك أمر الرشيد في سنة ١٨٠ ببناء مدينة عين زربة وتحصينها ، وندب إليها ندية من أهل خراسان وغيرهم فأقطعهم منازلها (٢) ، كما أمر في سنة ١٨٤ ببناء الحارونية التي نسبت إليه فيلنك وشحنه بالمقاتلة ومن نرح إليها من المطوعة ، كما أمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب إليها المقاتلة (٣) .

ولم تلتطمع غزوات المسلمين عن بلاد البيزنطيين في عهد الرشيد ، وذلك بعد انتهاء فترة المدنة ، وأهم الغزوات التي قام بها المسلمون في هذه المرحلة غزوة قام بها الرشيد في سنة ١٨١ ، من نتائجها افتتاح حصن الصمصاف . وفي نفس السنة غزا عبد الملك بن صالح آسيا الكبرى ، فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة (٤) .

وفي سنة ١٨٢ (٧٩٧م) غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح بالصائفة ، فبلغ أفروس (٥) . وفي هذه السنة انقلبت الإمبراطورة أيرين على ولدها قسطنطين السادس وأمرت بالقهض عليه وسمل عينيه ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : « وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون ، وأقروا أمه

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) البلاذري ، ص ٢٠٢ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

(٤) ابن الأثير ، ص ١٥٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

ويفي ونلقب أغسطة، (١). وواجهت أيرين عند توليها العرش حشدا من الصعوبات وأهمها غزوات المسلمين في أراضيها بآسيا الصغرى، فاضطرت لكي تقفرغ لمشكلاتها الداخلية والخارجية الأخرى أن تعقد مع الرشيد معاهدة صالح مائة للمعاهدة الأولى مقابل جزية سنوية تدفعها. ولكن العسكريين في بيزنطة قاموا بحركة انقلاب ضد أيرين في أكتوبر سنة ٨٠٢ آخر سنة (١٨٦هـ)، فخلعواها واختاروا نقفور الأول القيم على الحزاة الإمبراطورية إمبراطورا (٢)، وشغل نقفور في طامه الأول ببعض المشاكل الداخلية، فاستغل المسلمون هذه الفرصة وزحف القاسم بن الرشيد - وكان أبوه قد هينه أمهرا للعواصم - في آسيا الصغرى وذلك في شعبان من سنة ١٨٧ هـ، فترك على حصن قرة Gorum، ومن هناك سير القائد العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث إلى حصن سنان فحاصره حتى جهد أهله، ولكن قلة المياه والافوات حملته على أن يقبل الانسحاب في مقابل أن يفرج البيزنطيون له عن ٣٢٠ أسيرا من المسلمين (٣). ولكن نقفور بعد أن ثبت أقدامه، واستوثق له البيزنطيون بالطاعة، كتب إلى الرشيد يتحداه، فقال: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد. فإن المصلحة التي كانت قبل أقامتكم مقام الرخ وأقامت

(١) نفس المصدر، ص ١٦١.

(٢) ومنذ أن تولى نقفور العرش نفس الهدنة وامتنع عن دفع الجزية التي كانت تدفعها أيرين، ويعبر الطبري عن ذلك بقوله: «وفي هذه السنة نقض صاحب الروم الصلح الذي كان جرى بين الذي قبله وبين المسلمين، ومنع ما كان ضمنه الملك لهم قبله. وكان سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم، وصاحبهم يومئذ، في... فبادت الروم هل ربي وخلعتها وملكت عليها نقفور. والروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان وأنه قبل الملك كان يل ديوان الحسراج، ثم مات ربي بعد خمسة أشهر من خلق الروم لإياها» الطبري، ج ١٠ ص ٩٢.

(٣) الطبري، ج ١٠ ص ٩١ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٤.

نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيةاً بحمل أهلها إليها، لكن ذلك ضمف النساء وحقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافقد نفسك بما يقع من المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك». فلما قرأ الرشيد الكتاب استنزه الغضب، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام (١)». ثم زحف على النور على رأس حشود كثيفة من الجند واقتحم منطقة العدو محتاحاً ما يقابله حتى نزل على باب هرقة، ففتح وغنم وخرب وحرق، وأرغم نقفور على طالب مراد عمته وسأله على جزية سنوية يؤديها للمسلمين، فأجابته إلى ذلك. وما كاد يصل الرشيد في منهرفه من الفزوة إلى الرقة حتى نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وهو يظن أن المسلمين لا يفترون في الشتاء، فلما علم الرشيد بذلك كراهما حتى أناخ بأرضه ولم يبرهما حتى بلغ ما أراد (٢). وفي العام التالي غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ودخل أرض الروم من درب الصفصاف، وفي هذه الفزوة قتل من البيزنطيين فيسما قيسل أربون ألفاً وسبعمائة (٣).

وفي سنة ١٨٩ (٨٠٥ م) تم أول فداء جرى بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي ببلدة اللامس الواقعة على بعد نحو ٣٥ ميلاً من طرسوس في

(١) نفس المصدر، ص ٩٢ — ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٥.

(٢) الطبري، ج ١ ص ٩٣، ابن الأثير، ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٥ — ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٠.

خلافة الرشيد ، وكان الإمبراطور البيزنطي وقتئذ هو نقفور بن استوراك (نقفور بن ستوراكيوس) . ومثل الدولة العباسية في الغداة أبو سليم فرج خادم الرشيد ، وسالم البرلسي مولى بى العباس في ثلاثين ألفاً من المرتزقة وحضره من أهل الثغور ومن الأمصار نحو خمسمائة ألف ، قدموا في العسدد والحيل والسلاح ، وملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وقدمت مراكب الروم الحربية تحمل أسرى المسلمين وبلغ عدد من فودى به من المسلمين خلال ٢٢ يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير^(١) ، ولم يبق في بلاد يزنطة أسير مسلم إلا وفودى به .

ويبدو أن نقفور نكث عهده من جديد فامتنع عن دفع الجزية ، وسأل أن يستعرض قوته ، فخرج إلى عين زربة وكثيرة للسوداء فأغار بقواته هناك وخرب عين زربة ، ولكن حامية المصينة هاجموا قواته واسترجعوا معظم ما ظفر به من غنائم وأسرى وأسلاب^(٢) ، فوجه القاسم بن الرشيد وهو مقيم بدايق من حصن عين زربة وزاد في شجنتها^(٣) وغضب الرشيد لهذا الاعتداء وعزم على تأديب نقفور ، فخرج في سنة ١٩٠ (٨٠٦ م) على رأس جيش ضخم مدته ١٢٥ ألف مرتزق سوى الاتباع والمطوعة ومن لاديوان له ، وافتتح هرقة في شوال وأخربها وسبى أهلها وذلك بعد شهر واحد من الحصار ، وبث السرايا والجيوش في داخل الأراضى البيزنطية ، فافتتح قائده شراجيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبسة ، وافتتح يزيد بن غنلد الصنف صاف

(١) المسعودى ، التنبية والإنراف ، بغداد ، ١٩٣٨ ، ص ١٦٠ ومايليها .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٨ - البلاذرى ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٠٢ .

وملقوية، ورحل الرشيد إلى الطروانة Tyana فسكر بها، لو رحل عنها بعد أن خلف عليها عقبة بن جعفر وأمره ببناء منزل بها (١). وأبدى نقفور عجزه عن مراجعة جيوش المسلمين لانشغاله بمحاربة البلغار واستعداده لملته التي خرج فيها إلى أدرنة (سنة ٨٠٧ م)، واضطر لذلك إلى طلب الصلح، وأرسل إلى الرشيد بالجزية وقدرها خمسون ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق (ستوراكيوس) دينارين، وأهدى إلى الخليفة مائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بربون واثني عشر بإزيا، وأربعة من كلاب الصيد، وثلاثة براذين، وعقدت معاهدة الصلح اشترط فيها نقفور على الخليفة ألا يخرب حصون ذي الكلاع وسملة وسان فيميدما إلى بزنطة سالمة، كما اشترط عليه الرشيد ألا يمر هرقة وعلى أن يحمل نقفور إليه ٣٠٠ ألف دينار (٢).

وشغل الرشيد بخراسان، فالتهم نقفور هذه الفرصة ونقض معاهدة الصلح من جديد، فسهر الرشيد لنزو الصائفة لعام ١٩١ هـ قائده هرثمة بن أعين على رأس جيش يتألف من ثلاثين ألف محارب من جند خراسان، ثم مضى الرشيد إلى ضرب الحدث، فرتب عليه عبد الله بن مالك، وعهد بمرعش إلى سميد بن سالم ابن قتيبة. وحدث أن أغار البيزنطيون في هذه الآونة على مرعش، وأصابوا فيها عددا من المسلمين (٣).

(١) الطبري، ج ١٠ ص ٩٩.

(٢) أغاب الطان أن هذا المبلغ هو جلة المبالغ التي تأخر في سدادها منبذ أن اعتلى مرش الدولة البيزنطية.

(٣) الطبري، ج ١٠ ص ١٠٠.

وفي سنة ١٩٢ كان الفداء الثاني باللامس ، وكان القائم بالفداء من بجانب المسلمين ثابت بن نصر بن مالك الحزاعي أمير التنوير القامية ، وحضر الفداء مئات الألوف من الناس ، وفودى في هذا العام من المسلمين في سبعة أيام نحو ألفين وخمسمائة رجل وإمرأة (١) .

ثم توفي الرشيد في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٩٢ ، وشغل المسلمون عن غزو البيزنطيين بفتنة الأمين والمأمون ، كما شغل البيزنطيون عنهم بحرب البلغار ودمصرع نقفور الأول في ١٩٤ (٨١١ م) (٢) ، وتولى سثوراكيوس ثم ميشيل رانجاني صهره في نفس السنة ، ثم عزل هذا الأخير (في سنة ٨١٢) على يد ليون الأرميني الذي اعتلى العرش الإمبراطوري (في الفترة من ٨١٣ إلى ٨٢٠ م) .

في عصر المأمون : وتوقفت الأعمال الحربية والنارات الإسلامية في أراضي بزنطة إبان فتنة الأمين والمأمون ، إلى أن أحاد المأمون وحدة الدولة ، وبدأ يتفرغ لمواجهة البيزنطيين . وكان ميشول الثاني العدوي قد وثب بليون الأرميني وذبحه ذبحاً في سنة ٨٢٠ م وارتقى مكانه على العرش ، ولكن أحد زملائه في الجيش ويدهى توماس الصقلي ثار عليه في الفترة من ٨٢١ إلى ٨٢٣ م ، وتعتبر هذه الثورة من أهم الأحداث البارزة في تاريخ بزنطة في القرن التاسع الميلادي ، وكان توماس هذا قد اشترك في سنة ٨٠٣ في ثورة بردانيوس على نقفور

(١) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦١ — ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ؛
وقيل بالبدندون Pondendus وليس باللامس (الطبري ، ج ١٠ ص ١٠٩) .
(٢) محمد الطبري (ج ١٠ ص ١٣٨) وابن الأثير تاريخ الدولة الخطأ في سنة ١٩٢ هـ
(ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٢٦) .

الأول ، فلما فشلت هذه الثورة فر توماس إلى بغداد وأقام في حمى الخليفة إلى أن اعتلى المأمون الخلافة في سنة ٨١٢ (١٩٨ هـ) . فلما قتل ليو الأرمي في سنة ٨٢٠ ، استغل توماس الفرصة للقيام بثورته على ميشيل العموري مدفوعاً في ذلك بنبوءة بمقتضاها يرتقى إلى العرش الإمبراطوري ، فاستولى على بعض نواحي أرمينية وبلاد بنطس الشرقية ، واجتذبت حركته الجماهير البائسة من سكان آسيا الصغرى وذلك منذ أن نادى بأنه محرر الفقراء من الظلم . وانتهز المأمون هذه الفرصة فأمدّه بقوات إسلامية من عناصر مختلفة بعضها من العرب والبعض من الفرس والأرمن والكرج ، إذ كان يدرك أن بإمكانه اصطناع توماس والإفادة من ذلك ببعض المكاسب الاستراتيجية ، فلم يتردد المأمون في عقد حلف مع توماس تمهد فيه بأن يزوده بجيش قوى يمينه على محاربة ميشيل ، كما أمر المأمون بطريق أنطاكية - واسمه أيوب - بأن يتوج توماس إمبراطوراً . ولكن تأييد المأمون لتوماس مادياً وعسكرياً لم يلبث أن فتر بسبب انشغاله بثورة خطيرة هي ثورة الحرمية الباطنية ، ولذلك لم يكتب لثورة توماس أن تنقصر ، وفعلت مصرعه في سنة ٨٢٣ م . ثم شغل ميشيل بحادث آخر نفص عليه البقية الباقية من حياته ، وهو سقوط إقريطش في أيدي غزاة البحر الأندلسيين ، ونزول الأغالبة في صقلية وذلك في سنة ٨٢٦ م (٢١٢ هـ) .

فلما تولى تيوفيل بن ميشيل العرش (٨٢٩ - ٨٤٢) بعد أبيه ، رأى في ثورة الحرمية الباطنية سقفاً مسلطاً على الدولة العباسية ، ولم يكن قد لى بعد موقف المأمون من ثورة توماس الصقلي على أبيه ميشيل ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك الخرمي وفتح لهم أبواب بلاده في زمن المأمون ، وكان من الطبيعي أن يتحرك المأمون للرد على هذا العدوان ، ففي المحرم سنة ٢١٥ هـ (٨٢٠ م) غزا الصائفة بنفسه ، فسار إلى منبج ثم إلى دابق فأنطاكية ،

فالمصيصة فطر سوس ومنها تعمق في الاراضي البيزنطية ، كما دخل ابنه العباس
أراضي بزنطة من ملطية ، فأقام المأمون الحصار على حصن قره (١) حتى فتحه
عنوة وهدمه كما فتح حصن ماجدة بالأمان ، وسير أشناس القائد إلى حصن
سندس ففتحته وظفر بالقيم عليه ، ووجه هجيفاً وجمعفراً الحياط إلى حصن
سنان فأطاعها صاحب الحصن . ثم قفل المأمون عائداً من غروته إلى دمشق
ومنها إلى مصر (٢) عندما بلغه أن أهل البشروء الاقباط قد ثاروا ، وذكر
الطبري أنه اتى ابنه العباس ومعه منويز برأس العيين وذلك بعد أن عاد من
مصر ، والظاهر أن منويز هذا هو نفس مانويز البطارق الذي ذكره اليعقوبي
وأشار إلى أنه أحد قواد بزنطة الكبار ، فر هارباً من أنقرة ولاذ
بالمسلمين (٣) .

واستغل تيوفيل فرصة قفول المأمون من الصائفة وهاجم الثغور الشامية ،
فقتل من أهل طرسوس والمصيصة ألفاً وسبعمائة ، ولهذا السبب عاد المأمون
لغزو بلاد البيزنطيين في عام ٢١٦ هـ (شهر جمادى الأولى حتى منتصف شعبان) .
وذكروا أن سبب دخوله الأراضي البيزنطية إنما يرجع إلى أن تيوفيل كتب
إليه ياداً بنفسه (٤) ، فاستاء من ذلك وتوغل في أرض الروم حتى نزل على

(١) يذكر اليعقوبي أنه افتتح أنقرة نصفاً بالسيف ونصفاً بالصلح وأخربها وهرب
منها البطارق مانويز (اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٦٥) .

(٢) الطبري ، ج ١٥ ص ٢٨٠ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٤) ذكر اليعقوبي أن تيوفيل عاد إلى الكتابة إليه مقدماً اسم المأمون على اسمه .
وأنه أن يقبل منه مائة ألف دينار وسبعمائة ألف أسير مسلم بغير أن يدع البيزنطيين
ما افتتحه من مدن الروم وحصونهم ، ويكلف عنهم الحرب خمس سنين ، ولكن هذا العرض
لم يلق قبولاً من المأمون (اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٦٦) .

أنطيوخا فدخلها صاحبا ، ثم سار إلى هرقلية ، فخرج أهلها على صلح . ووجه
 أخاه المنتصم فافتتح ثلاثين حصنا ومعلمورة (منها ١٢ حصنا البقية مظاهر
 أى نقاط حصنة) ، كما وجه يحيى بن أكتم من طوالة فأغار على النواحي المجاورة
 وقتل وأحرق ما صادفه من عمران ، وقتل المأمون بعد ذلك إلى دمشق (١) .
 وفي العام التالي (٢١٧ هـ) عبر المأمون الدروب الثغرية إلى أراضى بزنطية ،
 فنزل على أوثة وحاصرها مائة يوم أقام خلالها حصنين أول فيها أخاه المنتصم ،
 ثم رحل عنها بعد أن ترك عليها عجيها بن عنبسة ومضى هو إلى قرية يقال لها
 سلفوس ، فكر أهل أوثة بهجيف ، فوقع في أيديهم وأسروه ، فكث في أيديهم
 شهرا ، وكتبوا تيوفيل فأقبل إليهم فهزمه المسلمون بالحصنين وظفروا بمسكرو
 فاحتوا على ما كان به ، فلما طال الحصار بأهل أوثة اتفقوا مع بهجيف أن
 يخلوا سبيله على أن يؤمن لهم أرواحهم فأطلقوه ، وافتتح المسلمون الحصن
 على الأمان (٢) . وفي هذه السنة كتب تيوفيل إلى المأمون بحاله الصلح ، وجاء من
 فقرات هذا الكتاب :

... وقد كنت كتب إليك داعيا إلى المصالحة راغبا في فضيلة المهادنة
 لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع
 اتصال المرافق والنسج في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ، فإن
 أبديت فلا أدب لك في الخمر ولا أخرف لك في القول ، فإن لحائض إليك
 غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، فإن خيلها ورجلها ، وإن أفعل فبعد أن

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٨١ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ ،

(٢) البيهقي ، ج ٢ ص ٤٦٧ - الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٨٢ - ابن الأثير ، ج ٦

قدمت المهدورة ، وأقت بيني وبينك علم الحجة والسلام . فرد عليه المأمون قائلا :

« أما بعد فقد بلغت كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوتك إليه من المودعة ، وخلطت فيه من الآمن والشدة بما استعطف به من شرح المتأجر واتصال المرافق وفك الأساوى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أهمال التؤدة والاختذ بالحظ في تغليب الفكرة . . . لجمت جواب كتابك شيلا تعمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ، ويتقربون إلى الله بدماكم ، ويستعملون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل لهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم أضلأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم ، موهدكم إحدى الحسينين . عاجل غلبة ، أوكريم منقلب . عهد أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي بثت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولن معك إلى الوجدانية والشرعية الحنيفية ، فإن أبيت فقدية توجب ذمة وتشتر نظرة ، وإن تركت ذلك ففي يقين المماينة لنموتنا ما ينفي عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى » (١).

وفي سنة ٨٢١٨ وجه المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم ، وأمره بنزول الطوانة وبنائها ، فابتدأ البناء على مسطح مساحته ميل في ميل ، وجعل لها أربعة أبواب ، وبني على كل باب منها حصنا ، ثم أمر بأن تسمى فرق استقدمت من أجناد دمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر والجزيرة (٢) .

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

وفى نفس هذا العام عزم المأمون على غزو بلاد الروم وضرب القسطنطينية نفسها ، ويذكر اليعقوبي أنه قال : « أوجه إلى العرب فألقى بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة أفتمتحتها حتى أضرب إلى القسطنطينية » (١) . فأتاه رسول من الإمبراطور تيوفيل يدعو إلى عقد الصلح والمهادنة ، فلم يقبل هذه الدعوة ، وواصل المأمون زحفه حتى قرب من حصن أولوة ، فأقام أياما ، ثم نزل على نهر يقال له البندندون يقع بين أولوة وطرسوس ، فاعتل هناك ، ثم توفي ، وحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس ، فدفنوا بدار خاقان مخادم الرشيد (٢) .

في خلافة المعتصم : شغل المعتصم منذ توليه الخلافة بحركة بابك وثورة الزط . وكانت الحركة البابكية قد استفحلت وأصبحت تشكل خطرا يهدد كيان الدولة العباسية ، فسخر المعتصم كل قواه العسكرية لضرب هذه الحركة وتوقف عن غزو بلاد الروم . فلما جرد المعتصم جيوشا ضخما بقيادة الألفهين وأيتاخ وجهنر الحياط للقضاء على بابك ، أرسل بابك إلى تيوفيل يحرضه على مهاجمة أراضى المسلمين مستمدا من ذلك أن يخفف الضغط عليه ، فاستجاب تيوفيل لدعائه وخرج سنة ٢٢٢ في جيش عدته أكثر من مائة ألف د منهم من الجنود ييف وسبعمون ألفا وبقيةتهم أتباع ، ومعهم من الحمرة الذين كانوا يخرجوا بالجمال ، فالتحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ذلك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصبيهم مقاتلة يستعين

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٩٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٣٢ .

بهم في أهم أموره إليه (١). وذكر المصمودي أنه اشترك في جيش تيوفيل
 وملك بربان والبرغر (البلاغار) والعتالبة، (٢)، وزحف تيوفيل بهذا الجيش
 المضخم إلى زبطرة قاعدة الثفور الجزوية، فافتتحها بالسيف وقتل الصغبي
 والكبير وسبي النساء والذراري، وأحرق المدينة ودمر هراتها، ومثل بمن ظفر
 به من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم (٣)، ثم أغار تيوفيل على
 المناطق المحيطة بها وعلى بلاد ملطية وحاصر شمشاط وأحرقها، فضج الناس
 في الأمصار، واستنابوا في المساجد والديار، ودخل إبراهيم بن المهدي على
 المتعصم فأثبته قائما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وحققنا ويحضنه على
 الانتصار ويحثه على الجهاد، فمنها :

يا غارة الله قد طابت فانتهمي . . . هتك النساء وما منهن يرتكب
 حب الرجال على أجرامها قتلت . . . ما بال أطفالها بالذبح تلتهم

فخرج المتعصم من فورهِ ناظرا، حليمة دراعة من الصوف بيضاء، وقد تعصم
 بمائة النزاة فمسكر في غرب دجلة، وذلك يوم الإثنين لليلتين خلتا من جمادى
 الأولى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونصبه الاعلام على الجسر، ونودي في
 الأمصار بالثفور والسيه مع أسير المؤمنين، فسارت إليه الساكرو المطوعة
 من سائر الإسلام، (٤). ويذكر ابن الأثير أنه بلغه أن امرأة هاشمية صاحبة
 وهي أسيرة في أيدي الروم : واستصاها . . . فأجابها وهو جالس على سريرهِ :

(١) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٣٣٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧٩ .

(٢) المصمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) البيهقي ، ج ٢ ص ٤٧٢ - الطبري ، ج ١٠ ص ٣٣٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧٩ .

(٤) المصمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

لبيك لبك ، ونهض من ساعته وصاح في قصره : انفضوا التفسير . . . (١) .
 وذكر اليماني أنه لما انتهى خبر ما اجترمه تيوفيل قام من مجلسه نافرا ، حتى
 جلس على الأرض وندب الناس للفرار (٢) . ثم خرج المعتصم في العدد والعدة
 بجيوشه لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم
 والبنال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ، ثم جعل على مقدمته أشناس
 وبله محمد بن إبراهيم وجعل على يمينه إيتاخ وعلى يساره جعفر بن دينار
 الحياط ، وعلى القاب جعفر بن عنبسة (٣) . وتحرك المعتصم من مدينة سامرا
 في ٦ جمادى الأولى سنة ٢٢٣ (أبريل ٨٢٨م) بجيش اختلوا في تقدير أعداد
 عسكريه بين مكر ومقل ، فالمكر يقول خمسمائة ألف والمقل يقول مائتي ألف .
 فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر اللامس وهو بسلوقة بالقرب من طرسوس ،
 وهناك أقام بعض الوقت وقسم الجيش إلى ثلاثة جيوش كل منها يسير من جهة
 معينة على أن تلتقي الجيوش عند أنقرة ، فأمر الأفشين أن يمضي إلى سروج عبر
 درب الحدث وسير أشناس عبر درب طرسوس وأمره أن ينتظره باصفصاف ،
 ثم قدم المعتصم وصيغا بعد رحيل أشناس . أما المعتصم فرحل بعد يومين من
 رحيل أشناس ، وكتب إلى أشناس يأمره أن يبعث فرقة من طلابه الجيش
 يلتمسون رجلا روميا لينفذ جوابه على خط سير الإمبراطور تيوفيل .

وفي هذه الأثناء اتبع الأفشين طريق ميواس بعد أن عبر الحدث من ناحية
 الأرمنيقي ، وعلم الإمبراطور بسيره ، فاستخلف ابن خاله على عسكريه لإغاثة

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٣٥ - المسعودي ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

زحف المعتصم ، ومضى هو بمعظم الجيش البيزنطى فى اتجاه الافشين . وكان
أشناس قد أسر عددا من عسكر الإمبراطور واسعة جوبهم ، فعرف منهم وجهة
الإمبراطور ، فسيرهم أشناس إلى المعتصم ، فكتب إلى الافشين يحذره من مسير
تيوفيل إليه وإمره بأن يتوقف عن الزحف ، ولكن الكتاب لم يصل إلى
الافشين الذى اشتبك مع تيوفيل بمعظم جيشه قرب دازيمون فى موقعة عنيفة
انكشف فيها تيوفيل ومن كان معه من المحمرة عن كان استأمن إليه من أذربيجان
والجبال (١) ، وانتهت برية ساحة الجيوش البيزنطية ، وانفتح على أثرها الطريق
أمام الافشين إلى أنقرة حيث يتم لقاء الجيوش الإسلامية . وأمام أنقرة اجتمعت
الجيوش الثلاثة فوحدها المعتصم جيشاً واحداً ، جعل أشناس على الميسرة
والافشين على الميمنة ، واحتفظ المعتصم بالقلب ، ثم انقسم كل من الميسرة والميمنة
والقلب إلى ساقتين مميّنة وميسرة فرعيتين .

وكانت أنقرة قد أخليت ، وأمر تيوفيل بتركيز الدفاع فى عمورية تحت قيادة
خاله ياطس Aetius ، أما هو فقد رحل إلى القسطنطينية ليتأهب للدفاع
عن عاصمته .

أما المسلمون فقد دخلوا أنقرة ، وأنزلوا بها الدمار والحراب ، ولما تم لهم
ذلك زحفوا بكل عيالهم وهدتهم نحو عمورية مسقط رأس الأسرة
الإمبراطورية الحسابة وعين النصرانية ، فحاصروها وقوى كل قائد

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٤٤ . وقيل فى هذه الموقعة أكثر بطارية
الإمبراطور وأعظم قواده . وذكروا أن تيوفيل أرسل بعد هزيمته رسالة إلى المعتصم
يتنذر فيها عن مذابح زهيرة ويؤكد أنها حدثت على غير رغبته ، وبعد بأن يقوم بسلام
وبإطلاق سراح من سبي من أهلها وإطلاق جميع الأسرى ، على أن يقدم الملع . ولكن
المعتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية (المسعودى ، ج ٢ ص ٤٧٦) .

منهم مسؤولية ما بين السبرجين إلى عشرين برجاً من أبراج أسوارها ، ودلهم رجل من المسلمين كان قد أسره أهل عمورية ونهصر وتزوج فيهم ، دلهم على ثغرة في سور المدينة قد بنيت على عجل بناء غير محكم ، فأمر المعتصم فنصب نخيجه في ذلك الموضع ، ونصب الخانيق هلى ذلك البناء ، فتفتح السور من موضع الثغرة ، وحارل أهل عمورية أن يسدوا الثغرات بقتل الحشب ، ولكن محاولاتهم أخفقت لكثرة ضربات البجانيق وتواليها ، فكتب ياطس إلى تيوفيل والقسطنطينية يبلغه بسقوط جزء من السور وأن عسكر المسلمين قد أحاطوا بالمدينة في جموع كثيفة ، وأنه أخطأ بدخول المدينة ، وأنه قد اهتزم على أن يفتح أبوابها ليلاً في غفلة من المسلمين ويخرج دفعة واحدة بقواته بجمعة حتى يتخلص من الحصار ، ولكن الكتاب وقع في يد المعتصم وأدرك نوايا ياطس ، فأمر عسكره بالتيقظ والحذر ، وركز المجهوم على موضع الثغرة ، فكثرت الجراحات في عسكر بنظمة ونفسي فيهم القتل ، وأيقن القائد واندو^(١) المدعول عن القطار المثلث من السور بميث المقاومة ، فعزم على التسليم^(٢) ، فدخل المسلمون المدينة في ١٣ أغسطس بعد أسبوعين من الحصار ، ووقع ياطس أسيراً ، وأقام المسلمون عليها أربعة أيام يدمون ويحرقون ويقتلون ، وتم قتل ٣٠ ألفاً من الحامية^(٣) البيزنطية ومعها ثلاثين ألفاً آخرين . ويذكر المسعودى أن المعتصم أراد السير إلى القسطنطينية والزول على خليجها والتحايل على فتحها براً وبحراً ، ولكن أثناء ما أزعجه ، ونهص عليه ودعاه إلى الدول عن خطته ، فقد بلغه أن

(١) يسميه المسعودى لاوى (ج ٣ ص ٤٧٢) .

(٢) راجع التفاصيل في الطبرى ، ج ١٠ ص ٤٤١ - ٤٤٣ ؛ ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٣ - قسطنطيني ، ص ٣١١ .

العباس بن المأمون تأمر على قتله وأن جماعة من الناس بايعوه ، وأنه كاتب تيوفيل (١) ثم قفل إلى طرسوس وقد هدم عمورية وعنى آثارها ، وأمر بأخذ باب حديدى ضخم من أبوابها ، فأحضره معه إلى بغداد ، ونصب على أحد أبواب قصر الخلافة وعرف بباب العامة (٢) .

وكان للهزائم المتواصلة التى منى بها البيزنطيون في عهد تيوفيل فى أنقرة وعمورية ، بالإضافة إلى سقوط جزيرتى إقریطش وصقلية فى أيدي المسلمين أثر كبير فى قهامة بإرسال ثلاثة وفود أو سفاراته : أحدها إلى لويس الثانى إمبراطور الفرنجة يلتمس منه أن يمينه بجيش لمهاجمة مصر والشام بهدف استنزاف قوة الخليفة العباسى ، والثانى برئاسة قراطيدوس الرومى أرسله إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس المناهض للعباسيين يستحثه على التعاون معه ضد الخليفة العباسى المعتصم والعمل على طرد جماعة الأندلسيين الذين استولوا على إقریطش . والثالث أرسله إلى الهندية فى سنة ٨٤٠ لإقامة حلف مع البنادقة ضد الأغالية الذين استولوا على صقلية . ولكن هذه السفارات لم تؤد إلى نتائج مثمرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا مدحه أبو تمام بتهديدته المبهمة التى قال فيها :

(١) نفس المصدر ، وذكر الطبرى أنه بلغه أن ملك الروم يرصد الخروج فى أنز . (ج ١٠ ص ٣٤٣) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ٢١٠ .

السيف أصدق أنباء من الكتب . . . في حده الحد بين الجهد والعب
والعلم في شهب الأرماع لامة . . . بين الخيدين لا في السبعة الشهب
يا يوم وقعة حمورية انصرفت . . . عنك المنى حفيلا معسولة الحلب
أبقيت جسد بني الإسلام في صعيد . . . والمشركين ودار الشرك في صهب

في خلافة الواصل : وفي عهد الواصل انصرف الخليفة عن الغزو في أراضي
بيزنطة بمهاكل داخلية عديدة ، كما شغل البيزنطيون عن الإغارة في أراضي
المسلمين بسبب وفاة تيوفيل وتولية ابنه الصغير ميشيل الثالث ، وانشغال
البيزنطيين في عهده بالفتن الدينية ، خاصة الفتن المعروفة بفتنة فوتيوس .

وقد تم الفداء الثالث في عهد الواصل ويعرف بفداء خاقان نسبة إلى خاقان
الحاكم التركي ، وحدث هذا الفداء في المحرم سنة ٢٣١ باللامس ، وكان عدد من
فودي من المسلمين في عشرة أيام ٤٣٦٢ أسدا وقيل ٤٠٤٧ (١) وقيل أكثر
من ذلك (٤٤٦٠) . وفي هذا الفداء أخرج أهل زبطارة ، كما فودي مسلم بن
أبي مسلم الحرسي وكانت له معرفة بأهل الروم ومساكنهم ، وله مصنفات في
أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومساكنهم
وأوقات الخز وإليها والنارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك . وحضر هذا
الفداء من قبل أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة رجل اسمه أحمد بن سعيد
ابن مسلم الهاشمي ، كان يتمتع الأسرى من المسلمين وقت المفاداة ، فن
قال منهم بخلفي القرآن ونفي الرؤية فودي به ، ومن أبي ترك بأرض الروم (٢) .

(١) المعودي ، الغني والإشراف ، ص ١٦٢ .

(٢) المعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

ويصف ابن الأثير عمليات الفداء ، فيقول : « اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهر ، وأنت الروم ومن معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين ، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيأمنان في وسط النهر ، ويأتى هذا إلى أصحابه ، فإذا وصل الأسير من المسلمين كبروا ، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا ، حتى فرغوا ، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربع مائة وستين نفساً ، والنساء والصبيان ثمان مائة ، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس ، وكان النهر غامرة تدبره الأسرى ، وقيل بل كان عليه جسر ، (١) .

ولما فرغ المسلمون من الفداء ، غزا أحمد بن سعيد بن مسلم — وكان الوائق قد عقد له على الثغور والعواصم — شاتيا فأصاب عسكره ثلاج ومطر ، فأت منهم مائتا شخص وأسروا ما يقرب من هذا العدد ، كما غرق بنهر البدندون عدد كبير ، وعندما تصدى له جماعة من الروم يقودهم بطريق من البطارقة أحجم عن اللقاء فحرقه عسكره ، وحشوه على مواجهة الروم ، ففعل وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ، وقفل عائداً ، فمزله الوائق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي (٢) .

(١) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٥ .

(٢)

مع شارلمان

تتفرّد المصادر اللاتينية (١) دون العربية والشرقية بالإشارة إلى قيام صلات دبلوماسية بين الدولة العباسية والدولة السكارولنجية في عصر كل من الرشيد وشارلمان ، وقد أدى أفراد هذه المصادر اللاتينية بالإشارات المذكورة - على اضطرابها وغموضها - إلى قيام خلاف كبير بين المؤرخين المحدثين بشأنها ، فح أن جميع هؤلاء المؤرخين يقررون صحتها - باستثناء بار توله - فإنهم يختلفون في تفسير نتائج هذه الصلات . وأما ما كان الأمر ، فلا بد قبل مناقشة الموضوع أن نذكر طبيعة هذه العلاقات وفقا لما روته المصادر اللاتينية .

تذكر المصادر اللاتينية أن شارلمان أرسل إلى الرشيد سفيرتين الأولى في سنة ٧٩٧ والثانية في سنة ٨٠٢ . أما الأولى فقد كانت تتألف من شخصيتين هما سيمون و لانتفريد ومن يهودى اسمه اسحاق مهمته تذهب في ترجمة ما كان يدور بين الخليفة هارون وبين السفهين . وقد أمضى السفهان ثلاث سنوات مائا خلالها بعد أن أجزا مهمتهما (٢) - ليحل أن هارون رد على

(١) هذه المصادر لا تعدو حكتابا منه Einhard من حياة شارلمان Vita Caroli Magni Imperatoris ، والأخبار الملكية الفرنجية Annales Regni Francorum وأخبار روايات الراهب سان كول القى كتب به وفاة شارلمان بنحو ثخين سنة ٨٠٢ في رواياته على اينهارد . ومعظم روايات سان كول أسطورية بينما يحيل اينهارد في كتاباته إلى افخيم سيده . أما الأخبار الملكية فقتضية لانه على تحديد طبيعة هذه الصلات .

(٢) كارلس ديفز ، شارلمان ، ص ٣٠٢ - مجيد خدورى ، الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان ، بغداد ، ١٩٣٩ ص ٢٥ - عبدالعزيز الدورى ، ص ١٥٠ .

هذه السفارة بسفارة إسلامية تتألف من مبعوثين أحدهما فارسي والثاني من افريقية يمثل الأغلبية ، وصلا في سنة ٨٠٢ م ولحق بها إسحق اليهودي الذي حل لشارلمان فيلا أهدها هارون الرشيد إليه (١) ؛ أما الثانية فقد أرسلها شارلمان إلى الرشيد في سنة ٨٠٢ ، وتشهر الأخبار الملكية إلى هذه السفارة دون أن تذكر أسماء السفراء ولا مهمتهم ، بينما يذكر إينهارد في كتابه عن حياة شارلمان أن سفراء الإمبراطور السكارولنجي حملوا معهم هبات للكنيسة القيامة وأنهم رحلوا بعد ذلك إلى الرشيد ، وعندما عرض السفراء عليه رغبات شارلمان أجابها دون تردد بل أوكل إلى شارلمان أمر حماية الأماكن المقدسة . وقد رد الرشيد على هذه السفارة بسفارة إسلامية وصات إلى بلاط شارلمان في سنة ٨٠٧ ، ويمثلها رسول من الخليفة اسمه عبد الله كان يحمل معه هدايا نفيسة لشارلمان منها صوان ملون بألوان متعددة وأواني نحاسية ككبيرة وقطع من النسيج الإسلامي الفاخر وعطورا وشمعدان وسرايق ، وأمنها ساعة مائية غريبة تدق الساعات ، وفي دائرتها ١٢ نافذة تخرج منها في الساعة الثانية عشرة فرسان تغلق بعد خروجهم ثم تفتح من جديد ليمودوا (٢) ، كذلك وعده الرشيد أن يحمل تحت سلطان شارلمان بيت المقدس والضريح المقدس .

وينكر بارتولم قيام أية صلات بين الرشيد وشارلمان استنادا على الحقائق الآتية (٣) :

(١) ظل هذا القيل خلال ٩ سنوات أروع ما كان يزود به مظمر الإمبراطور شارلمان الحرب ، وقد نفق في سنة ٨١٠ (ديقز ، ص ٢٠٣) .

(٢) ديقز ، ص ٢٠٣ - خدوري ، ص ٣٧ .

Bucklar, Harun al-Rashid and Charles the Great, (٢) Massachusetts, 1931 .

١ - لا يهمل أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق اليهودي أيضا أرسل سفراءه قبله دون أن يحملوا معهم أى هدية ، ولهذا يرجح أن إسحق المذكور لم يكن مترجما وإنما كان تاجرا .

٢ - سكوت المصادر العربية عن ذكر مثل هذه العلاقات يعنى نفيا قاطعا لقيامها .

٣ - أن العلاقات بين شارلمان والبيزنطيين كانت إبان السفارة الأولى (٧٩٧) حسنة ، ففى سنة ٧٩٨ أرسلت أيرين وفدا إلى شارلمان للمفاوضة فى عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج .

هلى أننا رغم صمت المصادر العربية عن ذكر أى إشارة لاية علاقات بين الدولة العباسية زمن هارون الرشيد والدولة الكارولنجية أيام شارلمان نميل إلى قيام مثل هذه الصلات . فالأوضاع السياسية فى العالم شرقه وغربه منذ قيام الدولة العباسية بخلافة السفاح فى سنة ٧٥٠ م والدولة الكارولنجية بتتويج بين القصر ملكا على دولة الفرنجة فى سنة ٧٥١ م حتم قيام أحلاف دولية بين الدولتين ضد الدولة الأموية فى الأندلس التى تعتبر فى نظر خلفاء بنى العباس غير شرعية والدولة البيزنطية التى أصبحت فى نظر الكنيسة بسبب سياسة أباطرتها اللايقونية خاصة فى عهد الإمبراطور الإيسورى قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) مما أدى إلى التجاء البسايروات إلى ملوك الفرنجة لمساعدتهم ضد هجمات اللومباردين ، وهكذا ساعدت الخصومات القائمة بين العباسيين والأمويين فى الأندلس من جهة وبين الفرنجة والأمويين من جهة ثانية وبين الفرنجة والبيزنطيين من جهة ثالثة وبين البيزنطيين والعباسيين من جهة رابعة ، على التقاء أهداف مشتركة بين الأطراف المتنازعة ، فبرزت تقارب مع قرطبة ، وبتداد تقاربت

مع آخن . وإذا كانت الصلات السياسية بين الدولة البيزنطية والاموية في الأندلس قد قامت متأخرة منذ سنة ٨٢٩ م ، فإن الصلات بين الدولة العباسية والفرنجة سبقتها بمهد طويل ؛ ففي سنة ٧٩٥ أوفد إيبين القصير (٧٤١ - ٧٦٨) سفارة إلى بلاط الخليفة أبي جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) طالت بعد ثلاث سنوات مصحوبة برسل من المنصور إلى إيبين ، يهملون إليه عددا من الهدايا (١) . ونعتقد أن الهدف من هذه السفارة هو تأكيد الصلور بالتقارب السياسي والاهداف المشتركة منذ أن أرسل المنصور إلى الأندلس القائد العلاء بن صفيث اليهصبي في سنة ٧٦٣ (١٤٦ هـ) لقلب الحكم الاموي بحكم اشتراكهما في العداء لبني أمية في الأندلس ، ثم توقفت هذه العلاقات الودية بعد وفاة إيبين القصير واستمرت رابدة حتى ظهور شارلمان ، والظاهر أن العلاقات الدبلوماسية شهدت بينه وبين المهدي العباسي (٧٥٥ - ٧٨٥) استنادا على المؤامرة الكبيرة التي تدخل بمقتضاها شارلمان حروبيا في الأندلس ، وإن كانت المصادر اللاتينية والمربية تلتزم الصمت عن تبادل السفارات في عهد هذين العاهلين ، فتدخل شارلمان لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن هناك اتفاق بينه وبين أصحاب المصلحة في هذا التدخل وأهق بهم العباسيين الذين - بحكم بعد الأندلس عن م - ول أهمهم - اعتمدوا على الثوار والمنزعين لتحقيق مآربهم ، بدليل أن أحد ولاء الثوار وهو الراحس الكفائي ، لجأ إل بنداد بعد فشل ثورته ، وأن - بان الاهرابي اتصل بشارلمان ليدعوه إلى دخول الأندلس .

وفي خلافة الرشيد توترت العلاقات بينه وبين إيرين ، في الوقت الذي

(١) ورد عل أبي جعفر المنصور بعد تأسيسه بنداد رسول من قبل الفرنجة يدعيه الطبري « بطريقا من بطارقة الروم » وقد أمر المنصور وزيره الربيع بن يونس بأن يطوف به بنداد (الطبري ، ج ٩ ص ٢٦٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤)

توثقت فيه الصلات بين شارلمان والبابوية وتدهورت بين البابوية وبين الدولة البيزنطية، وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على وجود تقارب واضح بين الرشيد وشارلمان. فالباها كان يرغب في توثيق صلاته بكنائس القدس وأنطاكية والإسكندرية، فشاركهم ضد حركة اللاأيقونية، وهذه المشاركة دفعته إلى مناصرة الفرنج ودعم نسيبتهم على الغرب المسيحي عن طريق تزويج شارلمان في سنة ٨٠٠ م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة، وقد أثار ذلك سخط بيزنطة لأن أباطرتها يعتبرون أنفسهم أحق من الكارولنجيين في وراثة الإمبراطورية الرومانية، وهم وحدهم أصحاب الحق الشرعي في تمثيل الإمبراطورية الرومانية (١).

ويهل بكل رقيام المباسيين بنزو أراضى الدولة البيزنطية زمن هارون الرشيد والمأمون بانقطاع للعلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة والغرب وأن ما حدث في سنة ٨٠٦ من استيلاء شارلمان على البندقية ودلماشيا أى في الوقت الذى غزا فيه الرشيد أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى ربما يشير إلى تحالف بين شارلمان وهارون، وأن هذا التحالف هو الذى أرغم الإمبراطور البيزنطى ميخائيل رانجاني على الاعتراف بشارلمان إمبراطورا في سنة ٨١١ م (٢).

(١) محمد خدوري، الصلات الدبلوماسية، ص ٢٠.

(٢) ديفز، شارلمان، ص ٣٠٣ — Buckler, op. cit., p. 170. وقد حاولت بيزنطة بعد ذلك — كرد فعل على الصلات الودية بين المباسيين والفرنجة — أن تحسن علاقاتها بالكارولنجيين ذلك عندما أوفد ثيوفيل سفارة إلى لويس النقي في سنة ٨٢٩، في نفس الوقت الذى عمد فيه إلى تدعيم علاقاته ببنى أمية في الأندلس وإنهاء حلف مهم ضد الأغابة الذين جددوا الممتلكات البيزنطية في إيطاليا وضد المباسيين الذين شجعوا الأغابة على غزو سواحل البرية، والإيربطيين على غزو جزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى الغربية. أما الحلف مع الفرنجة فلم يكن ليتم على الإطلاق بسبب حالة العداء القائمة بين الأمويين في الأندلس والفرنجة والتي استمرت حتى وفاة الأمير محمد في سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م)، وأما حلفهم مع الأيوبيين في الأندلس فلم يتم هو الآخر، وانحصرت العلاقات بين الفرنجة والأمويين على تبادل السفارات الجدية.

أما ما يتعلق بقبول الشهيد لفكرة قيام دارلمان بالإشراف على الأماكن المقدسة ، فربما كان القصد منه التخلص من النفوذ البيزنطي في بيت المقدس ، ويستدل بكاره على ذلك بمثل يأتي به تفسيراً عن كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين البيزنطيين ، فقد أرسل رهبان دير جبل الزيتون في سنة ٨٠٨ إلى البابا يخبرونه بأن رئيس دير القديس سابا ، رممهم بالهرطقة وطردهم من كهف كنيسة المهد في بيت لحم ، ومن الواضح أنهم كانوا يأملون في حماية ملك الفرنجة منافس نفوذ وحليف الشهيد من ظلم البيزنطيين المنتظرين .

الفصل الرابع

الإدارة ونظم الحكم

(١)

المقدمة

الإمامة أو الخلافة رئاسة دينية ودينيوية نيابة عن النبي (ص) أو على حد قول الماوردي ، الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، (١) ، أو على حد قول ابن خلدون : « حمل السكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدينيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارح [أي المشرع] إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » ، (٢) . والخليفة على هذا الأساس هو رئيس ديني وسياسي يجمع بين السلطتين الدينيّة - باعتباره إماما للمسلمين يؤمّمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة ويحيي الدين ويذهب عنه - والدينيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدينيوية والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي (ص) دون أن ينص على الخلافة عينا لأحد من الناس ، لا لأن بكر ولا لعلي ، وكأنا أراد رسول الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم جريا على النظام القبلي الذي ألفه العرب . والإمامة لا تورث بإجماع الفقهاء وإنما بالاختيار . ونظام الحكم الوراثي على هذا

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، مصر ١٢٩٨ هـ ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١ م ، ص ٣٢٨ .

المشهور غير معترف به في الإسلام (١) ، ومع ذلك فقد أقر الفقهاء أن جواز انعقاد الإمامة بولاية العهد ثابت بالإجماع أصوة بأن بكر الذي عهد بها إلى همر فأنبت المسلمون إمامة همر بمهد أن بكر (٢) استناداً على أن الإمام هو ولي المسلمين والأمين عليهم وأنه هو الذي يتصرف في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم . ويذكر ابن خلدون أنه يشترط في الخليفة خمسة شروط : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والأعضاء والنسب القرشي (٣) ؛ وقد استعبرت الخلافة سارية في همر الخلفاء الراشدين أي المرشدين من قبل النبي للسيرة على نهجه في الحكم . ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي وراثي على غرار ما كان معروفاً عند الفرس والروم ، وقد أطلق العرب على هذا النظام أسماء مختلفة منها « الفرعونية » ، بمعنى حكم الفرد المستبد أو حكم الجور والظلم ، والكسروية والهرقلية وكلاهما يمثل نفس المعنى ، مع زيادة المظاهر الملوكية من الآبهة والترف وإضافة نظام الوراثة (٤) ، فقد عدل الأمويون في حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على الدنيا ، واستحالته الخلافة بذلك إلى نظام أقرب ما يكون إلى النظام الملكي مع تمسك شكلي بفكرة البيعة التقليدية والالتزام بمبادئ الخلافة من تحرر الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق (٥) باستثناء

(١) محمد ضياء الدين الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ ،

ص ١٦٦ .

(٢) الماوردي ، ص ٨ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٤٢ .

(٤) ضياء الدين الرئيس ، ص ٩٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٦٢ .

الخلفاء المتأخرين من بني أمية الذين سخرُوا طليعة الملك لتحقيق أغراضهم الدينية ومقاصدهم من ركوب السموات والملاذ ومن استخفاف بحق الرئاسة^(١)، ولم يتغير نظام الخلافة في العصر الأموي من حيث الشكل عنه في عصر الراشدين من حيث ارتكازه على قاعدة دستورية ثابتة هي الإجماع.

ثم ظهر التغير في نظام الخلافة ومدلوله منذ قيام الثورة العباسية وبالذات منذ خلافة أبي جعفر المنصور، الذي تعدى لمشا كل عديدة واجهته وتطلب عليها جميعاً، ولذلك يعد المنصور صاحب الفضل في إرساء الأساس الحقيقي للنظام العباسي، وحرص خلفاؤه من بعده على الدفاع عن هيئة الخلافة وعلى تحقيق صورتها المركزية فيما يتعلق بالولايات التابعة لسلطانها، فناصر المنصور وخلفاؤه من أجل تأكيد سلطان الخلافة وتحقيق المركزية، إلا أنه عندما فشل الخلفاء في تمكين ساهانهم في المغرب بسبب غلبة التيارات الإقليمية همدوا إلى تطوير نظام المركزية وذلك بتفويض قسم من السلطات إلى نائبين من الخليفة في شرق العالم الإسلامي وغربه يستمدانها من الخليفة، والإقرار بالانزعات الإقليمية. ويمثل ذلك في دولة الأغالبة في المغرب الأدنى التي أقامها الرشيد لكي يجعل على طاعتها أعباء الخلافة في الغرب، والدولة الطاهرية التي أقامها المأمون في خراسان وأسند رئاستها إلى قائده الفارسي طاهر بن الحسين. وبمساعدة الخلافة العباسية للظروف الإقليمية، ضمنت الإبقاء على نفوذها الروحي. ويهـبر التقسيم الذي أجراه الماوردي في نظام الإمارة على البلدان إلى إمارة استكفاء في حالة محافظة الخلفاء على المركزية^(٢) وإمارة استهلاء في

(١) ابن خلدون، نفس المصدر، ص ٤٢٢.

(٢) درس الخلفاء في هذه المرحلة على تغيير الولاية وبدياهم ختاماً لاستمرار تطور الساطة المركزية وتجنباً لقيام مراكز قوى في الدولة.

سأله الإقرار بالإقليمية ، يهـبر هذا التقسيم عن التطور الذى طرأ على نظام الخلافة من صورته المركزية إلى صورته الإقليمية .

كذلك استجابت الخلافة للظروف الجديدة فى ناحية أخرى وهى الجمع بين نظامى الخلافة والإمامة (١) ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى جنوح الخليفة إلى الاستبداد بالسلطة ، وقد يكون ذلك ناتجاً من احتفاظه بالسلطان الروحى المستند على نظرية عصمة الإمامة على نحو ما فعله الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، أو على أساس الإجماع على عدم جواز تعدد الإمامة مما يكفل نوطاً من السيطرة على أقاليم الدولة الإسلامية (٢) ، أو ناتجاً عن تأثره بنظرية الحق الملكى المقدس التى كان يقول بها الفرس ، بمعنى أن الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الشعب (٣) من جهة ، واستناداً إلى أن خلفاء بنى العباس هم ورثة النبى من جهة ثانية . وقد ترتب على ذلك أن خلفاء بنى العباس سعوا إلى الاحتفاظ بالخلافة فى دولة توفى قراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ، إبرازاً للتطور الذى طرأ على السلطة الخليفة منذ العصر الأموى (٤) . فكان الخليفة يرتدى بردة الرسول عند توليه الخلافة أو فى بعض الحفلات الدينية بحكم كونه نائباً عن النبى فى حكم المسلمين ، والتزم الخلفاء بلقب الإمام ، وإن كان هذا اللقب فقد دلالة الأولى من حيث إمامة المسلمين فى الصلاة ، وادعى الخلفاء أنهم يعملون على

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامى ، ص ١٢٩ .

(٢) الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، ص ١٧٣ .

(٣) وقد عبر المنصور بقوله : « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » .

(٤) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ : العصر العباسى الأول ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٥٠ .

إحياء السنة وإعادة الحكم القائم على العدل والمحاواة ، فأحاطوا أنفسهم بالفناء واستشاروهم في مشاكل الدولة ، واتخذوا من الدين دعامه لتثبيت مركزهم العباسي . وما دامت الخلافة العباسية أصبحت تستند على نظرية الحق الملكي المقدس فهي تقدر نظام الوراثة في البيت العباسي ، وليس ضرورياً أن تكون وراثة مستقرة في الأبناء ، وإنما كانت الخلافة تستند إلى الأقدر على تحمل تبعاتها من أفراد البيت العباسي ، ويتم ذلك عن طريق أهل الحل والعقد أو أهل الاختيار وعلى رأسهم الخليفة ومن يحيط به من الخاصة وكبار القادة والوزراء . وكان قرار تعيين ولي العهد قراراً ملزماً يعطى لصاحبه حقاً في عتق من يأمروه ، ولقد سار العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، ولم يتعظوا بما سببه ذلك من نكبات للدولة الأموية دفعتها إلى السقوط ، ولهذا السبب اعتبر إبدال ولاية العهد بعد تعيينهم بآخرين نكثاً بالعهد ، وكان من نتائجهم نشر بذور العداء والحقد بين أفراد البيت العباسي ، ونجمت عنه أزمات خطيرة ظهرت آثارها في فترة الأمين والمأمون .

(٢)

السوزاة

استلذ العباسيون على الفرس في تطوير نظمهم الإدارية كما استندوا عليهم في تأديس دولتهم إلى حد رسخت معه التقاليد الإدارية الفارسية القديمة في صميم نظم الإدارة العباسية ، بحيث يمكننا أن نطلق على العصر العباسي الأول بحق العصر الفارسي الأول أو عصر إحياء التقاليد الفارسية . عهد أن الانحسار إلى إحياء التقاليد الفارسية لم يصدر دفعة واحدة في العصر العباسي ، فقد سبقته مرحلة تمهيدية منذ خلافة هارون الرشيد الذي اقتبس نظام الهواريون من الإدارة

الفارسية. فشيئاً في ذلك معجزة القميرزان (١). وثابع الأمويون سياسة الانقلابات من الإدارة الفارسية، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين واتخذوا الحائظ ليقوم مقام الخليفة في بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن الضامة ويطلق بإبائه دولهم، كما اتخذوا الطراز الذي أصبح مظهراً من أبهة الملك ورفاهية السطان.

وبقيام الدولة العباسية، ازداد النظام الفارسي الذي كان يعمل به زمن الساسانيين قوة. وسيطرت التقاليد الفارسية على أجهزة الدولة سيطرة شاملة، وحلت جماعات من الموظفين الفرس محل الأرستقراطية العربية التي كانت تحيط بالخليفة الأموي، واستحدثت منصب الوزارة بنفس اختصاصاته المعروفة عند الفرس، ولم تكن سلطات الوزير قد تضدت بعد في بداية قيام الدولة بصورة واضحة (في وزارة أبي سلة الخلال)، إلا أنها ستسدرج في النمو وتتضح بمضى الوقت حتى تتخذ شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول.

وليس من شأننا أن نتحدث عن لفظ الوزارة ومشتقاته النوية (٢)، كما أنه ليس من شأننا أن نتبع تطور استعمال لفظ الوزارة عند العرب منذ العصر

(١) الجهاوى، الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٣٨، ص ١١.

(٢) راجع في دراسة مشتقات اللفظة في اللغة العربية: الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٢٠ - ابن بطاطبا ص ١٣٦ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس، بيروت ١٩٥٦، ص ٢٨٧ - الفيروز يادى، التاج والخيوط، ج ١، القاهرة ١٣٤٤، ص ٣٦٣ - الزبيدى، تاج العروس، ج ٣، القاهرة ١٣٠٦، ص ١١ - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٧٦ - Dominique Sourdel, Le vizariat - Abbasside, vol. I, Damas, 1959, pp. 42-46.

الجاهلي (١) ، فهذا يخرج بنا عن موضوع الدرامنة ، ولكن إذا كانت الوزارة كاختصاص وسهام ولقب قد استحدثت في العصر العباسي ، فإنها عرفت كاختصاص فقط دون اللقب في العصر الأموي ، فكان عبد الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب هروان بن محمد يقوم في الخلافة مقام الوزير (٢) من حيث تهريب الخليفة له واهتداه عليه في المشورة والرأي .

ولم يكتف العباسيون باقتباس نظام الوزارة من نظم الإدارة الفارسية القديمة ، بل عملوا على اختيارهم وزرائهم من الفرس ، وكان أبو سلة الخلال أول من وزير لبني العباس (٣) ، وسمى وزير آل محمد (٤) ، وعلق ابن خلكان على استيزار السفاح له بقوله : « أن أبا سلة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النصف لافي دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول » . (٥)

وكان اختصاص الوزراء الأول لبني العباس كاختصاص السكتاب عند الأمويين ، فكان الخلفاء العباسيون يحرصون دائما عند اختيارهم لوزرائهم أن

(١) انظر في ذلك : المسودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٩٤ - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٢ - ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في المصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١ .

(٢) الإربيل ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ .

(٣) الإربيل ، ص ٥٤ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٥٦ - ابن طباطبا ، ص ١٣٨ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

يكونوا بمن يجيد الكتابة (١)، ويمبر ابن طباطبا عن ذلك بقوله : والوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل فلم تكن مقتنه القواعد ، ولماقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أقباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار يذوى الحجي والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى بجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشهد ، (٢) . ولما قتل أبو حنيفة الحلال لم يلقب أحد من استوزهم السفاح بعده بلقب الوزارة قطها بما لحق به ، فخاله بن برمك على الرغم من مكانته السامية التي تبوأها كان يعمل عمل الوزراء ولم يتسم بالوزير (٣) ، كذلك تلقب أبو أيوب المدورياني الذي استوزره المنصور العباسي وأُسند إليه عمل الدواوين بكاتب الخليفة (٤) . وظلت الوزارة في خلافة المنصور إسما على غير مسمى لاستبداده المطلق وتركيز السلطات في يده ، وفي ذلك يقول ابن طباطبا : ولم تكن الوزارة في أيامه طائفة لاستبداده واستغنائاه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور في الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لمساوية الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه

(١) كان أبو سلمة فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير ، حاشر الحجة ، فلما هويح السفاح استوزره وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين ولقب وزير آل محمد (ابن طباطبا ، ص ١٣٨) ، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور فصيحاً كافياً عالماً فناناً خبيراً بالحساب والأعمال ، وكان أبو عبد الله محبوباً من داود وزير المهدي كاتباً لنصر بن سيار أمير خراسان (ابن طباطبا ، ص ١٦٦) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٩ .

(٤) الجعفياري ، ص ٧٧ ، ٧٩ .

وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق ، (١) . ولهذا السبب اتسمت الإدارة العباسية في العصر العباسي الأول بالمركزية المطلقة ، فكان الخليفة مصدر السلطات ، أما الوزير فكان مجرداً من كل سلطان ، ولم يحظ بمركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدي ، وكان وزيره أبو عبيد الله صاوية بن يسار هو الذي رتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب القليبا ، وأوحد الناس حديثاً وعلماً وخبرة (٢) . وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير في دولة بني العباس بعد المهدي (٣) من الإشارة إلى المكانة التي تبوأها البرامكة في خلافة الهادي والرشد ، فقد قبضوا على أزمة الحكم وأصبحت شؤون الدولة في أيديهم يتصرفون فيها كما شاءوا ، ، إلى أن نكبتهم الرشيد في سنة ١٨٧ هـ . ومن الأمثلة الدالة كذلك على سمو مكانة الوزير ، استبداد الفضل بن سهل وأخوه الحسن بدولة المأمون ، والفضل بن الربيع بدولة الأمين .

وكانت الوزارة في العصر العباسي تنقسم إلى نوعين (٤) :

(١) ابن طباطبا ، ص ١٥٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٣) يقول ابن خلدون مبيناً عن ضخامة سلطات الوزراء : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت رايته وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وأمينت مربيته في الدولة ، ووعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل له النظر في ديوان الحساب (ديوان المال) لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر في القلم والارسيل لصون أسرار السلطان . . . فصار اسم الوزير جامعاً لحقائق السيف والقلم وسائر صفات الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جمفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا المعجزة » .

(٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٨ .

١ - وزارة تنفيذ (وهي أيضا وزارة القلم وسلطانها محدودة) : وهي التي تقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف في شؤون الدولة من تلقاء نفسه ، وإنما كان يمرض الأمور على الخليفة ويتلقى أوامره ضمنها ، وبذلك كانت مهمة الوزير أشبه بما تكون بمهمة الوسيط بين الخليفة والشعب .

٢ - وزارة تفويض (وتعرف أيضا بوزارة السيف) : وهي أن يكل الخليفة الوزارة إلى شخص يشق فيه ويفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شؤونها دون الرجوع إليه بحيث لا يبقى للخليفة بعد ذلك من السلطان إلا ولاية العهد وحق عزل من يوليهم الوزير . ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول آل برمك وآل سهل والفضل بن الربيع الذي كان حاجبا للرشد ثم استوزره بعد نكبة البرامكة . ومن دلائل ارتفاع منزلة الوزير إبان الفتنة بين الأمين والمأمون تلقب الفضل بن سهل وزير المأمون بذي الرئاستين بلحه بين السيف والقلم ، وتلقبه بالوزير الأمير (١) ، واستقنار المأمون بمده الحسن بن سهل وزواجه من ابنته بوران وتلقيبه بلقب ذي الكفايتين (٢) . ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون والمعتصم : أحمد بن أبي خالد ، وأحمد ابن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات .

(١) ابن طباطبا ، ص ٢٠٢ . ويقصد بالرئاستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير (الجهشداري ، ص ٢٥٠) وقد عتد له المأمون على شتان ذي عمتين ، وأعطاه مع الدولة هذا قد كتب عليه لقبه . وكان الفضل بن سهل أول وزير اجتمع له اللقب والتأثير (الجهشداري ، نفس المصدر) .

(٢) الصافي ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل حواد ، بغداد ١٩٦٤ ص ١٣٠ .

وكان يشترط في الوزير لاهمية منصبه - باعتباره وسيطاً بين الخليفة والرهبة - أن يكون في طبعه جانب يتناسب طباع الملوك وجانب يتناسب طباع العوام حتى يتمكن من معاملة كل من الفريقةين بما يهيئونه على الاحتفاظ بعتد كل منها بالتقبول والمحبة والرضا ، وأن يكون أميناً صادقاً شجاعاً ، وأن تتوفر فيه الكفاية والفطنة والدهاء والحزم ، بالإضافة إلى صفات أخرى لا غناء له عنها ، كالعدل والكرم ، ليصطنع الانتصار ، والرفق والاناسة والتشبع في الأمور ، والحكم والوقار ونفاذ القول (١) .

وفي ضوء هذه الشروط كان الوزراء يختارون بدقة ، فقد روى عن المأمون أنه قال : « إن التمسك لأمرى رجلاً جامعا لحصال الجهد ، ذائعة في خلقاته واستقامة في طرائقه . قد ملته الآداب وأحكمته التجارب ، إن أو تمن على الأسرار قام بها ، وإن تلك مهات الأمور نهض فيها ، يسكنه الحلم ، وينطقه العلم وتكليفه الاحفظه وتنقيه اللمعة ، له حولة الأمراء وأمانة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بخزمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلافة لسانه وحسن بيانه . ومع ذلك ففي كثير من الأحيان كانت تتدخل بعض العوامل في اختيار الوزير ، فكان أحياناً يقلد الوزارة مكافأة له على جهد بذله أو عون قدمه لشخص الخليفة . على أنه لم يعد ضرورياً أن يراعى في اختياره لا الجمع بين الصفات السابقة ولا ما قدمه للدولة أو للخليفة من أفضال ، وذلك عندما أصبح الاختلاف الدباية بالانهلال والضعف وأصبح اختيار الوزراء يتم وفقاً لأغراض أخرى

من أبرزها الرشوة التي أصبحت الوسيلة المملية لفرهيج لهذا المنصب الكبير .

وكان من مهام وزراء في العصر العباسي الأول الإشراف على دواوين الدولة والشؤون المالية وشؤون الترحيل والمكاتب والدفوف الحربية ، ولهذا أصبح الوزير يجمع في عمله بين السلطتين المدنية والحربية ، أو بمعنى آخر بين السيف والقلم . كذلك كان من مهامه النظر في قضايا الناس ومطالبهم ، وتعيين الولاة .

ومن الملاحظ أن معظم من تولى الوزارة في العصر العباسي الأول منذ قيام الدولة حتى خلافة الرشيد كانوا يتنقلون فداوين : الأول أنهم من الفرس ، وهناك ميلهم للعلويين وسيميم في الحفاء على نقل الخلافة إليهم ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت الحففاء على نكبتهم لهم والتمثيل لهم (١) .

وفي عصر المعتصم لم يعد للوزراء ما كان لهم من نفوذ وسلطان زمن المأمون بسبب الساع نفوذ قواد الجيش الأتراك من جهة وسيطرة الخليفة على النواحي السياسية والإدارية من جهة ثانية . وهناك ظاهرتان واضحتان في وزراء هذا العصر هما : —

١ — لم يكن من بين وزراء المعتصم والوافق على كثرتهم من كان أدينا حسن المعرفة بالعلم إلا محمد بن عبد الملك الربات ، فالفضل بن مروان أول وزراء المعتصم لم يكن من الكتاب وإنما كان حاميا لا علم لديه ولا معرفة وكان سيء السيرة جاهلا بالآراء ، وكذلك كان أحمد بن عمار بن شاذي وزير المعتصم بعد الفضل - رغم ثرائه - جاهلا بأدابه للوزارة قليل الثقافة .

(١) إبراهيم - نان ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، ص ٢٥ وما يليها .

٢ - كان معظم وزراء هذا العصر ضحايا مطامع الخلفاء في أموالهم ،
فكثيراً ما نكسهم الخلفاء وصادروا أموالهم واستصفوا أموالهم كما حدث لوزير
الفضل بن مروان في عصر المعتصم وابن الزيات في خلافة الواثق .

(٢)

الحجابه

في عصر الدولة الأموية ظهرت وظيفة في البلاط لها أهميتها بالنسبة
للخليفة هي وظيفة الحاجب ، من اختصاصاته حجب الخليفة عن الناس وتنظيم
مشورهم أمام الخليفة وفقاً لآراؤهم وأهمية أعمالهم ، ويعتبر مساوية أول من
أرخص السطور من الخلفاء في الإسلام (١) واتخذ الخلفاء الأمويون من بعده
حجاباً لهم تشبهاً بالملك والأكاسرة وحرساً على أنفسهم من خطر الاغتيالات
السواسية ، فكان الحاجب يوجبون الخليفة عن العامة وينلقون بأية دولهم (٢) .
والحجابه عما اقتبس العرب من الإدارة الفارسية ، عندما أخذوا بمظاهر
الكسروية ، ومن أشهر حجاب الآويين : خالد وسعيد مولى الوليد بن عبد الملك
وحاجباه (٣) ، وأبو عسكر مولى سليمان بن عبد الملك وحاجبه (٤) ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٢٢ ، كان الحاجب يمتحن الناس من الدخول على
الخلفاء إلا بأذن خاص ، ولم يستثنوا على حد قول عبد الملك بن مروان إلا صاحب الطعام
والأذان للصلاة والبريد .

(٢) الإبريل ، ص ٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١ .

وحبيلس ومراحم مولوا همر بن عبد العزيز وحاجباه (١) ، وسهميد مولى يزيد ابن عبد الملك وحاجبه (٢) ، وغازب مولى هشام وحاجبه ، والابرش الكلبي حاجبه ، وكان هذا الحاجب يدخل عليه فيقول فلان بالباب وفلان ، فيقول : انذن ، فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى إذا انتصف النهار وضع الطعام وورفت السقور (٣) . ومن حجاب الأمويين أيضا قطري مولى الوليد بن يزيد (٤) ، وقطر مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاجبه وحاجب إبراهيم ابن الوليد بن همدانك (٥) ، وصقلاب مولى مروان بن محمد وحاجبه (٦) .

والكل هذا الخلفاء العباسيون المحباب أيضا وبالغوا في ذلك تعديها بالأكاسرة وحماية لأنفسهم من الساعطين عليهم ، وزادوا في منح الناس عن ملاقاتهم إلا فيما عظم من الأمور ، وازدادت أهمية هذه الوظيفة منذ عهد المهدي العباسي ، ومن أشهر حجابيه : الربيع بن يونس والفضل بن الربيع والربيع بن حميد والحسين بن سليمان (٧) . وما يدل على أهمية الحجابة أن الربيع بن يونس كان وزيراً للنصور ، وظل يقوم بمهمة الوزارة إلى أن مات المنصور بمكة ، وقام الربيع بأخذ البيعة المهدي العباسي ، فشكر له المهدي ذلك ولم يستوزره وإنما

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

جعله حاجبه ، وذكروا أنه لم ير في الحجابة أعرف من الربيع ومن ولده الفضل
الذي حجب المرون الرشيد ولحمدا الآمين ، ومن عباس بن الفضل الذي حجب
الأمين ، بمعنى أن عباس هذا كان حاجبا لابن حاجب ابن حاجب ، وقد مدحهم
أبو الواس بقوله :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم .: أن حصلوا إلا أغر قريش
عباس عباس إذا احتدم الوغى .: والفضل فضل والربيع ربيع (١)

ويأتي ابن طباطبا بمثل آخر يدبر عن أمية منسوب الحاجب ، فيذكر أن
الربيع بن يونس لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدي وفرد
إلى باب أبي عبيد الله صارية بن عمار (كاتب المهدي ونائبه قبل أن يلى الخلافة ،
وكان غالبا على أمور المهدي لاهو قولا ، ولهذا استوزره المهدي ، وفوهو
إليه تدبير الفتوة وسلم إليه الدواوين) لزيارته زيارة بجاملة ، قال : فوصل
الربيع إلى باب أبي عبيد الله الوزير ، فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ، ثم
دخل فاستأذن له ، فأذن له ، فلما دخل عليه لم يقم له (مع أن الربيع بن يونس
كان وزيرا للمنصور) ثم سأله عن سيره وحاله فأخبره ، وشرع الربيع يحمده
بما جرى في مكة من موت المنصور واجتهاده في أخذ البيعة للمهدي ، فسكته ،
وقال : لقد بلغت الخبر فلا حاجة إلى إعادته . فاعتاظ الربيع ، ثم أم ، فخرج ،
وقال لابنه الفضل : هل كذا وكذا إن لم أبتل مالي وجامعي في طروعه وإزالة
نمته . وذهى الربيع إلى المهدي فاستعجبه واختص به كما كان مع أبيه .
وما زال الربيع بن يونس يحمده في شخص ابنة (أى ابن أخته عبيد الله) لدى

الحليفة تارة يرميه ببعض حرم المهدي وتارة يرميه بالزندقة حتى رسخ في ذهن المهدي زندقة ابن الورير ، فأمر وزيره أبا عبيد الله بقتل ابنته ، فقام الوزير وعز ووقع وارعد ، فأعماه من قتله وأمر بعض الحاضرين بقتله ، فضربت عنقه . واستمر الوزير في خدمة المهدي ، إلى أن أمر المهدي حاجبه الربيع بحجبه عنه فحجبه (١) .

وعن طريق الربيع بن يونس استوزر المهدي يعقوب بن داود ، لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، فجعل يشئ على يعقوب في خلواته بالمهدي حتى استوزره (٢) وغلب على المهدي حاجبه الفضل بن الربيع (٣) . ومن حساب الرشيد بشر بن ميمون مولاه ومحمد بن خالد بن برمك (٤) ثم الفضل بن الربيع (٥) أما المهدي فقد استعجب وصيفا التركي ، كما استعجبه أيضا الواثق .

(١)

الكتاب

كان يمين الوزراء وأصحاب الدراوين في مهامهم أعوان من أرباب الأعلام عرّفوا بالكتاب . وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب الدراوين ، يدلل أن الكثير منهم يتدرج في الرقى حتى يصل إلى منصب الوزارة ولاهمية الكتاب ألفت فيهم الكتب ، فمن بين من كتب له

(١) ابن طائبا ، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٤) الإربلي ، ص ١٧١ .

(٥) الجهني ، ص ١٨٤ . صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكي عن حجابته وللهما

الفضل بن الربيع في سنة ١٧٩ هـ .

هذا الباب : ابن قتيبة الذي صنف كتابه أدب الكاتب ، وابن درستوريه الذي ألف كتاب الكتاب ، ومحمد بن دardin الجراح صاحب كتاب الوزراء ، والجهمياري صاحب كتاب الوزراء والكتاب . وقد تعددت اختصاصات الكتاب بينهم من كان من كتاب الرسائل أي غناطية المال والأمراء ، ومنهم من ناول كتابة الخراج ، ومنهم كتاب الجند يقدمون أسماهم وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات سلاحهم ، ومنهم كتاب الشرطة ، وكتاب القضاة . وأهمهم هؤلاء الكتاب جريما في المكاة كتاب الرسائل الذين يترجم المحكام نظام الأمور وكما الملك وجماء السلطان وهم الأمانة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمنائهم على رعييتهم وبلادهم (١) والحساسية هم لهم وأهميته كان الخلفاء يتخيرون الكتابة أشغاما تتوفر فيهم صفات معينة . وفي ذلك يقول ابن خلدون : إن صاحب هذه الحطة لابد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأمثل المروءة والخفصة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فإنه معرض في أصول العلم لما يمرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم . من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في التيسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها ، (٢) ،

وقد شارك الكتاب ومن وصل منهم إلى منصب الوزارة في نشر الثقافة ، لأنهم بصح مناصبهم كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال الناس الاجتماعية وأن يعرفوا من اللغة والآداب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ طبعا ، لاحتياجهم

(١) الجهمياري ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المجلد ١ ، ص ٤٣٨ . وبأن ابن خلدون برسالة نبيد الحميد الكتاب إلى الكتاب فيها تضمنين لا دور فيهم .

إلى هذه العلوم في موافقهم^(١)، كما أن الكثير منهم لجمعهم بين الآداب العربية والفارسية، أسهموا بدور كبير في إحياء الثقافة الفارسية القديمة، وبفضلهم اتسعت آفاق الفكر وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية^(٢)، وترجم إلى العربية العديد من الكتب الفارسية واليونانية، وقد لمع من هؤلاء الكتاب أسماء كثيرة منها يعبد الله بن المقفع ويحيى بن خالد وأحمد بن يوسف وأحمد بن أبي هذاهم والفضل بن سهل ومحمد بن عبد الملك اليربوع، وأما من هؤلاء الكتاب بحسن الكتابة وغرارة العلم وسعة الاطلاع، فكان جعفر البرمكي وكاتبنا بليغا، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وقد درست بلاغاته^(٣)، وكان أحمد بن يوسف ابن صبيح كاتب الرشيد على حظ كبير من الثقافة الإسلامية وكان كاتباً فاضلاً أديباً شاعراً فطناً بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين^(٤).

(٥)

الدواوين

نومع المباسيون في الدواوين بحكم اصطلاحهم لتنظيم الإدارة الفارسية^(٥)، وكلمة الديوان كلمة فارسية تعني للسجل الذي يكتب فيه ما يختص بهدوف.

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، ص ١٧٧.

(٢) مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٥٣.

(٣) الجبشيارى، ص ١٥٨.

(٤) ابن طباطبا، ص ٢٠٦.

(٥) دواوين الدولة المباسية هي: ديوان الخراج وديوان الدية وديوان الزمام وديوان المنسند وديوان البريد وديوان زمام النفقات وديوان الرسائل وديوان الحوائج وديوان الأشغال وديوان المنح أو التقاضاء، وديوان الأكرية وديوان الزنادقة.

الإدارة ، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكتاب على اختلاف مهامهم ، وقد أصبح لموظفي الدواوين في العصر العباسي شأن كبير في الدولة ، وكانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة كالدهاقنة والكرومي والوسادة والمسند والحلمبة ، وهي أدوات كانت تستخدم في الكتابة والجلوس في الديوان . ويرجع الفضل في تنظيم إدارة الدواوين في العصر العباسي الأول إلى خالد بن برمك ، فقد كان سبيل ما يلبث في الدواوين أن يلبث في صحف ، فكان خالد أول من سجله في «قار» (١) ، وهو الذي أشار على السفاح بـ «هندبا» هوم على التخلص من أبي مسلم الخراساني - أن يأمر بإستقاط من لم يكن من أهل خراسان من الجندي في ديوان الجندي ، فأستقط هوداً كبيراً من أصحاب أبي مسلم (٢) . ولما تولى أبو جعفر المنصور ، صرف خالد بن برمك عن الديوان . وقلده أبا أيوب المورياني . وإلى المهدي يرجع الفضل في إنشاء ديوان الزمام سنة ١٦٢ للمع خراسان العراق وهو أول من أحدث هذا الديوان ، وفيما يلي أهم الدواوين في الدولة العباسية :

١ - ديوان الرسائل :

وكانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والمنشورات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة . وقد تنقد هذا الديوان في العصر العباسي عنه في العصر الأموي ، وتعددت اختصاصاته وكثر عدد من يعملون فيه ، وذلك حتى يرقى إلى مستوى السياسة العباسية ومواجهة احتياجات الدولة ومشاكلها ، وقد استقرت دعائم هذا الديوان منذ أيام المنصور ، وجعله الخليفة قريباً من قصره

(١) الجهمباري ، ٥٩٠ ،

(٢) تقي الدين ، ٣٤٠ ،

في بغداد وأسندته إلى أبان بن صدقة (١) ، وقد تعرض هذا الديوان للتطور في المهود التالية وفصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة التي أصبح يشرف عليها الوزراء إشرافاً مباشراً ، وأصبحت لصاحب ديوان الرسائل مكانة بارزة عند الخليفة بحكم التصاقه به ، وكان الخليفة يستشير به ويدينه منه (٢) .

وكان يعمل بديوان الرسائل موظفون تعددت مهامهم ، فقد وجد كتاب رؤساء يقومون بالإشياء وكتابة الردود والتوقيعات (٣) وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبويب ، وأصبح لهذا الديوان محنوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن (٤) ، فكانت أصول المراسلات وتسجلها الواردة تنظم في ملفاته يقال لها أخابير توضع عليها بطاقت تدل على محتوياتها ليسهل الرجوع إليها عند الضرورة ، وكان الكاتب يصدر السجلات من الديوان ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم الخليفة - وهو طابع منقوش فيه اسم الخليفة أو شارته ينفس في طين أحمر مذاب بالماء يسمى طين الختم ويطبع به على طرف للسجل عند طيه وإلصاقه ، وعرف التوقيع الخلفاني في العصر العباسي بالعلامة (٥) .

(١) المسعودي ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٢) حسن محمود ، العالم الإسلامي ، ص ١٤٤ .

(٣) كانت أوراق الرؤساء في زمن المنصور ٣٠٠ درهم للرجل ، وظل الحال كذلك حتى زمن الفضل بن سهل في خلافة المأمون فوسع الجاري (الجهوياري ، ص ٨٩) .

(٤) واحد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٥) كذلك عرف التوقيع الخلفاني في عصر الدولة الفاطمية بالعلامة (راجع مجموع

الوثائق الفاطمية ، نعرها الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة م ١٩٥٨) .

٢ - ديوان الخاتم :

كانت مهمة صاحب هذا الديوان حزم الأوامر الخلافية والرسائل وختمها بالشمع ثم الضبط عليه بخاتم صاحب الديوان حتى لا تتعرض للتزوير .

٣ - ديوان البريد :

استحدثه معاوية بن أبي سفيان حتى تصل الأخبار إليه بسرعة ، وتوسع فيه العباسيون وطوروه بحيث وصل في عصرهم إلى درجة عالية من الكمال ومن المعروف أن الفضل في تطويره وتحسين نظمه ووسائله يرجع إلى أبي جعفر المنصور ، مستهدفاً في ذلك الوقوف على أحوال الولايات والكشف عن حركات التمرد والثورة والقضاء عليها في وقتها ، وقد زاد ارتباط عمال البريد في عهده بالعاصمة بزيادة مباشرة دون أن يخضعوا لنفوذ الولايات ، وكان هؤلاء العمال البريديون إلى جانب عملهم الأساسي - وهو نقل الرسائل - يشتغلون بالتجسس على كبار الموظفين ومراقبة الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية ، ولهذا السبب حظى صاحب ديوان البريد في عصر المنصور بمكانة عالية تسمى مكانة الوالي نفسه (١) . وفي عصر المهدي زادت أهمية البريد ، فأقيمت له سنة ١٦٦ محطات

(١) كذا المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أحد منهم ، فبقي له : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السر لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن الفت واحدة بدهام وهي : أما أحدهم فبعض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة بنصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يدق ولا يظلم الرعية ، والرابع من ظله غنى ، والرابع ثم غنى من أصابعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آذآه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يسكن إلى غير هؤلاء على الصحة » (الطبري ، ج ٩ ص ٢٩٧) .

بين مكة والمدينة واليمن (١) ، واتخذت له البنال والإبل خاصة بعد هجرة الحسينيين في الحجاز ، وأصبح لديوان البريد أهميته إبان النزاع بين الأمين وأماون ، فعندما تبين للمأمون نوايا الأمين حذره بأمر بقطع البريد عنه في سنة ١٩٤ هـ ، كما ظهرت أهمية البريد في عصر المعتصم عندما تولى عهيف مهمة القضاء على حركات الزط بالبصرة وأمكنه بفضل البريد من إبلاغ الخليفة بكل أخبار قومه لها ، فقد أمر الخليفة بترتيب الخيل في كل سكة من سلكك البريد تركض بالأخبار ، فكان الخبر يخرج من عند عهيف فيصل إلى المعتصم من يومه (٢) . كذلك أدى البريد خدمات جليلة للمعتصم عندما تصدى للقضاء على حركة الحرمية والحسرة ، ولولا سهولة الاتصال بمواقع الباككية عن طريق سلكك البريد لما أمكن لقادة المعتصم أن يقضوا على بابك . وكان المعتصم يوجه إلى الإفشين كل يوم منذ أن رحل من برزند إلى أن وافى سامرا فرسا وخلمة ، وكان المعتصم لشدة اهتمامه بأمر بابك وأخباره ، وفساد الطريق بسبب الثلج وغيره ، جعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ (فرسا معه بحر مرتب ، فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد ، وإذا بهد ، وكان ما خلف حلوان إلى آذربيجان قد رتبوا فيه دواب المرج ، كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم دياوبة [حراس] على رؤس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينهروا إذا جاءهم الخبر ، فإذا سمع الذي يابيه النهر تهباً فلا يبلغ إليه صاحبه الذي يمر حتى يتف له على الطريق فيأخذ الخريطة

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٨ ، السيوطي ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن منظور ، أسان العرب ، مادة بردج ٣ طبعة صادر من ٨٦ .

[الرسالة] منه ، فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفقيين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل ، (١) .

وما دمتنا بصدد الحديث عن البريد فلا بد من معرفة أصل لفظة بريد ومشتقاتها ومن المعروف أن هناك تفسيرات مختلفة لكلمة بريد ، فبعضهم يجعل البريد لفظاً عربياً مشتقاً من المصدر برد أو أبرد بمعنى أرسل البريد (٢) أى أرسل الرسل على دراب البريد ، وقيل إنها لفظة فارسية — وهو الأصح — مشتقة من كلمة « بروده دم » ومعناها مقصوص الذاب ، وذلك أن الفرس كانوا يقتصون ذنب بقل البريد تمييزاً له عن غيره من البنسالة . وقد انتقلت كلمة بريد العربية إلى اللاتينية Veredus بمعنى خيل للبريد (٣) ، ومن وسائل النقل في البريد الخيل والجمال والإبل ، التي كانت تقام لها مراكز أو منازل في الطرق الرئيسية الموصلة إلى أقاليم الخلافة . كذلك استخدم الحمام الزاجل في نقل الرسائل وكان يعرف باسم سبناح المسلمين ، وتوسع المسلمون في استخدامه إبان الحرب الصليبية .

٤ - ديوان الزمام أو الأزمة :

استحدث هذا الديوان في خلافة المهدي في سنة ١٦٢ ، وفي ذلك يقول الجهمشيارى : « وقد عهد عمر بن بريع دواوين الأزمات في ستة اثنين وستين ومائة ، وقد قيل إن المهدي أول من أحدثها » (٤) ، فلما تضعضعت حال عمر بن بريع في

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٦ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٣٦ .

(٣) Steingass, Persian English Dictionary, London, 1947, (٣)
p 182 — Charlton Lewis, A Latin dictionary, Oxford, 1966,
p. 1973.

(٤) الجهمشيارى ، ص ١٠٦ — الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

سنة ١٦٨ قلد المهدي عليا بن يقطين زماما على الأزمه (١) ، فلما تولى الهادي الخلافة أقر الربيع بن يونس على ديوان الأزمه ، إلى أن توفي الربيع في سنة ١٠٩ ، فقلد الهادي إبراهيم بن ذكوان الحراني هذا الديوان (٢) ، وظل إبراهيم يثق هذا الديوان إلى أن نكبه الرشيد ونصب مكانه أبا عبيد الله معاوية بن عبد الله وزير المهدي ، ولكنه استعفى لكبر سنه (٣) ، وكانت من اختصاصات صاحب هذا الديوان مراجعة حسابات الدواوين فيها يتعلق بالوارد والمنفقات ، وفي ذلك يقول الطبري : « وذكر أحمد بن موسى بن حمزة عن أبيه قال : أول من حمل ديوان الإمام عمر بن بريس في خلافة المهدي ، وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فإذا هو لا يضبطها إلا بومام يكون له على كل ديوان ، فانتخب دواوين الأزمه ، وولى كل ديوان رجلا ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ، ولم يكن لبنى أمية دواوين أزمه (٤) ، وكان يتولى زمام خراج المراق النعمان بن عثمان (٥) .

(٦)

نظام القضاء

لم تكن السادة التنفيذية منصلة عن السلطة القضائية في زمن الرسول (ص)

(١) نظم المصدر ، ص ١٢٥ — الطبري ، ج ١٠ ص ١٠٠ . ويسمى الطبري هذا الديوان زمام الأزمه .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ص ١٠٠ .

(٥) الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يتولى الفصل في الخصومات بنفسه تطبيقاً لأحكام الشريعة الإسلامية . ومنذ أن انتشرت الدعوة الإسلامية في الجزيرة أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ، كما أذن لبعضهم بالفتيا . وفي خلافة أبي بكر أسند القضاء إلى عمر ، ولكن منذ أن اتسعت الدولة العربية بالفتوحات في زمن عمر وارتبط العرب بتسييرهم من الشعوب ، استلزم الأمر إدخال نظام تشريعى لفصل الخصومات ، فكان عمر أول من عين القضاء في الأقاليم للفصل في الخصومات وفقاً لأحكام الشريعة . وظل القضاء في العصر الأموى بسيطاً كما كان الأمر في عصر الخلافة الراشدة ، وكان القاضى يعتمد على الاجتهاد في الأحكام مستعيناً بالكتاب والسنة والإجماع وكان يصدر أحكامه مستقلاً في رأيه عن أى تأثير خارجى عليه ، بخلاف ما حدث في العصر العباسى ، إذ كان الخليفة الإمام يتحول لنفسه الحق في أن يقضى على استقلال القضاء ، وكان يتدخل في الأحكام ويؤلف بعضها إذا صدرت على غير هواه ، إذ كان يخشى أن تتعارض أحكام القضاء مع مبادئه ،^(١) بل إن الخليفة كان يبيع نفسه أن يختار قضاته على الأقاليم بنفسه في كثير من الأحيان^(٢) وأول من ولى قضاء الأمصار من خلفاء العباسيين المنصور^(٣) .

[وقد تمقّد نظام القضاء في العصر العباسى لتعمّد الحياة الاجتماعية وما طرأ

(١) حسن إبراهيم حسن ، النظام الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٨ م ٢٨١ . ولد حل ذلك الكثير من النشأة على الاعتذار من عدم قبول مناصبهم القضائية .

(٢) الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاء ، طبعة جست ، ١٩١٢ م ٢٧١ .

(٣) نفسه ، ابن أبيك ، درر النيجان وغرر نوارين الأزمان ، مطبعة رقم ٤١٠٩ بدار الكتب المصرية ، ورقة ٢٤٩ .

هل المجتمع العراقي في هذا العصر من أساليب جديدة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الأربعة مما ترتب عليه ضعف روح الاجتهاد في الأحكام ، بحكم التزام القضاة في أحكامهم بأحد هذه المذاهب ، فكان قاضى العراق يحكم وفق مذهب ابن حنيفة ، بينما ساد في مصر المذهب الشافعى وفي الشام والمغرب والاندلس المذهب المالكي . وقد نتج عن ذلك أن أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذى يقوم بين من يدعون ببقائه مذهبه (١) .

وكان يشترط في اختيار القضاة الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والإسلام والمدالة والعلامة في السمع والبصر والعلم (٢) ، هذا بالإضافة إلى شروط أخرى إلزامية كالشرف والأمانة والتفقه . وقد اتسمت مرحلة القضاة ، فبعد أن لم يكن عملهم يقتصر على الفصل في الخصومات أصبح يجمع إلى ذلك استفتاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المجهور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السند ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتوزيع الأمانى عند فقد الأولياء ، والنظر في مصالح الطرقات والأهلية ، وتصفيح الشهود والأضياء والنواب (٣) . ونظرا لتوسع مهام القضاة وتعدد اختصاصاتهم كان يمينهم مساهدون ونواب يعرفون بنواب الحكم ، وكان القاضى يتخذ شهودا يعرفوا بالأمانة والتفقه في الدين ولذلك سموا بالشهود المدول أى الذين لا يهلك في ذمهم ، وكان المجلس الذى يتولى فيه القاضى الحكم يعرف بمجلس الحكم أو كان

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣٩٢ .

يعقد في المسجد الجامع^(١) ، ثم أصبح يعقد في دار القاضى ، وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة ، وكان يعقد فى قصر الخلافة فى حالة إذا ما كان القضاء متعلقا بالمظالم^(٢) . ويتألف مجلس الحكم من القاضى والشهود العدول والموقعين الذين يسجلون محضر الجلسة والحجاب الذين يقومون بإدخال الخصوم . وكان القاضى فى عصر الدولة الأموية يجلس مجلسه بدون مراسم ، إلا أنه منذ العصر العباسى أصبح يتخذ لنفسه بعض الرسوم ، كانت يضع الطيأسان على منكبيه ويعقد بوسطه سيفاً ويترشح بالسواد أو البياض حسب مذهبه ، وأول من ملبس لباس القضاة والعلماء هو القاضى أبو يوسف ، فأصبح القاضى يتم بمهامة موداه على فلذسوة طويالة^(٣) .

ثم استحدثت فى زمن الرشيد منصب قاضى القضاة ، وهو يقابل منصب وزير العدل فى العصر الحديث ، إذ كانت له الرئاسة على جميع القضاة فكان يستنوب عنه القضاة فى الأقاليم . وأول من تولى هذا المنصب القاضى أبو يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة لعلمه ودرايته بالشؤون القضائية والإدارية ، فقد كان أبو يوسف أفقه أهل عصره ، فلم يتقدم عليه أحد فى زمانه ، وكان بالهامة فى العلم والحلم والرئاسة والقدر والجلالة ، وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وأصل المسائل ونشرها وبث علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض^(٤) . وأبو يوسف يعقوب هذا هو يعقوب بن إبراهيم بن

(١) مابعد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٤٨ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة .

(٣) الحكيدى ، كتاب الولاء وكتاب القضاة ، ص ٣٧٨ .

(٤) ابن الهيثم ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٣٠١ - الإبريل ، ص ١٢٩ .

حبيب بن جنية الانصاري ، سمع أبا أسحق الشيباني وسليمان بن يحيى بن سعيد والاحمش وهشام بن عروة بن الزبير ، ولأه الهادي القطاء ، ثم استخدمه الرشيد . وهرق بصاحب أبي حنيفة ، إذ كان يتردد عليه وهو فقير ، وكان أبو يوسف يقول : « توفي والهي وخافني صفها في حجر أي فأسلمتني إلى قصار أخدمه ، فكنت أدمع القصار وأمضي إلى حنيفة فأجلس ، وكانت أمي تهيئ خافتي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار ، وكان أبو حنيفة يعني بي لما يرى من حرصي على التعلم ، . . . ثم لومته فذمعتني الله بالعالم ورفعني حتى تقلدته القضاء ، وكنت أجالس الرشيد آكل معه على مائدة (١) . »

وارتفعت منزلة القضاء في عصر المأمون والمعتصم ، فقد عهد المأمون إلى كاضيه أبي محمد يحيى بن أكثم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغداد (٢) كذلك أدان المأمون إليه ، وكان إذا ركب مع المأمون في سفر ركب معه بمنزلة وقباء وسيف بهاليق وشاشية ، وإذا كان الشتاء ركب في أقبية الخبز وفلائس السمور والسروج المكشوفة (٣) . وبلغ من أهمية القاضي بن أبي دؤاد أن المعتصم لم يكن يبيت في أمر إلا برأيه (٤) وكان القضاء ينقسم إلى قضاء شرعي وقضاء مدني ، وكان القاضي الشرعي يفصل في المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والموارث والأوقاف ، أما القضاء المدني فيقتل على ثلاثة خطوط هي : النظر في المظالم والشرطة المدنية والحسبة

(١) الإبريل ، ص ١٣١ .

(٢) ابن طيفور ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٤٠ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٥ ص ١٩٨ .

١ - النظر في المظالم :

هو منصب قضائي هام تختلط فيه سطوة السلطنة واصفة القضاء وبحاجة إلى
علو يد وعظيم رهبة ، ويتقاضى برفع الظلم عن كامل المظلوم ، وكان متولى النظر
في المظالم يحضى ما عجز القضاء عن إصالحه ، لأن سلطته تفوق سلطة القاضى عندما
يتظلم المتقاضون من حكم جائر . وكان يرأس محكمة المظالم الخليفة نفسه أو من
ينوب عنه من كبار رجال الدولة . وأول من جلس للنظر في المظالم في الدولة
الأموية هبذ الملك بن مروان الذى خصص يوما لبحث الشكايات (١) ، وظل
المظالم ترفع إلى الخليفة مباشرة حتى قيام الدولة العباسية ، فمهدوا بالنظر فيها
إلى قاض يعرف بصاحب المظالم ينوب عن الخليفة ، ولا يفتقر فيه أن يكون
قاضيا ، فقد يكون وزيرا . وكان مقر النظر فى المظالم قصر الخليفة أو المسجد
الجامع . ويعتبر المهدي أول من اهتم من خلفاء بنى العباس بالنظر فى المظالم (٢) ،
وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم ، وروى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال :
« ادخلوا على القضاء ، فلولا يمكن ردى للمظالم إلا للحواء منهم لكفى » (٣) ، وتابع
الخلفاء العباسيون هذه الجلوس للمظالم ، ومن هؤلاء الخلفاء الهادى الذى كان
يجلس للمظالم ويفصل فيها بنفسه ، ولكنه كان يستغل جلوسه لمضايقة من كان
يمتد عليهم ؛ ويذكر الجهمياري أنه كان يحتشد على حمارة بن حمزة (متولى
الخراج بالبصرة) أيام كان وليا للمهدى ، فلما ولي الخلافة دس إليه رجلا يهدى
عليه أنه فصبه الضيعة المعروفة بالبيضاء بالكوفة ، وكانت قيمتها ألف ألف

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ٧٤ .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٣١٧ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

درهم ، « فبينما الهادى ذات يوم قد جلس للظالم وهماره بمحضرته ، وثب الرجل فتظلم منه ، فقال الهادى لهماره : ما نقول فيما ادعاه الرجل ؟ فقال : إن كانت القضيعة لى فهمى له ، وإن كانت له فهمى له ، وانصرف عن المجلس ، (١) .

وذكروا أنه تأخر عن الجلوس للظالم ألاما ، فدخل عليه على بن صالح وقال له إن العامة لا تستقيم أمرها إن لم تجلس للظالم ، فقال : ائذن للناس على الجنبلى لا النقرى . فخرج على بن صالح وهو لا يدري ما أراد وخاف مراجعته ، فسأل أعرابيا عن الجنبلى والنقرى ، فأفهمه أن الجنبلى دعوة المموم والنقرى دعوة الخصوص ، فأمر على بن صالح برفع الستور وفتح الأبواب ، فدخل الناس ولم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل (٢) .

وفى عصر الرشيد فوض إلى جعفر النظر فى قصص المتظلمين ، فكان جعفر يجلس للنظر فيها (٣) ثم تابع المأمون سياحة المهدي والهادى ، وكان يجلس للمظالم ، ويروى ابن طيفور أن المأمون قعد يوما للمظالم ، « فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا ، فنظر فى مظالمهم ، وأمر فقتضوا حوائجهم ، وكان فيهم نصراني من كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه ، فلما بصربه المأمون أثبتته معرفة فقال : ابطحوه ، فضر به عشرين ذرة ، ثم قال اسلم : قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصراني : قل له أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى . فأبلىه سلم ما قال ، فقال : هذا مظلوم

(١) الجبهيارى ، ص ١٠٨ .

(٢) الإردى ، ص ١٠٤ .

(٣) الجبهيارى ، ص ١٦٤ .

مواطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لأن هباد : انض حاجة هذا كائنا ما كانت الساحة ، (١) . ولم يكن المأمور يكتفى بالنظر في المظالم في المجلس وإنما كان ينصف المتظلمين الذين يترفعون موكبه ، والأمثلة عديدة في كتب التاريخ والأدب ، منها أنه اعترضه — وهو راكب بالشمسية ببغداد وخلفه أحمد بن هشام — رجل من أهل فارس وصاح به : « الله الله يا أمير المؤمنين ، فإن أحمد بن هشام ظلمي واعتدى علي ، فقال له المأمون : « كن بالسباب حتى أرجع » ، فلما جاز الموضع التفت المأمون إلى أحمد وعذبه ، ثم أمره بأن ينصفه من نفسه ، وقال له « لا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من أمتك ، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل تكبرا عليك من أن تظلم ضميما لا يجهدي في كل وقت ، ولا يجولوا له وجهي وسيا من تجشم السفر البعيد وكابد حر الحواجر وطول المسافة » (٢) .

وكان صاحب المظالم ينظر في القضايا التي يقيمها الأفراد على الولاة إذا ثبت اشتغالهم في جميع الضرائب أو الجزية أو منع بناء كنائس أو من سوء معاملة الموظفين للأهالي ، كما ينظر في ظلمات من نقصت أرواقهم . وكان المتظلم يقدم تظلمه كتابة عن طريق رقعة أو قصة يقال لها «خاصمة» أو شكوى أو ظلامة ، فتعرض هذه الظلامة على مجلس المظالم .

ب - الحسبة :

ليست هذه الوظيفة في الواقع منسوبة قضائيا ، وإنما هي منصب ديني

(١) ابن طيغور ، ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

أخلاق أساحه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ملحق بالقضاء لأن فيه حكما ، ثم تعدت الحسبة هذا المعنى الدقيق إلى أمور مادية تفتق مسع مصالح المسلمين ، فأصبحت الحسبة أشبه بخدمة إجتماعية إقتصادية لسكان المدن كالمحافظة على نظافة الطرق ومراقبة الأسواق ، والكشف عن صحة الموازين والمكاييل ، والرأفة بالحيوان ، ومنع مملسى الصبيان من ضرب الأطفال ضربا شديدا ، ومنع الناس عن شرب الخور . ولكن العمل الأساسى للحسبة لم يلبث أن تطور بعد أن تجاوزت الحياة فى المدن فأصبح اقتصاديا يقوم على منع النهش فى الصناعة والمعاملات ، وخاصة الإشراف على صحة الموازين والمكاييل ، وكان المحتسب يسير بنفسه فى الأسواق ومعه أعرانه من الخبراء فى شئون الأسواق يعرفون بالمعرفاء ، يعملون الموازين والمكاييل الصحيحة ، فيدس المحتسب أحد أعرانه على البائعين ويختبر وزن السلعة أو كيلها .

وكانت الحسبة سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه وهو ما يعرف بالتميز (الحر) الذى يعنى نوعا من العقاب لم يقرره القرآن ، ولكن اتفق عليه فى البلاد التساومة للخلافة العباسية ، وكان يستعمل فى تنفيذ العقاب بالاهدوان . والعقاب أنواع منه الردع على شئ محرم والتوبيخ بالقول أو الضرب بالسياط أو الدرة ، والنفى من البلد ، أو التشهير والتجريس .

وكثيرا ما كان القضاء والحسبة يستندان معا إلى رجل واحد رغم ما بين العاملين من الاختلاف ، فعمل القاضى مبني على التحقيق والإنابة فى الحكم ، وعمل المحتسب قوامه الشدة والسرعة فى العمل (١) .

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السيامى ، ج ٢ ص ٢٩٥ .

٥ - الشرطة :

هم جماعة من الجنود كان يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في حفظ النظام والقبض على المجرمين ، ويقترن عملهم بنظام الحراسة والعسس في الليل ، وكانت في الأصل ملحقة بالقضاء لأنها تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وصاحبها يتولى إقافة الحدود . وكان أصل وضمها في الدولة العباسية ، لمن يقسم أحكام الجرائم في حال استبدالها أولا ، ثم الحُرود بعد استيفائها ، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرح إلا في استيفاء حدودها . والسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجبه المصلحة العامة في ذلك . فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق وأفردوا من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة ، وقادروا كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ، (١) .

وكان صاحب الشرطة يختار عادة من أهل العصبية والقوة ، لأن عليه تقع مسؤولية المحافظة على الأمن في البلاد ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وكان يسمى عند العامة بصاحب الليل إذ كانت خطته تمن الطواف بالليل ، وكان من مهامه بث العسس في الأزقة والعيوارع للقبض على اللصوص والسطار وهم طوائف من عامة الناس اشتهروا بالسرقات وكانوا يستدرجون ضحاياهم ويسلبونهم ما معهم بحيل لا ينظنون إليها مع التظاهر بالإبراء (٢) ، وإنشأت حركتهم في أعقاب الفتنة بين الأمن والمأمون

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٥ .

(٢) الفوتخى ، الفرج بعد القدة ، ج ٢ ص ٣٣ ، القاهرة ١٩٥٥ .

ومن الشخصيات البارزة التي تولت الشرطة القائد الكبير طاهر بن الحسين،
ولاه المأمون الشرطة في سنة ٢٠٥ هـ (١). وذكروا أنه لما إليه بعد توليه الشرطة
أن في الحرم رجلا تنصر، فأمر حاجبه يحيى البوشنجي بأن يحمل السيف والنمطع
ويأتي به دار المأمون إلى مجلسه، ثم استدعى الرجل وقال له : « يا هذو الله
تصرت بعد الإسلام ؟ قال : أصلح الله الأمير ، والله ما تنصرت وما أنا إلا مسلم
ابن مسلم ، ولكن حبست في كساء بدرهمين سنتين ، فلما رأيت أمرى طال ،
وليس لي مذكر يذكرني قلت إن مصرائ ، وأنت أيها الأمير مصرائ ، وهذا
وهذا مصرائ ، وأنا رجل من أصحابك أيها الأمير فكبر طاهر ، ودخل
على المأمون فأخبره الخبر ، وأمر أن يؤهب له ثلاثمائة درهم وأن يغسل مسبيله ،
فأمر طاهر بذلك » (٢).

ويعتبر الرشيد أكثر خلفاء بني العباس حرصا على توفيق الأمن في البلاد ،
فقد دس شبكة من الميون بإمرة صاحب الشرطة حتى يمنع الاضطراب الذي
يحدث من كثرة الوافدين إليها ، وأقام الحراس بالليل للمحافظة على الدروب (٣).
وكان صاحب الشرطة يعاقب المفسدين إما بالحد والرجم وهي عقوبة من
يشرب الخمر ويحمل المنكر ، أو بقطع اليد اليمنى من مفصل المرفق للسارق لأول
مرة أو الرجم بالحجارة أو الجلد بالسياط أو السجن في المطبق وهو الحرم .

(١) ابن طيفور ، ص ١٣ .

(٢) ابن طيفور ، ص ١٤ .

(٣) المدورى ، ص ١٧٦ .

(٧)

الأموي الدفاعية

١ - الجيش :

اعتمد الخلفاء العباسيون حتى عصر المعتصم على العناصر الخراسانية بوجه خاص والفرس بوجه عام أكثر من اعتمادهم على العرب ، وأصبح الفرس في المكانة ما كان للشاميين في العصر الأموي ، ومع ذلك فقد كانت فرق الفرسان عند العباسيين تتركب من العرب في حين كانت فرق المشاة من الفرس وخاصة أهل خراسان .

وعلى الرغم من أن العصر العباسي الأول شهد غلبة الفرس في قيادات الجيش والإدارة والوزارة والحجابه مما أثار بعض العناصر العربية على الدولة العباسية (١) ، فإن البنصر العربي ظل يحتفظ بوجوده وكيانه في كشده من المناصب القيادية والإدارية وإن كان قد تخلى عن السيادة ، والأشلة على ذلك كشة : فندما أراد الساج القضاء على ثورة منصور بن جمهور في الهند في سنة ١٢٤ اصطلع قائد آهرياً هو منصور بن كعب سده على رأس جيش من ٣ آلاف من العرب والموال وألف رجل من بني تميم خاصته . وهذا ما قام

(١) مثل ثورة عبد الله بن مرداس في الشام سنة ١٦١ في خلافة المهدي ، وعلى الأخص ثورة نصر بن شيبان بالجزيرة بعد مصرع الأمين ، وكانت ثورة موجهة ضد النفوذ الهامسي وليس ضد الحكم العباسي ، فندما ذهب بعض العلويين وطلب منه البيعة العلوي وفس بقوله : « إنما هوأى مع بني العباس ، وإنما حاربهم محبة من العرب لأنهم يقدمون عليهم للمعجم » .

حركة سناذ في اعقاب مصرع أبي مسلم ، تولى إخمادها قائد عرب هو أبو جعفر جمهور بن مرار (١) . كذلك تولى القائد العربي خازم بن خزيمة إخماد حركة استاذ سيعن المسلمية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . وتأنفت أسرات عربية في الجيش العباسي منهم : آل قحطبة وآل المهلب وآل هريثية . ثم توضع مركز العرب بالتدريب وسرى فيهم التضمف نتيجة للصراع بين البينية والنزارية ، وبالتدريب فقد العرب مراكزهم البارزة في الجيش .

ولما تولى المنتقم الخلافة ، رأى أن يعلم جيشه بمنصر حرب جديد يعتمد عليه في حماية الدولة العباسية ، فاستكثر من الأتراك في الجيش ، وآثرهم على العرب والفرس ، ومعظم أجناده للترك كان يجلبهم من أشروسنة وفرغانة وبلاد القاش وما وراء النهر ، وعمل على عزل هذه العناصر التركية عن سائر الناس ، فبنى لهم مدينة سامرا ، وأفرد لهم قطائع متميزة حتى لا يختلطوا بالعرب والفرس ، وبالغ في ذلك إلى حد أنه — حرصاً منه على أن يحتفظوا ببقاء دعاتهم — واشترى لهم الجوارى ، فأزوجهن منهم ، ومنهم من أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجوارى الأتراك أزواقا قائمة ، وأثبت أسماءهن في الدواوين ، فلم يكن أحد منهم يقدر يطلق إمرأته ولا يفارقها ، (٢) . كذلك اتخذ لأجناده الأتراك زياً خاصاً ، ألبسهم ألوان الدجاج والمناطق الذهبية والحلقة الذهبية ، وميزهم في الزى عن سائر جنوده (٣) .

(١) البيهقي ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) البيهقي ، البلدان ، ص ٢٦ .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٦٥ .

ومع هذا الاهتمام بالأتراك ، اتخذ المعتصم فرقة من عرب مصر من القيسية والبنية سهام المغاربة (١) ، كما اشترك في جيشه فرق من الفرس من أصحابان وفروين والجليل وأذربيجان وغيرها . وبالإضافة إلى هذه الفرق ، اشترك في الجيش العباسي في زمن المعتصم جماعة من العرب المطوعة ، كان يستخدمهم الأتراك في مقدمة الجيش لإنهاء قوى العدو قبل الدخول في المعركة .

ولستدل من وصف الحملات التي قادها الرشيد والمعتصم ضد البرغطيين ، وخاصة حملة المعتصم على حمورية ، أن الجيش كان ينقسم إلى كراديس وبين كل كردوس وكردوس قدر رمية سهم (٢) ، منها كراديس الرجال وكراديس الفرسان ، وبعض كراديس الرجال ناشبة تحمل الذئاب . وكانت الكراديس تنقسم جميعاً إلى مقدمة ومبينة ومبصرة وقلب يتولى على كل منها قائد ، ثم يلي ذلك الساقة وفيها الأتقال والجانيق وآلات الحديد والآلات والارواكحياض الأدم والروايا (٣) . وكان يشترك في الجيش طليعة من الأدلاء يعرفون المسالك والطرق والجهال . ولستدل من وصف المسعودي لحصار جيش المأمون ببغداد أن المتحاربين كانوا يتخذون كل رؤوسهم نحوذا من الخوص ودرقا أو ترسا من الخوص ، أما الفرسان فكانوا يضمون على صدورهم الجواشن وهي كسوات حديدية من حلقات متصلة تغطي الصدور وقد تصل إلى الخوذات وتسمى بالوردية السابلة ، ويكسبون خيولهم التجاليف ، ويسكون بالرماح والفرق التنبيهية (أي المصنوعة في الفرس) (٤)

(١) نفس المصدر .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٢٠ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٢٦ .

(٤) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٣ .

ب - البحرية :

توقف النشاط البحري للمسلمين في مصر والهام في بداية العصر العباسي فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة بسبب انصراف الدولة العباسية - التي انتهت منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان - من شؤون البحر ، ونفض يدها من بحار بينة البزنطيين في البحر المتوسط (١) ، بسبب انزعاجها لمشاكلها الإقليمية والخارجية . وقد ساعد على تجميد النشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البزنطية من الأخرى من المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية والمهاكل الخارجية التي عصفت بها كالأزاع اللايقون الذي تهدف منذ أن اعتلى لهو الخامس الأرض من الرش البيزنطي ، وثورة توماس الصقلي التي احتدمت نارها في أعقاب مصرع ليو الخامس في سنة ٢٠٥ هـ (٨٢٠ م) ، والصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه إيرين ، كما ساعد على ذلك أيضا انفصال المغرب الإسلامي والأندلس عن المشرق سياسيا ، وتطلعه إلى القيام بدور بحري فعال ، واهتمامه في ذلك على مقوماته الذاتية مع استئلاله للظروف السيئة التي كانت تمتازها الإمبراطورية البيزنطية .

ومع ذلك كله فقد أبدى خلفاء بني العباس ابتداء من الرشيد اهتماما خاصا بالشؤون البحرية ، فالولاذري يشير إلى ذلك بقوله : وقد رأينا من اجتهاد أمهد المؤمنين هارون في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمرا عظيما : أقام من

(١) فتح عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ج ١ ص ٣٨٢ ، ج ٢ ص ٢٤٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .

الصفحة (أى دار صناعة الأسطول) ما لم يتم قوله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل ، وأشجى الروم وقسمهم ، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وأن تشحن بالمقاتلة ، (١) . والرشد - كما يشهد الطبرى - ولحميد بن معيوف سواحل بحر الشام ومصر في سنة ١٩٠ هـ ، فنشروا جزيرة قبرص عندما كانت أهلها المهند مع المسلمين ، وهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا ، فأقدمهم الرأفة ، فتولى بيعهم أبو البختري ، فبلغ أسقف قبرص ألفى دينار ، (٢) ، كما غزا جزيرة إقريطش (٣) . وعلى هذا النحو بدأ المهاجمون يسمون منذ خلافة الرشيد إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط للشرقى (٤) لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والاندلسيين الذين آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربى . ولحسن الاوطاع في البحر المتوسط الشرقى أخذت تغتفر بالتدريج لصالح المسلمين ، ليس بفضل الجهود التي بذلها الرشيد والمتوكل فحسب بل بفضل جهاد غزاة البحر الاندلسيين (٥) .

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٩ - ابن الأثير ج ٦ ص ١٩٦ - السيوطى ٢٦٨ .

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) ومما يثبت هذا الحس والاهتمام أت الرشيد رام أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القزم مما يلى بلاد الفرمانحو بلاد تنيس ، فنصحه يحيى بن خالد البرمكى بالانصراف عن تنفيذ ذلك المفروع وخوفه من دخول أكابر الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز ، فعزل الرشيد عن الضى في تنبذه (المسعودى ، ج ٢ ص ٢٦٤ - السيوطى ، ٢٦٦) .

(٥) راجع ما كتبه في : تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ص ٧٠ - ٥٣ ؛ تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى ، ص ١٢٨ - ١٤٥ ؛ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٧ - ٨٢ ، ١٢٢ - ١٢٦ .

ونشاط البحرية الأغلبية (١) وذلك عندما تمكنت طائفة من الفسواف البحرية من
الاندلسيين من النزول في إفريطش ، والاستلاء عليها في ٥٢٠٢ هـ في الوقت الذي
كان القاضي أسد بن المراد قائد الامة زيادة الله بن الاغلب ينزل مع قواته في
مازر من موانئ صقلية ويشرع في فتح هذه الجزيرة الكبرى (٢)

وحتى أن تمر كجزر الاندلسيون في إفريطش ، استأنفت البحرية الإسلامية
نشاطها في مصر والشام ، فلم تلبث إفريطش أن دخلت في طاعة الخليفة العباسي
المستقل بجهالة ، بسبب ما منهم من بلادهم ودلو جريزتهم من سواحل مصر (٣) ،
وأصبح إفريطش في التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليبا تابعيا لمصر (٤) ،
حتى سقوطها في أيدي البيزنطيين في سنة ٣٥٠ (٩٦١ م) ، وكانت مراكب
إفريطش ، تبحر أهل مصر بقطرات جريزتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل
إلى عمال مصر ، (٥) ويشهد النويري المسكندري إلى أنه كان يعمل من إفريطش

(١) راجع أيضا : المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٩٢ : تاريخ البحرية
الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٩٥ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) مارتينو ماريو مورينو ، المسلمون في صقلية ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٨ - سالم ،
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٠٤ .

(٣) الفطرس رسالة عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور يوفيل في : ليفي بروكسفال ،
الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، ص ١١٥ - ١١٨ .

(٤) إبراهيم أحمد المدوحي ، إفريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ،
ص ٥٩ .

(٥) القاضي النعمان ، قضية إفريطش في عهد الخليفة المنصور ، تحقيق فرحات الشراوي ،
حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ١٩٦٥ ص ٣٣ .

و العمل النحل والجبن الكثير لصبر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا ، (١)
سجدة إلى صهيبة كنديا أو الخندق ، قاعدة إفریطش وكانت مصر تترلى
توردهم بالسلاح والمعدات ، كما كانت دار صناعة دماط تزودهم بما يلزمهم
من السفن التى تنتجها من أخشاب إفریطش . وبفضل هذا الأسطول تمكن أهل
هذه الجزيرة من مهاجمة جزر بحر الارخبيل ، وفرضوا سيادتهم فى حوض
البحر المتوسط الأوسط ، وبالقدرج أصبحت إفریطش منذ النصف الثانى
من القرن الثالث أهم قاعدة بحرية المسلمين فى النصف الشرقى من حوض البحر
المتوسط ، وبفضل جماد أهل إفریطش فى البحر وتضامنهم مع أهل مصر
والشام وازدياد نشاطهم فى غزو سواحل الروم وجنود بحر إيجه ، استمدادهم
البحرية الإسلامية فى العصر العباسى فى مصر والشام نشاطها واستردت سيادتها .

وإفریطش تتمتع بموقع استراتيجى ممتاز فى وسط البحر المتوسط ، فهى
تؤلف جسرا يربط بين شبه جزيرة البلوبونيز وشبه جزيرة الأناضول ، ولهذا
فهى تتمتع بحكم هذا المواقع فى المراتب المائية إلى بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى
ومقدونيا ، ثم هى تهاور عددا لا يحصى من جزر بحر إيجه مثل جزيرة رودس
وسكرونتو وميلوس وساموس وخيمسوس ولخوس وتامبوس وميتيليني التى
تشكل جميعا خطا دفاعيا أمامها لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر
إيجه وبحر مرمرة ، ولهذا السبب يتلصق لفساتحى هذه الجزيرة تهديد
الإمبراطورية البيزنطية تهديدا مباشرا . وجزيرة إفریطش بالإضافة إلى ذلك

(١) الزيرى ، الإمام بما لغت به الأحكام ، ص ١٢٣ . ويسمى ابن الأثير «كند»

(ابن الأثير ، السكائل ، ج ٧ ص ٦٩) .

كله غنية بالأشجار التى يمكن أن يستغلها المسلمون فى إنشاء الأساطيل ، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية فى شمال الجزيرة . ولقد فطن معاوية بن أبى سفيان إلى أهمية هذه الجزيرة ، فزاعها فى أيامه جنادة بن أبى أمية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامى بعد سقوطها للهالة من حركة جنادة ، على أثر الفشل الذى انتهى إليه حصار المسلمين الأول للقسطنطينية فى سنة ٦٠ هـ (٦٧٩ م) . ثم غزاها حميد بن مهران الحمداوى الذى ولاء الرشيد سواحل بحر الشام (فى سنة ١٩٠) فى خلافة الرشيد ، ففتح جانباً منها (١) ، ولكن النفوذ الإسلامى لم يلبث أن انحصر عن الجزيرة مباشرة على أثر رحيل الفراءة . وظلت جزيرة إقريطش تابعة للهنديين الذين حرموها على الاحتفاظ بها فى أبعدهم بسبب ما تتمتع به من استراتيجية تكفل لمن تكون فى حوزته السيطرة الفعلية على مداخل بحر إيجة ، والتحكم فى الجزر الصاعدة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ، إلى أن تمكنت قوة من المغامرين الأندلسيين — وهم طائفة من الفراءة البحريين كانت قد أرغمتهم الظروف بعد إحدى غزواتهم على إرساء سفنهم على ساحل منطقة الرمل بالإسكندرية فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ / ٨١٤ م) لابتهاج ما يصلحهم من المعاش وشحن سفنهم بالمؤن والآلات التى تكفيهم لموسم غزاهم التالى ، على نحو ما كانوا يفعلون من قبل فى كثير من غزواتهم البحرية — (٢) من استغلال الأوضاع الساحلية السيئة فى البلاد المصرية ، واضطراب العرب المقهين

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) البلازوى ، تاريخ البيطوى (طبعة النجف) ج ٣ ص ١٧٤ — السكندى ، كتاب الولاة وكذاب الفضلاء ، تحقيق جنت ، ص ١٥٨ — سالم ، تاريخ الإسكندرية ص ١٣٧ .

الإسكندرية ونواحيها من لحم وبنى مدلج ، قد دخلوا طرفا فى النزاع ، وأهدوا
 عمر بن هلال الحديجى على خصومه وأعادوه إلى ولاية الإسكندرية ، وتنبأ
 لهم بذلك ابحال للنزول بأرض الإسكندرية والإقامة فى برها على الأقل أثناء
 فصل الشتاء الذى يتوقف فيه النشاط البحرى ، بدلا من البقاء على ظم-ور
 السفن ، ثم انقلبوا على ابن هلال واشتبكوا مع الخصمين فى قتال عنيف ،
 فهزموهم ، ودخلوا الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦)
 واستبدوا بشؤونها .

وهزم المأمون العباسى على وضع حشد للاضطرابات العالمية فى مصر ،
 فمهر جيشا من الخراسانيين إليها فى سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) تولى قيادته
 عبد الله بن طاهر ، وبعد ابن طاهر فى طلب بعض السفن العباسية المرابطة
 فى الثغر (طرسوس) إلى تغيس ، وتمكن بفضل قواقه من السيطرة على المارلف ،
 وحاصر الاندلسيين بالإسكندرية ، فصالحوه على أن يخرجوا منها إلى حيث
 أرادوا من جزائر الروم ، فاختاروا إقريطش (١) التى سبق لهم أن أظفروا
 عليها وعلى غيرها من الجزر اليونانية فى عام ٢١١ هـ ، يقدّمهم أبو حفص
 عمر بن شعيب فى أربعين سفينة إلى جزيرة إقريطش حيث نزلوا فى خليج
 سودا (٢) . وهكذا البلاذرى أنهم افتتحوا من إقريطش حصنا واحدا ، ثم
 توسعوا بعد ذلك ، ففتحوا إقريطش حصنا حصنا (٣) ، حتى أتوا فتحها فيما

(١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ،

ج ١ ص ١٥ .

(٢) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. . la Dynastie (٢)
 D' Amorium, Bruxelles, 1935, p. 54.

(٣) البلاذرى ج ١ ص ٢٢٩ .

يُهرب من سنة ٣٣٠ هـ (٨٤٠ م) (١) مستغلين في ذلك حالة الضعف التي أصيب بها البيزنطيون في أعقاب فتنة توماس .

وكان طبعهما أن يلتزم مسلحو إقريطش الأمان في ظل سلطة إسلامية تظلمهم بحمايتهم ، فدخلوا في فلك الدولة العباسية ، ثم أخذوا يمارسون لبشاطهم البحري ضد البيزنطيين ، فهاجموا جزر بحر إيجة ، وهددوا سواحل آسيا الصغرى واليونان ، وأدرك ميخائيل العموري مدى الخسارة التي أصابت بزنطة بضائع جزيرة إقريطش التي أصبحت على حد قول ياقوت ، من أعظم بلاد المسلمين نكابة على الزوم ، (٢) فبذل محاولات مائة لاستردادها ، ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وأدى الفشل المتلاحق الذي منيت به حملاته البحرية على الجزيرة إلى تخليه نهائيا عن فكرة استردادها . وما إن كف البيزنطيون عن محاولاتهم لنزو الجزيرة في عهد تيوفول حتى تفرغ أهلها للجهاد البحري ، وأحرزوا على الأسطول البيزنطي الكثير من الانتصارات (٣) ، وظلوا يشكلون خطرا جديا على لدولة البيزنطية التي هجرت تماما عن القيام بدفعهم أو وضع حد لغاراتهم .

والجانب هذه القاعدة البحرية الهامة للعباسيين في شرق البحر المتوسط ، كانت لدى العباسيين قواعد بحرية هامة منها :

١ - الاسكندرية:

حرص ولاية العباسيين في مصر على مواصلة الاهتمام بها بحيث أصبحت

(١) أهر الحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ مادة إقريطش .

(٣) -الم ، البحرية الإسلامية في مصر والقام ، بهوت ١٩٧٢ ص ٤٢ ، ٤٣ .

المركز الرئيسي للعمليات العسكرية في المغرب انتمرد على العباسيين . ففي سنة ١٢٦ هـ سحر أبو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة هاجر بن إسحاق بن سهل ، كما أمر بإرسال المشي بن زينا الحارثي إلى الإسكندرية ليجبر المراكب منها للإفلاخ نحو طرابلس الغرب (١)

٢ - دمياط :

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة في العصر العباسي بوجه خاص لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرق النيل الذي سمي باسمها من جهة ثانية . وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط . ولم تبرز دمياط كمساعدة هامة منافسة الإسكندرية إلا منذ أن استولى هؤلاء البحار الأندلسيون على إفريقية ، إذ ارتبطت إفريقية بدمياط ارتباطا مباشرا ، وكانت دمياط تزودها بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وللعون إنشاء دار صناعة دمياط أو جزيرة الروضة .

٣ - طرسوس :

كانت تمتد ما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالخ الروم أخلاها أهلها وانتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفا من غزوات المسلمين في العصر الأموي ، فتمسكت هذه الحصون بمرور الزمن ، فكان المسلمون إذا غزوا البلاد البيزنطية ألغوها خالية غربة . وكانت طرسوس حصنا من هذه الحصون الحربية التي كان يمر بها المسلمون عند غزوهم لبلاد الروم وتقع طرسوس على

(١) سالم ، تاريخ الإسكندرية ص ١٢١ .

الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في خليج إسكندرونة ، ويشتمل نهر صغرى يقال له
البردان (١) ، وأول من أوصى بإعادة بنائها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش
المسلمين القائد الحسن بن محطبة الطائفة ، إذ أحس بأهميتها أثناء صروده بها
في سنة ١٠٦٢ هـ ، في عهد المهدي للمعاني ، ولكن تمهيدها وتحصينها لم يتم إلا في
سنة ٧١٠ هـ على يد الرشيد . ولما أحكم بناؤها (٢) نزلها طائفة من أهل خراسان
عدتهم ثلاثة آلاف للدفاع عنها ، ثم نزلها ألف من أهل المصيصة ، وألف من أهل
أنطاكية ، فأقطعت لهم الإقطاعات والخطوط ، وأصبحت طرسوس منذ ذلك
الحين مركزا هاما للرباط ، وأعظم القواعد البحرية في الشور القامية .

(١) الإسكندى ، كتاب الولاية وكتاب القضاء ، ص ٢٢٩ .

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ١٠ (١) - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٥ .

الفصل السّاوي

الانتظمات الإجماعية والعمرانية والإفصادية

أولا

صورة للمجتمع المدني في العراق في العصر العباسي الأول

(١)

مجتمع الخاصة

نقصد بمجتمع الخاصة مجتمع الطبقة الحاكمة من كبار موظفي الإدارة المركزية والقواد والقضاة والوزراء والكتاب والحجاب ، ويتميز هذا المجتمع بسبوع الترف والرفاهية اصطناع الآبهة ومظاهر الملوكية بحكم التأثير بتقاليد الفرس القديمة والنزوع إلى الرفة في الأطعمة والأشربة والأزياء والفرش والآنية ، والتأنيق في الحياة والنماسة المتممة في المساكن والمباني بإقامة القصور المنمقة المجدران الموزونة الأبعاد وغرس الرياض والجنان والركون إلى الدعة ، وبمعنى آخر تجاوزت ضرورات العيش إلى الرفة والكماليات (١) .

وإلى المام سدى العباسي يرجع الفضل في إضفاء مظاهر الآبهة والنفخامة التي غلبت على بلاط الخلفاء العباسيين وسادت المجتمع الخاص منذ بداية خلافته ، فابن طباطبائي يقول عنه : « وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة . . . » (٢) ، والمعمودي يذكر أنه كان « سرفاً في العطاء ، وبسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خافه المنصور وهو ستائة ألف درهم وأربعة عشر ألف دينار سوى ما جباه من الإمام . . . » وقيل إنه فرق في عشرة أيام من ما

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٩٥ .

(٢) ابن طباطبائي ص ١٦٣ .

ماله عشرة آلاف ألف درهم (١). وتابع خاندان بني العباس بعده سياسة الإصراف ، والعلو في حياة الترف والاحتشام بالحيمة لم يلتزم بها الخلفاء المؤمنين المؤمنين للدولة وأعطى بهما : السقاج والمنصور ، وكلاهما التزم حد الاعتدال في حياته الخاصة ، واتسم ههنا كل منهما بالانضاد في الترف على الرغم من قوتها وعظم سطوتها ، ولا شك أنهما كانا يدركان حق الإدراك مسؤولياتهما الكبرى باعتبارهما مؤسسين للدولة فتية على أنقاض دولة قوية كان في مقدور صفاتها إحياءها من جديد في قلب العالم الإسلامي ، لولا نقطة مؤسسية الدولة العباسية. ومع ذلك فقد توصل أحد من سلالته بنو أمية إلى تحقيق هذا الهدف في أقصى الأطراف الغربية للإسلام الإسلامي مؤسساً دولة بنو أمية في الأندلس . وعلى هذا النحو وقرع السراج والمنصور لتسكين الفتن وإنهاء الثورات التي احتدمت في عهديهما ، ونجح المنصور في أن يترك لابنه المهدي ملكاً ثابتاً وطيد الأركان يسوده السلام والأمن .

ويذكر من حياة الترف التي طرأت على المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول الهدايا النفيسة التي اعتاد كبار رجال الدولة تقديمها إلى الخلفاء في المناسبات المختلفة ، ويشير البيهقي إلى أن الرشيد تلقى من الهدايا ألف غلام تركي بيد كل منهم حللنان ملولنان من الششتري (٢) والأصفهاني (٣)

(١) المدوذي ج ٣ ص ٣١٢ .

(٢) لششتري نوع من السجج القارسي اشتهرت به شستر (بالقوت ، مدجم البلدان ،

مجلد ١ ص ١٩٦ . Dozy, Supplément aux dictionnaires Arabes, Vol. I, p. 755, Beyrouth 1968.).

(٣) لششتري اشتهرت به أصفهان (Dozy, op. cit., p. 26.) .

والسلاطون (١) والملحم من الذهباج التركي والهدارى (٢) وغير ذلك من
الانواع . ووقف الثلمان بهذه الحلل وعلى أثرهم جاءت ألف جارية تركية
بيد كل واحدة كأس من ذهب يحتوي على الياسمين ومسك المسك والكافور
والعنبر وأصناف المطر وطرائف الهللا ، ثم مائة غلام هندي ومائة جارية
هندية في غاية الجمال مرتدين ملابس ثمينة ، ويود الثلمان سيوف هندية من
أجود ما عرف فن السيوف ، وكانت الجوارى يحملن الثياب الرقيقة في أسفاط
من القصب ، وتعدن أفيال خمسة منها اثني عشر عليها سروج الذهباج ومراميا من
الذهب والفضة والاثني عشر منها عليها مهدان من الذهب أحمرتها وهدتها
مرصعتان بالجوهر البدهشية (٣) والفهرور ، ثم خمبول هيلانية ومائتا فرس من
خراسان بسروج من الذهباج ، وعشرون عقابا وعشرون شامينا ، وألف جمل
منها مائتان بحد وأحدة منطاة بالحريير والذهباج ، وثلاثمائة أخرى عليها
الحامل والمود ، عشرون منها عليها محامل مذهبة ، وما بهي عرسائة وثلاثمائة
قطعة من البلور من شق الاصناف ومائة زوج من الأبقار ، وعشرون
هددا من الجوهرة الغالية القيمة وثلاثمائة ألف حبة من اللؤلؤ ، ومائتا قطعة من
الصفي المنفوري ، من المصحون والكؤوس وغيرها مما لم يشهد مثلها في قصر أي
ملك ، وألفا قطعة أخسرى من الصفي من الألوان الكبيرة والكاسات الواسعة
وزهرات صينية كبيرة وصغيرة وأنواع أخرى ، وثلاثمائة من السائر الملكية

(١) نتيج من الحرير المطرز بخيوط الذهب ولحمه الختم المرقوم بالذهب
(Dozy, op. cit., p. 663).

(٢) نوع من الثياب الحريرية (Dozy, op. cit., Vol I, p. 481).

(٣) نسبة إلى مدينة بدخش أو بدخشكت من بلاد الفاش (باتوت ، ص ٢٠٦) بلبلان ،

مجد ١ (ص ٣٥٧) .

ومائتان من سجاد القصور ومائتان من السرو . (١) كذلك قدرت الهدايا التي أهداها يحيى بن خاله البرمكي للرشيذ بأثنى عشر ألف ألف دينار (٢) ، وهو مبلغ ضخم يدل على عظم نجاح البرامكة وراثتهم . ويروى ابن طباطبا أن الرشيذ بعد أن نكب البرامكة حرم على الشعراء أن يقرئوهم ، فاعتقل بعض الحرس رجلا في يده رقعة فيها شعر يتضمن وثاء البرامكة ، فنفذه ويحيى ، فلما مثل أمام الرشيذ ومأله عن ذلك واعترف رغم تحريم الرشيذ لوثاء البرامكة ، قال للرشيذ : يا أمير المؤمنين إن أذنت لي في حكاية حالي حكيته ثم بعد ذلك أنت ورايك ، فسمح له الرشيذ ، فذكر له أنه كان كاتباً من أصغر كتاب يحيى بن خاله وأرسلهم حالا ، فطلب منه يحيى يوماً أن يضيفه هذا الكاتب في داره ، فطلب منه الرجل أن يمهله بعض الوقت حتى يصلح داره ويهيئ أسباب الدهوة ، فأمهله حتى أصلح شأنه ، ثم دعا الوزير وإبنيه جهم والفصل ، فلما أكلوا قام يحيى يتمشى في الدار حتى انتهى إلى جدار منها وطلب بناء ، فاعتصرص الكاتب صاحب الدار على هدم الجدار خشية أن يفتح هذا الجدار على بيوت جدها ، فآلى الوزير ، وفتحوا الجدار وخرجوا من المئحة إلى بستان حسن كثر الأشجار والماء يتدفق فيه وبه من النقا صيد والمساكن والآلات والفرش ما يروق كل ناظر ، فمال له يحيى : وهذا المنزل وجميع ما فيه لك ، وأخبره أنه منذ أن حدثته في أن يضيفه قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة له وضمها داراً فخمة ونقل إليها من كل شيء ثم أنه وهب قايمة ضيعة لندر عليه مالا

(١) البيهقي ، تاريخ اليهودي ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٦

(٢) الهاشمي ، البرامكة ، بغداد ، ١٩٦٢ ص ٨٢ .

يستطيع أن ينفق منه على الدار والخدم ، ووجه عشرة آلاف دينار على الفور (١) . وتنبه لنا حفلات الأعراس التي يحجبها الخلفاء وأبناؤهم عن حياة الابهة والفخامة التي تتوفر في مجتمع الخاصة ، من ذلك زواج الرشيد بربيدة ، فقد ذكر أنه قدم لها من الآلة وصناديق الجواهر والحلى والتهجان والأكاليل وقياب الفضة والذهب والطيب والكسوة ، ولما زف إليها في ١٦٥ بقصر الخلد جميع الناس من الأقال ونشر عليهم الأموال ، فكانت الدنانير توضع في جوامات (أى أطباق مستديرة) من الفضة بينما كانت الدراهم الفضية توضع في جوامات الذهب ، وفرق عليهم نوافج المسك وأقداح العنبر وقوارير الطيب ، وخلع الوشى المنسوجة ، وبلغ ما أنفقته الرشيد من ماله الخاص خمسين ألف ألف درهم (٢) . ومنها زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد ذكروا أن المأمون أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة ملايين درهم ، وقيل أمهرها ليلة زفافها بألف حصاة من الباقوت ؛ وبصف المسمودي ما قدمه الحسن بن سهل يوم زفاف بنته فقال : « ونشر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينشره ولم يقبله ملك في جمالية ولا في إسلام ، وذلك أنه نشر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجه بنادق مسك فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصناعات دواب وعير ذلك ، فكانت الصدقة إذا وقعت في يد الرجل فتحملها فقرا ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فبعض إلى الوكيل الذي نصب لذلك فيقول له : حطمة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من

(١) ابن طهطا ، ص ١٨١ .

(٢) الشافعي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ ص ١٠٠ .

درستاقى كذا ، رجالية يقال لها فلانة الفلاية ، ودابة صفتها كذا . ثم نشر بعد ذلك هل سائر الناس الهناير والدرام ونوافج المسك ، وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أهام مقامه عنده حتى المكاريين والحمالين والملاحين وكل من ضمه اليه من تابع ومتبوع مرتفق وفهد ، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون بما يطعم ولا بما تمتلفه للبهائم (١) . وذكر ابن طباطبا أن الحسن بن سهل قد فرش للمأمون حصها منسوجاً من الذهب ولتر عليه ألف لواقظ من كبائر اللواقظ ، وبلغت جملة ما أخرج يومئذ خمسون ألف ألف درهم (٢) .

وذكروا أن المتعصم كافاً ألفيدين — بعد أن أخذ حركته بابل وقهض عليه — بأن توجه بتاج من الذهب مرصع بالجوهر وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا اليافوخ الأحمر والرمرد الأخضر قد شبك بالذهب ، والبسه وشاحين ، وزوج المتعصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس وزفت إليه وأقيم لها عرس تجاوز المقدار في البهاء والجمال (٣) .

هذه أمثلة قليلة للتميز عن مدى الثراء الذي كان ينعم به الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، ولكي تكمل صورة هذا المجتمع لا بد من تصوير حياتهم الخاصة داخل القصور . فن المعروف أن خلفاء بني المباس أسرفوا في الترفن في الآلة والتأنق وحرسوا على إنشاء الصروح العالية والقصور التي تبيد إلى

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢) ابن طباطبا ، ٢٠٣ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧١ .

الذاكرة إيران كسرى وأنصهر غمدان والخورنق والسدير ، ولعل خير شاهد على ذلك القصور التي أسسها المنصور في بغداد ومنها قصر الخليفة المسمى قصر باب الذهب أو قصر القبة الخضراء ، إذ كانت تعلوه عند منتصف أسقفه قبة عظيمة مخضرة اللون بأعلاها تمثال فارس في يده رمح ، ومنها قصر الخلد الواقع خارج باب خراسان على ضفاف دجلة (١) ، ومنها قصر الرصافة الذي أسسه المنصور في سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) لابنه المهدي وتم بناؤه في سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) على الضفة الشرقية لدجلة قبالة مدينة المنصور ، ومنها القصر الذي شيده جعفر البرمكي ليكون موضع لموه ومكان أسسه بالقرب من الرصافة ، وعرف القصر الجعفري ، ثم تبدل اسمه في عهد المأمون فسمى بالقصر المأموني حينما بنى القصر الحسن (نسبة للحسن بن سهل الذي أقام فيه بعض الوقت) حينما آخر ، ومنها قصران آخران أسسهما جعفر البرمكي على ضفاف دجلة وفيها وراء البسمانيين المعقدة مما الفردوس والتاج ، وقدمهما هدية للمأمون (٢) .

اتخذ الخلفاء داخل هذه القصور المجالس والقاعات وفرشوها بفاخر القروش وكسوا أرضياتها بنفيس الطنافس وجدرانها بروائع الصور والأخضرقة والتسبيقات . وفي هذه القاعات أقيم عجالس اللهو والطرب والشراب . وكان السماع رغم قصوته وعنفه يطرب من وراء الستارة أي دون أن يظهر للمنفين والموسميين ، ويصيح بالمطرب له من المنفنين : أحسنت واه أهد هذا للصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من ندائه ولا من مطربه إلا بصدلة من مال أو كسوة ،

(١) في لسنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فراميس ، بغداد

١٩٣٥ م ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٠٨ - ٢١٠ .

ويقول: لا يكون سرورنا مهجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مزجلاً، (١)
أما المنصور فقد شغل بالفتن والثورات، فانصرف عن حق مجالس اللهو والغناء
والطرب فإذا حضر مجلساً للغناء لم يكن يظهر نفسه قط ويحصل بينه وبين
الستارة مشرئ ذراعا وبين الستارة والندماء مثلاً. فإذا غناء المغنى فأطربه
حركات الستارة بعض الجوارى، فأطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول:
قل له أحسنت بارك الله فيك (٢)، وكان بهيلاً وشبه في ذلك بمبد الملك في بني
أمية، وذكروا أنه شوهد يوماً وعليه قميص مرقوع، وكان من عادته ألا يجتمع
أحد من ندمائه وصغيفه شيئاً من المال، وروى في ذلك أن سلام الحمادى
الذى كان يضرب به المثل في الخدماء حدا به يوماً فطرب حتى كاد يسقط من
الراحلة، فأجازه بنصف درهم، فقال سلام: يا أمير المؤمنين، والله لقد
حدوه لثمان [بن عبد الملك] فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقسم المنصور:
تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حدا، يا ربيع: وكل به من
يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أشفى بينهما وأروض المنصور
فما سكنت حتى قبل سلام على نفسه أن يحسد المنصور في ذهابه وإيابه بنفسه
مؤونة (٣).

ويقول المهدى الخلافة تالقت فنون الغناء والموسيقى وأبجع للناس ذلك

(١) المسودى، ج ٣ ص ٢٦٥.

(٢) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، القاهرة ١٩١٤ ص ٣٤، وأول من ظهر
لندماء من بني العباس الخليفة المهدى (السيوطى، ص ٢٥١).

(٣) الإيجي، المتطرف من كل، مستطرف، القاهرة ١٢٩٢ هـ، ج ١ ص ١٧٢ -
السيوطى، ص ٢٤٩.

سحق غلبت شهوة الفناء والطرب على طبقات المجتمع العباسي على اختلافها .
 وكان المهدي من أكثر خلفاء بني العباس حبا لهذا الفن ، وكان بلاطه يكتظ
 بالمنتهن وذوى المواهب الفنية أمثال حاتم الوادي وسباط وإبراهيم الموصل .
 ويشهر ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان يضح الأصوات
 ويلحن للطرب وليس للتكسب ، كما كانت يتقن الإيقاع على الطبل والورق
 النضائي (١) ، وقد بالغ المهدي في رعايته بالطرب وترك أمور الدولة لورثه
 يعقوب بن داود إلى حد أن بشار بن برد يسخر منه ويستثير بني أمية على
 استغلال هذه الظروف فيقول :

بن أمية هبوا طال نومكم . إن الخليفة يعقوب بن داود
 صاعى خلافتكم يا قوم فالدسوا . خليفة الله بين الناي والعود (٢)

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي العباسي من كبار المنتهن والموسيقيين
 في بلاط الرشيد والأمين ، وعد إبراهيم هذا زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية
 الفارسية بخلاف إسحاق الموصل الذي تزعم المدرسة التقليدية العربية (٣) . وكان
 طالما بمن الموسيقى والفن ، فألف كتابا في الفناء (٤) .

(١) سمر شيخاني ، أشهر فنّين عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٩٥ .

(٢) الجهمياري ، ص ١١٨ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٠ .

وف الجهمياري بين الزق والعود .

(٣) فارمر ، ص ١٤٧ .

(٤) ذكر ابن الزديم أنه كان لإبراهيم بن المهدي دمنعة في الفناء يتقدم بها كل
 أحد ، وكان إسحاق وإبراهيم يبله بأغنان عنه ويتحاكم المنون إليه في صناعتهم ، (المهرست ،
 ص ١١٦) .

وكان الهادي رغم قصر عهده مغرماً بالفناء والموسيقى، ولهذا فقد قرب إليه ثلاثاً من المغنين هم : إبراهيم الموصلي وابن جامع وحكم الوادي . أما هارون الرشيد فقد أسرف في عنايته بالمغنين والمغنيات والموسقيين ، وأنفق في ذلك الأموال الطائلة حتى تجمعت لديه من أصحاب المواهب شخصيات عديدة لامة، منهم : ابن سامع ، ويحيى المكي ، وزلول ، ويزيد - حوراء ، وفليح بن أبي الموراء ، وهبة الله بن دحان ، وإسحق الموصلي ، وخارق ، والغنوي ، وهبة الرحيم الدقاق ، وابن قتيلا الطنبوري ، ومسكين المدني ، وفريدة ، وعلوقة ، وابن الحارث ، وهريرة النزال ، وبرصوما الزامر ، ومحمد الهدف (١) ومن العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الأعداد الهائلة من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنخاسة في بغداد ، واتساع ثرواتهم لذلك ، وشغف الناس بالنساء مما استلزم اهتمام النخاسين بتلقين الجوارى أصول فنون الفناء والموسيقى مع القدرة على العزف بالآلات وتحميل قدر واف من فنون العصر والأدب (٢) .

وكانت مجالس الرشيد تنص بكبار المغنين والجوارى المغنيات والموسقيات، وروى أنه اتخذ أنى حارية لكل منها ميزة خاصة تميزها عن غيرها ، تصحبهن ثلاثمائة فتاة للنماء والموسيقى ما بين جنكبة (أى ضاربة على الجذك) وهودية وهدية وقانونية وزامرة وراقصة ومغنية وسنطرية (أى ضاربة على السنطرة وهي آلة وترية) وذكروا أنهم حضرن يوماً بين يديه ، فغنته المغنيات منهن ،

(١) فارمر ، ص ١١٢ .

(٢) الحنفى ، إسحق الموصلي الموسيقار القديم ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، ص ٥٨ .

فطرب جدا وامر بمال فنثر عليهم ، وكان مقدار ما حصلته كل مغنية في ذلك اليوم ثلاثة آلاف درهم (١) . وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم إبراهيم الموصلى وابن جوامع وغيرهما ، وكان له رامر يقال له برصوما ، وكان إبراهيم أشدهم قصرفا في الغناء وابن جوامع أحلامهم نغمة ، فقال الرشيد يوما لبرصوما : ما تقول في ابن جوامع ؟ قال : يا أمير المؤمنين وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو طيب . قال : فأبراهيم الموصلى . قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين (٢) .

وكان الأمين بن الرشيد مولعا باللهو والطرب ، حتى آثره على جميع لذاته ، وروى إبراهيم بن المهدي أن الأمين بحث في طلبه أيام كان عاصرا ، فذهب إليه ، فإذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة ، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في جوف الطارمة ، وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنًا بأنواع الحرير والذهب المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبرسم ، فسلم وجلس بإزاء سليمان ، وكان أمام الأمين قدح بلورى مخروز فيه شراب وبين يدي سليمان مثله ، فقال له الأمين : دعوتكما لأفروح بكما وبجدهشكما ، فأقبل يحدثانه حتى سلاهما كان يحمده ، ودعا بجمارية من خواص جواريه فغنت (٣) . وذكر الطبري أنه وجه إلى جميع البلدان في طلب الملبين ، وضمهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخويه وأهل بيته واستغف بهم وبقواده ، وقسم ما في بيوت الأموال ، وما يحضرته من الجواهر في فتيانه

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الإشبيلي ، ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) للسرودي ، ج ٣ ص ٣٩٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٠ .

وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمختزماته ومواضع خلواته ولهموه ولعبه ،
وحمل خمس حراقات في حجلة على صورة الأسد والفيل والمقاب والحية والفرس ،
وانفق في عليها أموالاً ضخمة (١) . وانفس الأمن في اللهو واللذات حتى
أخفل شؤون الدولة ، وذكروا أنه إذا طرب لى نفسه . وذكر أنه ابتغى سفينة
هظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم وانحسذ أخرى على شكل دلفين
بحري (٢) . وروى الطبري عن غارق قال : دمرت بي ليلة ما صرته بي مثلها
قط ، أتي لقي منزلي بعد ليل ، إذ أتاني رسول محمد وهو خليفة [يقصد محمد
الأمن] فركض بي ركضا ، فأتني في داره ، فأدخلني ، فإذا إبراهيم بن المهدي
قد أرسل إليه كما أرسل إلي ، فوافينا جميعا ، فأتني إلى باب مخض إلى صحن
فإذا للصحن علوه شمعا من شمع محمد العظيم ، وكان ذلك الصحن في نهار ، وإذا
محمد في كرج (٣) ، وإذا الدار علوة وصائف وخدام ، وإذا الصابون يلعبون
ومحمد وسطهم في الكرج يرقص فيه ، فجاءنا رسول يقول : قال لكما قوما
في هذا الموضع على هذا الباب عما يلى للصحن ثم أرفأ أصواتكم مبرا ومقصرا
عن السوراي [آلة موسيقية] . وأتبعناه في خلفه : قال : وإذا السوراي
والجوارى والعابرون في شيء واحد :

• هذى دنالير تنسائي وأذكركها •

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢١٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٤ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٢١٦ .

(٣) يتكون عن تماثيل خيل مسرجة من الخشب تملأ بأطراف ألبسة ناعمة النساء
يماكين بها امتطاء الخيل ، فيكرونها ويكرونها ويتنافون في الولايم والأمراس والأعياد
ومجالس القرائع واللهو (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٦٦) .

يتبع الإمام؛ قال : فلو الله ما زلت وإبراهيم قائمين نقولها ، أشق بها حلوقنا حتى انطلق الصبح ، ومحمد في الكرج ما يسامه ولا يله حتى أصبح يدنو منا ، أحيانا نراه وأحيانا يحول بيننا وبينه الجوارى والخدم (١) .

وروى الطبري عن إبراهيم بن المهدي أنه غنى محمد بن زبيدة :

هجرتك حتى قيل لا يعرف القلي . . . وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب محمد وقال : « أوقروا زورقه ذهباً » (٢) .

أما المأمون فلم يكن يميل كثيرا للطرب ، حتى قيل إنه أقام بعد صودته إلى بغداد عشرين شهرا لم يسمح فيها فناء ، ثم أخذ يضممه من وراء حجاب (٣) .

وكان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالفناء ، وكان يضع الألحان المصحية ، وينفي بها شره وشعر غممه ، فقال الواثق لإسحق الموصلي يوما : « يا أبا محمد لقد ففص أهل العصر في كل شيء ، فغنى شعرا أرتاج إليه وأطرب ظليهم يومى هذا ، ففناء إسحق هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما في البين من حرق . . . حتى تنادوا بأن قد جرى بالسفن
قامت تودعني والدصبح ينالها . . . فهممت بعض ما قالت ولم تن
مالت إلى وضعتني لترشفتني . . . كأنهم نسيم الريح بالنفن
وأهرضت ثم قالت وهي باكية . . . هاليت صرقتي إليك لم تكن

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٢٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

(٣) شيبان ، ص ١٢٦ .

قال إسحق : د فخلع على خلعة كانت عليه ، وأمر لي بمائة ألف درهم ، (١) .
ولم تكن مجالس للطرب فاصرة فقط على الخلفاء وإنما كانت شائعة لدى
الخاصة من الوزراء والكثاب ، فكان جعفر بن يحيى البرمكي يجلس للشراب
والخلوة مع قدمائه الذين يأمن بهم ، وكانوا إذا جلسوا مجلس الشراب واللهو
لبسوا الثياب الحر والصفير والخضر ، ثم تدار عليهم الكزوس وتخفق
الميدان (٢) . وروى إبراهيم بن المهدي أنه دعى يوما في خلوة لجعفر بن يحيى
مع قدمائه ، قال : د فأتيته عند الفجر فوجدته الشروع قد أوقدت بين يديه
وهو ينتظرنى فى الميماد ، فازلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى فقدمت إلينا
موائد الأظمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم
خلعت علينا ثياب المتأدمة ، وضبخنا بالخلوق ، وانتقلنا إلى مجالس الطرب ،
ومدت الستائر ، وغنت القينات ، فظللنا بأنعم يوم ، (٣) .

وقد اهتم العباسيون بتدوين النناء ومذاهبه ، وأول من دون النناء
يونس بن سليان الكاتب المعروف بيونس المسمى فى العصر الأموى ، فوضع
كتابا فى النغم (٤) ، والخليل بن أحمد الذى صنف كتابا فى الموسيقى ، قيد فيه
الألحان وأصناف النغم (٥) ، ويحيى بن أبى مرزوق المسكى الذى ألف كتابا فى
الألحان جمع فيه اثنى عشر ألف صوت . وألف إسحق الموصلى كتابا فى الأغاني

(١) الإبراهيمى ، المنظر ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) ابن طباطبا ، ١٨٧ .

(٣) الإبراهيمى ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ص ١٥٤ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

وأخبار عزة الميلاء وكتاب أغاني مبيد، وكتاب الأغاني الكبير (١) : ومن كبار الكتاب في الأغاني أبو الحسن علي بن هارون بن علي ، ألف رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي في الغناء (٢) . وعن كتب في الأغاني من المستقلين بالموسيقى والغناء : جحظة البرمكي وكان حاذقا بصناعة غناء الطنبور ، وصنف كتاب الطنبورين (٣) ، وأبو أيوب المدني الملقب الذي ألف عدة كتب في أخبار المغنين ، وقريش الملقب من حذاق المغنين ، وألف كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنين .

وفي العصر الهباسي الأول دخلت أنواع جديدة من آلات النغم ، فقد أدخل زلزل نوطا من العيدان سعى بالعود الكامل والعود الشبوط (٤) ، وأدخل زرياب وترا خامسا في العود ، واتخذت آلات جديدة كانت معروفة عند الفرس كالكرج والجهنك والقهبوز والنأي والكوس ، وظهرت التخصصات في طائفة من المغنين والموسقيين : فزاول كان إمام العوادين ، وبرصوم كان أبرع من هوف بالنأي والمزمار ، وجعفر الطبلال كان خبيرا من وقع الطبل والكوبة ، وإبراهيم الموصلي أول من وقع بالقضيب (٥) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) تاريخ ، ص ١٣٠ .

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٦ ص ٣٢ .

(٢)

مجتمع العامة

وهو مجتمع عامة الشعب وسواده الأعظم ، وهم طبقتان :

١ - طبقة وسطى تشتمل على فئات من الناس أقل نسبياً في المستوى الاجتماعي من الخاصة ، ومنهم المؤدبون والوظائف والشعراء والمثقفون والتجار والأطباء .

٢ - طبقة العامة ، ومنهم الزراع والقطار والعمال وأرباب الحرف والصناعات والباعة والخدم .

أما الطبقة الأولى من العامة وهي التي سميناها الطبقة الوسطى فكانت موضع احترام وتقدير الخاصة والعامة على السواء ، ومنهم المؤدبون الذين تفرسوا إلى الخفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بعلوم وثقافتهم ، وكان الخاصة يهدون إليهم بتأديب ابنائهم ويذكر الجاسط أن المعلمين على ضربين . منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشعين للخلافة ، (١) ، وكانت مهمة المعلمين أو المؤدبين لا تعدو تعليم الفقه والأدب وأصول الحرب وتاريخهم (٢) ، وآداب الملوك وقواعد السلوك التي يلتزم بها الخاصة . كنع الضحك إلا في وقته ، وشغل أوقات الفراغ بما يفيد ، والتقويم باللائحة ثم بالشدة والناظ والتعريف بمواقع الكلام وبداء (٣) والتعجب إلى

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، طعة دار الفكر للجمع ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، نوادر الجاحظ ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٨٢ .

(٣) للسودي ، ج ٣ ص ٢٥١ .

الناس (١) ، ومن أشهر مؤدب أبناء الخلفاء الكسائي عالم اللغة المشهور وكان مؤدبا للرشيدي ثم للأمين والمأمون (٢) ، ويحيى بن المبارك النحوي مؤدب المأمون (٣) ، والآخر النحوي مؤدب الأمين (٤) ، وجعفر بن محمد بن الأشعث ، والفضل بن يحيى مؤدبا الأمين (٥) .

وكان يحيى بن خالد البرمكي قيا بأمر الرشيد ، وكان الرشيد يدعو دائما بالآخرة (٦) ، وكان حميد الجوهري قيا بأمر المأمون ، وكان مؤدبه أبو محمد اليزيدي ، وكان يستخدم القدرة لتقويمه (٧) ، وكان اليزيدي من كبار النحويين في العصر العباسي الأول ، وكان يتولى تأديب ولده يزيد بن منصور الحميري حال المهدي ، فنسب إليه ، ثم اتصل بالرشيد فجعل المأمون في حجره يؤدبه ، بينما كان الكسائي يؤدب الأمين ، وحلم اليزيدي المأمون الآراءات والشمع (٨) .

ومن أشهر مؤدبي الخليفة أبو عمرو إسحاق بن مرار القتيبي (٩١٣هـ) وكان راوية واسع العلم باللغة ثقة في الحديث كثير السماع (٩) ، ومنهم أبو هيب

(١) الجهني ، ص ١٣٧ .

(٢) الإزبل ص ١٥٧ — ابن النديم ص ٦٥ .

(٣) ابن النديم ، ص ٦٥ .

(٤) السودي ، ج ٣ ص ٣٥١ .

(٥) الجهني ، ص ١٤٨ .

(٦) السودي ، ج ٣ ص ٢٣٣ — الإزبل ، ص ١٦١ .

(٧) الإزبل ، ص ١٨٦ .

(٨) الإزبل ، ص ٢٠٦ .

(٩) ابن النديم ، ص ٦٨ .

القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) وكان حلالاً ثم اشتغل مؤدباً لبنى هرثمة (١) .
ومن مؤدبي العامة أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير (ت ٢٣١) وكان معلماً
للأمة وأحد القراء (٢) .

وكان المؤدبون بوجه عام من الشخصيات المرموقة في المجتمع العباسي ،
وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة تختلف حسب الطبقة التي يشتملون عليها ، كما
كانوا يحصلون على كثر من الهبات والعطايا .

ويمكن أن نعتبر الوراق من نفس مرتبة المؤدبين ، مع الاختلاف الواضح
بين عمليهما ، فالوراق ينصح الكبار بمظانته التي اكتسبها بدراسته للسهر والتاريخ ،
أما المؤدب فمهمه يقتصر على تعليم الصغار آداب السلوك واللغة والفقه وما إلى
ذلك . ومن الوراق المعروفين زمن المهدي صالح بن هب الجليل ، وكان ناسكاً
مفروباً ، يهبط المهدي فيمكيه طويلاً (٣) . ومنهم أبو العباس محمد بن صبيح
الوراق المعروف بابن السماك وكانت له مواظب كثيرة ومتامات عظيمة ، وكان
يهبط الرشيد حتى يسكيه (٤)

ويدخل في عداد الطبقة الأولى من مجتمع العامة الأطباء والجراحون
والكحالون والأستائيون وأطباء النساء والمحاضن وأطباء الجعائين ، وقد
اشتهر في هذا العصر عدد من الأطباء منهم آل بختيشوع النصارى الفرس وأولهم
جورجيوس بن جبرائيل الذي خدم المنصور ، وكان حظاً عنده رفيع المنزلة

(١) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٣) الجعائري ، ص ١٠٩ .

(٤) الإبريل ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

ونقل له كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية، وكان المنصور يهرول عليه الأموال (١)،
وتألق بمختيشوع بن جورجس في عهد الرشيد، وفاق أطباء البلاط العرب
وعلى رأسهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري (٢)، وكان ابنه جبرائيل
ابن بمختيشوع مشهوراً بالفضل جيد التصرف في المداواة والملاج حظياً عند
الخلفاء رفيع المنزلة عندهم، وقال منهم هبات كثيرة لم يلقها غيره من الأطباء،
وكان صاحب الفضل في علاج حظية الرشيد، بدون أدمان، فأمر الرشيد له
بمئة ألف درهم وأحبه مثل نفسه وجعله رئيساً على جميع الأطباء، وكان
الرشيد يقول لأصحابه: كل من كانت له إلى حاجة فليخاطب بها جبرائيل
لأن أفضله كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، فكان القواد يصدقونه في كل
أمرهم (٣). ولما تولى محمد الأمين الخلافة أدنى إليه جبرائيل وأكرمه ووهب
له أموالاً جليلة أكثر مما كان الرشيد يهب له، وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب
إلا بإذنه (٤)، كذلك حظى بتقدير السامون، وأمر له مرة بألف ألف درهم
والمكر من الخنطة (٥).

كذلك برع من الأطباء عبد الله الطيفوري وابنه زكريا الصيدلاني،
ويزيد بن زيد بن إرسنا متطبب المأمون؛ وسهل الكوسج طبيب هرثمة بن
أعين، وموسى بن إسرائيل الكوفي متطبب إبراهيم بن المهدي، وسلمويه

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٨.

(٤) نفس المصدر، ص ١٨٩.

(٥) نفس المصدر، ص ١٩٠.

ابن بنان متطلب المعتصم ، وجبرائيل كمال المأمون ، وياسويه طبيب الرشيد ، وابنه يوحنا طبيب الامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وغيرهم (١) . وقد ترتب على عظم مكانة الأطباء وسمو منزلتهم تضخم ثرواتهم ، فجبرائيل ابن بختيشوع قدرت ثروته التي كوانها من خدماته إلى الخلفاء والخاصة بنحو ٩٠ مليون درهم (٢) ، كما أن أبا بختيشوع اكتسب من عمله في خدمة الخلفاء من الصفاح إلى الرشيد ما لم يكسبه أحد (٣) .

ويعتبر الصافي التجار — لكثرة ثرواتهم — من طبقة الخاصة ، ولكننا نعدم من العامة لتعاملهم مع الأهل والعامة واحتكاكهم — مبداً — بالأسواق والدعاه ، ولجوء الكثير منهم إلى الغش والكذب ، وكان معظم تهمار الصراق في العصر العباسي الأول من اليهود الرمدانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والاندلسية والصقلبية (٤) ، ثم أقبل المسلمون على التجارة عندما نهضت الحركة التجارية بسبب كثرة الوارد والصادر وظهور الشركات التجارية . والتجار في العصر العباسي الأول ثلاثة أنواع : التجار الحازن ، الذي يخزن نوطاً من السلع لا يظهره إلا عند ارتفاع ثمنه بسبب هدم توفره في السوق ، والتاجر الركاض ، الذي ينتقل من موضع إلى موضع وهو ركب السهل والصعب ويعتزل فيه المعرفة والتبصر ، وأخيراً التجار الجهمز

(١) راجع : ابن أبي أصيبعة ، ص ٢١٤ — ٢٢٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٩١ — القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١٤٣ .

(٣) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ليزج ، ١٩٠٣ ص ١٠١ .

(٤) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ، ص ١٠٣ .

المستقر في السوق ببلده (١) . وأهم هؤلاء التجار جميعا أولئك الذين ينتقلون في أقطار الأرض ، فيصدون الصين والهند والمغرب والأندلس وبلاد الروم والبلغار والحبش والصفالية ، فيستوردون ويصدرون ، وقد أورد لنساء الجاهظ قائمة بأسماء السلع التي كانوا يصتوردونها كالحيوف والحرير والنضار (الخرف) والكاغذ والياقوت والصندل والابنوس والادم والمقيتي والمسك والعمود والفنك (دواب ذات أفرية) والطنافس والثياب الموشية ، والقولق ، والمبين والرقيق (٢)

وقد أثنى هؤلاء التجار ثراء فاحشا لكثرة ما كانت تدور تجارتهم عليهم من الأرباح ، إلى حد أن بعضهم أقرض إبراهيم بن المهدي مالا كثيرا عندما وثب على الخلافة ، وبطبيعة الحال كانوا يتممون بهياتهم ويمشون في قصور فخمة ، ويقضون الجواري والإماء ، ولهذا أثروا في المجتمع العباسي تأثيرا حميدا .

أما المغنون والقصراء فكانت لهم منزلة عليا في الدولة العباسية ، لولوج الخلفاء بمجالس الأدب والطرب ، وقد ظهر في العصر العباسي الأول عدد كبير من المغنيات أو الجواري المغنيات أمثال جمال الصوفة ورقته ، وبسمو الثقافة ، وكان إبراهيم الموصلي يقفني منهن الكثيرات ، يشترين من أسواق النخاسة ثم يتولى تدريجهن حتى يمتقن الغناء ، ويبيعهن إلى الأمراء والوزراء والخاصة وأصحاب النفوذ بأسماء مرتفعة ، وقد برعت منهن دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي ، وذاته الحال التي اشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم ، وبذل جارية

(١) صلاح حيدري ، المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع : الجاهظ ، النهر والتجارة ، ص ٣٣ - ٤٢ .

الأمين ، وعرب جارية المأمون ، ومقيم الهاشمية جارية المتصم ، وكانت لشدة أناقتهما أول من عقدت زنارا وخيظا من الحرير في طرف الإزار .

وحفل العصر العباسي الأول كذلك بمسدد هائل من الشعراء الكبار الذين ضمنوا شعرهم الكثير من الموضوعات واستحدثوا في الشعر العربي أغراضا جديدة في الممانى والموضوعات والأساليب ، من أشهرهم أبو نواس ، الشاعر الخليل الذي يمكن شعره صورة مجتمع الخاصة والعامة على السواء ، وبشار بن برد الذي أكثر من شعر النزل والتشبيب بالنساء ، والشاعر أبو العتاهية الذي عرف بهاعر الزهد والوعظ .

أما الطبقة الثانية من مجتمع العامة ، فكانت تشمل فئات وأحلاف غشيد منظمة من العامة ، في مقدمتهم أرباب الحرف والصناعات ، وهم فريقان : فريق يعمل في المؤسسات الخاصة والحكومية كدار الطراز ودار الضرب أو المصانع الخاصة بالزجاج والبلور وصناعة الخزف المعدنية والماجية والمرقاة والبناءون ، وفريق يشغل لحسابه الخاص كالفخارين والحصارين والنجارين والصغارين والوراقة والمصاغة والمصاجين والمصاين والمصاغة والأساكفة والحياطين ، وكان معظم المشتغلين بهذه الصناعات من أصول غشيد هربية أو من أهل الذمة يهودا ونصارى كما اشتغل بها فئات من الرقيق (١) . وكان أصحاب الحرفة الواحدة يرتبطون فيما بينهم برابطة الانتماء إلى المهنة التي يعملون بها ، وقد ساعد ذلك على تجمع كل منهم في سوق خاصة بالحرفة التي ينتمون إليها ، وتضامتهم فيما بينهم ، وكان لذلك أعظم الأثر في قيام تنظيما حرفية تشرف

(١) الصابي ، تحفة الأمراء في تلويع الوزراء ، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢ .

عليهم وتدافع عنهم أقرت الدولة بوجودها ، ويسمى رئيس كل حرفة بشيخ الصنف (١) ، أو شيخ الصنعة ويليه الأستاذ ، ثم الصناع المحترف ، ثم المبتدئ (٢) . وبفضل عناية الحكومة العباسية وإشرافها على الصناع وأرباب الحرف عن طريق المحاسب ، تقدمت بعض الصناعات ، كالنسيج المصراني الذي أصبحت له شهرة عالمية ومنه الموصلى والعتابى والنستري .

أما الزراعة فكانوا يمثلون السواد الأعظم من سكان القرى ، وكان معظم الزراع من الموالي الفرس أو من بقايا الرط أو من العبيد الزنج ، ومهدت الدولة العباسية إلى منع الزراع من الهجرة إلى المدن خشية أن تتناقص الأيدي الزراعية العاملة في الريف (٣) . واهتم الخلفاء العباسيون منذ أبو جعفر المنصور بنظام الري فحفروا القنوات وطهروا الترع ، رشحسوا بذلك على ازدهار الزراعة وتحسين حال الزراع .

(٢)

الآزياء وأقوات الزينة

تأثر العباسيون في العصر الأول بالتقاليد الفارسية في جميع مناحى الحياة ، ويهتجلى هذا التماثل بصورة واضحة في الآزياء ، فالتدميز للعباسيون بين طبقاته المجتمع في الري جارياً في ذلك على نفس التقاليد التي كان يعمل بها ملوك الفرس الساسانيون ، فكان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة

(١) البلقوني ، البلدان ، ص ٢٤٨ — التنوخي ، الفرج بعد القعدة ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) رسائل إخوان الصفاء وخلال الوفاء ، القاهرة ١٩٢٨ ، ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) صلاح جدي ، ص ١٢٧ .

من في خدمتهم لباسا لا يلبسه أحد من في عهد تلك الطبقة ، فإذا مثل الرجل أمام الملك عرف صنمته من لباسه (١) .

وكانت الأزياء على هذا النحو تختلف في العصر العباسي في أشكالها وأنواعها وطرق صناعتها باختلاف الوظائف وحتى الأديان ، فكان للقضاة زي وللشرطة زي وللكتاب زي ولكتساب الجند زي (٢) ، ولتجار زي (٣) ، وكان لحراير النساء زي ولكل مملوك زي والإمام زي (٤) ، وكذلك اختلفت المهائم فكان الفقهاء حمالة وللخلفاء حمالة وللنصارى حمالة (٥) ، وكان أصحاب السلطان ومن دخل داره على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنة ، ومنهم من يلبس الحريرة (٦) ، ومنهم من يلبس القباء ومنهم من يلبس الباز بكفد ويلحق الخنجر ويأخذ الحرز ويتخذ الجمرة (٧) ، وكان الشمرام يلبسون الرشي والمقطعات والأردية السوداء (٨) .

وكان اللون الأسود هو اللون السائد في الأزياء في العصر العباسي ، واستمر للسواد رمزا للخلافة العباسية ، ويذكر المؤرخون أن الرشيد ليس بطوس

(١) الجهمياري ، ص ٢ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٦ .

(٣) ابن الجوزي ، ذم الهوى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ٤٧٥ .

(٤) الجاحظ ، ص ٩٥ . وذكر الخطيب البغدادي أنه كان للذوذين زي ولخطباء

المساجد زي (الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ، ج ١ ص ٤٨) .

(٥) الجاحظ ، ص ١٠٦ .

(٦) ص ١٠٦ .

(٧) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

يوم وفاته جبة سوداء خبز بنفير قيص وعليها فنك وفوقها دراعة خضراء سوداء
مبطنة بفنك ، وعلى رأسه للفسوة طويلة وحمالة خبز سوداء وتطلس بطليسان
أسود (١) ، وكان الأميين يوم قتل يلبس ثيابا بيضاء وسراويل وعليها طليسان
أسود (٢) . وكان المأمون قد منع السواد يوم بايع على الرضا بن موسى
الكاظم بولاية العهد وأمر بتغيير لباس آباءه بلباس الخضرة (٣) فلما حاد إلى
قصره ببغداد بعد مصرع الأميين ، كان الناس يختلفون إليه في كل يوم مسلمين ،
ولباسهم الثياب الخضرة ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا في خضرة ، وساد اللون
الأخضر رى أهل بغداد جميعا ، وكان الناس يشرقون ويمزقون كل ما لديهم من
الأردية السوداء باستثناء القلانس ، ومع ذلك فكان بعضهم يلبس القلانس
السوداء متخوفا ، وبخلاف القلانس لم يكن أحد يجترأ على لبس أقبية أو
طلياس أو أعلام سوداء . فلما حادثه بنو هاشم في ذلك وقدم طاهر بن الحسين
وعاطبه هو وقادة أهل خراسان ، استجاب لهم واستدعاهم فقدموا ، ولما
اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ، ودعا بخضرة سوداء فكساها طاهر بن الحسين ،
وسلخ على عدة من قواده أقبية وقلانس سوداء ، فلما خرجوا من عنده وهلم

(١) الجعفي ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٥ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

وفي ذلك يقول « وأمر المأمون بنزع لباس السواد ولبس الخضرة ، وكان هذا في
خراسان ، فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نزع الخلافة من البيت العباسي
إلى البيت العلوي وتغيير لباس آباءه وأجداده بلباس الخضرة أنكروا ذلك » .

وفيه يقول المستوفي : « وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر هدلا من
ذلك الخضرة في اللباس والأعلام وغير ذلك » (ج ٣ ص ٤٤١) .

السواد ، طرح سائر القواد الخضره ولبسوا الدواد ، (١) .

وإذا كان السواد أصبح اللون السائد في الثياب الرسمية ، فقد اتخذت
العنادمة ثياب مصبوغة زاهية (٢) ، وهي ثياب نخر معل ، أو ثياب مصبوغة
بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء (٣) . وكان يعقوب بن داود وزير
المهدي يلبس في بعض الأحيان ثياباً وردية (٤) ، ولبس الرشيد طيلساناً
أزرق اللون يوم وفاة الخيزران (٥) ، وكان المنصور يأمر أهل بيته بحسن
المهبة وإظهار النعمة وبلووم الوشى والطيب (٦) ، كما أمر بعدم لبس السراويل
الكتانية (٧) .

وتنقسم الألباء الرجالية إلى ثياب للرأس وأخرى للبدن ، فأما لباس
الرأس فيقتصر عادة على العمامة أو العصابة والقنسوة ، والعمامة والمصابة مدوارة
في رأى الجاحظ (٨) ، وكانت العمامة لباس الرأس عند العرب منذ عصر
الجاهلية ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : العمامة تهبان العرب ، وقيل لأهراوى :
إنك لتكثر لبس العمامة ؟ قال : إن شيئاً فيه لسمع والبصر لم يدرك أن يورق من

(١) ابن مفلور ، ص ٢ .

(٢) الإبهيم ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٧٨ .

(٤) البهشارى ، ص ١١٩ .

(٥) الإزهد ، ص ١١٧ .

(٦) الطبرى ، ج ٩ ص ٣١٦ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٨) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

الحرب والقتل (١) ، ويذكر أبو الاسود الدؤلي عن قائدة امامة فيقول : ورجنة في الحرب ومكنة من الحر ، ومدفأة من القبر ، ووقار في الندى ، وواقية من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي بعد عادة من عادات العرب ، (٢) وكانت المامة تتخذ من الشروب الرايضة أو القطن أو الوشى المذهب ، ومن حيث اللون كانت المائم في العصر المباسي عادة سوداء ، أما إذا كانت صوفية فتكون مصبوغة (٣) .

ولذا كانت المائم تيجان العرب وعادة من عاداتهم ، فإن القلائس كانت تمطر مظهرا من مظاهر كال الرجولة عند العرب ، فقد قال الامام علي رضي الله عنه : تمام جمال المرأة في خفيها ، وتمام جمال في الرجل في كفته [أي قلنسوته] ، (٤) ، ولهذا تفنن الناس في أشكالها ومادتها ، وأصبحت القلائس تسمى بأسماء البلاد التي تصنع فيها ، فن حيث الشكل وجدت في العصر المباسي قلائس مستديرة ، تدرف بالهدنية لأنها تشبه المدن . والقلائس للطايفة التي تطوق الرأس وتسمى به ، والقلائس الدورية الذهبية بالقورق (٥) ، ومن حيث المواضع التي اشترب بصنعائها وجدت القلائس الرصافية (٦) (من

(١) البيان والبيان ، ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) بدرى فهد ، المامة ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ .

(٤) البيان والبيان ، ص ٩٠ .

(٥) صلاح حيدري ، ص ١٤ .

(٦) الجبجباري ، ص ١٦٧ .

الرصافة () والقلانس السوداء الشاشية (١) والقلانس المحكية (٢) ، ومن - بث
الصناعة اتخذت القلانس من الكاغ - (٣) أو القصب أو السمور (٤) .

وفي سنة ١٥٣ أمر المنصور الناس بلبس القلانس الطوال انقرطة الطول ،
فقال أبو دلامة

وكنا نرجى من إمام زيادة . . . فراد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها . . . دنان يهود جللت بالبرانس (٥) .

أما ثياب البدن ، فهي الداخلية كالتحصان والسراويل ، فسكان القمصان
تصنع من الكتان الناعم وكان يذاب عليها اللون الأبيض ، أما السراويل فكانت
بيضاء في العادة ومزيلة ، وفي بعض الأحيان يلبسون الفضائل الرقاق وذكر
ابن الأثير ، أن السفاح ترك بعد وفاته تسع جباب وأربعة أفصة وخمسة
سراويل وأربعة طيالة وثلاثة مطارف خر (٦) . أما الثياب الخارجية التي
تلبس فوق الأفصة والسراويل فهي الدرايع والطياصة والجباب والأقبية .

— الدرايع : (جمع دراعة أو مدرعة) ، وهي جباب مشقوفة من

(١) الحمدي ، ص ١٢٤ ، ١٧١ — نسبة إلى بلاد الفاش (انظر : Dozy ,
Dictionnaire des Vêtements, p. 420) .

(٢) ابن طيغور ، ص ٩٣ .

(٣) ابن العاد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤) المسعودي ، روج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٥) الطبري ، ج ٩ ص ٢٨٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦١٠ — الإبري ، ص ٨٥ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٠ .

فكانت المراكب لا تخلو من بابها (١) وفي عهد الرشيد أصبحت الخيزران هي
الناظرة في الأمور، وكان يحيى بن خاله الوزير يهتد بالأمور إلى هرون بن
رأبها (٢). ولما توفي في ٣٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧٣ هـ شهيد الرشيد
وعليه طيلسان أزرق قد شد وسطه وطو أخذ بقائم السرير عافيا يهدو في الطين
حتى أتى مقام قبرهش، ففصل رجله ودعا لخفف، فصلى عليها ودخل قبرها،
فلم يخرج من المقبرة، ووضعه له كرسى، فجلس عليه ودعا الفضل بن الزبيع وقال:
« وحق المهدي إن لأهم بالشئ لك من القيل القولية وغيرها فتمننى إلى فأطبع
أمرها... » (٣). وذكر ابن الأثير أن وفاة الهادي إنما حدثت بهرتينها،
فقد أهرت عددا من جوارها بقتله، « وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولي
الخليفة كانت تستبد بالأمور وتسلط به مملك المهدي حتى مضى أربعة
أشهر، فانتال الناس إلى بابها... » (٤). وذكر السيوطى عندها تعرض لذكر
الهادي: « كانت أمه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار » (٥). ولكن استبدادها
سواء في عصر المهدي أو الهادي أو المستندين الأولين من خلافة الرشيد لم يكن
من جمل. والظاهر أنها كانت مستفيدة على قدر كبير من الثقافة، ومن
المعروف أن جميع المنشآت العلمية وحركة الإصلاحات الاجتماعية والإقتصادية
التي قام بها المهدي إنما نفذت بتأثير زوجته الخيزران، وكانت تقوى البيت في

(١) السویدی، ج ٣ ص ٣٢٧.

(٢) الإربل، ص ١٠٨ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٨.

(٣) الإربل، ص ١١٧.

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٠.

(٥) السيوطی، ص ٢٦١.

الأمور في عهد الهادي والرشد ، ووافقت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم محمد الأمين (١) ، التي يرجع إليها الفضل هي الأخرى في تنفيذ بعض المشروعات الإصلاحية ، فإنها ينسب حفر بئر زمزم في سنة ١٩٠ هـ ، فقد اتفق أن حجت في هذه السنة فتال الناس عطش جديد ، وغارت زمزم حتى نضب ماؤها ، فأمرت بتعميق البئر تسع أذرع ليزيد الماء (٢) . وكان الرشيد يهجد بها وجدا شديدا (٣) ، ويستجيب لرغباتها ، وهي التي حرصته على البرامكة ، إذ كانت تكره يحيى بن خاله وتذمه وتشبه أكثر ما يثلب به أحد (٤) . وكانت يوران بنه الحسن بن سهل وزوجة المأمون قد طلبت منه أن يعفو عن إبراهيم بن المهدي ، وكان قد سجنه في دار أحمد بن أبي خاله ، فاستجاب لرغباتها وأطلقه ورضى عنه (٥) على الرغم من أن إبراهيم كان قد خرج على المأمون وبويع له بالخلافة .

ومن الجدير بالذكر أن نساء الخلفاء كن مستنهرات ، وكانت بعضهن شاعرات ينظمن الشعر ويحضرن بالمجالس والمناظرات من وراء الستار ويعتركن في مناظرة الرجال (٦) . وبالإضافة إلى نساء الخلفاء ، فإن للجواري المغنيات أثر كبير في تقدم الحركة الفنية والأدبية ، فقد كانت بعضهن شاعرات ، نذكر منهن عريب جارية المأمون التي قيل عنها إنه لم يرا امرأة قط أحسن وجهها

(١) تزوجها الرشيد في سنة ١٦٥ هـ ، وكنيتوا أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور .

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) الجعفي ، ص ١٢٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن طبري ، ص ١٠١ .

(٦) ابن أبي الجوزية ، أخبار النساء ، طبعه بيروت ، ١١٧ .

أو الطيرية وكلها ملونة أما نعالهن فكانت حمراء اللون (١) ، وكن يلبسن فوق جوارب صوفية أو حريرية وكانت الخبزوان زوجة الهادي تتخذ الخفاف المرصعة بالجواهر (٢) ، وكانت بعض النساء يتقنن بمقنعة ، حتى لا يبدو وجوههن سافرة ، (٣) أو يمددن إلى التفتيح تشبهاً بالذسان والروساء كما فعلت البانوقة بنت المهدي عندما سارت على هيئة الفتيان وعليها قباء أسود ومنطقة وشاشية (٤) ،

ونج عن تسال الإباحية في المجتمع العراقي يتأثروا من الفرس ، ورواج المفاسد والمبازل ، وإدمان الناس على حياة اللهو والترف والرفق ، وإقبالهم على مجالس الغناء والطرب ، وتهاافتهم على اقتناء الجوارى والقيمان ، نذج عن ذلك كله شيوع لون من الانحلال الإجتماعي كان من آثاره استقامة تناس إلى اللذات وتفنن النساء في الزينة والتبهرج ، وبالتالي تطور سريع في فنون الزينة والفنون الصناعية المتعلقة بها كصياغة الحلل وفنون الترسيع (٥) . ولقد كانت طبيعياً في مجتمع يروج فيه بيع الجوارى والإماء أن يهتم المفحسون بشقاقتهم وتنمية أذواقهم وإحساسهم الجمالي ، كما يهتموا بمظهرهن ، ويحاولوا عرضهن في سور مغرية جذابة لرفع أثمانهن .

(١) الأشيوي ، ج ٢ ص ١٨٩

(٢) الشاشق ، الديارات ، ص ١٠١ .

(٣) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

(٤) الطبري ، ج ٩ ص ٢١ .

(٥) كالخلاخل والأساور والخواتم المرصعة بالياقوت والنفوس وعقود اللؤلؤ مثل عقد الشبا وكان لزيدة أم جعفر زوج الرشيد ، والأعلاق النفيسة التي تدفقت على الأرواق بعد وفاة الأمين أو قبل ذلك بقليل عندما اشتد الأمر به أمام حصار قوات المأمون لبغداد ، واضطراره إلى بيع ما بقي في خزائنه التي انتهبت (الطبري ، ج ١٠ ص ١٩٠) .

وهناك عامل آخر ساعد على تطور فنون الزينة عند المرأة هو مساهمة بعض حريم الخنا. والخاصة من كان لهن دور بارز في المجتمع المراقى أمثال الخيزران أم الهادي ، وزبيدة أم الأمين ، وزينب بنت حليمان بن علي وعليبة بنت المهدي في ترويح ابتداءات جمالية استحدثتها كابتكار فكرة تصليب الرأس بمصائب مكللة بالجواهر (١) وانتشار هذا التقليد الجسديدي سريره في المجتمع الخاص والعام ، أو شيوخ الثياب المصبغة والنعال الملونة المرصعة عند النساء أو رواج طريقة معينة لتصفيف الشعر واتخاذ أوضاع خاصة للذوايات (٢) ، أو اتخاذ الجوهر منظوما على الشعر (٣) ، أو تزيين الرأس بتاج مرصع بترجس من الذهب والفضة (٤) . وكانت النساء يتوسلن — لإبراز مقائهن وجمالهن — بأنواع الأصباغ كالحناء اصبغ أطراف أصابع اليدين والرجلين ، والحدود والشفاه والشعر ، كما استخدمن الكحل لتجميل أجفان العيون والأهداب بمرار من الخشب أو الزجاج أو النحاس أو الذهب ، أو بأنواع من الطيوب والدهان مركبة من العنبر والمسك ولبان (٥) .

(١) اتخذت فريدة جارية الواثق مصابة على رأسها كعب عليها الذهب :

هريق بـسكى حنفر البين . . ما أسخن الفرقة لهـين

لم أرقى الحب ولوماته . . أوجع من فرقة لـنين

(راجع ابن السامى ، نساء الخلفاء ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، القاهرة ، عدد ٣٨ من مجلة ذخائر العرب ، ص ٦٢) .

(٢) أحمد محمود حدى ، معدات التجميل بمقتضى الفن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢ — ١٤ ؛ صلاح حيدرى ، ص ١٦٢ .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٤٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢٠ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ١١٥ .

(٤)

الاطعمة والأشربة

شاعت في العصر العباسي الأول في العراق أصناف من الأطعمة من أصول فارسية نتيجة طبيعية للتأثيرات الفارسية العميقة في المجتمع الإسلامي ، وأسرف الخلفاء في أنواع المآكل وتعدددها ، فكانت مائدة الرشيد تحمل بألوان الطعام حتى قيل إن الطمأة كانوا يطمون له ثلاثين لونا من الطعام ، وكان الأمراء يبالغون أيضا في ذلك حتى قيل إن عيسى بن علي العباسي ، استضاف الخليفة فقدم له ولاتباعه من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجملد والديجاج والبيض واللحم البارد وأسنة السمك وأكباد الديجاج وصدورها والمخ والسكلى ثم الحلوى . وكان المنصور والمهدى يستطيمان ألوانا من المخ المذوق بالسكر والطحيرزد والعمل (١) ، وكان المهدى يحب من الطيور الحمام (٢) ، وفي عهده استجذبت أنواع من الأطعمة الفارسية منها السكباج الذي اعتبر أفضل أنواع الأطعمة عند العباسيين (٣) ومنها المضيرة (٤) ، ومنها الاصفيداج (٥) ، والديكج يكة (٦) .

(١) المسودي ، ج ٢ ص ٢٩٨ ، ٣١٠ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥٦ .

(٣) الإيشيهي ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) الفخدادى (محمد بن الحسن) : كتاب الطب ، نخبه بقى الدكتور داود الحلبي ، المرحل ١٩٣٤ ، ص ٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢ - ابن الجوزي ، ذم المسوى ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

والطباهجات (١) ؛ ومن أصناف الحلوى : اللوزينج بالنسحق والفالودج
والحشكناج والأرنين (٢) .

وأما أطعمة الأعراب والبدو فكانت بسيطة للغاية ولا تخرج عن الحنن الشعير
والرثيثة والبقل والخضروات مع شرب اللبن في الأكراش ، هذا إلى جانب
ما كان معروفاً من الأطعمة عند العرب كالأريد والشواء والتقديم إلى ذلك (٣)
أما المشروبات ، فقد غلب شرب النبيذ في الركوات ، والشراب المصنوع من
النمر والتين والجوز (٤) .

(٥)

الأعياد الإسلامية والمسيحية

واصل العبّاسيون الاحتفال بالأعياد الإسلامية التقليدية كالعيدين (الفطر
والأضحى) وليلة القدر ، وكانت هذه الاحتفالات تتخذ مظهرين أحدهما
دني حيث يتوافد المسلمون إلى المساجد الجامعة اسماع آيات القرآن ، وخطبة
العيدين ، والآخر اجتماعي حيث يجلس الخليفة للتسليم على الوزراء والهاشميين
والقواد في إيوان من قصره ، ثم يستقبل الشعراء من وراء الستر أو الحجاب ،
فيسمع شيئاً من قصائدهم ، ثم يأمر بإعداد سباط حافل بألوان الأطعمة إيتاجاً

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤ — ٨٠ .

(٣) راجع : المسودي ، ج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٨٣ —
ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

(٤) الجاحظ ، رسالة في الشارب والمغروب ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٥ — ٢٢٠ .

بالمناسبة (١) ، أما المجاهد فكانت تعبر عن فرحها بقرع الطبول والنفخ في
الابواق والظهور بأفخر الثياب ، ويخرج الناس للزفة على ضفاف دجلة
والفرات ويركبون الوراق التي تزدان بالزيئات المختلفة .

وإلى جانب هذه الاحتفالات بالأعياد العربية الإسلامية . احتفل المسلمون
بأعياد فارسية بحكم اختلاط العرب بالفرس ، من هذه الأعياد النوروز
والمهرجان والرام ؛ فالاحتفال بالنوروز يتم في بداية كل ربيع من السنة ، ولم
يكن هذا الاحتفال مقصورا على الفرس فحسب بل أصبح عهدا شعبيا طاميا يحتفل
به الخلفاء احتفالا رسميا ، وكان الناس يتبادلون في هذا العيد الهدايا . وأول
من استحدث فكرة الإهداء في النوروز أحمد بن يوسف الكاتب ، فإنه أهدى
المأمون سيف ذهب فيه قطعة هود هندي في طوله وعرضه ، (٢) وإن كان هناك
ما يؤكد أن فكرة الإهداء سبقت عصر المأمون بفترة طويلة ، فقد كتب بعض
الشعراء إلى خالد بن برمك في يوم نوروز - وقد أهدى الناس إليه هدايا
فيها جامات من فضة وذهب - :

ليت شعري أمانا حظ . . . يهديها الوزير في النوروز
ما على خالد بن برمك في الجو . . . د نوال يفيقه بعريز
ليت في جام فضة من هدايا . . . ه سوى ما به الأمير يجيز

فأمر له بجميع ما كان حاضرا بين يديه من الجوامات والاوراق الفضية

(١) الصافي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٢٤ .

(٢) القاضى شندى ، صبح الأعهر ، ج ٢ ص ٤٢٠ .

والذهبية (١) . كذلك احتفل المسلمون بالمهرجان (روز مهر أى محبة الروح) في كل يوم ٢٦ من تشرين الأول ، ويستمر الاحتفال به ستة أيام ، ويسمى اليوم السادس منها المهرجان الكبير (٢) ، وفيه جرى الناس على تنقيح فرشهم وآلاتهم وثيابهم (٣) ، واعتادوا قرع الطبول والنفخ في الأبراق وتعليق الزينات في ذلك اليوم .

أما عيد الرام فكان أيضا من الأعياد الفارسية القديمة ويسمى رام روز ، ويقع في اليوم الحادى والعشرين من شهر مدهاء الفارسي .

وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم في الأديرة العديدة المنتشرة في العراق ، وكان لكل دير عيد خاص يحتفلون به في أوقات معينة من السنة (٤) ، ومن رسوم الاحتفال خروج أهل الدير في موكب يتقدمه القساوسة وهم يلبسون وقد ارتدوا حللهم الذهبية وحملوا الجمار في أيديهم ، أما بالنسبة لطوائف النصارى فقد كانوا يلبسون في أعيادهم المسيحية فاخر ثيابهم من مطارف الخبز والدجاج . ويروى الجاحظ أن أبا قابوس النصرائى الحيرى ، دخل على جعفر ابن يحيى في يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد فألقى إليه مطرف خبز كان شراء جملة كبة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتس في ثيابه ، ما يداكل ذلك المطرف فلم يجد . فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فمرفته سالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا ، فكتب إليه :

(١) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ - الأعياد ، النوروز ، ص ٤٨ .

(٢) القاموس ، ص ٤٠٨ ج ٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ .

(٤) الشافعى ، كتاب الفهارات ، ص ٣ .

أبا الفضل لو أبهرتنا يوم ههنا . . . رأيت مباهاة لنا في الكنائس
فلو كانت هذا المطرف الخرجية . . . لباهت أصحابي به في المجالس
فسلايد لي من جنبه من جنبايكم . . . ومن طيلسان من جهاد الطيالس
ومن ثوب قوهي (١) وثوبه خلافة . . . ولا بأس لو أتبعك ذلك ههنا
إذا تمت الاثواب في العيد خمسة . . . كفتك فلم تخرج إلى لبس سادس
لمرك ما أفـسرطت فيما سألته . . . ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس
وذلك لأن الشمر يزاد جعدة . . . إذا ما البله أبلى جده الملبس
فوجه إلى أبي قابوس كل صنف ذكره عشر قطع ، (٢) .

وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم ، ففي الاحد الاول من أعياد
الموسم الكبير حيث يجرى الاحتفال بالعيد في دير العاصمة الواقع على نهر
المهدى ، في موضع نزه تكثر حوله البساتين والأشجار ، يردحهم الناس نصارى
ومسلمين على السواء (٣) ، وفي الاحد الثاني يحتفل بالعيد في دير الرريقية ، وفي
الاحد الثالث في دير الزندورد الواقع في الجانب الشرقي من بغداد في منطقة
زراعية يكثر فيه الكروم فيجتمع هناك الطرب ورواد النزهة ، وفي الاحد
الرابع في دير درمالس الواقع بباب الشامية يجتمع نصارى بغداد ومن يسمى
إلى الله والنزهة للثمة والفرجة (٤) وفي عيد القديسة أشمونى يحتفل دير
أشمونى الواقع في منطقة قطرول بالجانب الغربى من بغداد بهذا العيد في

(١) أى من بلاد قوهستان (بلاد الجبال) .

(٢) الجوشيارى ، ص ١٦٤ .

(٣) الشاشقى ، كتاب الخيارات ، ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣ .

تشرين الأولى احتفالا راما يمد من الأيام البهيجة لدى أهل بغداد ، فيقصدون إلى العير عن طريق نهر المجهلة ، ويركبون السفن المختلفة كالطيارات والسميريات والريمازب وتد لبسوا أبهى حللهم ، ويقضى بعضهم هذا اليوم إما في الخلاء أو في الحانات جميعه يتبلون على شراب النبيذ ، والاغتياء منهم ينصب خيمته (١) .

(٦)

الزواج والطلاق

مركز المرأة : لعب لساء الخلفاء العباسيين والخاصة دورا فعالا في توجيه السياسة العباسية منذ ايام السفاح الذي تزوج أم سلة بنت يعقوب فماتت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمرا إلا بمشورتها وبإقرارها حتى أفضت إليه الخلافة فلم يكن يدعو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة (٢) ، كما أسهمت بهن في النهوض بالفنون والآداب في هذا العصر ، فأمدي أطلق يد زوجته الخيزران أم ولديه الهادي والرشيد ، وكانت جارية يمنية اشتراها المدي فأعتقها وتزوجها (٣) ، وأوصاها بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علي لتقتبس من أدبها وأخلاقها (٤) ، كما أخذت العلم على الأوزاعي ، وكان الهادي كثر الطاعة لها مجيبا لها فيما تسأل من الحوائج للناس

(١) الفاشق ، الديارات ، ص ٣٠

(٢) المدودي ، ج ٣ ص ٢٦١ .

(٣) الإزدي ، ص ١١٦ .

(٤) المدودي ، ج ٣ ص ٣١٣ .

الصوف أو الديباج الموشى أو الذهبى ، وكانت اللباس الرسمى ~~المكتاب~~ ، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس ، فالرشيد عندما خرج للفوز لبس دراعة قد كتب على ظهرها « حاج » وعلى صدرها « غاز » (١) والربيع بن يونس عندما ولاه المنصور خطة المرض كان يلبس دراعة وطيلسان (٢) ، وإدريس بن هيد الله بن الحسن يوم فر إلى مصر فالمغرب لبس مدرعة صوف خشنة وحمالة غليظة (٣) .

٢ — الطيا لسة : (جمع طيلسان) ، وهو مربع الشكل يحمل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ، ويغطى به أكثر الوجه ، ثم يدار طرفان منه تحت الفم إلى أن يحيطا بالرقبة ، ثم يطرحان على الكتفين ، أما طرفاه الآخران فيصمبلان على الظهر (٤) . وكانت الطيالسة لباس الخاصة من العلماء والمشايخ والقضاة

٣ — الجباب : (جمع جبة) ، تحيط بالبدن ولها كان ، وكانت الجباب تصنع من الديباج الموشى (٥) أو الصوف ، وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجباب ، وما يؤثر عن المنصور أنه كان يكثر من لبس جبة هروية (٦) ، وكان

(١) الجيهىارى ، ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٩ .

(٣) البكرى ، المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ - الجزائى ، ص ٩ .

(٤) بدرى قهد ، الطيلسان ، مجلة كلية الشريعة ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ .

(٥) الجيهىارى ، ص ١٨٣ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠ .

السفاح يكثّر من لبس الجباب ، حتى إنه ترك بعد وفاته منها تسماً (١) .

وكان الرجال يفتعلون النعال ، ويتركون للنساء الحف ، واعتبروا انفصال مظهر من مظاهر الرينة للرجال ، فقال الأحمف ، واستجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال ، (٢) . وكان العرب يلهجون بذكر النعال في حين كان الفرس يلهجون بذكر الحفاف ، وكان صحابة الرسول يعمون نسائهم عن لبس الحفاف الحمر والصفر (٣) . وفي العصر العباسي شاع افتعال الخاصة الحفاف الحمر على عادة الفرس (٤) .

أما ملابس النساء فكانت داخلية وخارجية بالإضافة إلى الثياب الخاصة بالرأس ، فن ملابس الرأس : العصابة المسككة بالجواهر ، والفضل في التشارها يرجع إلى عليّة بنت المهدي ، التي ابتكرتها وكانت ترصعها بالجواهر ، ومنها : أيضا البراس الأسود المنظوم بالجواهر ويمرّف اليوم بالهوطه (٥) أما الملابس الداخلية ، فلا تعدو الغلائل الرقيقة والعراويل (٦) والأقصة الإسكندرانية (٧) ، وأما الملابس الخارجية فهي ملاحف (٨) ، أو أردية يقال لها الرشيدية

(١) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٤) صلاح حيدر ، ص ١٤٤ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(٦) الطبري ج ١٠ ص ١١٩ — الإبيس ، ج ٢ ص ١٨٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٨) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

وأدبا وغناء وضربا وشعرا ولعبا بالشطرنج منها . ومن عنان جارية الناطق
التي كانت تهيد نظم الشعر حتى أعجب بها الرشيد فاشتراها من صاحبها (١) .

أما المرأة المسلمة المعادية فكان دورها في المجتمع العباسي يكاد يكون سلبيا ،
فقد كان لتسلل الأفكار الفارسية القديمة والمناداة بالإباحية في هذا العصر أثر
بالغ في شيوخ الفقه ، وأدخل الفرس نوعا من الشعر الرخيص في العود
بالمذكر ، وظهر المتخشعون والمنزلون في الصبيان ، وترتب على ذلك أن بالسف
الرجال في حجب الحرائر من النساء في الحذور وتشديد الحجاب عليهن .

الزواج والطلاق

كانت الزواج يتم عادة بإرفاق الآباء ، ويتم الزفاف في حفل تهيئ فيه
أسرتا المروسين وتقام الولائم وتذبح الذبائح ، ويتم العرس في جو بهيج
تتخلله الأغاني والأوسيقى والرقص على الآلات الوترية والمزمار والدفوف ،
وقد وصل إلينا لحسن الحظ وصف تفصيلي لزواج المأمون من بوران بنت وزيره
الحسن بن سهل ، وهذا الزواج وإن كان مباليا في تفخيمه (باعتبار زواج
أحد الخلفاء) إلا أنه يصور لنا جانبا من جوانب المجتمع العباسي ، وفيما يلي
ما أورده ابن طيفور في وصف بناء المأمون ببوران في ٢٦ شهر رمضان
سنة ٢١٠ هـ . نفي الحارث بن نصر المذحج - وكان من أصحاب الحسن بن سهل -
قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران ، ركب من بغداد زورقا
حتى أرقى على باب الحسن بن سهل ، وكان العباس بن المأمون قد تقدم على
ظفر ، فتلقى الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطئه دجلة

يقف فيه جويسق قال : فلما عاينه العباس نفي رجله ليذله ، فحلف عليه إلا
يفعل ، فلما ساراه نفي رجله الحسن ليذله ، فحلف له العباس : بحق أمير المؤمنين
لا أنزل فاعتقه الحسن وهو راكب ، ثم أمر أن يقدم إليه دابته ودخلا جميعا
إلى منزل الحسين ، ووافى المأمون في الصباح ، وذلك في شهر رمضان من سنة
عشر ومائتين ، فأفطر هو والحسن والعباس ، ودينار بن عبد الله قائم على رجله
حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم . فدعا المأمون بشراب ، فأتى بهام
ذهب فصب فيه وشرب ، فمد يده بهام فيه شراب إلى الحسن [بن سهل]
فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فصر دينار بن عبد الله الحسن ،
فقال الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك ؟ فقال له المأمون : لولا
أمرى لم أمد يدي إليك . فأخذ [الحسن] الهام فشربه فلما كان في
الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسين بن سهل ، والعباسية بن عبد الله الفضل [بن سهل]
ذي الرماستين (١)

فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حبة واحدة [بنت
خطيبه] ، وأم جعفر ، وسجدتها . فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها
ألف حبة كانت في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسأله عن عدد الدر
كم هو ؟ فقالت ألف حبة . فأمر بمدها ، فنقصت عشرة ، فقال : من أخذها
منكم ردوها فقالوا : حسين رجلة ، فأمر بردها ، فقال : يا أمير المؤمنين
إنما نثر لناخذها ، قال ردها ، فإن أخلفها عليك . فردها ، وجمع المأمون ذلك
الدر في الآنية ووضعه في حجرها وقال : هذه تملكك فاسألي حوائجك ؟

(١) كان من التغاليد الشائعة في المجتمع العباسي أن يتزوج الرجل بنت عمه (ابن عمه)
الجزوية ، أخبار النساء ، ص ١٥٦ .

فأمسكت : فقالت لها جدتها : كفى سيدك وأسأليه حوائجك فقد أمرك .
فسأله الرضى عن إبراهيم بن المهدي فقال : قد فطنت ؛ وسألته الإذن لأمر
جعفر في الحج ، فأذن لها ؛ ولبستها أم جعفر البذلة الأموية (١) ، وابتنف بها
في ليلته ، وأوقدت في تلك الليلة شمعاً عذير ليها أربعون مثقال تدور ذهب ،
فأفكر المأمون ذلك عليهم ، وقال : هذا سرف ، (٢)

وذكر الإربلي أن يحيى بن خاله البرمكي أراد أن يزوج ابنته طائفة من
ابن عمه ، فقدم في دكة وسط بستان مع مائة رجل من المدعوين يخدمهم نحو
مائة خدام وفي يد كل منهم بحرة ذهب فيها قطعة عذير ، بخروا المدعوين ،
وأقبل يحيى بن خاله إلى القاضي وطالب منه عقد الزواج ، فطلب ، ثم أمر يحيى
بشرفات المسك وبنادق المنبر وتماثيل الفد على الحاضرين ، فالتقط الناس ،
ثم جاء الخدم يحمل كل منهم صينية من الفضة عليها ألف دينار مخطوطة بالمسك
فأخذ كل من الحاضرين صينية بما فيها (٣) .

وكان الزوج يقدم صداقاً للمعروضة بنفسه فسدده حصص يسمه ،
فأبو العباس السفاح قبل أن يبل الخلافة كان فقيراً ، أحبته أم سلة بنت هيثم
ابن سلة بن عبد الله بن الوليد بن المنذر الهشومي بعد أن تزوج هشام بن
عبد الملك ، فأوصفت له مولاة لها ترجى عليه أن يتزوجها وقدس له مالا يمد
أن عرفت أنه يمانى لا حال له ، فأصدقها من مالها . . . ودينار (٤) .

(١) أوب أشبه باللفظان مرصع بالدر والياقوت .

(٢) ابن طيفور ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) الإربلي ، ص ١٥٣ .

(٤) السهردي ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

وشاع في العصر العباسي الأول اتخاذ المهور إلى جانب الزوجات
المحررات، بل إن كثيرًا من الزوجات كن يهدين أزواجهن ما يرضاهن من
الجواهر، كما فعلت السيدة زبيدة مع الرشيد (١)، وهذا يفسر أن معظم خلفاء
العصر العباسي الأول كانوا من أمهات أولاد باستثناء السفاح والمهدي والأمين،
ولذلك أن الأم كانت توفر لما لكنها كل وسائل الراحة مع قلة المؤونة وحسن
الخدمة ثم هي تحمل مشكلة الإنجاب. وقد ددد الجاحظ بعض محاسن الزواج
بالمهور فقال: «كثير يقال من أن خدمة المؤونة وخفة النفقة وسهولة الخدمة
والإفراج الجميلة فليس إلا ما يدون الحيلولة. وكان صليح بن مسلمة يقول:
صحيح لمن استمتع بالمرأة كيف يتزوج بالمائة؟» (٢).

أما الطلاق فلم يكن شائعًا في العصر العباسي الأول، وكان من دواعيه سوء
سلوك أحد الزوجين (٣)، أو إقبال الرجل على الجوارى وإعماله لزوجته الحرة
التي تزوجها دون أن يرى وجهها

(١) الإبهدي، ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) الجاحظ، الحاسن والأنداد، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٣٠.

(٣) ابن أبي الجوزية، ص ٧١.

(٧)

مراسم الاختلافات الجنائزية

لا تختلف جنائز الموق في العصر العباسي الأول عنها في العصر الأموي أو العصور التالية ، فمثل هذه الرسوم قلما تتغير ، وحتى إذا تطورت فإن هذا التطور لا يحدث فجأة وإنما يتجلى على مراحل تدل على تدرج في مختلف الجنائز من حيث عدد المشيعين باختلاف شخصية المتوفى والاجتماعية ومنزله ومكانته في المجتمع ، فإذا كان عالما كبيرا ازدد عليه مشيعيه ، كما حدث عند وفاة الإمام أحمد بن حنبل إذ شيعه ٨٠ ألف رجل من ٦٠ ألف إهراق ، وذكر الجيهداري أنه لما صاحب الفضل بن يحيى البرمكي في ٥ من المحرم سنة ١٩٣ هـ على عليه أكثر الناس ، وأشد الخوارق من الحفاضة والمقامة عليه ، وأتم عليه جميع من عرفه ، وكثر التضام على التواضع في جنازته (١) وقد يشترك في الجنائز شخصيات بارزة في رسمية ، ولقد يكون من بين المتوفى شخصيات جليلة ، كما حدث عندما قبض الإمام علي بن موسى الرضا إناوس قهلي عليه الأمر (٢) كذلك صلي الرشيد على أمه الحيزران (٣) وعند وفاة رجل جليل هجرت المائدة أن تغلق الأسراري ، وتخرج النساء حبرات المشرقات الصغرى يلهطن وجوههن ويذرين تعريها عن فجوتهن بالمصابير وقد يهين حافيات ، ويضربن صدورهن بالفعال (٤) وإذا كانت الفاجدة في أحد

(١) الجيهداري ، ص ٢١٠ . وذكر الفاضل أنه لما مات جنتيوع الطيب كان جنازة مشهورة (ص ١٤٢) .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١ .

(٣) الإربلي ، ص ١١٧ .

(٤) الجاسق ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٤ . وقد يشارك الرجال البهائم في الطم رشق الجيوب والبكاء كما فعل الربيع بن رواس عندما مات المنصور (ابن الأثير ج ٦ ص ٢٤) .

الابناء ، يهرج الابوان عليه جرما شديدا وقد يعتمان عن الطعام والشراب ،
وذكروا في ذلك أنه مات ابن اسليمان بن علي فجرح عليه وحرم على نفسه الطعام ،
وجعل الناس يمررونه فلا يجنل بذلك ، حتى دخل عليه يحيى بن منصور فمراه
بالبيت التالي :

وهون ما أتى من الوجع أدنى . . . أساكنه في داره اليوم أو غدا
فقال له أحد ، فأعاده ، فنادى على الفور غلامه يأمره بالنداء (١) . وعندما
ماتت الباقوة بنت المهدي ، وكان معجبا بها لا يطلق الصبر عنها حتى إنه كان
يلبسها لبس الثمان ويركبها معه ، وجد عليها وأمر أن لا يجيب عنه أحد (٢) .

ومات عبد الرحمن بن مهدي ابن فخر عليه جرحا شديدا ، فبعث إليه الإمام
المصافي يقول : يا أخى عز نفسك عما تعزى به غيرك ، واستقبح لنفسك
ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمضى المصائب فقد سرور وحرمان أحر ،
فكيف إذا اجتمعنا مع احسن حساب وزر ؟ ألمك الله عند المصائب صبرا ،
وأجول لنا ولك بالصبر أجرا ، (٣) .

وكان أمراء يتم على مرحلتين : الأولى قبل دفن المتوفى والثانية بعد الدفن ،
وتكره التمازي بعد ثلاثة أيام من الرفاء حتى لا تتجدد أحزان المصاب ، إلا في
حالة شباب المصطفى أو صاحب المصيبة حال الدفن (٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) قس المصدر ، ج ٦ ص ٨٧ .

(٣) الإبطي ، ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) قس المصدر ، ص ٢٣٤ .

وكان يقيم للشخصيات البارزة أضرحة لقبورهم ، توارى في الأعياد أو بعض المناسبات الدينية ، فقد دفن يحيى بن خاله بن برمك بالرافضة على شاطئ الفرات وبني على قبره بناء عال (١) ، وكذلك كان يقيم للأولياء وكبار العلماء أضرحة ذات قباب ومآذن . وجرت العادة أن تكون ملابس الحداد سوداء أو زرقاء كما حدث عندما بلغ زبيدة أم الأمين نيا مصرح ابنها ، فأمرته بلباسها فحودت ولبسب معها من شعر (٢) ، كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه طيابا أزرق اللون (٣) .

ومن آثار الأضرحة والمقابر الباقية حتى اليوم في بغداد من العصر العباسي الأول ، جامع وتربة الإمام أبي حنيفة النعمان التي دفن فيها سنة ١٥٠ ، ومعبد الكاظميين الذي دفن فيه الإمام السابع موسى الكاظم سنة ١٨٧ هـ (٨٠٧ م) ودفن بعده بثلاثين سنة حفيده الإمام التاسع محمد الجواد الثاني ، وتربة الشيخ معروف الكرخي (٢٠٠ هـ) وقبور مريديه من الصوفية .

(١) الجوهري ، ص ٢١٠ .

(٢) المحمودي ، ج ٣ ص ٤١٥ .

(٣) الإزدي ، ص ١١٢ .

ثانيا

التنظيمات العمرانية

(١)

للمراكز العمرانية الجديدة في العراق

١ - بغداد دار السلام أو مدينة المنصور .

يستتبع الظروف التي قامت فيها الدولة العباسية على الخليفة الأول أبا العباس السفاح أن يتحول عن دمشق حاضرة الأمويين لعدة أسباب : منها أنهم من شأن الأسيرات الحاكمة الجديدة أن تتخذ مراكزها وقواعدها بين قوم أولي عصبية يرتزقون بهم ، ولما كانت دمشق أموية وبعيدة عن خراسان مركز الثورة العباسية ، فقد اقتضى الأمر قاعدة تقرب من خراسان وتبعد عن الشام مركز المصيبات العربية التي اعتمد عليها الأمويون . ومنها تطلع الدولة العباسية من الوجهتين السياسية والحربية نحو الشرق بدلا من البزنطيين ، لأن أواسط آسيا والشرق الأقصى سيصبح هدف الفتوحات الإسلامية في العصر العباسي الأول ، ومنها أن موقع دمشق لا يتيح للعباسيين الانهال التجاري ببلاد الهند والهند الصينية والصين . وعلى هذا النحو فكر السفاح منذ توليه دفة الخلافة في أن يتخذ مقرا له في العراق ، واختيار هذا المقر لم يتم نهائيا إلا بعد إنشاء بغداد في خلافة المنصور ، يمين أن تأسيس بغداد واتخاذها المقر النهائي للخلافة العباسية طرأ على قرونها الخمسة من مرحلتين :

١ - مرحلة إنشاء هاشمية الأنبار :

انتقل أهل العباسي السفاح من الحيرة ، فبذل الأنبار (١) وأخذ بها مدينة سماها الهاشمية في سنة ١٢٠ هـ ، ونظرا لأن أخاه المنصور سوسى مدينة أخرى بهذا الاسم في موضع آخر ، فقد سميت هاشمية السفاح هاشمية الأنبار بسبب قيامها بهوار الأنبار المدينة الفارسية القديمة الواقعة على ضفة الفرات الشرقية عند تفرع نهر عيسى من الفرات (٢) . ويذكر الطوسي أن السفاح اشترى من الناس أراضي كثيرة بنى فيها منقعات المدينة ، ثم عوَّضهم عنها بماله ، ولما مات دفن في قصره بهاشمية الأنبار (٣) .

٢ - مرحلة إنشاء هاشمية الكوفة :

لما يويج المنصور بالخلافة في سنة ١٢٦ هـ (٧٥٤ م) بزل الحيرة ثم انتقل إلى الأنبار مدينة أبي العباس فظم إليه أطراف أحيه وخزائنه (٤) . ثم انشأ في أول خلافته مدينة جديدة بتواحي الكوفة سماها الهاشمية وكانت تقع وفقا لإحدى الروايات بين المعسكر العربي في الكوفة وبين الحيرة أي على جانب الفرات (٥) الأخرى ، ووفقا لرواية أخرى قبالة مدينة ابن هبيرة الواقعة بهوار

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) في المتن : بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ص ١٣ .

(٣) الطوسي ، ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ .

(٥) ابن بطالبا ، ص ١٤٣ .

الكوفة (١) . وفي هذه المدينة وقعت واقعة الراوندية التي كاد يقتل فيها المنصور ، ولهذا السبب كره المنصور الإقامة فيها بعد أن ألقى على حركة الراوندية ، كما كره الإقامة فيها لامل آخر هو مجاورة أهل الكوفة الشيعة لها ، فقد كان لا يأمنهم على نفسه ، وكانوا قد أفسدوا عليه جنده (٢) . وقد خطاب في الهاشمية بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن فقال في جملة ما قاله . . . ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخدمه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والذفاق والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوء (وأشار إلى الكوفة) ، " هو الله ما هي لي بحرب فأحاربها ولا هي لي بسلم فأسلمها ، ففرق الله بيني وبينها ، (٣) . وذكر الهمداني أن أبا جعفر أخذ في بناء الرافقة فبها يقرب من سنة ١٠٥٥ ، وكان أخوه السفاح قد ابتدأ ببنائها ، ولما فرغ المنصور من إنشاء الرافقة لم يؤلفها (٤) . وإنما أنزلها الرشيد واتخذها مقرا له (٥) .

وهكذا لم يوفق لإسفاف ولا المنصور في تأسيس مقر ثابت لدوائمه ، وتحتّم على المنصور البحث عن موضع جديد أفضل من المواضع السابقة وتوفر

(١) الإبريل ، ص ٧٢ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ — ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٤) البيهقي ، ج ٢ ص ٣٧٠ . وهم الرافقة بالقرب من الرقة ، وما زالت آثارها موجودة حتى اليوم ، وتتمثل في أطلال قصر الرشيد . ويذكر كوكبا أن المنصور سكر تحربه مدبنته المدورة (هنداد) عندما وضع تخطيط الرافقة على شكل حدود الفرس . وما زالت أسوارها المحصنة بالأبراج المشيدة بالابن تحتفظ بأشكالها .

(٥) كوكبا ، الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٤ .

(٥) الجهشيارى ، ص ٢١٠ — ابن طيفور ، ص ٨٥ .

فيه جميع المزايا الإستراتيجية والمناخية والإقتصادية ، وفي هذه المرة كان لابد أن يقع الاحتيار في منطقة خصبة وحصينة في آن واحد ، بعيدة عن حد الصحراء التي تمتد على طرف الفرات حيث تقع الحيرة والكوفة والأبهار والحاشمية (١) . وهاذكر المؤرخون أنه خرج يرتاد منزلا يزل فيه ويتخذ مقر الدلالة وأجناد ، فالتحق إلى جرجرايا الواقعة على دجلة ثم أحمد مع النهر شمالا إلى الموصل ، وهناك ذكر له موضع قريب من بارما إلى جنوب الموصل حيث يقطع نهر دجلة جبل حرين ، ولكنه لم يستحسنه ، وهناك قدم إليه أحد الجنود وأبلغه أن طبيبا إسرائيليا كان يعالج فيلته من رمد أصابه أخبره بأنه سمع أن مدينة سلقين بين دجلة والفرات تدعى الزوراء ، فعاد المنصور ونزل عند الدوير القاشم بجدار قصر الخلد ، وهناك شاور الدهقان صاحب الموقع الذي حددوه له واسم الموقع بئداد (٢) ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، سألتني عن هذه الأماكن وما تختار منها ، وإن أرى أن نزل أربعة طاسيج [أي نواحي] في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوربا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما غسر يوق وكواذني ، فيكون بين نخل وقرب الماء ، وإن أجذب طسوج وتأخرت حمارته كان في الطسوج الآخر العبارة . والله

(١) لسنريج ، ص ١٥ .

(٢) بدل هذا الاسم على أن بئداد مدينة قديمة من أيام الفرس وكانت هم مدخفة دجلة القريبة بأعلى مصب نهر الفرات تماما . وثبت من الحفريات الأثرية التي أجريت حديثا في موقع بئداد أن الموقع قديم للغاية بدليل الواجزة المشيدة من الأحجار البابل التي لا تزال تهاذي دجلة الغربية عند بئداد ، وبدليل أن كل قطعة من الأجر مخنومة باسم دوخذ نصر وألقابه ، ثم إن اسم بئداد شبيه باسم بكدر والسجل في السجلات الأثرية (راجع لسنريج ، ص ١٦) .

يا أمهيد المؤمنين هل الصراة ، تهيبك المهدة في السفن من المغرب في الفرات
وتهيبك طرائف مصر والشام ، وتهيبك المسهدة من الصين والهند والبصرة
وواسط وديار بكر والروم والموصل وغدهما في دجلة ، راتيك المهدة من
أرمينية وما اتصل بها في نأمر حتى يتصل بالواب ، فأنت بين أنهار لا يصل إليك
هذوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل
إليك ، ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسطة البصرة
والكوفة وواسط والموصل والسراد ، وأنت قريب من السبر والبحر
والجبل ، (١) فانتفع المنصور بكلامه وعم على النزول في ذلك الموضع .

أما بغداد واسماؤها الأخرى :

رأينا أنه كان يقوم في نفس موقع بغداد آثار قرية فارسية قديمة تسمى
إسم بغداد ، وقد استفدنا في ذلك على ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية من جهة
وهل الروايات التاريخية من جهة ثانية ، ونضيف إلى هذين السنتين سند ثالث
أدبي يمثّل في بيت من الشعر من قصيدة أنشد بها الحسين الخليل عند حصار
طاهر بن الحسين لبغداد فخربته وخاف الناس أن تعمق خرابا ، والبيت نصه :

ما أحسن الحال له إن لم تعد . . . بغداد في القلة بغدادا (٢)

(١) المقدسي ص ١١٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ ؛ وقارن ذلك بالإدراك ،
ص ٧٦ ، ٧٧ — البغدادي ص ٣٧٣ ، ووصفها البغدادي بأنها « مفرقة لدنيا » تصل
إليها نتاجر واسط والبصرة والآلة والأمواز وفارس والبحرين ومان وما يأتي دجلة من
الموصل وديار بكر . . . (اللدات) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧٢ . ومعنى ذلك أنه يرجو ألا يعود ببغداد (طرس
الغلاة) إلى ما كانت عليه بغداد القرية القديمة .

واسم بنداذا الذي كانت تعرف به وحرف فيا بعد إل بنداذا (١) اسم فارسي مشتق في رأى لترنج من د بع ، أى (الله) و د اذ ، أى (الله) وتأسيس ، فيصبح معنى اسم بنداذا على هذا النحو (أسما الله) (٢)

وهناك عدة جرات أخرى للإسم أوردها الجغرافيون العرب ، فبعضهم يهضمونها مشتقة من مقطعين د باغ ، وتعنى بالقرارية (بستان) و د اذ اسم شخص اسمه دادويه ، ويهضمون بجمع اسم ابنهم أو و د اذ ، من المصطلح الفارسي داذن بمعنى عمالية ، بذلك تعنى بنداذا عمالية الصنم ، ولهذا السبب يند المصنوع اسمها وسمها بمدينة الفلام (٣) وهو الاسم الرسمي لبنداذا الذي نقش على العملات العباسية ، ولكن الناس حافظوا على اسمها القديم

ويمتدد الاستاذ بشير فاضل أن اسم بنداذا أراى مبني ومعنى (٤) ، وأنه يتألف من مقطعين : الأول : د ب ، بمعنى بيت (مثل باجرمن وباجرم) وباطنايا وبكمايا) و د اذ بمعنى صنم ، ويصبح معنى بنداذا أو بكداها بيت صنم أى سور صنم (٥) . ويؤيد هذا الرأى من مراد استاذ نواذ أكرام

(١) ورد الاسم في القوائم الجغرافية بصور مختلفة منها بنداذا وبندان ومندادا ومنفاذا ومنفادات .

(٢) لترنج ، ص ٥ .

(٣) السعدي ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ — اللافرى ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) بغير فرائس ، بنداذا ، تاريخها وآثارها ، بنداذا ١٩٥٩ ص ٦ .

(٥) لترنج ، ص ١٨ هامش رقم ٧ .

البيستاقى، (١) والله كتور عبد العزيز العزى (٢) ابتدأ إلى التفتيح العزى
 إلى الإسم القديم لبنداه بمعنى سوق الختم . ويدعم الكتور العزى موافقته
 بنص أورده الطبرى ذكر فيه : . وذكر عن حماد الترى أن المنصور
 رجلا يطلبون له موحدا معنى فيه المدينة ، فطلبوا ذلك في سنة ١٤٤ قبل
 خروج محمد بن عبد الله سنة أو نحوها ، فوقع اختيارهم على موضع ببنداه
 قرية على شاطئ الصراة بما إلى الخلد ، وكان في موضع بناء الخلد فير ، وكان
 له قرن الصراة بما إلى الخلد من الجانب الشرق أيضا قرية وذير كبره كانت
 ضمن سوق البقر وكانت القرية تسمى التمتة ، وهي التي اقتطعها الشيخ بن
 حارثة الشيباني ، (٣) . ويؤكد بشهر قرطيس أن الاسم ورد في الكتابات
 الاثورية بصورة بنداد وأربكدادو (٤) .

ومن أسماء بنداد مدينة المنصور ومدينة السلام والمدينة المدورة ، وكان
 بجانب الغربى يسمى بالزوراء لأن نهر دجلة ينحدر عندها ، أما جانبها الشرقى
 فكان يسمى الروحاء لأسباعه وانفراجة في هذه الأثناء من الشهر .

(١) فؤاد أرقام البستانى ، أصل اسم بنداد ، مجلة الشرق سنة ١٩٣٤ عدد ٤
 ص ٦٦ — ٦٩ .

(٢) النصر الديالى الأول ، ص ٩٧ .

(٣) الطبرى ، ج ١ ص ٢٤١ . ويؤكد البلاذرى عدم بنداد فيقول : . وكانت
 بنداد قديما فصرها أهل المؤمنين المنصور روجه الله واتى بها مدينة ، (البلاذرى ، ج ٢
 ص ٢٦١) ؛ وذكر الطبرى هلال بن أحمد بن محمد بن جيلة أن مدينة المنصور كانت قبل
 بنائها مزرعة لبنداديين يقال لها المباركة (الطبرى ج ١ ص ٢٤٣)

(٤) بشهر قرطيس ، ص ٦ .

ب - المولع وبداية التخطيط :

كان موقع بغداد يعينه حدد من أديرة الرهمان الفساطرة ، الذين أشاروا على المنصور باختياره موطناً لمدينته لأن بقعته تقتار عن غيرها من الأراحي الواقعة على دجلة بخلافها من الرباء الذي يحدله الجحوش ، ولطيب لياها وصلاتها حتى في أشد أيام الصيف حرارة. وفي اختيار الموقع له بنا روايتان: الأولى رواية عمر بن شبة عن سليمان بن جهماد نصها : « أفسد أهل الكوفة جند أمهم المؤمنين المنصور عليه ، فخرج نحو الجبل يريد أن يبنوا منزلاً والطريق يؤخذ على السدائن ، فخرجنا على سبابط ، فتخلف بعض أصحابي لرمس أصابعه ، فأقام يمالج هنيئيه ، فسأله الطبيب : أين يريد أمهم المؤمنين . قال : يريد أن يبنوا منزلاً . قال : فإننا نجد في كتاب هندنا أن رجلاً يدهى مقللاً يبنى مدينة بين دجلة والبصرة تدعى الزوراء فإذا أصبحها وبني مرقاً منها أتاه فتق من الحجاز فقطع بناءها ، وأقبل على إصلاح ذلك الفتق ، فإذا كاد يلتئم أتاه فتق من البصرة هو أكبر عليه منه ، فلا يلهث الفتق أن يلتئما ، ثم يعود إلى بنائها فيمنعه ، ثم يعمر ممرأ طويلاً ويبنى الملك في عقبه . قال سليمان : فإن أحد المؤمنين لباطراف الجهالة في ارتهاه منزل ، إذ قدم على صاحبي فأخبرني الخبر ، فأخبرت به أمهم المؤمنين ، فدعا الرجل ، فحدثه الحديث ، ففكر راجعاً عوده هل بداه ، وقال : أنا والله ذاك ، لقد سميت مقللاً وأنا صديق ثم انقطع عني » (١) . ويواصل ابن شبة سرد روايته فيقول : « وذكر عن بشر بن ميمون الشروى وسليمان بن جهماد أن المنصور لما رجع من ناحية الجبل سأل عن خبر القائد الذي حدثه عن الطبيب الذي أخبره عما يجدون في كتبهم من خبر مقللاً ، وتول الله الذي هو حذانا

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٣٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ .

قصده المعروف بالحد ، فدعا بصاحب الهير ، وأحضر البطريق صاحب رحا
البطريق وصاحب بندق وصاحب الخرم وصاحب الهير المعروف ببستان
النس وصاحب النعثة (١) ، فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد
والأمطار والحوادث والبق والموام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم ،
فوجه رجلا من قبله وأمر كل واحد منهم ببيت في قرية منها ، فبات كل رجل
في قرية منها ، وأثناء بغيرها ، وشاور المنصور الذين أحضرهم وتحرأخبارهم ،
فاجتمع اختصارهم هل صاحب بندق ، فأخبره وشاوره وسأله ، فهو الله تعالى
الذي قرينه قائمة إلى اليوم في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان
الطوسي ، ولباب القرية قائم بناؤها إلى اليوم وداره ثابتة على حالها ، فقال :
يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وطبيها وما يختار منها ، فالذي أرى
يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طسوجين ، في الجانب الغربي طسوجين ومما
تطربل وبادورها ، وفي الجانب الشرقي طسوجين ومما هريرق وكواذي ، ..
إلى آخر الرواية ، (٢) .

والروية الثانية رواها الهيثم بن عدي عن ابن عياش : قال لما أراد
أبو جعفر الانتقال من القاشية بعنه روادا يرتادون له موصفاً ينزله واسطاً ،
والقيا بالعام والجد ، فنهت له موضع قريب من باوما ، وذكر له منه غلام
طبيب ، فخرج إليه بنفسه حتى ينظر إليه ، وبات فيه ، وكرر نظره فيه ، فرآه
مرحفاً طبياً ، فقال جماعة من أصحابه منهم سليمان بن جهم وأبو أيوب

(١) كانت بندق والخرم والنعثة قرى قديمة ورد ذكرها أيام الفتوحات العربية
لهراول .

(٢) القبري ، ج ٩ ص ٧٤٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ .

الخوزي وعبد الملك بن حيد. الكاتب وفهم : ما رأيكم في هذا الموضع ؟ قالوا :
ما رأينا مثله ، وهو طيب صالح موافق . قاله : صدقتم هو هكذا ، ولكنه لا
يحمل الجند والناس والجماعات ، وإنما أريد موضعا يترفق الناس به وهو أنفعهم
مع موافقته لي ، ولا تغفل عليهم فيه الأسفار ، ولا تهتد فيه المؤونة ، فإن إن
ألفه في موضع لا يحمل إليه من البر والبحر شيء لحث الأسفار وفلت الخلفه ،
فاشتدته المؤونة وشق ذلك على الناس وقصد حورت في طريق على عرض
فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وبسات به ، فإن اجتمع لي فيها حوائج
من طيب الليل والمرافقة مع احتماله الجند والناس ابتدبه . قال المهدي بن عدي :
فخبرت أنه أتى ناحية الجسر فمير في موضع قصر السلام (١) ، ثم صل القصر
وكان في صف ، وكان في موضع انقصر بيعة قس ، ثم بات ليلة حتى أصبح ،
فبات أطيب مبيت وأرفقه ، وأقام بومه فلم ير إلا ما يجب ، فقال : هذا
موضع أبي فيه ، فإنه تأتيه الماده من الفرات ودجلة وجميع من الأنهار ، ولا
يحمل الجند والمادة إلا مثله ، فخطها (٢) ، وأما ما كان الاختلاف بين
الروايتين ، فإن الذي لا شك فيه أن المصور لم يكتشف موقع بغداد بنفسه
ولما دله عليه رجاله الذين أرسلهم لارتباد الموقع ، وأنه قسم بمنحه إليه وسأل
أصحابه عنه فأنعموه بحسن هذا الاختيار . وأنه لم يكتف بذلك بل أراد أن
يجرب المبيت فيه ليخبر صناعه ، فألفاه طيب الهواء ، وأنه لوقوعه على الصراط
وبين نهر دجلة ونهر بوق حصين لا يرام على أساس أن دجلة والفرات خفاف
طبيعية ، وأنه لوقوعه في أرض السواد على ضفاف دجلة سهل الاتصال

(١) يعتمد الخط القوي بناء المصور فيما بعد عند نروجه و تأسيس بغداد .

(٢) الطبري ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ .

بالبصرة المركز التجاري الهام لتجارة الهند والصين (عن طريق دجلة) وسهل
الاتصال بالموصل والجزيرة والشمام (عن طريق الصراة) .

الموقع الذي اختاره المنصور لإنشاء مدينة السلام جدير بالاختيار
استراتيجيا ومناخيا واقتصاديا ، وقدر لهذه المدينة أن تصبح قلب العالم
الإسلامي حتى سقوطها في أيدي التتار ، وكانت أعظم مدن العالم بعد
القسطنطينية .

وما كاد اختيار المنصور يقع على هذا الموضع حتى شرع في وضع الأساس
في وقت اختاره له أبو بخت المذبح (١) ، وأرسل في حشد المهندسين والبنائين
من كل بلد (٢) ، فوجه من حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجليل
والكوفة وواسط والبصرة فأحضروا ، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل
والعدالة والنفق والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان من أخصر لذلك : الحاج
ابن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ثم أمر بخطط المدينة وحفر الأساسات
وضرب البن وطبخ الآجر ، فبدى بذلك ، وكان الشروع فيه سنة ١٤٥ هـ (٣)
وذكروا أنه أحب أن ينظر إليها ويدرس تخطيطها قبل أن يحفر الأساس ، فأمر
أن يخطط بالرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر في فصلاتها وطاقتها ورحابها
وهي مخطوطة بالرماد ، ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خط من خنادقها ، فلما

(١) الإدري ، ص ٧٤ .

(٢) البقوي ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٦١ — الطبري ، ج ٩ ص ٢٤١ — ابن الأثير ، ج ٥
ص ٥٥٨ — ابن طباطبا ، ص ١٤٥ — الإدري ، ص ٧٤ . ومحمد المصطفى كاديج
العروج في البناء سنة ١٤٠ هـ (المصطفى ص ٢٤٣) .

فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط باب القطن وينصب عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها وعرف رسمها، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم، (١). وما إن تمت مرحلة حفر الأساس حتى بدأت مرحلة إرساء الأساس، فتولى المنصور بنفسه وضع أول لبنة بيده، وقال: بسم الله والمحمد، والارض لله يورثها من يشاء من عباده، والمآقية للفقيرين ثم قال: وابتوا على بركة الله، (٢).

وكان تخطيط بغداد على شكل دائرة (وسميت لذلك بالمدينة المدورة) ثلاثا يكون الخليفة إذا نزل وسطها إلى موضع منها أقرب منه إلى موضع (٣)؛ يعنى بذلك أن الخليفة يكون في قصره الواقع في مركز المدينة على بعد واحد من جميع أنحاء المدينة. والخطط الدائرية لبغداد فريد من نوعه بين المدن الإسلامية على الإطلاق، وأهل المنصور تأثر في ذلك بتخطيط المدن الفارسية القديمة مثل مدينة أكتاتان (هم. ان الحالية) عاصمة الميديين، فقد كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار المصارف، وكان كل قصر الملك ويكتس ماله في وسط القصور الداخلى فيما تقح بيوت الرعية بين الأسوار (٤)، وفكرة المركزية المتلفة بسور داخلى يفصل أحياء الأهل عن مقر الخليفة تنفذ وأوع السلطان المطلقة التي أضلها المنصور على نفسه تأثرا بالفرس وبالإضافة

(١) الطبري، ج ٩ ص ٢٤١ — أم الأئمة، ج ٥ ص ٥٥٩ — الإبريل،

ص ٧٤.

(٢) الطبري، ج ٩ ص ٢٣٩ — الإبريل، ص ٧٤ — ابن طباطبا، ص ١٤٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٦١ — ابن الأئمة، ج ٥ ص ٥٧٤.

(٤) البستاني، المرجع السابق ص ٧٦ — ٧٨ — الدوري، ص ٩٧.

الى التعليين السابقين لاستدارة بغداد يرى بعض المحدثين أنها بتيت مدورة
 لتكون مدينة صحيحة ، لأن البناء المدور يكون عادة أكثر تعرضاً للشمس
 والهواء من أى بناء آخر (١) . وأضيف إلى هذا التعليل تعليلاً رابعاً (٢) هو
 أن التخطيط المستدير أفضل في الدفاع والاستراتيجية الحربية من التخطيط
 المربع أو المستطيل ، فالأسوار المستديرة تلجح للدافعين سمـولة التحرك
 والرؤية ، بينما تعجب زوايا المربع أو المستطيل جانبا من المنطقة المحيطة بالصور
 وتعرض سمـ المدافعين ، فيضطرون إلى التزام أركان المستطيل أو المربع ، ولا
 شك أن المنصور كان يستهدف موقعا حصينا تدور به الأسوار الحصينة بدليل
 أنه قبل المنصور : « فإن الله قد من على أمير المؤمنين بكثرة جيوشه وقواده
 وجهته ، فليس أحد من أعدائه يطمح في الدخول منه ، ولتدبير في المدن أن
 تتخذ الأسوار والخنادق والحصون ، ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير
 المؤمنين » (٣) ؛ وبدليل أن المنصور أقام لمدينته سورين خارجيين ثم أقام حول
 مركز المدينة الذى يضم القصر والجوامع سورا داخلها ثالثا ، ومعنى هذا أن
 المنصور كان يهتم بحصانة مدينته ضد أعدائه فبالغ في تنفيذ هدفه بهذا التخطيط
 المستدير ، لأن السور المدور يحقق له الحصانة من جهة وهو يبر عن نظام حكمه
 الاستبدادى المقدس بحكم التأثير الفارسى من جهة أخرى .

(١) حال الدين العياش تاريخ الدولة العباسية ، الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٢٧٧ .

(٢) ويمكن أن أضيف تعليلاً خامسا هو أن طبيعة نهر العاصرة أو نهر العاصرة الذى
 يشق مجراه شكل قوس ، يصير بمقتضى السور المنذر على أن يأتى على المنصور شكل
 مدينة المستدير .

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤ .

ومن المعروف أن المنصور اتخذ من مدنه سورين خارجيين المداخل منها أكثر ارتفاعا من الخارجى (١) على نمط ما كان معروفا عند الفرس والروم والسور الأمامى كان يعرف عند الفرس باسم برجخانه وقد عرفه العرب عن الفرس والروم معا وسموه بالخوام البرانى ، ووظيفة السور الأمامى أنه يمنع العدو المهاجم من هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ويعمله ويعطل تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن يفتد منها إلى داخل المدينة (٢) بسبب وجود الفصيل الواقع بين السورين - وفيه تركز قوة الدفاع الرئيسية - والحنديق ، وهذا السور الأمامى بمخدقه يهكل على هذا النحو خطأ دفاعيا أماميا . وفتح في هذا السور (الأمامى والريمى) أربعة أبواب مزدوجة على مسافات متساوية عن بعضها بعضا (٣) ويقابل أحدهما الآخر ، بين كل بابين ٢٨ برجاً (٤) :

١ - باب الكوفة : ويقع في الجنوب الغربي ويشرف على الصراة ويمتدح منه طريق الحج .

٢ - باب البصرة : ويقع في الجنوب الشرقي ويشرف على الصراة التي تأخذ من الفرات وتصل إلى دهلة (٥) .

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ .

(٢) سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٤٤٣ .

(٣) ذكر الطبرى أنه جعل أبوابها أربعة على تدبير المساكن في الحروب .

(٤) ما عدا المسافة بين بابى البصرة والكوفة فكان يركز على سورها ٢٩ برجاً .

(٥) اليعقوبى ، ص ٣٧٣ .

٣ - باب خراسان : ويقع في الشمال الشرقي ويشرف على الجسر الكهنه القائم على نهر دجلة ، وكان هذا الباب يدهى باب الإقبال أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان .

٤ - باب الشام : ويقع في الشمال الغربي ويؤدي إلى طريق الأبار الذي يصل الضفة الشمالية من نهر الفراء إلى .

وبالغ المهندسون في تحصين هذه الأبواب ، فكان على كل من الأبواب الأربعة مما يلي الأبراج مجالس بقباب مذهبية يصعد إليها أهل الخيل (١) ، وفي ذلك يقول الإربلي : وعلى كل أزج من أزاج المدينة مجالس ودرجة وعليه قبة عظيمة عليها تمثال تديره الريح (٢) . ولعل في مجالس كل باب فرقة من الجند ، فكان على باب الشام سليمان بن محمد في ألف ، وعلى باب البصرة أبو الأزد التميمي في ألف ، وعلى باب الكوفة خالد العلي في ألف ، وعلى باب خراسان مسلمة بن صهيف النساني في ألف (٣)

وخصص المنصور قلب المدينة ومركزها لتحصنه ، المسمى باب الذهب ، وللمسجد الجامع وحولها تركت رحبة فسحة مستديرة طوافت بهدار داخلي ، فتوجد فيه أربعة أبواب في اتجاه الأبواب الخارجية ، وامتدت من هذه الأبواب أربع طرق رئيسية تشعبت من المراكز نحو الأبواب الخارجية ، عرض الواحد ٤٠ ذراعاً . ولستطبع أن استلج من الجوال المؤرخين أن كل

(١) البغوي ، ص ٣٧٤ .

(٢) الإربلي ، ص ٢٥ .

(٣) نلس الصدر ، ص ٧٦ .

بابه من الأبواب الأربعة في السور الخارجى المدينة كان له بابان، بمعنى أن السور الأمامى كان لكل باب من أبوابه بابان وكان لكل باب من أبواب السور الرئيسى بابان، ولكل باب من أبواب جدار الرحبة المركزية باب، فأصبح لإماما على من يرغب فى الوصول إلى الرحبة المركزية أن يمر بخدمة أبواب.

واتخذ المنصور لهذه الأبواب أبواب حديدية ضخمة، فنقل من واسط أبوابها الخمسة ونصب أربع منها على أبواب مدينته في السور الداخلى والخامس نصبه على باب قصره، وجعل على باب خراسان الخارجى بابا حديدى به من الشام، وعلى باب الكوفة الخارجى بابا حديدى به من الكوفة كان قد حملها خالد بن عبيد الله القسرى، وأمر باتخاذ باب حديدى لباب الشام فوضع فى بغداد فجاء أضغف هذه الأبواب الحديدية كلها (١).

وتفرعت من الطريق الأربعة الرئيسية فى المدينة دروب وسكك قدر عددها فى الجانب الشرقى بحوالى أربعة آلاف درب وسكة، وستة آلاف فى الجانب الغربى (٢).

ج - بناء الاسوار والقصر والجامع والدواوين :

لما أمر أبو جعفر بفتح الخندق وإنشاء بناء الأساس أمر أن يعمل عرض السور من أسفل خمسة عشر ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا، (٣) وقيل عرضه

(١) الطبري، ج ٩ ص ٢٦١ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٧٤.

(٢) الإربلى، ص ٨٢.

(٣) الطبري، ج ٩ ص ٢٤١ - الإربلى، ص ٧٤.

من أسفل سبعون ذراعا (١) ، وقيل هرطه من أسفل عشرون ذراعا وارتفاه
 ٣٥ ذراعا (٢) ، فلما بلغ ارتفاع السور قامه أثناء خبر خروج محمد بن عبد الله
 ابن الحسن فلقطع البناء وخرج إلى الكوفة (٣) ، فلما فرغ من ثورة النفس
 الوكية عاد إلى بغداد وواصل ببناء أسوارها ، وكان الإمام أبو حنيفة يقول
 مهمة ضرب اللبن للمدينة بعده ، حتى فرغ من استتمام البناء بسور المدينة
 بماء الخندق ، وكان أبو حنيفة يمد اللبن بالاصب وهو أول من فعل ذلك
 ويرجع السبب في إشراك أبي حنيفة في أعمال البنيان أن المنصور أراد أن يوليه
 على القضاء والمظالم فامتنع ، فأقسم المنصور أن يوليه إجملا ، ولما أقيم بطريق
 اللبن ليخرج من يمرته (٤) وكان أبو حنيفة يتخذ قوالب ضخمة لآمن ابن
 طو لها ذراع وهرطها ذراع ، وهذا يفسر ضخامة ممالك السور وعظم النفقة
 في بنائه . وفي نفس الوقت عهد المنصور إلى أربعة قواد من قواد دولته ببناء المدينة
 (كل يبنى منها ربما) . وتولى الحاج بن أرطاة مهمة تخطيط المسجد الجامع
 وبناءه ، ولكن قبلة الجامع جاءت منحرفة غير مستقيمة لأن بناء الجامع
 حدث بعد بناء القصر وكان جدار القصر غير مستقيم من القبلة (٥) ، ويشمل
 بناء القصر مركز المدينة . وكانت تقوس القصر قبة خضراء على رأسها تمثال
 فارس في يده رمح (٦) ، على نفس نظام التماثيل المقامة بأعلى قباب مجالس

(١) الطبري ، ص ٣٧٤ .

(٢) الإبراهيمي ، ص ٧٥ .

(٣) الطبري ، ص ٢٤٦ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٦٠ — الإبراهيمي ، ص ٧٥ .

(٥) الطبري ، ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٦) الإبراهيمي ، ص ٧٦ .

الأبواب وجميع هذه القباب مكسوة بالقراميد الخضراء ، وزينت بطونها
بنقوش ذهبية (١). وكان قصر المنصور بناء ضخما يتوسط المدينة وكان يعرف
باسم باب الذهب (٢) أو قصر الذهب (٣) أو قصر القبة الخضراء (٤) ،
وبلغت مساحته ٥٠٠ ذراع في في مثلها ، وفي أدنى القبة الكبرى مجلس منيف
يتقدمه لإيوان ضخم .

أما الدواوين فقد أقيمت بعد ذلك حول الرحبة المركزية . وكانت تضم
بيت المال وخزانة السلاح ودواوين الرسائل ودواوين الخراج ودواوين الخاتم
ودواوين الجند ودواوين الخواص ودواوين الأشغال ومطبخ العامة ودواوين
النفقات (٥) .

ولما بنى المنصور بغداد وعظمت عليه النفقة ، أشار إليه أبو أيوب
المورياني - سديم إيوان كسرى بالمداين ويعرف بالقصر الأبيض ، واستمال
أنقاضه في أبنية بغداد ، فاستفاد المنصور نجاحه بن برمك في ذلك ، فنهأ عن
مخرب القصر بحجة أنه « علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أنه
لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دينا وإعسا هو على أمر دين ، وهو مع

(١) البطون ، ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٢) البطون ج ٢ ص ٣٧٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .

(٣) الإدري ، ص ٧٥ . وسمى أيضا قصر السلام (طبرى ، ج ٩ ص ٢٣٩) .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(٥) لسترنج ، ص ٣٥ .

هذا ما أمـير المؤمنين فإن فيه مـصلى على بن أبى طالب صلوات الله عليه . .
فقال له أبو جعفر : هيهات يا خالده أبيت إلا الميل إلى أصحابك الأتباع ، (١)
وأورد ابن طباطبا رواية شبيهة مع بعض الإختلاف الطفيف ، فبعد أن
نصحه خالده بعدم هدمه باهتياره علما من أعلام الإسلام ومـصلى لمـلى بن
أبى طالب ، قال له : والمؤنة في نقضه أكثر من نفعه ، فرد عليه المنصور قائلا :
« أبيت يا خالده إلا ميلا إلى العجمية » (٢) ، ثم أمر المنصور بهدم إخوان كـسرى ،
فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر من النفقة على بناء ما يساعدها
من البنيان الجديد ، فأمدك المنصور عن هدمه (٣) .

وفي سنة ١١٠٠ تم بناء القصر والجامع والدواوين ، فنقل المنصور إلى
بغداد الخزان والدواوين وبيوت الأموال (٤) ، ثم أقطع المنصور مواليه
وقواده القطن داخل المدينة ، ودروب المدينة فذهب إليهم ، وأقطع آخرين
من نقواد على أبوابها وأقطع الحمد أرباضها وأقطع أهل بيته الأطراف (٥) .
ثم نزل مدينته في ربيع الأول سنة ١١١٦ هـ نزول مستوطن ، وكانت الأسواق
داخل المدينة ، فأخرجها إلى الكرخ سنة ٥٧٧ هـ (٦) . وذكر الطبري في أسباب
نقل الأسواق من داخل المدينة بالطائفت الأربع في المدينة إلى ناحية الكرخ

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٦١ .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ .

(٣) الطبري ، ص ٢٦١ - ابن الأثير ، ص ٥٧٣ - الإربلى ، ص ٧٤ .

(٤) الإربلى ، ص ٨١ .

(٥) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ .

(٦) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ - الطبري ، ج ٩ ص ٢٨٨ .

أن بطريقاً من بطارقة الروم قدم على المنصور وافداً في سفارة ، فأمر المنصور
 الربيع بن يونس أن يطوف به في المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء ،
 فطاف به الربيع ، فلما انصرف قال : كيف رأيت مدينتي — وقد كان أحمد
 إلى سور المدينة وقباب الأبواب — قال : رأيت بناء حسناً إلا أني قد رأيت
 أعداءك منك في مدينتك . قال : ومن هم ؟ قال السوقة ، فلما رحل الرسول
 أمر المنصور بإخراجهم إلى ناحية الكرخ وبنان أسواقهم هناك ويجهلوا
 صغرفا ويديوتا لكل صنف (١) ، وذكر بعضهم أن السبب في نقل أبي جعفر
 التجار من المدينة إلى الكرخ وما قرب منها مما هو خارج المدينة أنه قيل
 لأبي جعفر إن الغرباء وغيرهم يبيتون فيها ولا يؤمن أن يكون فيهم جواسيس ومن
 يتعرف الأخبار ، أو أن يفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوق . فأمر بنقل
 الأسواق من المدينة وجعلها للشرط والحرس ، وبنى للتجار بباب طاق الحراني
 وباب الشام والكرخ (٢) . وهناك سبب ثالث أعتقد أنه الرئيس في نقل
 الأسواق التجارية إلى محلة الكرخ وغيرها ، فقد ذكر الطبري أيضاً أن محتسب
 بغداد والأسواق واسمه أبو زكريا يحيى بن عبد الله كان شيعياً حسنياً ساء
 أن يتابع المنصور أنصار الحسنيين ، فجمع جماعة من السوقة وحرضهم على
 الشغب ، فثاروا في أسواق بغداد ، فأرسل المنصور إليهم أبا العباس الطوسي
 فسكنهم ، وقبض على أبي زكريا وقتله على باب الذهب في الرحبة ، وأمر
 المنصور بهدم الدور التي تعترض الداخل إلى المدينة وتوسعة الطريق إلى

(١) الطبري ، ص ٢٦٢ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٢) نفس المصدر .

أرخصين ذراعا ومدم ما زاد من المباني على هذا القدر ، ونقل الأسواق إلى
الكرخ (١)

هـ - البور والقصور الأخرى .

وإلى جانب قصر الذهب أو القبة الخضراء الذي تحدثنا عنه أقام المنصور
بعد بضعة سنين قصر الخلد ، ويقع خارج باب خراسان على ضفة دجلة ،
وأصبح قصر الذهب المقر الرسمي للمنصور ومن خلفه من الخلفاء
حتى الرشيد الذي أتم الإقامة في قصر الخلد طوال إبعث في بغداد ، ولكن الأيمن
عاد إلى الإقامة في قصر الذهب ، أما قصر الخلد فقد كان يقيم فيه أيام العرض أو
الراحة ، ويذكر الطبري في أحداث سنة ١٥٧ هـ أن المنصور عرض جنوده في
السلاح والخيال على هيئة في مجلس اتخذ على شط دجلة دون قطربل ، وأمر
أهل بيته وقرايته وصحابته يومئذ بلبس السلاح ، وخرج هو وقد لبس درعا
وقلنسوة سوداء من الذهب المصرى تحت البهضة (أو الخوذة) (٢) وفي
العام التالي (أي سنة ١٥٨) نزل المنصور قصره الذي يعرف بالخلد (٣) ، بما
يقطع يقينا بأن بناء قصر الخلد بدأ قبل سنة ١٥٧ ، وانتهى سنة ٥٨ : هـ .

ومن القصور التي أقيمت في العصر العباسي الأول ببغداد قصر الجعفري
الذي شيده جعفر البرمكي أقرب المقربين إلى الرشيد ليكون موضع لموه ومجلس
أبيه ، وكان يقع على ضفة نهر دجلة في بغداد الشرقية ، ثم تبدل اسم القصر بعد
نكبة البرامكة وبعد أن أقام فيه المأمون فسمى القصر المأموني ، ولما أقام فيه

(١) الطبري ، ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

الحسن بن سهل سمي القصر الحصني، وكان المأمون قد أضاف إلى هذا القصر وزاد فيه الميدان الممد لسباق الخيل ولعبة الصولجان التي كان الرشيد أول من لعبها في بغداد (١)، وجعل فيها حوض الوحوش.

ولما تولى المعتصم الخلافة أقام لنفسه قصرا في غلة الخرم إلى الجنوب من باب خراسان، اتخذاه مقرا له حتى سنة ٢٢١ (٢٠٦) التي أسس فيها سامراء، فانتقل اليها (٢).

ومن القصور العباسية أيضا قصر عيسى بن علي العباسي أول ما شيد من قصور أمراء بني العباس في بغداد ويقع في الجانب الأيمن من نهر عيسى عند التقاء هذا النهر بدجلة، وظل هذا القصر قائما فترة طويلة حتى القرن الرابع الهجري (٣)، ومنها قصر حميد بن عبد الحميد (ت ٥٢١ هـ) الذي لعب دورا هاما في القضاء على حركة إبراهيم بن المهدي العباسي، وكان يقع على ضفة نهر دجلة (٤)، ومنها قصر القرار (أي قصر البركة) وكان يقع في أدنى قصر الخلد على مسافة قليلة من أهل قرن لأصراة، وسمي هذا القصر أيضا بقصر زبيدة أم الأمين، وعرف أيضا بقصر أم جعفر لقب زبيدة (٥).

ويمكن أن ننسب إلى القصور السالفة الذكر قسرا أصبح يؤرث لمدينة

(١) الرشيد هو أول من لعب بالصولجان والحكمة ورعى النعاب في السرجاس (مخطوط ص ٢٧٤).

(٢) لسترنج ص ٢١١.

(٣) نفس المرجع، ص ٨٣.

(٤) نفس المرجع، ص ٩١.

(٥) نفس المرجع، ص ٩٦.

تُعرف بالرصافة ، ويقع هذا القصر في الجانب الشرقي من بغداد ثم اتسعت المرافق حوله حتى أصبحت تؤلف مدينة مستقلة لها سور وخندق وميدان وبستان (١) .

ويرجع سبب بناء المنصور للرصافة أن بعض الجنود شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، فدخل عليه قثم بن العباس بن عبيد الله بن المباس - وكان شيخاً زوراً أقدماً عند القوم - فاستشاره المنصور في الأمر ، فنصحه بإقامة مدينة أخرى بدلاً ابنته المهدى ويقوم معه فيها قسم من الجيش من عصبية تخالف نوع عصبية جنود بغداد ، فإذا فسدت جنود بغداد أمكنه ضربهم بجند الرصافة ، فاتفق المنصور بهذا الرأي وبأشر بناء الرصافة في شوال سنة ١٥ هـ (١٦٨) ، وقول أعمال البناء صالح صاحب المصلى (٢) . ولم يتم العمل في بناء الرصافة حتى سنة ١٥٦ هـ (٧٧٦ م) أي في السنة الثانية من خلافة المهدى . وأول بناء أقيم في الرصافة هو جامعها الكبير وتبعه القصر ، ولهذا السبب جاء انتهاء قبلة الجامع صحيحاً بخلاف قبلة جامع بغداد التي أملى الجدار المنحرف بالقصر انحرافها المنحرف . وكان يحيط بقصر المهدى في الرصافة سور وخندق وبجواره رحبة ، وأجرى المنصور المياه إلى بساتين الرصافة من نهر المهدى (٣) .

هـ - دُور قصور بغداد إبان الدولة بين الأمين والمأمون :

في سنة ١٩٧ حاصر طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهيد بن المسيب

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٨١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .

(٢) الطبري ، ص ٢٨٢ - ابن الأثير ، ص ٦٠٤ .

(٣) راجع ياقوت ، معجم البلدان مادة (رصافة) .

بغداد ، فنزل زهير بركة كلواذى ، ونصب المجانيق والمرادات وخفر الخنادق ، وغزل هزيمة نهرين وخندق هناك ، ونزل هبيد الله بن الرضاح بالشامية ، ونزل طاهر البستان الواقع بباب الأنبار ، وتبادل المحاصرون والمحصرون الرمي بالنقط والمجانيق فأحرقت عدة الحربية (١) الواقعة إلى الشمال من بابه الهام وتنافس إلى حرب بن عبد الله صاحب شرطة المنصور في بغداد ، ومهد طاهر إلى هدم الدور وتحصين القروى بالخنادق ، فكثر الحراب والمدمم ببغداد ودرسست المنازل ، ووكل الأميين إلى أهل أفراسرت بالدفاع عن منطقة قصر صالح وقصر سليمان بن المنصور حتى دجلة ، وفألح في إحراق الدور والعروب والرمى بالمجانيق ، وفعل طاهر مثل ذلك ، فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها ، فكلم أجاية أهل ناحية خندق عليهم ومن أبى إجابته قاتله وأحرق منزله ، ووجدت بغداد وخرب ، (٢) وفي ذلك يقول بعض فتيان بغداد :

بكيت دما هل بغداد لما . . . فقدت غصارة العيش الأليق
تبدلنا هموما من سرور . . . ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد حين . . . فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا . . . ونائحة تنوح هل طريق (٣)

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

وأمر طاهر بن الحسين بالهدم والإحراق ، فهدم دور من خالقه من بين
 دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وريض حميد وغير
 كرخاها . وفي سنة ١٩٨ هـ دخل طاهر الكرخ بالسيف ، وقصد إلى مدينة المنصور
 وطوقها ، وحاصر قصر الخلد ، ونصب المجانيق لإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ،
 فلما الأمن مع أمه وأرلافة إلى مدينة المنصور وتمنع بها (١) . وأصيب
 قصر الذهب إصابات بالغة بهذائف المجانيق طاهر ، ولم يبق من القصر بعد
 مصرع الأمين سوى أجزاء قليلة ، وبقيت القبة الخضراء قائمة إلى أن سقطت
 في سنة ٢٩ هـ (٩٤١ م) بسبب صاعقة دهرتها (٢) .

كذلك أصيب قصر الخلد بأضرار فادحة ، ولكنه كان أقل بكثير مما أصاب
 قصر الذهب ، فعندما عاد المأمون إلى بغداد بعد مصرع الأمين بهمس سنوات
 اتخذ مقره أولا في قصر الخلد بما يدل على أن الإصابات لم تكن بالغة . أما قصر
 زبيدة فقد تهدم جانب منه وألقت جدرانها بفعل أحجار المجانيق التي قذفها
 أعوان طاهر عليه (٣) . وقد تهدم الخلد تماما خلال السنين سنة التي انتقل
 فيها الخلفاء إلى سامراء ، وظل مهديا إلى أن أقام عضد الدولة البويهى على أنقاضه
 البجارسقان العظيم المنسوب إليه وذلك في سنة ٣٦١ هـ (٩٧٩ م) (٤) .

ثانيا - مدينة سامراء :

كان المنتقم قد استكثر من الأتراك ، فاجتمع له منهم أعداد ضخمة إليهم

(١) ابنت الأثير ، ص ٢٨٠ .

(٢) لتزيج ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٦ .

(٤) نفس المرجع .

أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم عن سائر جنده ، وكان هؤلاء الجنود يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع فيصدمون النار من الرجال والنساء والصبيان ، فيثور الأهالي عليهم وتغضب معارك قد تقتل من الطرفين ، فاعترض المعتصم في موكبه يوم عيد شيخ وقال له : ولا جراك الله من الجوار خيرا ، جاورتنا رجئت هؤلاء السلوج من ظلماتك الأتراك ، فأمكنتم بيننا ، فأبتمت صبياننا وأرملت بهم أسواننا وقتلت رجالنا ، (١) فقام المعتصم وهم على الخروج من بغداد واتخاذ مقر آخر لهم ، فخرج إلى السامية وهو موضح كان المأمون يقصده وينزل به الإيام والشهور ، ولكنه بعد أن أقام هناك كرهه اضيق أرضه وقربه من بغداد (٢) ، ورحل من هناك فرتاد موضحا يصلح لإنشاء مدينة التي يرمع اتخاذها مركزا له ، فنزل بالبراذان (٣) فلم يستطع هواءها فلم يزل يتنقل ويتقرب الموضح إلى دجلة وهو ما حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول (٤) ، فأعجبه الموضع واستطابه ، وكان بهذا الموضع قرية يسكنها قوم من النبط فبنى المعتصم هناك قصرا ، وبني الناس ، وانتقلوا إلى القاطول . ولكن المعتصم ناله من شدة برودة الجو هناك وصلاية الأرض (٥) ما دفعه إلى ترك القاطول بحثا عن موضع آخر ينزل فيه

(١) ابن الأثير ' ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٢) اليعاقبة ' كتاب البلدان ' ص ٢٥٥ .

(٣) المسعودي ' ج ٣ ص ٤٦٦ .

(٤) القاطول نهر كان في موضع سامراء قبل أن تعمده حفره الرشيد وبني على فوهته قصرا سماه أبا الجنيد (حين أمين سامراء في ظل الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ص ١٧٨ .

(٥) المسعودي ' ص ٤٦٦ .

إلى أن انتهى إلى موضع سامرا ، وكان صحراء من أرض الطبرستان لا هوية فيها إلا دير قديم للنصارى ، فكلّم بعض رهبان الدير وسألهم عن اسم الموضع فأخبروه أنه سامرا ، ثم سألهم عن معناها فأجابوه أنهم لم يروا في كتب التاريخ الماضية أنها مدينة سام بن نوح ، وإنما ستممر على يد ملك جليل مظهر منصور ينزل وينزلها ولده . فخطر المتعمّم حوالبه فالتفت فضاء فسيحها لا حدود له ، واستطاب هواها فأقام هناك ثلاثة أيام يتصيد ، فلحجب بالموضع ، ودعا رهبان الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار (١) ، وأمر ببناء القصور والعمور سنة ٢٢١ ، واستقدم المهرة من الصناع والفنيين لتشييد قصوره وجميع منشأته ، وجلب أصناف الأشجار المثمرة من جميع البلدان ، فمرسى البساتين في كل مكان ، وجمال الأفلاك قطائع متحيزة ، وجاورهم بالانراغنة والأشروسية وغيرهم ، وهدى كل رجل من أصحابه ببناء قصر ، ففوض إلى خاقان هرطوج ابن الفتح بن خاقان بنساء الجوسق الخاقاني ، وإلى عمر بن فرج بنساء القصر المعروف بالعمري ، وإلى ابن الوزير ببناء قصر الوزير ، وخط القطائع للقواد والكتائب ، وخط المسجد الجامع واختط حوله الأسواق صفوفا ، وجمال لكل صناعة وتجارة شارع على مثال ما رسمت عليه أسوارى بغداد ، وأقيمت دواوين الدولة ، وشهدت ثكنات لسكنى ٢٥ ألف جندي (٢) . واستقدم لكل هذه الأعمال الإشتاكية الغملة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات . وكتب في حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن أنطاكية وسائر سواحل الشام (٣) .

(١) المسعودى ، ص ٣٦٧ - بالوقت ، معجم البلدان ، مادة (سامرا) .

(٢) حسين أمين ، سامراء في ظل الخلافة النجاشية ، ص ٧٩ .

(٣) الطبري ، البلدان ، ص ٢٥٨ .

واقطع المنصم أشفاك القزكي ووقالة الأتراك الموضع المعروف بـ **بكرخ**
 سامرا، ومن فراغة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمري والجسر (١)، واقطع
 الأتراك في آخر الزمان مشرقا، وسمى الموضع الذي أقطعه إياه المطهرة، كما
 أقطع أصحابه الأثرونية حول داره، وأمره أن يبنى فيها سويقة تضم
 حوانيت ومساجد وحمامات (٢)، وفي الشارع الأعظم المعروف بالسريجة
 قطائع قواد خراسان، منها قطعة هاشم بن أبي جهور وقطعة جهيف بن هبسة
 وقطعة الحسن بن علي المأمون، وقطعة هرون بن نعيم، ومواضع الرطابين
 وندوق الرقيق ومجلس الشرط والمجلس الكبير والسوق الكبير، ثم الجامع
 القديم، وتمتد القطائع بعد ذلك بامتداد الشارع مرورا بدار هرون بن
 المنصم (وهو الوائلي) وذلك عند دار العامة، ثم باب العامة ودار الخليفة
 العامة التي يجلس فيها يوم الإثنين والخميس (٣)، وهناك شوارع أخرى
 شقت في هذه المدينة فيها قطائع لمنسوبات بارزة، فشارع ابن أحمد بن الرشيد
 ينتظم دهران الحراج الأعظم وقطعة الكتاب، وتتصل به قطائع ابن أبي فراد
 والقنصل بن مروان وعبد الملك الزيات وبنو الصنف وبنو السكك
 وصيا الدهقن وبرغن ووصيف وقطعة ليشاخ حتى باب البستان ونصور
 الخليفة؛ وفي شارع صالح السباسي قطائع الأتراك والفراخنة، وفي شارع الحمد
 الجديد قطائع قواد الفراخنة والأثرونية وهجوم؛ ويصل كل دجلة شارع
 يعرف باسم شارع الخليل حيث تعداد المدن التجارية التي ترد من بغداد

(١) المسعودي، ص ٤٦٧.

(٢) القليوبي، ص ٢٥٩.

(٣) حنين أمين، ص ٨١.

رواسط ركحكر وصائر الحواد من الجسرة والآيلة والأهواز ؛ وينتظم
هذا الفارع لطائع المناربة (١) ولنفهم العرب اليمنية والمطربة الذين
استقدمهم المصم من مصر وسياهم المناربة (٢).

وفي عهد الواصل بالله أنشئ القصر الحاروني الواقع على دجلة في ظاهر
سامرا وبازائه من الجانب الغربي قصر المشوق (٣). وظلت سامرا تزدحم
وتعمر في عهد الواصل ؛ إلى أن بلغت ذروة تطورها العمراني في زمن المتوكل ،
ومن أهرم مبانيه المسجد الجامع بسامرا ومثله المروقة بالمقرية ، وما زالت
آثار هذا الجامع بالية حتى اليوم ، وبني في هذه أيضا جامع أبي دلف الذي
يقبه سككها حتى في المئذنة جامع سامرا . كذلك أهدأ قصر الجعفرى في
الموضع المعروف بالمأحوزة ، وبقي هذا القصر لآنزال تصاعد اليوم على ضفة
دجلة في شمال السور الداخلى لمدينة المتوكلية المنسوبة إليه .

ثم هجره سامرا بعد أن سكنتها ثمانية خلفاء بنى المباس في الواصل حتى
المعتمد ، وفي هذه انتقل مقر الحكم إلى بغداد ، ومنذ ذلك الحين دبت فيها
الحروب ، وفقدت روائها وعظمتها ، وقد أحرقت في أطلال سامرا حفرات
الربة قام بها مرتدكها بين عامى ١٩١١ ، ١٩١٢ أسفرت عن كشف تخطيط
القصور والفارح الأعظم والجوامع والقصور والحدود . واستدل من هذه

(١) قس المرجع ، ص ٨٣ .

(٢) المعتمد ، ص ٤٦٠ .

(٣) بالوت ، ص ١١١ .

الكهوف الأثرية بالنسبة للصورة على أن تأثير إيهوان كبرى الذي يقوم حتى اليوم في المدائن على نود درجة على العبارة العباسية كان حقيقياً ، ويهمل هذا التأثير في بقايا عصر الجورسن الحاخازي ، ويشتمل العصر على قاعة كبرى تخطيطها مماثل حرف T وهو نفس النظام الذي كان معروفا في قصور المناخرة بالحيرة مما يرجع من تأثير مباشر . والبناء بالآجر هو الظاهرة الواضحة في آثار سامرا . وكانت جميع المساكن تنكس في أسنانها بطبقة من الجص ثم تنظم بأعلاها حنايا وطاقات مختلفة الشكل ، وكانت الطبقة الجصية تزدان بزخارف نباتية وهندسية محفورة حمرا مائلا ، من طابع الرب ما يكون إلى الفن الصيني الطوري (١) . كذلك كشفت الحفريات الأثرية عن كهف عائلة من قطع الحرف بعضها من النوع الصيني الأبيض وبعضها من نوع الحرف ذي البريق المعدن .

(٢) أرنت كونل ، الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢ .

(٢)

المراكز العمرانية الجديدة في افريقية ومصر

أولا - مدينة العباسية (القصر القديم) :

أسمها الأمير إبراهيم بن الأغلب في سنة ١١٨٥ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال جنوبى القاهرة (١) ، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة يرجع إلى أن سكان القهروان بما كانوا يصفون به من تدين وروح ، أبدوا منخطهم على الأمير لإقباله على الحر ، وانماحه في حياة اللهو والملاذ ، فاحضر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعد أن انظار رعيته ، فلا يناله شيء من تهرج فقهاهم وانقادهم لسلوكه . ولعله احتذى حذر الخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذ مدن أميرية خارج عواصمهم أو إشباعا لرغبته في الظهور بظهور الأبهة والاهتمام .

ولقد اشترى بن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بنى طالوت ، وبني قيسرا الإمارة نقل إليه السلاح والعدد سرا ، فأمكن حوله عبيده وفتيانها ومواليه وأهل الثقة من خدمة (٢) ، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادته الذي بناه الأمير إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤ (٣) ، وهرقه بالقصر الأبيض ربا

(١) ابن مغازى ، ص ١١٧ ، ويذكر اليعقوبى أنها تقع على ميلين من القاهران . (البلدان ، ص ٣٤٨) .

(٢) ابن مغازى ، ص ١١٧ .

(٣) فى المصدر ، ص ١٥٤ .

لبياض لون جدرانه . ولقد أطلق إبراهيم بن الأظلم على هذه المدينة اسم
المباضية إماماً في إظهار ولائه للمباضيين (١) . وفي هذه المدينة استقبل رسل
شارلمان إليه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) عندما قدموا لنقل رفات القديس
سان صيرين (٢) وظلت هذه المدينة داراً للإمارة في عهد خلفاء إبراهيم بن الأظلم ،
وأسس فيها زيادة الله بن إبراهيم القصور والمنهاج ، وحصنها سنة ٢٠١ هـ (٣) .
كذلك أقام الأسعد أبو الفراتي محمد بن أحمد في المباضية ، وكان لوقا مهذرا
شغولاً بأقتصاص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطير
أن يركن فيه إلى هوايته المفضلة ؛ وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة
مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجمل منها (٤) .

واتسمت المباضية وأصبحت مدينة كجدة مسورة ، وكان يفتح فيها خمسة
أبواب منها بابا الرحمة والحديد في السور الجنوبي ، وبابا غلبون والريح
في السور الشرقي ، وباب السمادة في السور الغربي (٥) . وقد أقيم في المدينة
كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومراجل (خانات مياه
مكفوفة) ؛ ويذكر البكري أيضاً أنه كان يتوسطها ميدان فسيح أقيم بمساحه

(١) ياقوت ، معجم البلدان مادة (مباضية) .

(٢) Margais, L'architecture musulmane d'Occident p. 26

(٣) ابن حذافى ، ص ١٢٣ .

(٤) ياقوت " معجم البلدان " مادة (بصر القهوان) .

البكري ، ص ٢٥ .

قصر يعرف بالرصافة (١). ولما كانت سنة ٨٢٦ هـ هجر الأغالبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة جديدة هي رقادة. وقد انتهى القصر القديم إلى الدمار، ولكن موقعه ما زال معروفاً حتى اليوم. ولقد أجريت على طول الجدارين الشمالي والغربي من الأطلال حفريات أثرية في سنة ١٩٢٢ أحفرت من كتف بعض الغرف الصغيرة، كما كشفت عن بعض القبوات والخازن المنقورة في باطن الأرض (٢).

ثانياً - مدينة رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبى القيروان، وهي الحاضرة الأغالبية الثانية، شرح إبراهيم بن أحمد الأغلبي في تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ وتم تأسيسها في سنة ٨٢٦ هـ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بني الأغلاب حتى انقراض دولتهم. ويصفها البكري بقوله: «وأكثرها بساطين، وليس بأفريقية أهل هوا ولا أرق ليبيا ولا أطيب قرية من مدينة رقادة، وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق ووما، وشرد الكرى عن جنتيه، فلم يبق، وأمر بالخروج والسير فلما وصل إل هذا الموضع نام، فسمي رقادة...» والذي بنى رقادة واتخذها داراً هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلاب، انتقل إليها من مدينة

(١) وجدت تصور كثيرة بهذا الاسم في العالم الإسلامي: منها رصافة معام بن عبد الملك بالشام، ورصافة بغداد، ورصافة قرطبة، ورصافة بلنسية، ورصافة النباسية. وظاهر أن بسمية الرصافة لها دلالة بالطريق المرصوف، ولعل القصر كان يطل على جادة مرصوفة من عهد الأوائل.

القصر القديم ، وبني بها قصورا عديدة ، وجامعا ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق ، (١) ، وكانت من قصورها قصور بنجاح والخمسة عشر والفندق وقصر العروس وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الأجر والبين أصلحه الأيوبي زيادة الله الثالث حتى يتحصن فيها عند محاصرة أبي عبد الله الشيعي لها .

ولم تول هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بني الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قواته أبي عبد الله الشيعي ، فاحتلها عبيد الله المهدي ، وأقام في قصر الصحن برقادة حتى سنة ٥٣٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة . ثم فتحت رقادة بالندرج مكانها القديمة ، وأخذ الخراب يدب في قصورها ودهارها ، حتى أتى محمد بن إسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم ما بقي منها ، وأصبحت رقادة محجرا تستخرج منه مواد البناء في القرون التالية . وقد بقي منها اليوم آثار حوض لملء حوض القصر المعروف بقصر الجسر (٢) .

ثالثا — مدينة الصنكر :

أصبح لمصر الإسلامية أن تشهد مركزا هوائيا جديدا بعد أول عواصمها الإسلامية عندما أقدم عمرو بن العاص على تخطيط التوسيط في سنة ٦٤١ م (٦٤١ م) في المنطقة الممتدة ما بين النيل والجبل للشرق المعروف بالقطام ، وقسمها من حصن بابليون ، ومنذ ذلك الحين أصبحت التوسيط مقرا للولاية في عهد الخلافة

(١) البكري ١ ص ٢٧ .

(٢) راجع التفصيلات في : 28 p. cit., op. Marçais.

الراشدة ومصر الدولة الأموية ، وقاعدة للإدارة والجيش (١) ، فلما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ردت مصر في تلك الدولة العباسية ، رأى العباسيون أن يتخذوا للإدارة العباسية في مصر مركزاً حراً جديداً إما رغبة في التجديد واتخاذ حاضرة جديدة كما جرت العادة في الشرق ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل مصر قد أشعل النار في القسطنطينية فدمرت بها ما فيها ، أو لئلا يثق القسطنطينيون من الانسحاب لمصر العباسيين في مصر ، أو لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، فأنشأ صالح بن علي العباسي والي مصر (في المحرم سنة ١٣٢) حاضرة جديدة في مصر في موضع عرفه باسم الحراء القصبية كان يمتد إلى جبل يشكر الواقع إلى الشمال الشرق من القسطنطينية . وأسس صالح بن علي دار الإمارة ومساكن المعسكر ، وأقام ابنه الفضل بن صالح في سنة ١٦٩ مبعجداً جامعاً لهذه المدينة العباسية لصق دار الإمارة عرف باسم جامع المعسكر ، وأحيط هذا الجامع بالأسواق وكثرت حولها للممار ، واتسمت المدينة بالملقبات حتى اتصلت بها ما بها من القسطنطينية . وظلت المعسكر قاعدة رسمية لمصر الإسلامية ما يزيد على قرن من الزمان (١٣٢ - ٤٥٦ هـ) إلى أن استقل أحمد بن طولون مصر وأسس القطائع .

(١) انظر في ذلك : المهرزي ، المواظ والاعتبار بذكر القضاة والآثار ج ٢ ص ١٠٨ طبعه بولاق ١٢٧٠ هـ - ابن دقان ، كتاب الاستثمار لواء طبة عند الأمصار ، بولاق ١٣١٠ هـ ص ٤٠٢ - محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية [و تاريخ القسطنطينية المصرية] القاهرة ١٩٣١ - عبد الرحمن زكي ، القسطنطينية وحاضيتها المعسكر والإطمان ، القاهرة ١٩٦٦ - عبد العزيز سالم ، القسطنطينية دار الحرف الذهب ، عدد ٧٩ القاهرة ١٩٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية

- | | |
|------------|---|
| ابن الأثير | (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) : كتاب الحلة الحمراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ . |
| الإبسي | (شهاب الدين أحمد) : المستطرف من كل فن مستظرف ، ج ١ ، القاهرة ، ١٢٥٢ هـ . |
| الأنليدي | إعلام الناس بما وقع لبوامكة مع بني العباس ، القاهرة ، ١٣٠١ هـ . |
| ابن الأثير | (عز الدين) : الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ . |
| الاريلي | خلاصة الذهب اللديوك ، بغداد ، ١٩٦٤ م . |
| الاصفهانى | (أبو الفرج) : مقاتل الطالبين ، بيروت ، ١٩٦١ . |
| ابن أبيك | درر التيجان في غرر تواريخ الأزمان ، مخطوطة رقم ٤٤٠٩ ، بدار الكتب المصرية . |
| الباروني | (أبو الربيع) : مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٣٨ . |
| البغدادى | (الحطيب) : تاريخ بغداد . |
| البغدادى | (عبد القادر بن طاهر) : الفرق بين الفرق ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة . |
| البغدادى | (محمد بن الحسن) : كتاب الطبيع ، تحقيق الدكتور داود الحلي ، الموصل ، ١٩٣٤ . |
| البكرى | (أبو عبيد الله) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، ١٩١١ . |

- البكرى
الميدوني
معجم ما استعجم (٤ أجزاء) القاهرة ، ١٩٤٥ - ١٩٥١ .
(أبو الريحان محمد) : الآثار الباقية من القرون الخالية ، ليبرج
١٨٧٨ .
- البيهقي
وصادق نشأت ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
(محمد بن حسن) : تاريخ البيهقي ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب
- التنوخى
الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- الجاحظ
(أبو عمرو) : كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق الأستاذ حسن
حسنى عبد الوهاب ، بيروت ، ١٩٦٦ .
الناج في أخلاق الملوك ، القاهرة ، ١٩١٤ .
-
البيان والتبيين ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، وج ١ طبعة بيروت
١٩٦٨ .
-
رسالة في المشارب والمشروب ، بيروت ، ١٩٦٩ .
-
الحامض والأضداد ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- الجزائري
(أبو الحسن هلى) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ،
نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢ .
- الجهشياري
(أبو عبد الله محمد بن عبدوس) : كتاب الوزراء والكتاب ،
تحقيق الأستاذة مصطفى السقا إبراهيم الإياري وعبد الحفيظ
شلي ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ابن الجوزى
(أبو الفرج عبد الرحمن) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،
ج ٥ طبعة جبر آباد الهند ، ١٢٥٧ هـ .

- ابن الجوزى ذم الهوى ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
 ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله) : للمسالك والممالك ، تحقيق دى غريب ،
 لندن ، ١٨٨٩ .
 ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الإحلام من
 ملوك الإسلام ، تخرجه الدكتور أحمد غنار العبادى والأستاذ
 محمد إبراهيم الكتانى ، دار البيضاء ، ١٩٦٤ .
 ابن سلدون (صيد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، وطبعة
 القاهرة ١٩٦٦ .
 ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، طبعة بيروت ١٩٥٧ ،
 ابن خلكان (أبو العباس أحمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٥
 طبعة القاهرة ، ١٩٤٨ .
 ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيمن الملاى) : كتاب الانتصار لراسطة
 عقد الأمصار ، طبعة بولاق ، ١٣١٠ هـ .
 الهمشورى (أبو حنيفة أحمد) : الأنسبصار الطوال ، تحقيق الأستاذ
 عبد للنعم طاهر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
 الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد) : العبر في خبر من غبر ، تحقيق
 الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ج ١ ، ١٩٦٠ .
 الزبيدي (محمد المرتضى) : تاج العروس ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ .
 ابن السامى (تاج الدين هلى) : لساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة العلماء
 من الحرائر والإماء ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، القاهرة
 عدد ٢٨ من سلسلة ذخائر العرب .

- السلامي (أبو العباس أحمد) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،
ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء ، بيروت .
- الشاذلي : كتاب الديارات ، تحقيق الأستاذ كوركيس هواد ، بغداد
١٩٥١
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد) : الملل والنحل ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، وطبعة
القاهرة ١٩٦١ .
- الصافي (أبو الحسين هلال) : كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ،
تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ١٩٥٨ .
- الصافي : رسوم دار الخلافة ، تحقيق الأستاذ ميخائيل هواد ، بغداد
١٩٦٤ .
- ابن طباطبا (محمد بن هلي) : كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول
الإسلامية القاهرة ، ١٣١٧ هـ .
- الطاسبري (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، القاهرة ، ١٩٦٦
وطبعة دار القاموس الحديث ، بيروت .
- ابن طيفور (أبو طاهر أحمد) : كتاب بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ،
بغداد ، ١٩٦٨ .
- ابن عدي (أبو عمر أحمد) : العقد الفريد ، ج ٤ ، تحقيق الأستاذ أحمد أمين
القاهرة ، ١٩٤٤ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .
- ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس) : مختصر تاريخ الدول ، تحقيق الأبا
أطون صالحاني اليسوعي ، بيروت ، ١٩٥٨ .

- ابن هذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار
الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ
- ابن الفقيه الحمداوي (أبو بكر أحمد) : مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ذى غريه ،
لندن ، ١٨٨٥ .
- الفهرورز ابادي القاموس المحيط ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ
- ابن فتيبة (أبو محمد عبد الله) : الإمامة والسباسة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٠٩
الشعر والشعراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ابن فتيبة (ذكريا بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة
صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ابن الفظلي (جمال الدين أبو الحسن) : تاريخ الحكماء ، ليزج ، ١٩٠٢ م
(أبو العباس أحمد) : صبح الأهل في صناعة الإلشاء ، ج ٥
القاهرة ، ١٩١٣ .
- ابن القوطية (محمد القرطبي) : تاريخ افتتاح الأندلس ، مدريد ، ١٩٢٦
ابن قيم الجوزية (شمس الدين أحمد) : كتاب أخبار النساء ، بيروت ، ١٩٦٤
المكيني (أبو عمر محمد بن يوسف) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ،
طبعة وفن جست ، بيروت ، ١٩١٢ .
- للأوردى (أبو الحسن علي) : الأحكام السلطانية ، مصر ، ١٢٩٨ هـ
المسعودي (أبو الحسن علي) : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ج ٢
القاهرة ١٣٤٦ هـ . ج ٣ ، طبعة بيروت دار الأندلس .
- المسعودي : التنبية والإشراف ، بغداد ، ١٩٣٨ .

- المقدسى البشارى (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم في معرفة
الأقاليم ، لندن ، ١٩٠٦ .
- المقريزى (نقى الدين أحمد) : كتاب المواقظ والاهتبار بذكر
المخطوط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
- شذير العقود في ذكر النقود ، تحقيق الطباطبائي ، النجف
١٣٥٦ هـ .
- ابن منظور لسان العرب ، طبعة صادر ، بيروت ، ١٩٥٥-١٩٥٦ .
- بهرل أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، نشره لافونتي
القنطرة ، مدريد ، ١٨٦٧ .
- رسائل لإخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ج ١ القاهرة ،
١٩٢٨ .
- أخبار الدولة المباسية ، لتحقيق الدكتور عبد العزيز
الدوري ، بيروت ، ١٩٧١ .
- النعني (علي بن الحسين الهاشمي) : تاريخ الأخبار ، بيروت ١٩٧٤ .
- الزهار (القاضي أبو حنيفة بن محمد) : فتية لمقريطس في عهد المماليك
لدين الله ، تحقيق فرحات الدشرابي ، حويلات الجامعة
التونسية ، العدد الثاني ١٩٩٥ .
- التوبخقي (أبو محمد الحسن) : كتاب فرق الشيعة ، استنبول ١٩٣١ .
- التويري السكندري (محمد بن قاسم) : الإمام بما جرت به الأحكام المفصلة
في وقعة الاسكندرية ، نسخة معصرة من المخطوطة ،
نسخة الهند ، المحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة
الاسكندرية ، برقم ٧٢٨ م .
- يفوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، طبعة
بيروت ١٩٥٥ .
- اليعتوبي (أحمد بن جعفر) : تاريخ اليعقوبي ، ٣ أجزاء طبعة
النجف ، ١٣٥٨ هـ .

المراجع الحديثة

أرسلان (الأستاذ شكيب) : تاريخ غزوات العرب .

أظهر (القاضي مبارك بوري) : العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز هرت ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

أمين (الأستاذ أحمد) : منحنى الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

أمين (دكتور حسين) : سامراء في ظل الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨
براون (إدوارد) .

Browne (Edward) : A literary history of Persia, London,
1909.

بروفنسال (لين) :

Lévi-Provençal (E) : Histoire de l'Espagne Musulmane,
Leyden, 1950.

بروفنسال

Extraits des Historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.

بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد

عبد العزيز سالم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

بروكمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د. أمين فارس

ومنير الهلبيكي ، بيروت ، ١٩٤٩

الإستاني (دكتور فزاد أفرم) : أصل اسم بغداد ، مجلة المشرق ، عدد ٤ ،
يهود ، سنة ١٩٣٤ .

بكر :

Buckler, Harun al-Rashid and Charles the great, Massachu-
settes, 1931.

بوفنا :

Bouvat : les Barmécides; Paris, 1912.

ابن تاريت (الاستاذ محمد الطنجي) : دولة الرستميين ، مقال بصحيفة المبعوث
للمصري بملريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ .

حسن (الدكتور زكي محمد) : الصين وفتون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤١
حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الاسلام العباسي ، ج ٢ ، القاهرة
١٩٦٢

..... : النظم الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

الباحسين : البرامكة ، بغداد ، ١٩٦٢
الحفني (دكتور محمود أحمد) : أسبق الموصلي الموسيقى القديم ، سلسلة
أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، القاهرة .
حمدي (الاستاذ أحمد ممدوح) : معدات التجهيز بمتحف الفن الإسلامي ،
القاهرة ، ١٩٥٩ .

حوران (جورج فاضل) : العرب والملاحسة في المحيط الهندي ، ترجمة
الدكتور يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

حوي (بدر الدين الصيني) : العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ .

حيدري (صلاح) : المجتمع العراقي في العصر العباسي الاول ، رسالة ماجستير
بجامعة الاسكندرية .

خدوري (الاستاذ مجيد) : الصلات الدبلوماسية بين مروان الرشيد وشارلمان ،
بغداد ، ١٩٣٩ .

الحضري (الشيخ محمد) : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ، ١٩٥٩

الحدوري (دكتور عبد العزيز) : العصر العباسي الاول ، بغداد ، ١٩٤٥

ديفينز (كارلس) : شارلمان ، ترجمة الدكتور الباز العريني ، القاهرة ، ١٩٥٥
دوزي :

Dozy (R.) : Dictionnaire des vetements, Amsterdam, 1843
Supplement aux dictionnaires arabes, 2 vols., Beyrouth, 1968.

Dory; ديل (شارل) :

Diehl (ch.) & Marçais (g) : Histoire du Moyen Age, t. II, le
monde Oriental, Paris. 1936.

رستم (الاستاذ أسد) : الروم والعرب ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٥٦

الريس (دكتور محمد ضياء الدين) : النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ،
١٩٥٢ .

زكي (دكتور عبد الرحمن) : الفسطاط وضاحيتاها المسكر والقطائع ، القاهرة
١٩٦٦ .

زيتون (الاستاذ محمد محمود) : الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ،
القاهرة ، ١٩٦٤ .

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : البحرية الإسلامية في مصر والشام ،
بالاشتراك مع الدكتور مختار العبادي ، بيروت ١٩٧٢ .

الم :

- تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ .
- :..... القسطنط ، مقال بذاتة معارف الشعب ، عدد ٧٩ ، القاهرة ١٩٦٠ .
- :..... قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس ، ج ١ بيروت ، ١٩٧١ .
- :..... تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، عدد ١٩٦٩ .
- :..... تاريخ مدينة المدية الإسلامية ، بيروت ١٩٥٩ .
- :..... المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- :..... تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٧٩١ .
- الدرر النجوى (الأستاذ عبد الفتاح) : الدولة العباسية ، اضمحلالها وسقوطها ، القاهرة ١٩٤٠ .
- سلمان (الأستاذ ابراهيم) : نظام الوزارة في العصر العباسي ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٩ .

سورديل (دومينيك) :

Sourdel (Dominique) Le visirat abbasside, vol. t, I, Damas, 1959

سوافيه (جان) :

Sauvaget (g.): Relation de la Chine et de l'Inde, Paris 1948.

شتاينجاس :

Steingass : Parsan-English Dictionary, London 1947:

- للشكعة (دكتور مصطفي) : رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية ، بيروت ١٩٧٢
- :..... الادب في مركب الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- الشيبال (دكتور جمال الدين) : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨
- :..... تاريخ الدولة العباسية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- شينخاى (الأستاذ سمير) : أشهر للفننين عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ .
- المصباح (دكتور فوزاد عبد للمطى) : النوروز وأثره فى الادب العربى ، بيروت ١٩٧٢ .
- المباحث (الأستاذ عبد الحميد) : صور وبعوث من التاريخ الإسلامى ، ج ٢ الاسكندرية ، ١٩٤٨ .
- المبادئ (الدكتور أحمد مختار) : فى التاريخ العباسى والفاطمى .
..... : حركة الزوط فى العصر العباسى الأول ، من بعوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقى الجزيرة العربية ، الدوحة ٢١ - ٢٧ مارس ١٩٧٧ .
- هساس (الدكتور إحسان) : العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- عثمان (الدكتور فتحى) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والإتصال الحضارى ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- الهدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) : المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- : إفريقيا بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى ، المجلد الثالث ، أكتوبر ١٩٥٠ .
- العربى (الدكتور السيد الباز) : الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- العلى (الدكتور صالح أحمد) : التطلعات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- هناى (الأستاذ محمد عبد الله) : حصر الإسلامى وتاريخ الخطوط المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- فارس : تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين هار ، القاهرة ١٩٥٦ .

فاز بلييف :

Vasiliev : Byzance et les Arabes, t. I : la Dynastie d'Amorium, Bruxelles, 1935.

فرلسيس (الأستاذ بشير) : بغداد : تاريخها وآثارها ، بغداد ١٩٥٩ .

فلهاوزن (يوليوس) ، الدولة العرية ، ترجمة الدكتور الهش .

فهد (دكتور بدرى) : الطييسان ، مقال بمجلة كلية الشريعة ، بغداد ١٩٦٦

..... : العمارة ، بغداد ، ١٩٦٨ .

فوزى (دكتور فاروق عمر) : طيبة الدعوة العباسية ، بيروت .

..... : حركة المقنع الحراساني ، المجلة التاريخية ، عدد ١ ، السنة الأولى ،

بغداد ١٩٧٠

..... : سياسة المأمون تجاه العلويين ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، العدد

١٦ ، بغداد ١٩٧٣ .

..... : الرائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة بن عبد الله

الخارجي ، المجلة التاريخية ، العدد ٣ ، بغداد ١٩٧٤ .

قدورة (دكتورة زاهية) : الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، بيروت

١٩٧٢ .

كونل (إرلست) : الفز الإسلامي ، ترجمة الأستاذ أحمد موسى ، القاهرة، ١٩١١

لسترنج (هي) : بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة جيمس يوسف فرلسيس

بغداد ، ١٩٣٥ .

لويس (برنارد) : العرب في التاريخ ، معرب الدكتور نبيهه أميز فارس

والدكتور محمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ .

لويس (شارلتون) :

Lewis (Charlton) : A latin dictionary, Oxford, 1966.

ماجد (دكتور عبد النعم) : تاريخ الحضارة في العصور الإسلامية الوسطى ،
القاهرة ، ١٩٦٢ .

..... : العصر العباسي الأول ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٢ .

مؤلف (دكتور حسين) : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

محمود (دكتور حسن) : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٦٦
مراجعة (جورج) :

Marçais (g.) : La Berberie et l'Orient au Moyen âge, Paris
1946.

Marçais (g.) : L'architecture Musulmane d'Occident, Paris
1954,

محمد (دكتور محمد حلي) : الخلافة الموحدة في العصر العباسي ، القاهرة ، ١٩٥٩

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة	المقدمة
١٤ - ١	

الفصل الأول

٥٠ - ١٥

قيام الدولة العباسية

- ١ - الدعوة العباسية وتنظيماتها السرية ١٧
- ٢ - هوامل نجاح الدعوة العباسية ٣٠
- ٣ - انتصار الثورة العباسية وآثاره في التاريخ الاسلامى العام ٤٢

الفصل الثانى

التعريف بخلفاء العصر العباسى الاول وأهم أعمالهم

٩٦ - ٥١

- ١ - أبو العباس السفاح ٥١
- ٢ - أبو جعفر المنصور ٥٨
- ٣ - المهدي بن المنصور ٦٦
- ٤ - الهادي بن المهدي ٦٨
- ٥ - هارون الرشيد ٦٩
- ٦ - محمد الأمين ٧٣
- ٧ - هيد الله المأمون ٧٩
- ٨ - محمد المعتصم ٩٢
- ٩ - جعفر اوائق بالله ٩٥

الفصل الثالث

١٦٦ - ١٧

السياسة الداخلية

١ - سياسة خلفاء العصر العباسي الأول مع الأمويين

والعاليين والفرس

٩٧

(أ) مع الأمويين

١٠٥

- (ب) مع العلويين

١٢٤

(ج) مع الفرس

١٤١

٢ - الحركات الدينية الهدامة والمطامير

١٤٢

(أ) حركة بها فريد

١٤٣

(ب) ثورة - فباذ

١٤٤

(ج) ثورة المسلمية

١٤٥

(د) حركة الراولدية

١٤٨

= (هـ) الزنادة

١٥١

(و) المقتبة

١٥٥

(و) البابكية الحرمية

الفصل الرابع

٢٤٥ - ١٦٧

السياسة الخارجية للدولة العباسية

٢٦٩

١ - سياسة الدولة العباسية مع الأمويين في الأندلس

١٨١

٢ - سياسة الدولة العباسية مع دوليات المغرب الاسلامي

٢٠٨

٣ - سياسة العباسيين مع الترك والهنود والصينيين

ص

٢١٤

٢٤٠

٤ - سياسة الدولة المباشرة مع البريطانيين

٥ - سياسة الدولة المباشرة مع شارلمان

الفصل الخامس

الادارة ونظم الحكم

٢٩٢ - ٢٤٧

٢٤٧

٢٥١

٢٥٩

٢٦٢

٢٦٤

٢٧٠

٢٨١

١ - الخلافة

٢ - الوزارة

٣ - المحاسبة

٤ - الكتاب

٥ - الدواوين

٦ - نظام القضاء

٧ - القوى الدفاعية

الفصل السادس

٧٦ - ٢٩٣

التنظيمات الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية

٢٤٢ - ٢٩٥

٢٩٥

٣١٠

٣١٧

٣٢٧

٣٢٨

٣٣٢

أولا - ضرورة المجتمع المدني في العراق

١ - مجتمع الخاصة

٢ - مجتمع العامة

٣ - الالتزام وأدوات الزينة

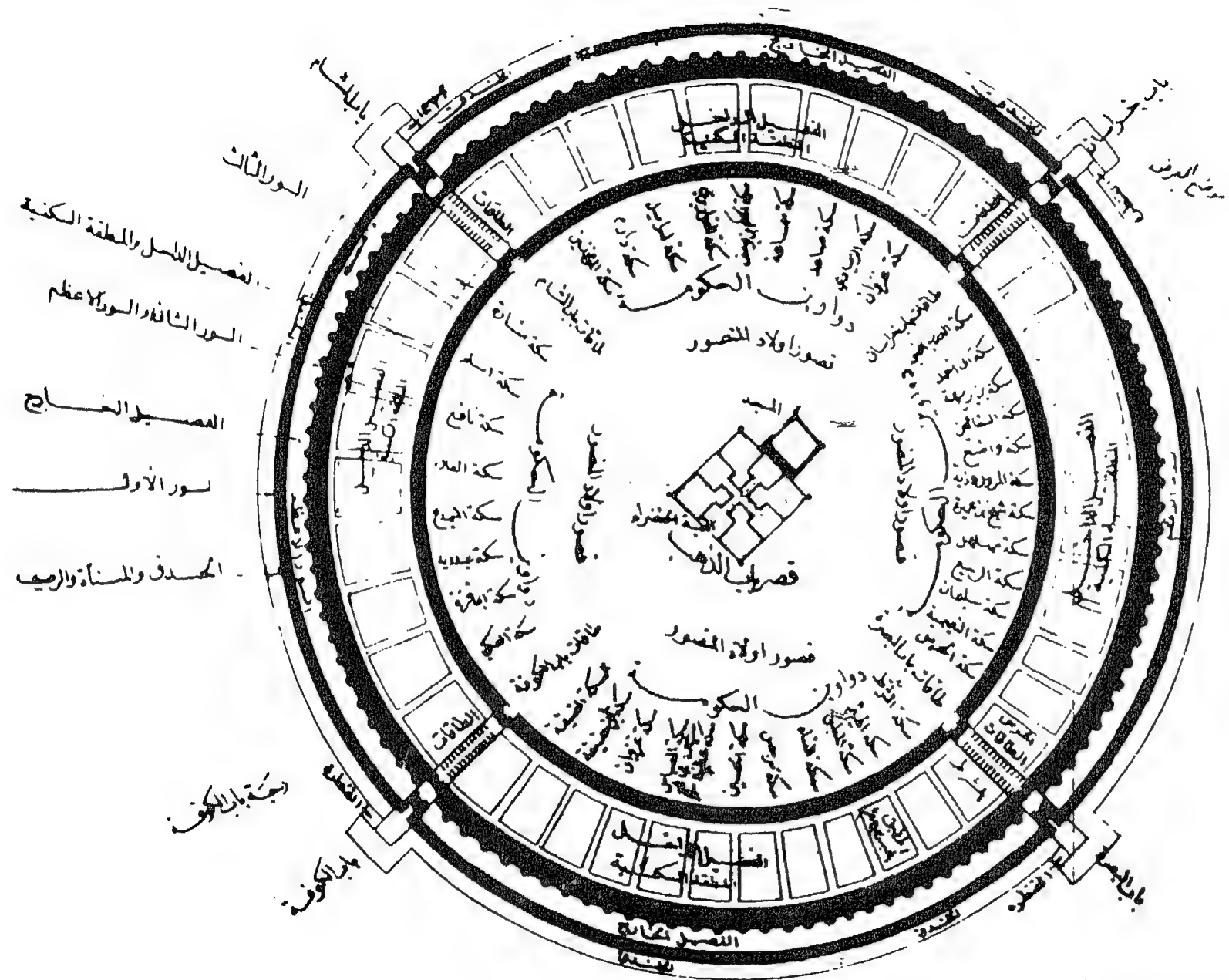
٤ - الأطمية والأشربة

٥ - الأعياد الإسلامية والمسيحية

٦ - الزواج والعلاق

صفحة	
٢٧٦ - ٢٤٣	لانيا : التنظيمات العمرانية
٢٤٢	١ - المراكز العمرانية الجديدة في العراق
٢٤٦	(أ) بغداد وأسمائها الأخرى
٢٤٩	(ب) الموقع وبداية التخطيط
٢٥٧	(ج) بناء الأسوار والقصر والجامع والدواوين
٢٦٣	(د) الدور والقصور الأخرى
٢٦٤	(هـ) دثور بغداد
٢٦٤	١ - مدينة سامراء
٢٧٢	٢ - المراكز العمرانية الجديدة في إفريقية ومصر
٢٧٢	١ - مدينة العباسية
٢٧٤	٢ - مدينة رقادة
٢٧٥	٣ - مدينة المعسكر

مقدار المدورة



المخطط (١)

بغداد المدورة

سي ابو جعفر المنصور مدته السلام بالجانب الغربي على مقربة
من موقع الكاظمية اليوم وسي قبالتها مدته الرضاة بالجانب الشرقي
اسفل من مشهد ابي حنيفة . ويلاحظ في هذا المخطط ان مدته منوره
لها اربعة مداخل رئيسه هي باب خراسان في الشمال الشرقي يعاقله
باب الكوفة في الجنوب الغربي وباب الشام في الشمال الغربي يعاقله
باب البصرة في الجنوب الشرقي وقد احتوت على عشرين بابا من الحديد
وقد جعلها المنصور بثلاثة اسوار واحاطها بخرق من ماء من نهر
الفرات . وجعل فيها اثني عشر رجة ميلقة واربع لباب عظيمة على
دهاليز السور الاعظم كما جعل في قصره قبة شاهقة ارتفاعها لمانون
لذاتها تعرف بالقبة الخضراء . وجعل مساحة قصره ٤٠ الف متر مربع
ومسجد الجامع عشرة الاف متر مربع وانظر فيها اربعة اسواق وجعل
ما بين السور الثاني والثالث اماكن لسكنى الناس تطلها من الطرق
والسكنى اربعون سكة . وجعل الحيز الاعظم بين بابي البصرة والكوفة
وساحة المطبق .

شكل (١)

(غفلا من كتاب تخطيط بغداد لؤلفه ناجي معروف)

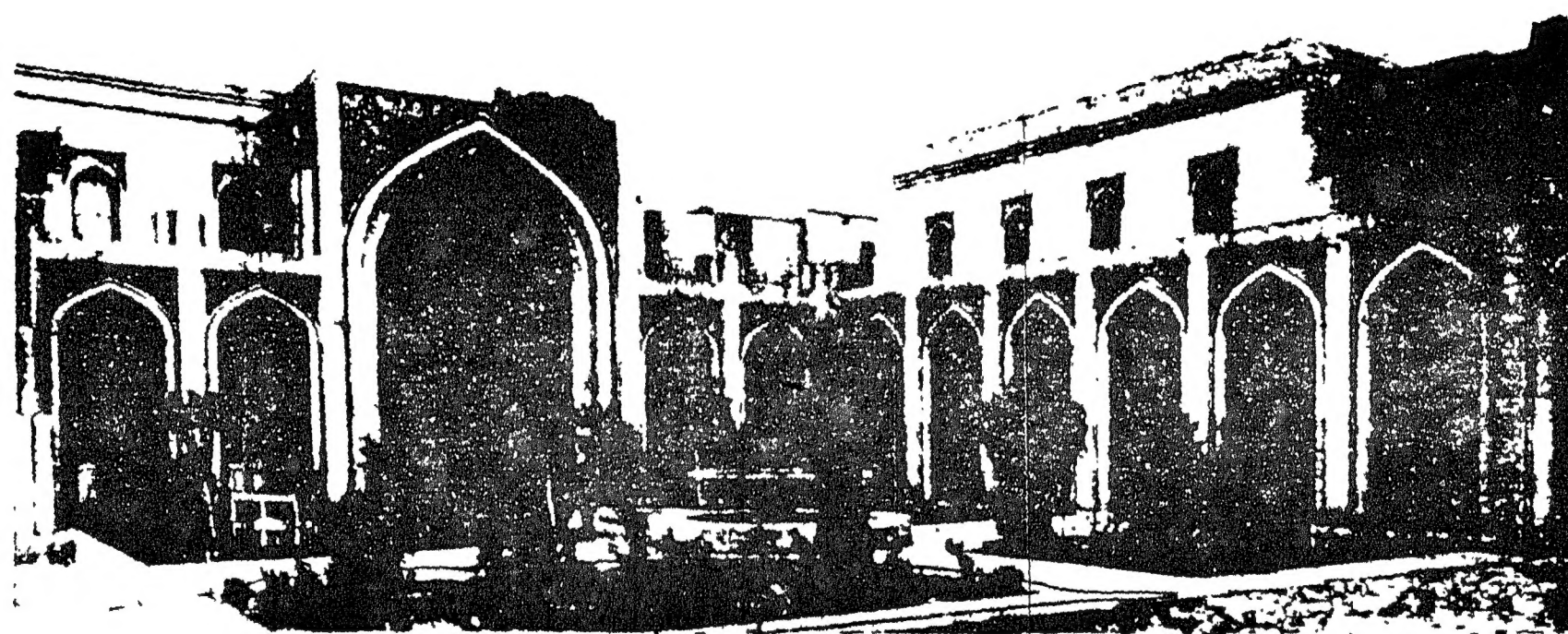
(القياس)





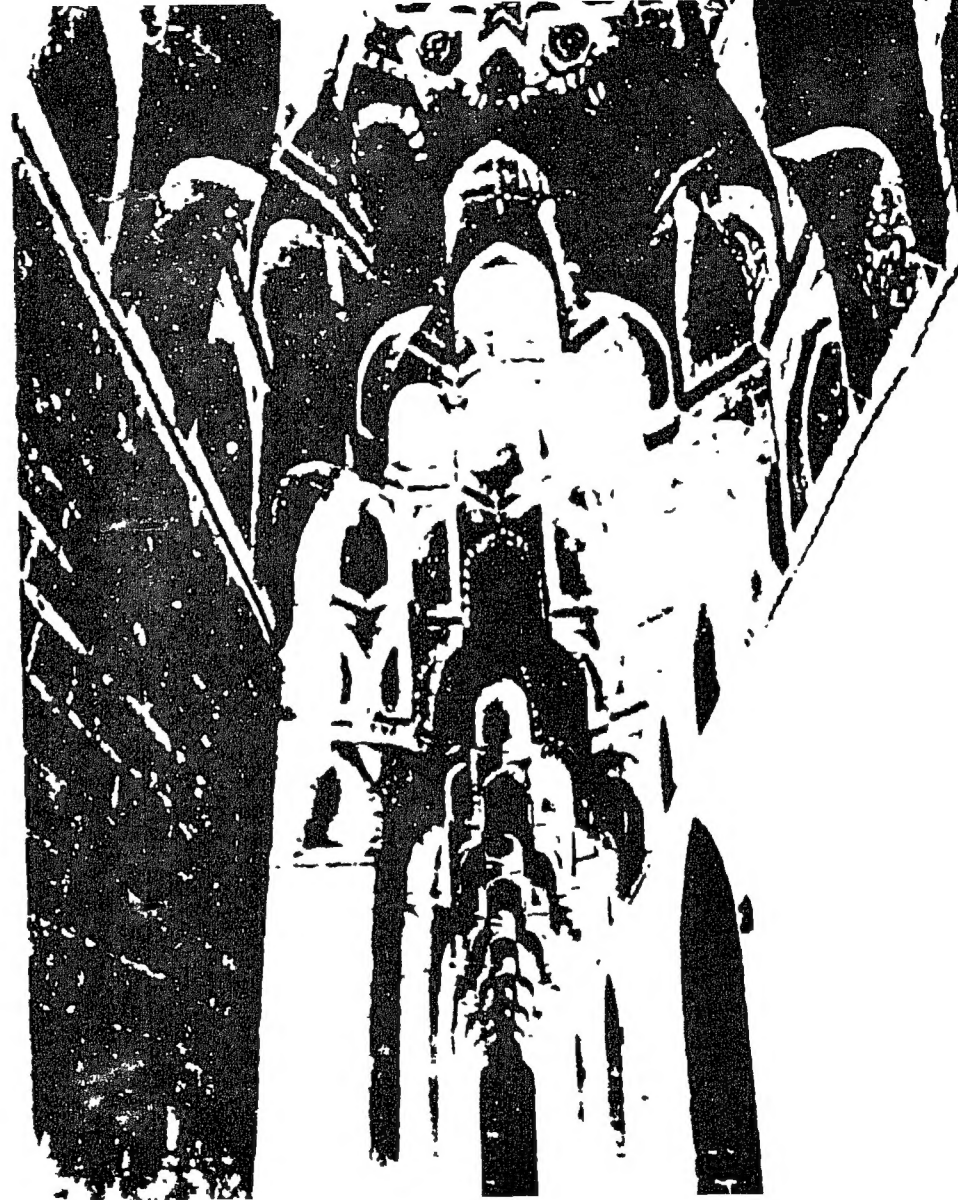
شكل (٢)

المسلة الطويلة بجامع سامرا
(نقل من كتاب معالم أثرية في العراق)



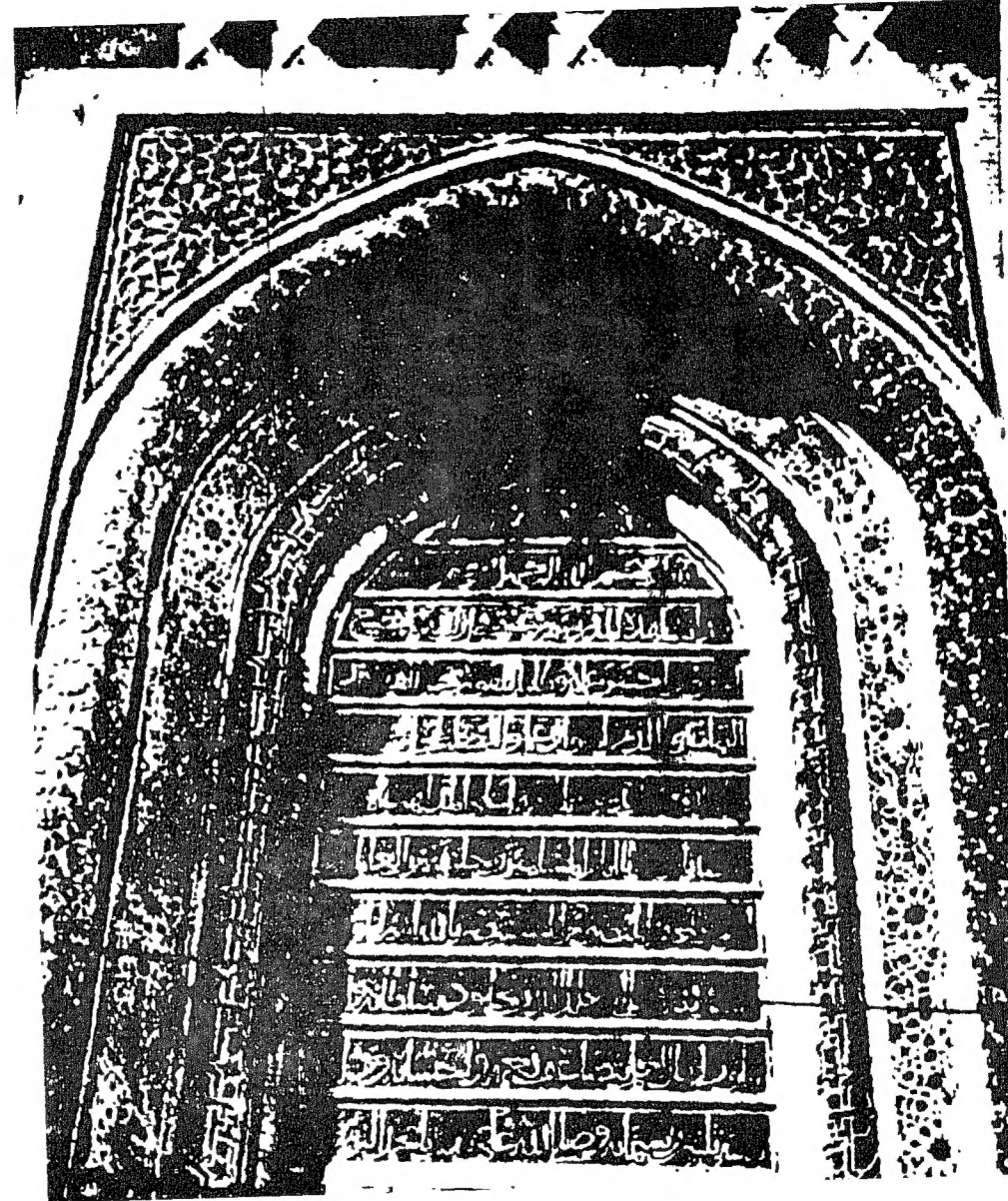
شكل (٣)

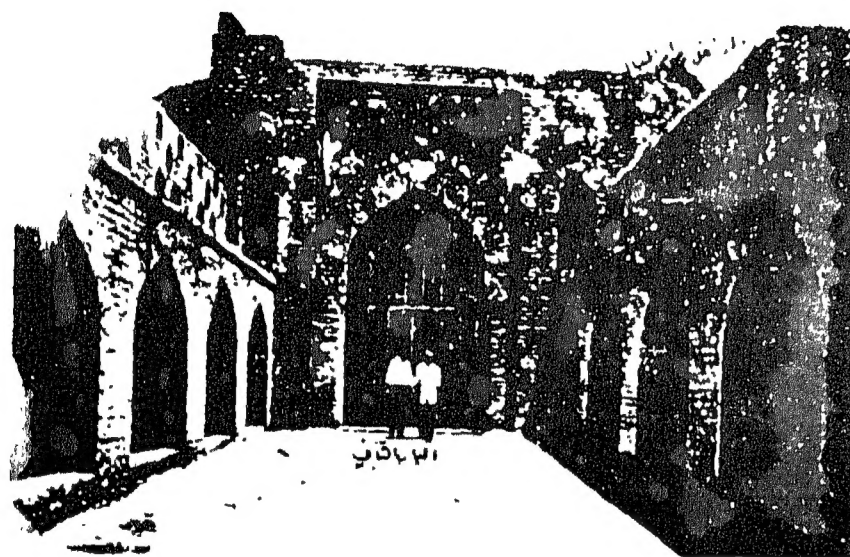
منظر داخل قصر الخليفة العباسي الناصر لدين الله
(مأمن، كتاب معالم أثرية في العراق)



شكل (٤)
معرضات لسقف العصر العباسي
(نقلا من كتاب معالم أثرية في العراق)

شكل (٥٠)
 اللوحة التأسيسية لدخول المدرسة المنصورية من بغداد
 (نقلا من كتاب معالم أثرية من العراق)





شكل (٦)

منظر للباب الوسطاني بأسوار بغداد

(تملا فن كتاب تخطيط بغداد المؤلفه ناجي معروف)